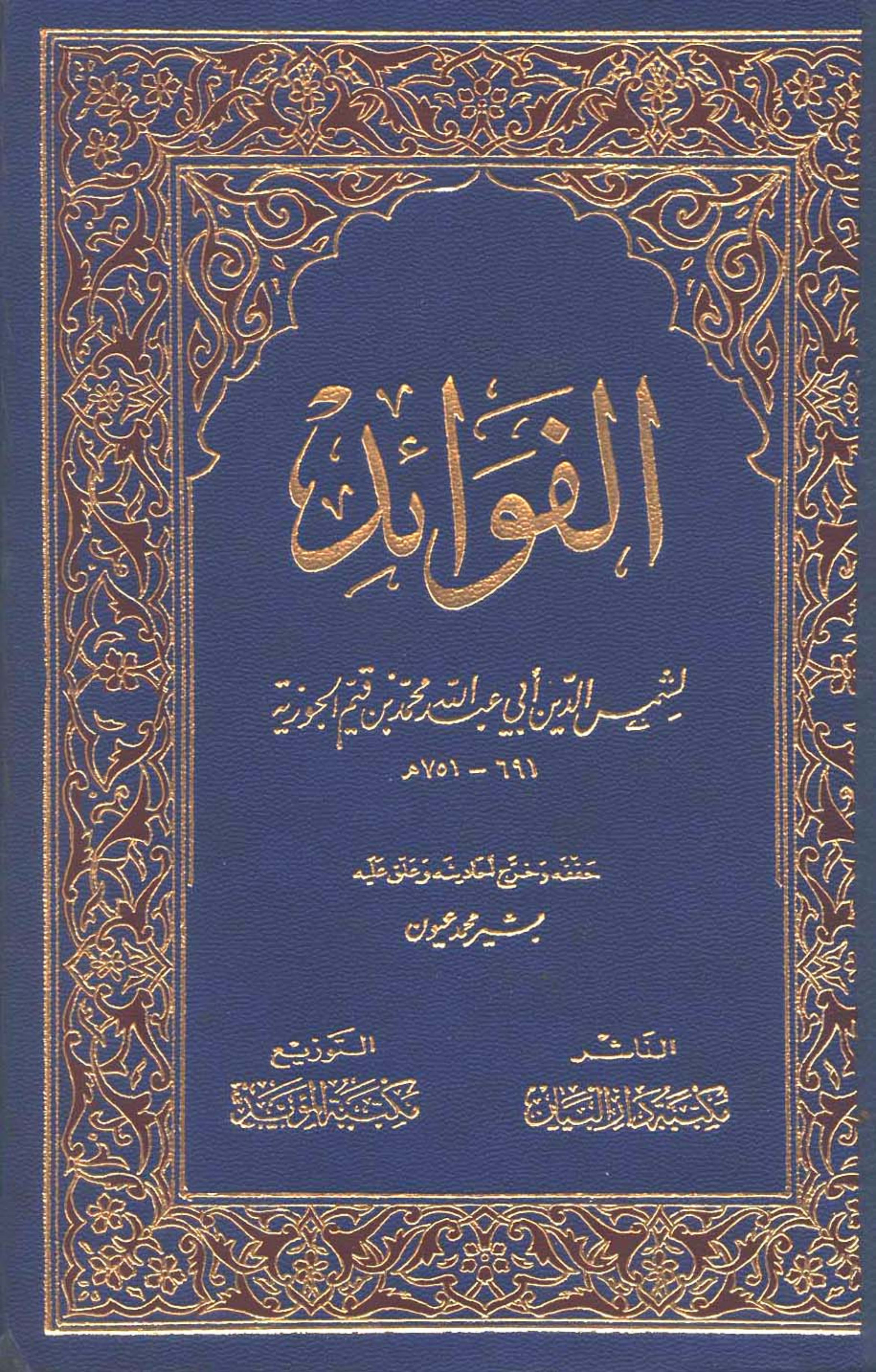

الفوائد
لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن قيم الجوزية
٦٩١ - ٧٥١هـ
حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه
بشير محمد عيون
الناشر
مكتبة دار البيان
التوزيع
مكتبة المؤيد



الفوائد

لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن قيم الجوزية

٦٩١ - ٧٥١هـ

حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه

بشير محمد عيون

الناشر

مكتبة دار البيان

ص.ب ٢٨٥٤ - دمشق

التوزيع

مكتبة المؤيد

ص.ب: ١٠ - الطائف



قال الشيخ الإمام ، محيـي السنة قامع البدعة ، أبو عبد الله الشهير بابن قيم الجوزية ، رحمه الله ورضي عنه :

* * *

١ ـ قاعدة جليلة :

إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه ، وألق سمعك ، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه(١) ، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق : ٣٧] .

وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفاً على مؤثر مقتضٍ ، ومحل قابل ، وشرطٍ لحصول الأثر ، وانتفاءِ المانع الذي يمنع منه ، تضمَّنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظٍ وأبينه ، وأدلّه على المراد .

فقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴾ إشارة إلى ما تقدم من أول السورة

---

(١) أي أقرأ القرآن وكأنه يتنزل عليك .

إلى ها هنا ، وهذا هو المؤثر .

وقوله : ﴿ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ فهذا هو المحل القابل ، والمراد به القلب الحيّ الذي يعقل عن الله ، كما قال تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ * لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا ﴾ [يس : ٦٩ - ٧٠] ، أي حيَّ القلب .

وقوله : ﴿ أَوْ أَلْقَىٰ السَّمْعَ ﴾ أي وجّه سمعه وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له ، وهذا شرط التأثر بالكلام .

وقوله : ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أي شاهد القلب حاضر غير غائب . قال ابن قتيبة[1] : « استَمَعَ كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم ، ليس بغافلٍ ولا ساهٍ »[2] وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير ، وهو سهو القلب ، وغيبته عن تعقل ما يقال له ، والنظر فيه وتأمله . فإذا حصل المؤثر وهو القرآن ، والمحل القابل وهو القلب الحيّ ، ووُجد الشرط وهو الإصغاء ، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب ، وانصرافه عنه إلى شيء آخر ، حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر .

فإن قيل : إذا كان التأثير إنما يتمُّ بمجموع هذه ، فما وجه دخول

---

(١) هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، أبو محمد ، من أئمة الأدب ، ولد ببغداد سنة ٢١٣هـ وسكن الكوفة ، ثم ولي قضاء « الدينور » مدة فنسب إليها ، وتوفي ببغداد سنة ٢٧٦هـ ، له تصانيف كثيرة ، منها : « عيون الأخبار » و « الشعر والشعراء » و « مشكل القرآن » و « تفسير غريب القرآن » و « المعاني الكبير » و « الأنواء » و « تأويل مختلف الحديث » و « غريب الحديث » و « دلائل النبوة » و « أدب الكاتب » وغيرها .

(٢) غريب القرآن ص ٤١٩ وفي اللسان : وقوله تعالى : ﴿ أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ أي أحضر سمعه، وقلبُهُ شاهد لذلك غير غائب عنه .

أداة « أو » في قوله : ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ ﴾ ، والموضع موضع واو الجمع لا موضع « أو » التي هي لأحد الشيئين ؟

قيل : هذا سؤال جيد ، والجواب عنه أن يقال : خرج الكلام بأو باعتبار حال المخاطب المدعوّ ، فإن من الناس مَن يكون حيّ القلب واعيه ، تام الفطرة ، فإذا فكَّر بقلبه ، وجال بفكره ، دلَّه قلبُه وعقلُه على صحة القرآن ، وأنه الحق ، وشهد قلبه بما أخبر به القرآن ، فكان ورود القرآن على قلبه نوراً على نور الفطرة ، وهذا وصف الذين قيل فيهم : ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ [سبأ : ٦]. وقال في حقهم: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ،مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ، ٱلْمِصْبَاحُ في زُجَاجَةٍ، ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ، يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍلا شَـرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ،يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَـمْ تَمْسَسْهُ نَـارٌ نُورٌعَلَى نُورٍ يَهْـدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [النور : ٣٥] . فهذا نور الفطرة على نور الوحي ، وهذا حال صاحب القلب الحيّ الواعي .

قال ابن القيم : وقد ذكرنا ما تضمَّنت هذه الآية من الأسرار والعِبَر في كتـاب « اجتمـاع الجيـوش الإسـلاميـة على غـزو المعـطلة والجهمية »[1] . فصاحب القلب يجمع بين قلبه وبين معاني القرآن ،

---

(١) قال المصنف رحمه الله تعالى في «اجتماع الجيوش على غزو المعطلة والجهمية » ص : ٧ ـ ٨ :

فصل: وقوله تعالى: ﴿ مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ﴾ هذا مثل لنوره في قلب عبده المؤمن ، كما قال أُبَـيٌّ بن كعب وغيره ، وقد اختلف في مفسَّر الضمير في نوره ، فقيل : هو النبي صلى الله عليه وسلم ، أي مثل نور محمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل : مفسَّره المؤمن ، أي مثل نور المؤمن ؛ والصحيح أنه يعود على الله سبحانه وتعالى . والمعنى مثل نور الله سبحانه وتعالى في قلب عبده وأعظم عباده نصيباً =

....

= من هذا النور رسوله صلى الله عليه وسلم ، فهذا مع ما تضمنه عود الضمير المذكور ـ وهو وجه الكلام ـ يتضمن التقادير الثلاثة ، وهو أتم لفظاً ومعنى . وهذا النور يضاف إلى الله تعالى إذ هو معطيه لعبده وواهبه إياه ، ويضاف إلى العبد إذ هو محله وقابله ، فيضاف إلى الفاعل والقابل ، ولهذا النور فاعل وقابل ومحل وحامل ومادة ، وقد تضمنت الآية ذكر هذه الأمور كلها على وجه التفصيل ، فالفاعلُ هو الله تعالى مفيض الأنوار ، الهادي لنوره من يشاء . والقابلُ العبد المؤمن ،والمحلُ قلبه،والحامل همته وعزيمته وإرادته ، والمادة قوله وعمله ، وهذا التشبيه العجيب الذي تضمنته الآية فيه من الأسرار والمعاني وإظهار تمام نعمته على عبده المؤمن بما أناله من نوره ما تقر به عيون أهله وتبتهج به قلوبهم . ا هـ .

قال المصنف رحمه الله تعالى في « الوابل الصيب » ص ١٠٤ ـ ١١٢ من طبعتنا ـ مكتبة دار البيان بدمشق :

وقد ضرب سبحانه وتعالى النور في قلب عبده مثلاً لا يعقله إلا العالمون ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمٰوَات والأرض ، مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ، المِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوْقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُورٌعلى نُور ، يَهْدِي اللّه لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَضْرِبُ اللّهُ الأمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور : ٣٥] .

قال أُبيُّ بنُ كعب : مَثَلُ نُورِهِ في قلب المسلم .

وهذا هو النور الذي أودعه في قلبه من معرفته ومحبته والإيمان به ، وذكره ، وهو نـوره الذي أنزله إليهم ، فأحياهم به ، وجعلهم يمشون به بين الناس ، وأصله في قلوبهم ، ثم تقوى مادته ، فتتزايد حتى يظهر على وجوههم وجوارحهم وأبدانهم ، بل وثيابهم ودورهم ، يبصره من هو من جنسهم ، وسائر الخلق له منكرون ، فإذا كان يوم القيامة برز ذلك النور ، وصار بأيمانهم يسعى بين أيديهم في ظلمة الجسر حتى يقطعوه ، وهم فيه على حسب قوته وضعفه في قلوبهم في الدنيا ، فمنهم من نوره كالشمس ، وآخر كالقمر ، وآخر كالنجم ، وآخر كالسراج ، وآخر يعطي نوراً على إبهام قدمه ، يضـيء مرة ، ويطفأ أخرى ، إذا كانت هذه حال نوره في الدنيا ، فأعطي على الجسر بمقدار ذلك ، بل هو نفس نوره ظهر له عياناً ، ولما لم يكن للمنافق نور ثابت في الدنيا ، بل كان نوره ظاهراً ، لا باطناً ، أعطي نوراً ظاهراً مآله إلى الظلمة والذهاب .

وضرب اللّه عز وجل لهذا النور ، ومحله ، وحامله ، ومادته مثلاً بالمشكاة ، وهي =

. . . .

= الكوَّة ، في الحائط ، فهي مثل الصدر ، وفي تلك المشكاة زجاجة من أصفى الزجاج ، وحتى شبِّهت بالكوكب الدُّريِّ في بياضه وصفائه ، وهي مثل القلب ، وشبهت بالزجاجة لأنها جمعت أوصافاً هي في قلب المؤمن ، وهي : الصفاء ، والرقة ، والصلابة ، فيرى الحق والهدى بصفائه ، وتحصل منه الرأفة والرحمة ، والشفقة برقَّته ، ويجاهد أعداء اللّه تعالى ، ويغلظ عليهم ، ويشتد في الحق ويصلب فيه بصلابته ، ولا تبطل صفة منه صفة أخرى ، ولا تعارضها ، بل تساعدها وتعاضدها ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح : ٢٩] وقال تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللّهِ لِنْتَ لَهُم ، وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّها النَّبِيُّ جَاهِد الكُفَّارَ والمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : ٧٣] .

وفي أثر : « القُلوبُ آنِيَةُ اللّهِ تعالى في أَرْضِهِ ، فَأَحَبُّهَا إليْهِ أَرَقُّهَا وأَصْلَبُهَا وَأَصْفَاهَا » .

وبإزاء هذا القلب قلبان مذمومان في طرفي نقيض . أحدهما : قلب حجري قاسٍ لا رحمة فيه ، ولا إحسان ولا برَّ ، ولا له صفاء يرى به الحق ، بل هو جبار جاهل ، لا عالم بالحق ، ولا راحم بالخلق . وبإزائه قلب ضعيف مائي ، لا قوة فيه ، ولا استمساك ، بل يقبل كل صورة ، وليس له قوة حفظ تلك الصور ، ولا قوة التأثير في غيره ، وكل ما خالطه أثر فيه ، من قويٍّ وضعيف ، وطيِّبٍ وخبيث . وفي الزجاجة مصباح ، وهو النور الذي في الفتيلة ، وهي حاملته ، ولذلك النور مادة ، وهو زيت قد عصر من زيتونة في أعدل الأماكن التي تصيبها الشمس أول النهار وآخره ، فزيتها من أصفى الزيت وأبعده من الكدر ، حتى إنه ليكاد من صفائه يضيء بلا نار ، فهذه مادة نور المصباح .

وكذلك مادة نور المصباح الذي في قلب المؤمن ، هو من شجرة الوحي التي هي أعظم الأشياء بركة ، وأبعدها من الانحراف ، بل هي أوسط الأمور وأعدلها وأفضلها ، لم تنحرف انحراف النصرانية ، ولا انحراف اليهودية ، بل هي وسط بين الطرفين المذمومين في كل شيء ، فهذه مادة مصباح الإيمان في قلب المؤمن .

ولما كان ذلك الزيت قد اشتد صفاؤه حتى كاد أن يضيء بنفسه ، ثم خالط النار ، فاشتدت بها إضاءته ، وقويت مادة ضوء النار به ، كان ذلك نوراً على نور .

وهكذا المؤمن قلبه مضيء يكاد يعرف الحق بفطرته وعقله ، ولكن لا مادة له من نفسه ، فجاءت مادة الوحي ، فباشرت قلبه ، وخالطت بشاشته ، فازداد نوراً بالوحي على نوره الذي فطره الله تعالى عليه ، فاجتمع له نور الوحي إلى نور الفطرة ، فصار نوراً على نور ، فيكاد ينطق بالحق وإن لم يسمع فيه أثراً ، ثم يسمع الأثر مطابقاً لما =

= شهدت به فطرته ، فيكون نوراً على نور ، فهذا شأن المؤمن يدرك الحق بفطرته مجملاً ، ثم يسمع الأثر جاء به مفصلاً ، فينشأ إيمانه عن شهادة الوحي والفطرة .

فليتأمل اللبيب هذه الآية العظيمة،ومطابقتها لهذه المعاني الشريفة،فذكر سبحانه وتعالى نوره في السموات والأرض ، ونوره في قلوب عباده المؤمنين ، النور المعقول المشهود بالبصائر والنور الذي استنارت به البصائر والقلوب ، والنور المحسوس المشهود بالأبصار الذي استنارت به أقطار العالم العلوي والسفلي ، فهما نوران عظيمان ، أحدهما أعظم من الآخر ، وكما أنه إذا فقد أحدهما من مكان أو موضع ، لم يعش فيه آدمي ولا غيره ، لأن الحيوان إنما يتكوَّن حيث النور ، ومواضع الظلمة التي لا يشرق عليها نور لا يعيش فيها حيوان ، ولا يتكون ألبتة ، فكذلك أمة فقد فيها نور الوحي والإيمان ، وقلب فقد منه هذا النور ميت ولا بد ، لا حياة له ألبتة ، كما لا حياة للحيوان في مكان لا نور فيه .

والله سبحانه وتعالى يقرن بين الحياة والنور ، كما في قوله عز وجل : ﴿ أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمشِي بِهِ في النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُه في الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ منهَا ﴾ [الأنعام : ١٢٢] وكذلك قوله عز وجل : ﴿ وكَذلك أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلاَ الإيمانُ ، ولكِنْ جَعَلْنَاهْ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءَ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى : ٥٢] .

وقد قيل : إن الضمير في ﴿ جَعَلْنَاهُ ﴾ عائد إلى الأمر ، وقيل : إلى الكتاب ، وقيل : إلى الإيمان ، والصواب : أنه عائد إلى الروح أي : جعلنا ذلك الروح الذي أوحيناه إليك نوراً ، فسماه روحاً لما يحصل به من الحياة ، وجعله نوراً لما يحصل به من الإشراق والإضاءة ، وهما متلازمان ، فحيث وجدت هذه الحياة بهذا الروح ، وجدت الاضاءة والاستنارة ، وحيث وجدت الاستنارة والإضاءة ، وجدت الحياة ، فمن لم يقبل قلبه هذا الروح ، فهو ميت مظلم ، كما أن من فارق بدنه روح الحياة فهو هالك مُضْمَحِلّ .

فلهذا يضرب سبحانه وتعالى المثلين : المائي والناري معاً ، لما يحصل بالماء من الحياة ، وبالنار من الإشراق والنور ، كما ضرب ذلك في أول سورة البقرة في قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ في ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ ﴾ [البقرة : ١٧] وقال : ﴿ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ ولم يقل : بنارهم . لأن النار فيها الإحراق [و] الإشراق ، فذهب بما فيه الإضاءة والاشراق ، وأبقى عليهم ما فيه الأذى والإحراق . =

. . . .

وكذلك حال المنافقين : ذهب نور إيمانهم بالنفاق ، وبقي في قلوبهم حرارة الكفر والشكوك والشبهات تغلي في قلوبهم ، وقلوبهم قد صليت بحرِّها وأذاها وسمومها ووهجها في الدنيا ، فأصلاها الله تعالى إياها يوم القيامة ناراً موقدة تطلّع على الأفئدة .

فهذا مثل من لم يصحبه نور الإيمان في الدنيا ، بل خرج منه وفارقه بعد أن استضاء به ، وهو حال المنافق عرف ثم أنكر ، وأقر ثم جحد ، فهو في ظلمات أصم أبكم أعمى ، كما قال تعالى في حق إخوانهم من الكفار : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وبُكْمٌ في الظُّلُماتِ ﴾ [الأنعام : ٣٩] وقال تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِما لا يَسْمَعُ إلا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ١٧١] ، وشبه تعالى حال المنافقين في خروجهم من النور بعد أن أضاء لهم بحال مستوقد النار وذهاب نورها عنه بعد أن أضاءت ما حوله ، لأن المنافقين بمخالطتهم المسلمين وصلاتهم معهم ، وصيامهم معهم ، وسماعهم القرآن ، ومشاهدتهم أعلام الإسلام ومناره ، قد شاهدوا الضوء ، ورأوا النور عياناً ، ولهذا قال تعالى في حقهم : ﴿ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [البقرة : ١٨] إليه ، لأنهم فارقوا الإسلام بعد أن تلبّسوا به واستناروا ، فهم لا يرجعون إليه .

وقال تعالى في حق الكفار : ﴿ فَهُمْ لَا يَعْقِلُون ﴾ لأنهم لم يعقلوا الإسلام ، ولا دَخَلُوا فيه ، ولا استناروا به ، بل لا يزالون في ظلمات الكفر ، صم بكم عمي ، فسبحان من جعل كلامه لأدواء الصدور شافياً ، وإلى الإيمان وحقائقه منادياً ، وإلى الحياة الأبدية والنعيم المقيم داعياً ، وإلى طريق الرشاد هادياً . لقد أسمع منادي الايمان لو صادف آذاناً واعية ، وشفت مواعظ القرآن لو وافقت قلوباً من غيها خالية ، ولكن عصفت على القلوب أهوية الشبهات والشهوات ، فأطفأت مصابيحها ، وتمكنت منها أيدي الغفلة والجهالة ، فأغلقت أبواب رشدها ، وأضاعت مفاتيحها ، وران عليها كسبها ، فلم ينفع فيها الكلام ، وسكرت بشهوات الغي وشبهات الباطل ، فلم تصغ بعده إلى الملام ، ووعظت بمواعظ أنكى فيها من الأسنَّة والسهام ، ولكن ماتت في بحر الجهل والغفلة ، وأسر الهوى والشهوة ، و « ما لجرح بميِّت إيلام » .

والمثل الثاني المائي قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُون أصابِعَهُمْ في آذانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ المَوْتِ واللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِين ﴾ [البقرة : ١٩] الصيب : المطر الذي يصوب من السماء ، أي : ينزل منها بسرعة ، وهو مثل القرآن الذي به حياة القلوب ، كالمطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان ، فأدرك المؤمنين ذلك منه ، وعلموا ما يحصل به من الحياة التي لا خطر لها ، فلم يمنعهم منها ما فيه من الرعد والبرق ، وهو الوعيد والتهديد ، والعقوبات =

= والمثلات التي حذر الله بها من خالف أمره ، وأخبر أنه منزِّلها بمن كذَّب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو ما فيه من الأوامر الشديدة ، كجهاد الأعداء ، والصبر على اللأواء ، أو الأوامر الشاقة على النفوس التي هي بخلاف إرادتها ، فهي كالظلمات والرعد والبرق ، ولكن من علم مواقع الغيث وما يحصل به من الحياة لم يستوحش لما معه من الظلمة والرعد والبرق ، بل يستأنس لذلك ، ويفرح به لما يرجو من الحياة والخصب .

وأما المنافق ، فإنه لعمى قلبه ، لم يجاوز بصره الظلمة ، ولم ير إلا برقاً يكاد يخطف البصر ، ورعداً عظيماً وظلمة ، فاستوحش من ذلك وخاف منه ، فوضع أصابعه في أذنيه لئلا يسمع صوت الرعد ، وهاله مشاهدة ذلك البرق ، وشدة لمعانه ، وعظم نوره ، فهو خائف أن يختطف معه بصره ، لأن بصره أضعف من أن يثبت معه ، فهو في ظلمة يسمع أصوات الرعد القاصف ، ويرى ذلك البرق الخاطف ، فإن أضاء له ما بين يديه مشى في ضوئه ، وإن فقد الضوء قام متحيراً لا يدري أين يذهب ، ولجهله لا يعلم أن ذلك من لوازم الصيِّب الذي به حياة الأرض والنبات ، وحياته هو في نفسه ، بل لا يدرك إلا رعداً ، وبرقاً ، وظلمةً ، ولا شعور له بما وراء ذلك ، فالوحشة لازمة له ، والرعب والفزع لا يفارقه .

وأما من أنس بالصيِّب ، وعلم ما يحصل به من الخيرات والحياة والنفع ، وأنه لا بد فيه من رعد وبرق وظلمة بسبب الغيم ، استأنس بذلك ولم يستوحش منه ، ولم يقطعه ذلك عن أخذه بنصيبه من الصيِّب .

فهذا مثل مطابق للصيِّب الذي نزل به جبريل صلى الله عليه وسلم من عند رب العالمين تبارك وتعالى على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحيى به القلوب والوجود أجمع ، اقتضت حكمته أن يقارنه من الغيم والرعد والبرق ما يقارن الصيِّب من الماء حكمةً بالغة وأسباباً منتظمة نظمها العزيز الحكيم .

فكان حظ المنافق من ذلك الصيِّب سحابه ورعوده وبروقه فقط ، لم يعلم ما وراءه ، فاستوحش بما أنس به المؤمنون ، وارتاب بما اطمأن به العالمون ، وشك فيما تيقَّنه المبصرون العارفون ، فبصره في المثل الناري كبصر الخفاش نحو الظهيرة ، وسمعه في المثل المائي كسمع من يموت من صوت الرعد . وقد ذُكر عن بعض الحيوانات أنها تموت من صوت الرعد .

وإذا صادفت هذه العقول والأسماع والأبصار شبهات شيطانية، وخيالات فاسدة ، وظنون كاذبة ، جالت فيها وصالت ، وقامت بها وقعدت ، واتسع فيها مجالُها ، وكثر

فيجدها كأنها قد كتبت فيه ، فهو يقرؤ ها عن ظهر قلب . ومن الناس مَن لا يكون تام الاستعداد ، واعي القلب ، كامل الحياة ، فيحتاج إلى شاهد يميز له بين الحق والباطل ، ولم تبلغ حياة قلبه ونوره وزكاء فطرته مبلغ صاحب القلب الحيّ الواعي ، فطريق حصول هدايته أن يفرغ سمعَه للكلام ، وقلبَه لتأمّله ، والتفكر فيه ، وتعقل معانيه ، فيعلم حينئذٍ أنه الحق .

فالأول : حالُ من رأى بعينه ما دُعي إليه وأخبر به .

والثاني : حال مَن علم صدق المخبر وتيقنه ، وقال : يكفيني خبره ، فهو في مقام الإيمان ، والأول في مقام الإحسان . هذا قد وصل إلى علم اليقين ، وترقّى قلبه منه إلى منزلة عين اليقين ، وذاك معه التصديق الجازم الذي خرج به من الكفر ودخل به في الإسلام .

= بها قيلها وقالها ، فملأت الأسماع من هذيانها ، والأرض من دويانها ، وما أكثر المستجيبين لهؤلاء ، والقابلين منهم ، والقائمين بدعوتهم ، والمحامين عن حوزتهم ، والمقاتلين تحت ألويتهم ، والمُكثِّرين لسوادهم عدداً ، وما أقلهم عند الله وأوليائه قدراً .

ولعموم البلية بهم ، وضرر القلوب بكلامهم ، هتك الله أستارهم في كتابه غاية الهتك ، وكشف أسرارهم غاية الكشف ، وبين علاماتهم وأعمالهم وأقوالهم ، ولم يزل عز وجل يقول : (ومنهم . . . ومنهم . . . ومنهم . . .) حتى انكشف أمرهم ، وبانت حقائقهم ، وظهرت أسرارهم .

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في أول سورة ﴿ البقرة ﴾ أوصاف المؤمنين والكفار والمنافقين ، فذكر في أوصاف المؤمنين ثلاث آيات ، وفي أوصاف الكفار آيتين ، وفي أوصاف هؤلاء بضع عشرة آية ، لعموم الابتلاء بهم وشدة المصيبة بمخالطتهم فانهم من الجلدة ، مظهرون الموافقة والمناصرة ، بخلاف الكافر الذي قد تأبد بالعداوة ، وأظهر السريرة ، ودعاك بما أظهره إلى مزايلته ومفارقته .

فعين اليقين نوعان : نوع في الدنيا ، ونوع في الآخرة . فالحاصل في الدنيا نسبته إلى القلب كنسبة الشاهد إلى العين . وما أخبرت به الرسل من الغيب يعاين في الآخرة بالأبصار ، وفي الدنيا بالبصائر ، فهو عين يقين في المرتبتين .

* * *

٢ ـ فصل

وقد جمعت هذه السورة[١] من أصول الإيمان ما يكفي ويشفي، ويُغني عن كلام أهل الكلام ، ومعقول أهل المعقول ؛ فإنها تضمنت تقرير المبدأ والمعاد والتوحيد والنبوة والإيمان بالملائكة ، وانقسام الناس إلى هالك شقي ، وفائز سعيد ، وأوصاف هؤلاء وهؤلاء . وتضمنت إثبات صفات الكمال لله ، وتنزيهه عما يضاد كماله من النقائص والعيوب . وذكر فيها القيامتين : الصغرى والكبرى . والعالَمين : الأكبر ، وهو عالم الآخرة . والأصغر ، وهو عالم الدنيا . وذكر فيها خلق الإنسان ووفاته وإعادته ، وحاله عند وفاته ويوم معاده ، وإحاطته سبحانه به من كل وجه ، حتى عِلْمُه بوساوس نفسه ، وإقامة الحفَظة عليه ، يحصون عليه كل لفظة يتكلم بها ، وأنه يوافيه يوم القيامة ، ومعه سائق يسوقه إليه ، وشاهد يشهد عليه ، فإذا أحضره السائق قال : ﴿ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ٢٣] . أي هذا الذي أمرتَ بإحضاره قد أحضرتُه ، فيقال عند إحضاره : ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [ق: ٢٤] . كما

---

(١) أي سورة ﴿ق﴾ .

يُحْضَر الجاني إلى حضرة السلطان ، فيقال : هذا فلان قد أحضرته ، فيقول : اذهبوا به إلى السجن وعاقبوه بما يستحقه .

وتأملْ كيف دلت السورة صريحاً على أن الله سبحانه يعيد هذا الجسد بعينه الذي أطاع وعصى ، فينعِّمه ويعذِّبه ، كما ينعّم الروح التي آمنت بعينها ، ويعذِّب التي كفرت بعينها ، لا أنه سبحانه يخلق روحاً أخرى غير هذه فينعمها ويعذبها كما قاله مَن لم يعرف المعاد الذي أخبرت به الرسل ، حيث زعم أن الله سبحانه يخلق بدناً غير هذا البدن من كل وجه ، عليه يقعُ النعيم والعذاب . والروح عندهم عرضٌ من أعراض البدن ، فيخلق روحاً غير هذه الروح ، وبدناً غير هذا البدن ، وهذا غير ما اتفقت عليه الرسل ودلَّ عليه القرآن والسنة وسائر كتب الله تعالى . وهذا في الحقيقة إنكار للمعاد وموافقة لقول مَن أنكره من المكذبين ، فإنهم لم ينكروا قدرة الله على خلق أجسام أُخَر غير هذه الأجسام يعذبها وينعمها ، كيف وهم يشهدون النوع الإنساني يخلق شيئاً بعد شيء ! فكل وقت يخلق الله سبحانه أجساماً وأرواحاً غير الأجسام التي فنيت ، فكيف يتعجبون من شيء يشاهدونه عياناً ؟ وإنما تعجَّبوا من عَوْدِهم بأعيانهم ، بعد أن مزَّقهم البلى وصاروا عظاماً ورفاتاً[1] ، فتعجبوا أن يكونوا هم بأعيانهم مبعوثين للجزاء ، ولهذا قالوا : ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ؟﴾ [الصافات : ١٦]، وقالوا : ﴿ذٰلِكَ رَجْعُ بَعِيدٌ ﴾ [ق : ٣] .

ولو كان الجزاء إنما هو لأجسام غير هذه ، لم يكن ذلك بعثاً ولا

---

(١) قال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قَالَ : مَنْ يُحْيِيْ العِظَامَ وَهِيَ رَمِيْمٌ ؟ * قُلْ : يُحْيِيْهَا الَّذِيْ أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيْمٌ ﴾ [يس : ٧٨ ـ ٧٩] .

رجعاً ، بل يكون ابتداءً ، ولم يكن لقوله : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ [ق: ٤] ، كبير معنى . فإنه سبحانه جعل هذا جواباً لسؤال مقدر ، وهو : أنه يميز تلك الأجزاء التي اختلطت بالأرض واستحالت إلى العناصر بحيث لا تتميز ، فأخبر سبحانه أنه قد علم ما تنقصه الأرض من لحومهم وعظامهم وأشعارهم ، وأنه كما هو عالم بتلك الأجزاء ، فهو قادر على تحصيلها وجمعها بعد تفرُّقها وتأليفها خلقاً جديداً ، وهو سبحانه يقرر المعاد بذكر كمال علمه ، وكمال قدرته ، وكمال حكمته ، فإنّ شُبَه المنكرين له كلها تعود إلى ثلاثة أنواع :

أحدها : اختلاط أجزائهم بأجزاء الأرض على وجه لا يتميز ولا يحصل معه تميُّز شخص عن شخص .

الثاني : أن القدرة لا تتعلق بذلك .

الثالث : أن ذلك أمر لا فائدة فيه ، أو أن الحكمة اقتضت دوام هذا النوع الإنساني شيئاً بعد شيء ، هكذا أبداً، كلما مات جيل خلفه جيل آخر . فأما أن يميت النوع الإنساني كله ثم يحييه بعد ذلك فلا حكمة في ذلك ، فجاءت براهين المعاد في القرآن مبنية على ثلاثة أصول :

أحدها : تقرير كمال علم الرب سبحانه كما قال في جواب مَن قال : ﴿ مَنْ يُحْيِي ٱلْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس : ٧٨ ـ ٧٩] . وقال : ﴿ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّاقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الحجر : ٨٥ ـ ٨٦] وقال : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ [ق : ٤] .

والثاني : تقرير كمال قدرته ، كقوله : ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ [يس : ٨١] . وقوله : ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ [القيامة : ٤] ، وقوله : ﴿ ذٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي ٱلْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الحج : ٦] .

ويجمع سبحانه بين الأمرين كما في قوله : ﴿ أَوَليسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخلُقَ مِثْلَهُمْ ، بَلَىٰ وَهُوَ الخلَّاقُ العَلِيمُ ﴾ [يس : ٨١] .

الثالث : كمال حكمته ، كقوله : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ [الدخان : ٥] . وقوله : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ﴾ [ص : ٢٧] . وقوله : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً ﴾ [القيامة : ٣٦] . وقوله : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ [المؤمنون : ١١٥ - ١١٦] . وقوله : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِيْنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية : ٢١] .

ولهذا كان الصواب أن المعاد معلوم بالعقل مع الشرع ، وأن كمال الرب تعالى وكمال أسمائه وصفاته تقتضيه وتوجبه ، وأنهُ منزَّهٌ عما يقوله منكروه كَمَا ينزَّه كماله عن سائر العيوب والنقائص .

ثم أخبر سبحانه أن المنكرين لذلك لما كذبوا بالحق اختلط عليهم

أمرهم ﴿ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴾ [ق : ٥] مختلط لا يحصلون منه على شيء .

ثم دعاهم إلى النظر في العالم العلوي وبنائه وارتفاعه واستوائه. وحسنه والتئامه ، ثم إلى العالم السفلي وهو الأرض ، وكيف بسطها وهيّأها بالبسط لما يراد منها وثبّتها بالجبال وأودع فيها المنافع وأنبت فيها من كل صنف حسن من أصناف النبات على اختلاف أشكاله وألوانه ومقاديره ومنافعه وصفاته ، وأن ذلك تبصرة إذا تأملها العبد المنيب وتبصَّر بها ، تذكرَّ ما دلَّت عليه مما أخبرت به الرسل من التوحيد والمعاد ، فالناظر فيها يتبصر أولاً ، ثم يتذكر ثانياً ، وأن هذا لا يحصل إلا لعبد منيب إلى الله بقلبه وجوارحه .

ثم دعاهم إلى التفكر في مادة أرزاقهم وأقواتهم وملابسهم ومراكبهم وجناتهم وهو الماء الذي أنزله من السماء وبارك فيه ، حتى أنبتت به جنات مختلفة الثمار والفواكه ، ما بين أبيض وأسود وأحمر وأصفر وحلو وحامض، وبيَّن ذلك مع اختلاف منافعها وتنوُّع أجناسها، وأنبت به الحبوب كلها على تنوُّعها واختلاف منافعها وصفاتها وأشكالها ومقاديرها . ثم أفرد النخل لما فيه من موضع العبرة والدلالة التي لا تخفى على المتأمل : ﴿ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [البقرة : ١٦٤] ثم قال : ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ [ق : ١١] ، أي مثل هذا الإخراج من الأرض الفواكه والثمار والأقوات والحبوب = خروجُكم من الأرض بعدما غُيِّبتم فيها .

وقد ذكرنا هذا القياس وأمثاله من المقاييس الواقعة في القرآن في

كتابنا « المعالم »[1] ، وبيَّنا بعض ما فيها من الأسرار والعِبَر .

ثم انتقل سبحانه إلى تقرير النبوة بأحسن تقرير ، وأوجز لفظ ، وأبعده عن كل شبهة وشك ، فأخبر أنه أرسل إلى قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون رُسلاً فكذبوهم ، فأهلكهم بأنواع الهلاك ، وصدق فيهم وعيده الذي أوعَدَتْهم به رُسُلهُ إن لم يؤمنوا ، وهذا تقرير لنبوتّهم ، ولنبوَّة مَن أخبر بذلك عنهم ، من غير أن يتعلم ذلك من معلم ولا قرأه في كتاب، بل أخبر به إخباراً مفصلاً مطابقاً لما عند أهل الكتاب . ولا يرد على هذا إلا سؤال البَهت والمكابرة على جحد الضروريات ، بأنه لم يكن شيء من ذلك ، أو أن حوادث الدهر ونكباته أصابتهم كما أصابت غيرهم ، وصاحب هذا السؤال يعلم من نفسه أنه باهت مباهت جاحد لما شهد به العيان ، وتناقلته القرون قرناً بعد قرن ، فإنكاره بمنزلة إنكار وجود المشهورين من الملوك والعلماء والبلاد النائية .

ثم عاد سبحانه إلى تقرير المعاد بقوله : ﴿ أَفَعَيينا بالخَلْقِ الأوّلِ ﴾ [ق : ١٥] ، يقال لكل مَن عجز عن شيء : عيـي به ، وعيـي فلان بهذا الأمر ، قال الشاعر[2] :

عَيُّـوا بِـأَمْـرِهِمْ ، كَمَـا عَيَّت بِبَيْضَتِها الحمـامَـهْ

---

(١) انظر « أعلام الموقعين عن رب العالمين » ١/ ١٥٠ ـ ١٩٠ . وهو من أجل كتب الإسلام .

(٢) هو : عَبِيْد بن الأبرص الأسدي : كان شاعراً جاهلياً ، قديماً من المعمرين وقتله النعمان بن المنذر يوم بؤسه في قصة مشهورة انظر تفصيل القصة في الخزانة : ٤/ ٥٠٩ ـ ٥١١ . وانظر ترجمته في الشعر والشعراء ١/ ٢٦٧ ، الأغاني ١٩/ ٨٤ ـ ٨٩ ، والأمالي ٣/ ١٩٥ ـ ١٩٦ ، والأعلام للزركلي ٤/ ١٨٨ . وغيرها .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ ﴾ [الأحقاف : ٣٣] . قال ابن عباس(١) : يريد أفعجزنا ، وكذلك قال مقاتل(٢) .

قلت : هذا تفسير بلازم اللفظة ، وحقيقتها أعم من ذلك ، فإن

---

(١) هو أبو العباس عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، الهاشمي ، القرشي ، ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وأمه لبابة بنت الحارث ، من بني عامر بن صعصعة ، أخت ميمونة بنت الحارث زوج النبي صلى الله عليه وسلم . ولد قبل الهجرة بثلاث سنين ، وتوفي النبي صلى الله عليه وسلم وله ثلاث عشرة سنة ، وقيل : خمس عشرة ، وقيل ؛ عشرة ، وذلك قبل خروج بني هاشم من الشعب ، وهم محصورون فيه ، وقيل : ولد قبل الهجرة بسنتين .

كان حبر هذه الأمة وعالمها ، دعا له النبي صلى الله عليه وسلم بالحكمة والفقه والتأويل ، رأى جبريل عليه السلام مرتين .

قال مسروق : كنت إذا رأيت عبد الله بن عباس قلت : أجمل الناس ، قال : فإذا تكلم ، قلت : أفصح الناس ، فإذا تحدث قلت : أعلم الناس .

وكان عمر بن الخطاب يقربه ويدنيه ويشاوره مع جلّة الصحابة ، وكف بصره في آخر عمره .

ومات بالطائف سنة ثمان وستين في أيام ابن الزبير ، وهو ابن سبعين ، أو إحدى وسبعين ، وصلى عليه محمد بن الحنفية .

وكان أبيض طويلاً ، مشرباً صفرة ، جسيماً ، وسيماً ، صبيح الوجه ، له وفرة ، يخضب بالحناء ، وكان قدِم مصر وغزا أفريقية مع عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، في سنة سبع وعشرين .

(٢) يعرف بهذا الاسم اثنان :

الأول وهو الأشهر : مقاتل بن سليمان البلخي أبو الحسن قال ابن المبارك وأحسن : ما أحسن تفسيره لو كان ثقة ، وعن أبي حنيفة قال : أتانا من المشرق رأيان خبيثان جهم المعطل ، ومقاتل المشبه ، مات سنة نيف وخمسين ومئة . قال البخاري : مقاتل لا شيء البتة ، وقال الذهبي : أجمعوا على تركه .

والثاني هو مقاتل بن حيان النبطي أبو بسطام الإمام المحدث العالم الثقة وكان من العلماء العاملين صاحب سنة وكان ذا منزلة عند قتيبة بن مسلم الأمير ، هرب مقاتل إلى كابل فأسلم به خلق . توفي في حدود الخمسين ومئة .

العرب تقول : أعياني أن أعرف كذا وعييت به إذا لم تهتدِ لوجهه ولم تقدر على معرفته وتحصيله فتقول : أعياني دواؤك إذا لم تهتدِ له ، ولم تقف عليه . ولازم هذا المعنى العجز عنه . والبيت الذي استشهدوا به شاهد لهذا المعنى ، فإن الحمامة لم تعجز عن بيضتها ، ولكن أعياها إذا أرادت أن تبيض أين ترمي بالبيضة ، فهي تدور وتجول حتى ترمي بها ، فإذا باضت أعياها أين تحفظها وتودعها حتى لا تُنال ، فهي تنقلها من مكان إلى مكان وتحار أين تجعل مقرّها ، كما هو حالُ من عي بأمره فلم يدرِ من أين يقصد له ومن أين يأتيه ، وليس المراد بالإعياء في هذه الآية التعب ، كما يظنه مَن لم يعرف تفسير القرآن ، بل هذا المعنى هو الذي نفاه سبحانه عن نفسه في آخر السورة بقوله : ﴿ ومَا مَسَّنا من لغُوب ﴾ [ق : ٣٨] .

ثم أخبر سبحانه أنهم ﴿ في لَبْسٍ من خَلَقٍ جَدِيدٍ ﴾ [ق : ١٥] ، أي أنهم التبس عليهم إعادة الخلق خلقاً جديداً ، ثم نبّههم على ما هو من أعظم آيات قدرته وشواهد ربوبيته وأدلة المعاد وهو خلق الإنسان ، فإنه من أعظم الأدلة على التوحيد والمعاد .

وأي دليل أوضح من تركيب هذه الصورة الآدمية بأعضائها وقواها وصفاتها وما فيها من اللحم والعظم والعروق والأعصاب والرباطات والمنافذ والآلات والعلوم والإرادات والصناعات ، كل ذلك من نطفة ماء .

فلو أنصف العبدُ ربَّه لاكتفى بفكره في نفسه ، واستدل بوجوده على جميع ما أخبرت به الرسل عن الله وأسمائه وصفاته[1] .

---

(١) كما قال تعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُوْنَ ﴾ [الذاريات : ٢١] .

ثم أخبر سبحانه عن إحاطة علمه به ، حتى عَلِمَ وساوس نفسه ، ثم أخبر عن قربه إليه بالعلم والإحاطة وأن ذلك أدنى إليه من العرق الذي هو داخل بدنه ، فهو أقرب إليه بالقدرة عليه والعلم به من ذلك العرق .

وقال شيخنا[1] : المراد بقول « نحن » أي ملائكتنا ، كما قال :

---

(١) هو الإمام المجدد شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس ، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني الدمشقي .

ولد بحران سنة ٦٦١هـ وشب في كنف والده بدمشق ، ونبغ في الحديث والتفسير والأصلين ، ومحاسنه كثيرة أكبر من أن يُنَبَّه على سيرته . وجمع إلى ذلك الشجاعة والنجدة ، إذ كانت له بطولة وبسالة ضد جيش التتار سنة ٧٠٢هـ ، كما كانت له مواقف ضد المبتدعين والظلمة والمفسدين .

وكانت دعوته قائمة على الأخذ بكتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والاعتصام بهما ، وفهمهما على النحو الذي فهمه السلف الصالح ، وطرح ما يخالفهما ، وتجديد ما درس من معالم الدين وتنقيته مما ابتدعه الناس من مناهج زائفة ، وتحذير المسلمين مما تسرب إلى دينهم من خرافات التصوف ، ومنطق اليونان ، وزهد الهند .

فامتحن لذلك وسجن مراراً بمصر والشام ، وكان لا يخاف في الله لومة لائم .

وكان رحمه الله تعالى عظيم الهمة ، بعيد الغاية ، سام المقصد ، أحاط بزمانه وأحوال أهله وعلوم عصره درساً وتأليفاً ، حتى بلغ مرتبة الاجتهاد وتسنم ذروة الإمامة في كل فن مارسه ، وبزّ فيه فطاحل العلماء ، وفاق فيه الأعيان والنظراء .

توفي رحمه الله تعالى في دمشق سنة ٧٢٨هـ مسجوناً في قلعتها ، وشيعته دمشق في جنازة حافلة لم تشهد مثلها قبلاً ولا بعداً ـ انظر وصفها في « البداية والنهاية » لابن كثير ـ ودفن في مقبرة الصوفية ، وقبره ما زال إلى الآن شمال دار التوليد الجديدة رحمه الله ونفع بعلومه آمين . ومن مؤلفاته :

« اقتضاء الصراط المستقيم » و« السياسة الشرعية » و« الحسبة في الاسلام » و« الكلم الطيب » و« جواب أهل العلم والايمان » و« تفسير سورة الإخلاص » و« تفسير سورة النور » و« المسودة في أصول الفقه » و« قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة » و« الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » « والفرقان بين الحق والباطل » و« العبودية » و« الواسطة بين الحق والخلق » و« شرح حديث أبي ذر » =

﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ [القيامة : ١٨] ، أي إذا قرأه عليك رسولنا جبريل . قال : ويدل عليه قوله : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ ﴾ [ق : ١٧] . فقيّد القرب المذكور بتلقي الملكين ، ولو كان المراد به قرب الذات لم يتقيد بوقت تلقي الملكين ، فلا حجة في الآية لحلولي ولا معطل .

ثم أخبر سبحانه أن على يمينه وشماله ملكين يكتبان أعماله وأقواله ، ونبّه بإحصاء الأقوال وكتابتها على كتابة الأعمال ، التي هي أقل وقوعاً ، وأعظم أثراً من الأقوال ، وهي غايات الأقوال ونهايتها .

ثم أخبر عن القيامة الصغرى ، وهي سكرة الموت ، وأنها تجيء بالحق ، وهو لقاؤه سبحانه ، والقدوم عليه ، وعرض الروح عليه ، والثواب والعقاب الذي تعجل لها قبل القيامة الكبرى .

ثم ذكر القيامة الكبرى بقوله ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴾ [ق : ٢٠] . ثم أخبر عن أحوال الخلق في هذا اليوم ، وأن كلَّ أحد يأتي الله سبحانه ذلك اليوم ومعه سائق يسوقه ، وشهيد يشهد عليه ، وهذا غير شهادة جوارحه ، وغير شهادة الأرض التي كان عليها له وعليه ، وغير شهادة رسوله والمؤمنين .

فإن الله سبحانه يستشهد على العباد الحفظة والأنبياء والأمكنة التي عملوا عليها الخير والشر ، والجلود التي عصوه بها ، ولا يحكم بينهم

= و « رفع الملام عن الأئمة الأعلام » وهذه قد قمنا بتحقيقها ونشرها بمكتبة دار البيان بدمشق ، وله أيضاً « الايمان » و « الفتاوى » و « رسالة العقود » و « القواعد النورانية » .

وقد تخرج عليه رحمه الله جلة من الأئمة كابن كثير والذهبي وابن رجب الحنبلي والمصنف رحمه الله تعالى وغيرهم كثير .

بمجرد علمه ، وهو أعدل العادلين وأحكم الحاكمين .

ولهذا أخبر نبيه أنه يحكم بين الناس بما سمعه من إقرارهم ، وشهادة البيّنة ، لا بمجرد علمه ، فكيف يسوغ لحاكم أن يحكم بمجرد علمه من غير بيّنة ولا إقرار ؟ ثم أخبر سبحانه أن الإنسان في غفلة من هذا الشأن الذي هو حقيق بأن لا يغفل عنه ، وأن لا يزال على ذكره وباله ، وقال : ﴿ في غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا ﴾ [ق : ٢٢] ولم يقل عنه ، كما قال : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ ﴾ [هود : ١١٠ وفصلت : ٤٥] ، ولم يقل في شك فيه ، وجاء هذا في المصدر وإن لم يجىء في الفعل فلا يقال غفلت منه ولا شككت منه كأن غفلته وشكه ابتداء منه ، فهو مبدأ غفلته وشكه ، وهذا أبلغ من أن يقال في غفلة عنه وشك فيه ، فإنه جعل ما ينبغي أن يكون مبدأ التذكرة واليقين ومنشأهما مبدأ للغفلة والشك . ثم أخبر أن غطاء الغفلة والذهول يكشف عنه ذلك اليوم كما يكشف غطاء النوم عن القلب فيستيقظ ، وعن العين فتنفتح . فنسبة كشف هذا الغطاء عن العبد عند المعاينة كنسبة كشف غطاء النوم عنه عند الانتباه .

ثم أخبر سبحانه أن قرينه ، وهو الذي قرن به في الدنيا من الملائكة ، يكتب عمله . وقوله يقول لما يحضره : هذا الذي كنتَ وكّلتني به في الدنيا قد أحضرته وأتيتك به ، هذا قول مجاهد[1] . وقال

---

(١) هو مجاهد بن جبر ، أبو الحجاج ، مولى عبد الله بن السائب المخزومي ، من الطبقة الثانية من تابعي مكة وفقهائها والمشهورين بها ، وأحد الأعلام المعروفين .
قال حماد : لقيت عطاءً وطاووساً ومجاهداً وشاممت القوم ، فوجدت أعلمهم مجاهداً .
قال مجاهد : كان ابن عمر يأخذ لي الركاب ويسوي عليَّ ثيابي إذا ركبت . =
سمع ابن عباس وابن عمر .

ابن قتيبة : المعنى : هذا ما كتبته عليه وأحصيته من قوله وعمله حاضر عندي . والتحقيق أن الآية تتضمن الأمرين ، أي هذا الشخص الذي وكلتُ به وهذا عمله الذي أحصيته عليه . فحينئذٍ يقال ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ﴾ [ق : ٢٤] ، وهذا إما أن يكون خطاباً للسائق والشهيد ، أو خطاباً للملك الموكل بعذابه وإن كان واحداً . وهو مذهب معروف من مذاهب العرب في خطابها ، أو تكون الألف منقلبة عن نون التوكيد الخفيفة ، ثم أجري الوصل مجرى الوقف .

ثم ذكر صفات هذا الملقى فذكر له ست صفات :

أحدها : أنه كَفّار لنعم الله وحقوقه ، كَفّار بدينه وتوحيده وأسمائه وصفاته ، كَفّار برُسله وملائكته ، كَفّار بكتبه ولقائه .

الثانية : أنه معاند للحق بدفعه جحداً وعناداً .

الثالثة : أنه مَنّاع للخير ، وهذا يعمّ منعه للخير الذي هو إحسان إلى نفسه من الطاعات والقرب إلى الله والخير الذي هو إحسان إلى الناس ، فليس فيه خير لنفسه ، ولا لبني جنسه كما هو حال أكثر الخلق .

الرابعة : أنه مع منعه للخير مُعتدٍ على الناس ، ظلوم غشوم مُعتدٍ عليهم بيده ولسانه .

الخامسة : أنه مُريب ، أي صاحب ريب وشك ، ومع هذا فهو آتٍ لكل ريبة ، يقال : فلان مريب ، إذا كان صاحب ريبة .

= روى عنه أيوب ، وابن عون ، ومنصور ، والحكم ، وابن أبي نجيع ، وأخذ عنه القراءة أبو عمرو بن العلاء .

مات سنة مائة ، وقيل : سنة اثنتين ومائة ، وقيل : سنة أربع ومائة .

السادسة : أنه مع ذلك مشرك بالله ، قد اتخذ مع الله إلهاً آخر يعبده ، ويحبه ، ويغضب له ، ويرضى له ، ويحلف باسمه ، وينذر له ، ويوالي فيه ، ويعادي فيه ، فيختصم هو وقرينه من الشياطين ، ويحيل الأمر عليه ، وأنه هو الذي أطغاه وأضلّه . فيقول قرينه : لم يكن لي قوة أن أُضلّه وأطغيه ، ولكن كان في ضلال بعيد ، اختاره لنفسه ، وآثره على الحق ، كما قال إبليس لأهل النار : ﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ [ابراهيم : ٢٢] .

وعلى هذا ، فالقرين هنا هو شيطانه ، يختصمان عند الله . وقالت طائفة : بل قرينه ها هنا هو الملك ، فيدّعي عليه أنه زاد عليه فيما كتبه عليه وطغى ، وأنه لم يفعل ذلك كله ، وأنه أعجله بالكتابة عن التوبة ، ولم يمهله حتى يتوب ، فيقول الملك : ما زدتُ في الكتابة على ما عمل ولا أعجلته عن التوبة ﴿ وَلَكِنْ كانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ [ق : ٢٧] . فيقول الرب تعالى : ﴿ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ ﴾ [ق : ٢٨] ، وقد أخبر سبحانه عن اختصام الكفار والشياطين بين يديه في سورتي ﴿الصافات﴾ و ﴿الأعراف﴾، وأخبر عن اختصام الناس بين يديه في سورة ﴿الزمر﴾، وأخبر عن اختصام أهل النار فيها في سورة ﴿الشعراء﴾وسورة ﴿ص﴾.

ثم أخبر سبحانه أنه لا يُبدَل القول لديه ، فقيل : المراد بذلك قوله : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [هود : ١١٩] . ووعده لأهل الإيمان بالجنة ، وأن هذا لا يُبدَّل ولا يُخْلَف . قال ابن عباس : يريد ما لوعدي خُلف لأهل طاعتي ولا أهل معصيتي . قال مجاهد : قد قضيت ما أنا قاض . وهذا أصح القولين في الآية .

وفيها قول آخر : إن المعنى ما يغير القول عندي بالكذب والتلبيس

كما يغير عند الملوك والحكام . فيكون المراد بالقول قول المختصمين ، وهو اختيار الفراء[1] وابن قتيبة . قال الفراء : المعنى ما يكذب عندي لعلمي بالغيب . وقال ابن قتيبة : أي ما يحرَّف القول عندي ولا يزاد فيه ولا ينقص منه . قال : لأنه قال القول عندي ، ولم يقل قولي ، وهذا كما يقال لا يكذب عندي . فعلى القول الأول يكون قوله ﴿ وما أنا بظلَّامٍ للعبيد ﴾ [ق : ٢٩] من تمام قوله ﴿ ما يُبَدَّلُ القولُ لديَّ ﴾ في المعنى ، أي ما قلته ووعدت به لا بد من فعله . ومع هذا فهو عدل لا ظلم فيه ولا جور . وعلى الثاني يكون قد وصف نفسه بأمرين .

أحدهما : أن كمال علمه واطلاعه يمنع من تبديل القول بين يديه وترويج الباطل عليه .

[والثاني : أن][2] كمال عدله وغناه يمنع من ظلمه لعبيده .

ثم خبر عن سعة جهنم وأنها كلما أُلقي فيها فوجٌ ﴿ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ [ق : ٣٠] . وأخطأ من قال إن ذلك للنفي ، أي ليس من مزيد . والحديث الصحيح يردُّ هذا التأويل[3]

---

(١) هو أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي ، مولى بني منقر من تميم أو لأسلم من أسد ، على خلاف في ذلك . ولد بالكوفة سنة ١٤٤هـ واستقر به المقام في بغداد ، وهو إمام الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب ، وعالماً بأيام العرب وأخبارها ، يميل إلى الإعتزال . وعهد إليه المأمون بتربية ابنيه .

وتوفي في طريقه في عودته من مكة سنة ٢٠٧هـ ، وقيل : سنة ٢٠٩هـ . من تصانيفه الكثيرة : « معاني القرآن » و« الفاخر في الأمثال » و« المذكر والمؤنث » و« مشكل اللغة » وغيرها .

(٢) الزيادة من طبعة السيد راتب عرموش .

(٣) رواه البخاري ٨/ ٤٥٨ في تفسير سورة ﴿ق﴾ ، باب قوله تعالى : ﴿ وتقول هل من مزيد ﴾ وفي التوحيد ، باب ما جاء في قول الله تعالى ﴿ إن رحمة الله قريب من =

ثم أخبر عن تقريب الجنة من المتقين ، وأن أهلها هم الذين اتصفوا بهذه الصفات الأربع :

إحداها : أن يكون أوَّاباً ، أي رجَّاعاً إلى اللَّه من معصيته إلى طاعته ، ومن الغفلة عنه إلى ذكره .

قال عبيد بن عمير[1] : الأوّاب الذي يتذكر ذنوبه ثم يستغفر منها .

= المحسنين ﴾ ومسلم رقم (٢٨٤٦) في الجنة باب النار يدخلها الجبارون ، والجنة يدخلها الضعفاء، والترمذي رقم (٢٥٦٤) في صفة الجنة باب ما جاء في احتجاج الجنة والنار من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ولفظه « تحاجت الجنة والنار ، فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة : فمالي لا يدخلني إلّا ضعفاء الناس وسقطهم ؟ - زاد في رواية وغرتهم - فقال الله عز وجل للجنة : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي ، وقال للنار : إنما أنت عذابي ، أعذب بك من أشاء من عبادي ولكل واحدة منهما ملؤها . فأما النار : فلا تمتلىء حتى يضع رجله - وفي رواية : حتى يضع الله تبارك وتعالى رجله ، فتقول: قط قط ، فهنالك تمتلىء ويزوي بعضها على بعض ولا يظلم الله من خلقه أحداً ، وأما الجنة فإن الله ينشىء لها خلقاً » ورواه البخاري أيضاً ٨/ ٤٥٦ في تفسير سورة ﴿ق﴾ باب قوله تعالى ﴿ وتقول هل من مزيد ﴾، وفي الأيمان والنذور باب الحلف بعزة الله وصفاته وكلماته، وفي التوحيد باب قوله تعالى ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ ، ومسلم رقم (٢٨٤٨) في الجنة باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ، والترمذي رقم (٣٢٦٨) في التفسير ، باب ومن سورة ﴿ ق ﴾ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

(١) عبيد بن عُمير بن قتادة الليثي الجُندعي المكي ، الواعظ المفسِّر ، ولد في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحدث عن أبيه ، وعن عمر بن الخطاب ، وعلي ، وأبي ذر وعائشة ، وأبي موسى الأشعري ، وابن عباس - رضي الله عنهم أجمعين - وطائفة ، وحدث عنه ابنه عبد الله بن عبيد ، وعطاء بن أبي رباح ، وابن أبي مليكة ، وعمرو بن دينار ، وعبد العزيز بن رفيع ، وأبو الزبير وجماعة .

وكان من ثقات التابعين وأئمتهم بمكة ، وكان يذكر الناس ، فيحضر ابن عمر رضي الله عنهما مجلسه .

روى حماد بن سلمة ، عن ثابت ، قال : أول من قصّ عبيد بن عمير على عهد عمر ابن الخطاب. توفي قبل ابن عمر بأيام يسيرة ، وقيل توفي في سنة أربع وسبعين .

وقال سعيد بن المسيب[1] : هو الذي يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب .

الثانية : قال ابن عباس : أن [يكون] حفيظاً لِما ائتمنه اللّه عليه وافترضه . وقال قتادة[2] : حافظ لما استودعه اللّه من حقه ونعمته .

ولما كانت النفس لها قوتان : قوة الطلب وقوة الإمساك ، كان الأوّاب مستعملاً لقوّة الطلب في رجوعه إلى اللّه ومرضاته وطاعته . والحفيظ مستعملاً لقوة الحفظ في الإمساك عن معاصيه ونواهيه .

---

(١) هو أبو محمد ، سعيد بن المسيب بن حزن ابن أبي وهب عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم القرشي المخزومي المدني .
ولد لسنتين مضتا من خلافة عمر بن الخطاب ، كان سيد التابعين من الطراز الأول ، جمع بين الفقه والحديث والزهد والعبادة والورع ، وهو المشار إليه ، المنصوص عليه .
وكان أعلم الناس بحديث أبي هريرة وبقضايا عمر ، لقي جماعة كثيرة من الصحابة ، وروى عنهم .
قال مكحول : طفت الأرض كلها في طلب العلم فما لقيت أعلم من ابن المسيب . قال ابن المسيب : حججت أربعين حجة .
روى عن علي وعثمان وسعد وابن عمر وأبي هريرة وغيرهم . روى عنه الزهري فأكثر ، وكثير من التابعين وغيرهم .
مات سنة ثلاث وتسعين ، وقيل : أربع ، وقيل ، خمس .

(٢) هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز بن عمرو بن ربيعة بن عمرو بن الحارث بن سدوس بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل السدوسي ، البصري ، الأعمى ، وقيل : في نسبه غير ذلك ، يعد في الطبقة الثالثة من تابعي البصريين .
روى عن أنس بن مالك كثيراً ، وسمع أبا الطفيل ، وسعيد بن المسيب ، والحسن البصري .
روى عنه هشام وشعبة وسعيد بن أبي عروبة ومعمر .
ولد سنة ستين ، ومات سنة سبع عشرة ومائة .

فالحفيظ : الممسك نفسه عما حُرّم عليه ، والأوّاب : المقبل على اللَّه بطاعته .

الثالثة : قوله : ﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ﴾ [ق : ٣٣] يتضمن الإقرار بوجوده وربوبيته وقدرته وعلمه وإطلاعه على تفاصيل أحوال العبد . ويتضمن الإقرار بكتبه ورسله وأمره ونهيه . ويتضمن الإقرار بوعده ووعيده ولقائه ، فلا تصح خشية الرحمن بالغيب إلا بعد هذا كله .

الرابعة : قوله: ﴿ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ [ق : ٣٣] . قال ابن عباس : راجع عن معاصي اللَّه ، مقبل على طاعة اللَّه . وحقيقة الإنابة عكوف القلب على طاعة اللَّه ومحبته والإقبال عليه . ثم ذكر سبحانه جزاءَ مَن قامت به هذه الأوصاف بقوله: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ * لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق : ٣٤ - ٣٥] .

ثم خوفهم بأن يصيبهم من الهلاك ما أصاب مَنْ قبلَهم وأنهم كانوا أشد منهم بطشاً ولم يدفع عنهم الهلاك شدة بطشهم ، وأنهم عند الهلاك تقلّبوا وطافوا في البلاد ، وهل يجدون محيصاً ومنجى من عذاب اللَّه ؟ قال قتادة: حاص أعداء اللَّه فوجدوا أمر اللَّه لهم مُدرِكاً. وقال الزجاج[1]: طوَّفوا وفتشوا فلم يروا محيصاً من الموت . وحقيقة ذلك أنهم طلبوا المهرب من الموت فلم يجدوه .

ثم أخبر سبحانه أن في هذا الذي ذكر ﴿ ذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق : ٣٧] .

---

(١) هو إبراهيم بن السري بن سهل ، أبو إسحاق الزجاج عالم بالنحو واللغة ، ولد سنة ٢٤١هـ وتوفي سنة ٣١١هـ ببغداد . من تصانيفه : « معاني القرآن » و « الاشتقاق » و « إعراب القرآن » وغيرها .

ثم أخبر أنه خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ولم يمسّه من تعب ولا إعياء ، تكذيب لأعدائه من اليهود ، حيث قالوا : إنه استراح في اليوم السابع . ثم أمر نبيَّه بالتأسِّي به سبحانه في الصبر على ما يقول أعداؤه فيه ، كما أنه سبحانه صبر على قول اليهود إنه استراح . « وَلَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذىً يَسْمَعُهُ مِنْهُ »(١) . ثم أمره بما يستعين به على الصبر وهو التسبيح بحمد ربه قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وبالليل وأدبار السجود . فقيل : هو الوتر ، وقيل : الركعتان بعد المغرب . والأول قول ابن عباس ، والثاني قول عمر(٢)

---

(١) روى البخاري ١٠/٤٢٦ في الأدب : باب الصبر على الأذى ، وفي التوحيد : باب قول الله تعالى : ﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ ، ومسلم رقم (٢٨٠٤) في صفات المنافقين : باب لا أحد أصبر على أذى من الله عز وجل ، وأحمد في « المسند » ٤/ ٣٩٥ و٤٠١ و٤٠٥ ، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، ولفظه : « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله عز وجل ، إنه ليشرك به ، ويجعل له الولد ، ثم يعافيهم ويرزقهم » .

(٢) هو أمير المؤمنين أبو حفص ، عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب العدوي ، القرشي . وأمه : حنتمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، ويعرف هاشم بذي الرمحين ، قال الأمير بن ماكولا : ومن قال فيه : بنت هشام فقد أخطأ .

أسلم سنة ست من النبوة ، وقيل : سنة خمس ، بعد أربعين رجلاً وإحدى عشرة امرأة ، ويقال : به تمت الأربعين . وظهر الإسلام يوم إسلامه ، وسمي الفاروق لذلك .

وشهد المشاهد كلها مع النبي صلى الله عليه وسلم .

وهو أول خليفة دعي بأمير المؤمنين ، وأول من كتب التاريخ للمسلمين ، وأول من جمع القرآن في الصحف ، وأول من جمع الناس على قيام رمضان .

كان أبيض ، تعلوه حمرة ، وقيل : آدم طوالاً ، أصلع ، شديد حمرة العينين ، في عارضيه خفة ، أعسر أيسر ، يخضب بالحناء والكتم .

=

وعلي[1] وأبي هريرة[2] والحسن بن علي[3] وإحدى الروايتين عن ابن عباس . وعن ابن عباس رواية ثالثة أنه التسبيح باللسان أدبار الصلوات المكتوبات .

ثم ختم السورة بذكر المعاد ، ونداء المنادي برجوع الأرواح إلى أجسادها للحشر . وأخبر أن هذا النداء من مكان قريب يسمعه كل أحد

= قام بالأمر بعد موت أبي بكر بعهده إليه ونصّه عليه .

وطعنه أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة مصدر الحاج بالمدينة ، يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين .

ودفن يوم الأحد غرة المحرم ، سنة أربع وعشرين ، وله من العمر ثلاث وستون سنة ، وقيل : تسع وخمسون ، وقيل : ثمان وخمسون ، وقيل : ست وخمسون ، وقيل : إحدى وستون .

وكانت خلافته عشر سنين ونصف رضي الله عنه . وصلى عليه صهيب ، ودفن إلى جانب أبي بكر .

يلقى آباء النبي صلى الله عليه وسلم في كعب بن لؤي .

روى عنه أبو بكر وباقي العشرة ، وابنه عبدالله ، وأبو هريرة ، وابن عباس ، وابن الزبير ، وأنس بن مالك ، وعلقمة بن وقاص الليثي ، ومالك بن أوس بن الحدثان ، وغيرهم من الصحابة والتابعين .

(١) انظر ترجمته ص (١٤٠) .

(٢) انظر ترجمته ص (٢٩٨) .

(٣) هو أبو محمد ، الحسن بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي ، سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم وريحانته وسيد شباب أهل الجنة .

ولد في النصف من شهر رمضان سنة ثلاثة من الهجرة ، وهو أصح ما قيل في ولادته . ومات سنة خمسين ، وقيل : سنة تسع وأربعين ، وقيل : ثمان وخمسين ، وقيل : سنة أربع وأربعين . ودفن بالبقيع .

روى عنه ابنه الحسن بن الحسن ، وأبو هريرة ، وعائشة وجماعة كثيرة . ولما قتل أبوه علي بن أبي طالب بالكوفة بايعه الناس على الموت أكثر من أربعين ألفاً ، وأسلم الأمر إلى معاوية بن أبي سفيان في النصف من جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين .

﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ﴾ [ق : ٤٢] بالبعث ولقاء الله، ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾ كما تشقق عن النبات ، فيخرجون ﴿سِرَاعاً﴾ من غير مهلة ولا بطء ، ﴿ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ [ق: ٤٤].

ثم أخبر سبحانه أنه عالم بما يقول أعداؤه ، وذلك يتضمن مجازاته لهم بقولهم إذ لم يخفَ عليه ، وهو سبحانه يذكر علمه وقدرته لتحقيق الجزاء .

ثم أخبره أنه[1] ليس بمسلّط عليهم ولا قهّار ولم يُبعث ليجبرهم على الإسلام ويُكرههم عليه ، وأمره أن يذكّر بكلامه مَنْ يخاف وعيده، فهو[2] الذي ينتفع بالتذكير . وأما مَنْ لا يؤمن بلقائه ولا يخاف وعيده ولا يرجو ثوابه ، فلا ينتفع بالتذكير

* * *

٣ - فـائـدة

قول النبي صلى الله عليه وسلم لعمر : « وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّ اللَّهَ اطَّلَعَ عَلَىٰ أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ : اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ »[3] أشكل على

---

(١) : أي النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) أي الذي يخاف الوعيد .

(٣) روى البخاري ٧/ ٤٠٠ في المغازي : باب فتح مكة ، في أبواب وكتب أخرى ، ومسلم رقم (٢٤٩٤) في فضائل الصحابة : باب من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم وقصة حاطب بن أبي بلتعة ، وأبو داود رقم (٢٦٥٠) و (٢٦٥١) في الجهاد : باب في حكم الجاسوس إذا كان مسلماً ، والترمذي رقم (٣٣٠٢) في تفسير القرآن : باب ومن سورة الممتحنة ، وأحمد في « المسند » ١/ ٨٠ من حديث علي بن أبي طالب

كثير من الناس معناه ، فإن ظاهره إباحة كل الأعمال لهم وتخييرهم فيما شاؤوا منها ، وذلك ممتنع . فقالت طائفة منهم ابن الجوزي[1] : « ليس المراد من قوله : « اعْمَلُوا » الاستقبال ، وإنما هو للماضي ، وتقديره : أي عمل كان لكم فقد غفرته . قال : ويدلُّ على ذلك شيئان :

أحدهما : أنه لو كان للمستقبل كان جوابه قوله : فسأغفر لكم .

والثاني : أنه كان يكون إطلاقاً في الذنوب ولا وجه لذلك.

رضي الله عنه ، ولفظه : « بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنا والزبير والمقداد ، فقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة معها كتاب ، فخذوه منها ، فانطلقنا تتعادى بنا خيلنا ، حتى أتينا الروضة ، فإذا نحن بالظعينة ، فقلنا : أخرجي الكتاب ، قالت ما معي من كتاب ، فقلنا : لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب ، فأخرجته من عِقاصها ، قال : فأتينا به النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا فيه : من حاطب بن أبي بلتعة الى ناس من المشركين من أهل مكة ، يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا حاطب ما هذا ؟ ! » فقال : يا رسول الله ـ لا تعجل عليّ ، إني كنت امرءاً مُلصقاً في قريش، ولم أكن من أنفسهم، فكان من معك من المهاجرين لهم قرابة يحمون بها أموالهم وأهليهم بمكة ، فأحببتُ ـ إذ فاتني ذلك من النسب فيهم ـ أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي ، وما فعلتُ كفراً ، ولا ارتداداً عن ديني ، ولا رضىً بالكفر بعد الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنه قد صدقكم » ، فقال عمر : دعني يا رسول الله ! أضرب عنق هذا المنافق ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء . . . ﴾ الآية [الممتحنة : ١] .

(١) هو عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي القرشي البغدادي أبو الفرج ، ولد سنة ٥٠٨ هـ ببغداد ووفاته بها سنة ٥٩٧ هـ ، علامة عصره في التاريخ والحديث وكان إماماً بالوعظ وكانت له حلقة ببغداد ، كثير التصانيف له نحو ثلاث مئة مصنف منها : « المنتظم » في التاريخ ، و « مناقب عمر بن الخطاب » « مناقب عمر بن عبد العزيز » و « تلبيس ابليس » و « زاد المسير في علم التفسير » و « ذم الهوى » و « صيد الخاطر » وغيرها .

وحقيقة هذا الجواب إني قد غفرت لكم بهذه الغزوة ما سلف من ذنوبكم ، لكنه ضعيف من وجهين :

أحدهما : أن لفظ « اعملوا » يأباه ، فإنه للاستقبال دون الماضي . وقوله : « قَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ » لا يوجب أن يكون اعملوا مثله ، فإن قوله : « قَدْ غَفَرْتُ » تحقيق لوقوع المغفرة في المستقبل كقوله : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ ﴾[النحل :١] و﴿ جَاءَ رَبُّكَ ﴾ [الفجر : ٢٢] ونظائره .

الثاني : أن الحديث نفسه، يردّه، فإن سببه قصة حاطب[1] وتجسُّسه على النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وذلك ذنب واقع بعد غزوة بدر لا قبلها ، وهو سبب الحديث ، فهو مراد منه قطعاً . فالذي نظن في ذلك ، واللّه أعلم ، أن هذا خطاب لقوم قد علم اللّه سبحانه أنهم لا يفارقون دينهم ، بل يموتون على الإسلام ، وأنهم قد يقارفون بعض ما يقارفه غيرهم من الذنوب ، ولكن لا يتركهم سبحانه مصرِّين عليها ، بل يوفِّقهم لتوبة نصوح واستغفار وحسنات تمحو أثر ذلك . ويكون تخصيصهم بهذا دون غيرهم لأنه قد تحقق ذلك فيهم ، وأنهم مغفور لهم . ولا يمنع ذلك كون المغفرة حصلت بأسباب تقوم بهم ، كما لا يقتضي ذلك أن يعطلوا الفرائض وثوقاً بالمغفرة : فلو كانت قد حصلت بدون الاستمرار على القيام بالأوامر لِمَا احتاجوا بعد ذلك إلى صلاة ولا صيام ولا حج ولا زكاة ولا جهاد ، وهذا محال .

ومن أوجب الواجبات التوبة بعد الذنب ، فضمان المغفرة لا

---

(١) هو حاطب بن أبي بلتعة بن عمرو اللخمي ، حليف بني أسد بن عبد العزى ، شهد بدراً ، نزلت فيه ﴿ يا أيها الذين لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء . . . ﴾ الآية ، وقصته في « الصحيحين » ، كان أحد فرسان قريش في الجاهلية وشعرائها ، مات سنة ٣٠هـ في خلافة عثمان ، وله خمس وستون سنة .

بوجب تعطيل أسباب المغفرة ، ونظير هذا قوله في الحديث الآخر : « أَذْنَب عَبْدٌ ذَنْبَاً فَقَالَ : أَيُّ رَبِّ ، أَذْنَبْتُ ذَنْباً فاغْفِرْهُ لِي ، فَغَفَرَ لَهُ ، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَآءَ اللَّهُ أَنْ يَمْكُثَ ، ثُمَّ أَذْنَب ذَنْباً آخر فقالَ : أَيُّ رَبِّ أَصَبْتُ ذَنْبَاً فاغْفِرْهُ لِي ، فغفرَ لَهُ ، ثُمَّ مَكثَ ما شَآءَ اللَّهُ أَنْ يَمْكُثَ ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْباً آخرَ فَقَالَ : رَبِّ أَصَبْتُ ذَنْباً فَاغْفِرْهُ لِي ، فَقالَ اللَّهُ : عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي فَلْيَعْمَلْ مَا شَآءَ »[1] . فليس في

---

(١) رواه البخاري ١٣ / ٣٩٣ في التوحيد : باب قول الله تعالى : ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ ، ومسلم رقم (٢٧٥٨) في التوبة : باب قبول التوبة من الذنوب ، وأحمد في « المسند » ٢ / ٢٩٦ و٤٠٥ و٤٩٢ ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

قال الامام النووي في « شرح صحيح مسلم » ١٧ / ٥٩ - ٦٠ :

أصل التوبة في اللغة الرجوع ، يقال : تاب وتاب وآب بمعنى رجع ، والمراد بالتوبة هنا الرجوع عن الذنب ، وأن لها ثلاثة أركان : الاقلاع والندم على فعل تلك المعصية ، والعزم على أن لا يعود إليها أبداً ، فإن كانت المعصية لحق آدمي فلها ركن رابع ، وهو التحلل من صاحب ذلك الحق ، وأصلها الندم ، وهو ركنها الأعظم .

واتفقوا على أن التوبة من جميع المعاصي واجبة على الفور ، لا يجوز تأخيرها ، سواء كانت المعصية صغيرة أو كبيرة .

والتوبة من مهمات الإسلام وقواعده المتأكدة ، ووجوبها عند أهل السنة بالشرع ، وعند المعتزلة بالعقل ، ولا يجب على الله قبولها إذا وجدت بشروطها عقلاً عند أهل السنة ،لكنه سبحانه وتعالى يقبلها كرماً وفضلاً ، وعرفنا قبولها بالشرع والاجماع خلافاً لهم.

وإذا تاب من ذنب ثم ذكره هل يجب تجديد الندم ؟ فيه خلاف لأصحابنا وغيرهم من أهل السنة . قال ابن الأنباري : يجب ، وقال إمام الحرمين : لا يجب .

وتصح التوبة من ذنب وإن كان مصراً على ذنب آخر ، وإذا تاب توبة صحيحة بشروطها ثم عاود ذلك الذنب كتب عليه ذلك الذنب الثاني ولم تبطل توبته . هذا مذهب أهل السنة في المسألتين ، وخالفت المعتزلة فيهما . قال أصحابنا : ولو تكررت التوبة ومعاودة الذنب صحت .

ثم توبة الكافر من كفره مقطوع بقبولها ، وما سواها من أنواع التوبة هل قبولها مقطوع به أم مظنون ، فيه خلاف لأهل السنة ، واختار امام الحرمين أنه مظنون ، وهو الأصح ، والله أعلم .

هذا إطلاق وإذن منه سبحانه له في المحرمات والجرائم ، وإنما يدل على أنه يغفر له ما دام كذلك إذا أذنب تاب .

واختصاص هذا العبد بهذا لأنه قد علم أنه لا يصرُّ على ذنب وأنه كلما أذنب تاب ، حكم يعمّ كل ما كانت حاله حاله ، لكن ذلك العبد مقطوع له بذلك كما قطع به لأهل بدر .

وكذلك كل مَن بَشّرَه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بالجنة أو أخبره بأنه مغفور له ، لم يفهم منه هو ولا غيره من الصحابة إطلاق الذنوب والمعاصي له ومسامحته بترك الواجبات ، بل كان هؤلاء أشد اجتهاداً وحذراً وخوفاً بعد البشارة منهم قبلها ، كالعشرة المشهود لهم بالجنة . وقد كان الصدِّيق شديد الحذر والمخافة ، وكذلك عمر . فإنهم علموا أن البشارة المطلقة مقيَّدة بشروطها والاستمرار عليها إلى الموت ، ومقيّدة بانتفاء موانعها ، ولم يفهم أحد منهم من ذلك الإطلاق ، الإذن فيما شاؤوا من الأعمال .

* * *

٤ ـ فائدة جليلة

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُوا في مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النشُورُ ﴾ [الملك : ١٥] .

أخبر سبحانه أنه جعل الأرض ذلولاً منقادة للوطء عليها وحفرها وشقّها والبناء عليها ، ولم يجعلها مستصعبة ممتنعة على مَن أراد ذلك منها . وأخبر سبحانه أنه جعلها مِهاداً وفراشاً وبساطاً وقراراً وكفاتاً . وأخبر

أنه دَحاها وطَحاها وأخرج منها ماءَها ومرعاها ، وثبّتها بالجبال ، ونهج فيها الفجاج والطرق ، وأجرى فيها الأنهار والعيون ، وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها . ومن بركتها أن الحيوانات كلها وأزراقـها وأقـواتها تخرج منها . ومن بركتها أنها تحمل الأذى على ظهرها وتخرج لك من بطنها أحسن الأشياء وأنفعها ، فتواري منه كل قبيح وتخرج له كل مليح . ومن بركتها أنها تستر قبائح العبد وفضلات بدنه وتواريها وتضمّه وتؤويه ، وتخرج له طعامه وشرابه ، فهي أحمل شيء للأذى وأعوده بالنفع ، فلا كان من التراب خيراً منه وأبعد من الأذى وأقرب إلى الخير .

والمقصود : أنه سبحانه جعل لنا الأرض كالجمل الذلول الذي كيفما يُقاد ينقاد . وحَسُنَ التعبير بمناكبها عن طرقها وفجاجها لما تقدم من وصفها بكونها ذلولاً ، فالماشي عليها يطأ على مناكبها وهو أعلى شيء فيها ، ولهذا فُسِّرت المناكب بالجبال كمناكب الإنسان وهي أعاليه . قالوا : وذلك تنبيه على أن المشي في سهولها أيسر . وقالت طائفة : بل المناكب الجوانب والنواحي ، ومنه مناكب الإنسان لجوانبه . والذي يظهر أن المراد بالمناكب الأعالي . وهذا الوجه الذي يمشي عليه الحيوان هو العالي من الأرض دون الوجه المقابل له ، فإن سطح الكرة أعلاها ، والمشي إنما يقع في سطحها ، وحسن التعبير عنه بالمناكب لما تقدم من وصفها بأنها ذلول .

ثم أمرهم أن يأكلوا من رزقه الذي أودعه فيها ، فذلّلها لهم ووطّاها وفتق فيها السُّبُل والطرق التي يمشون فيها ، وأودعها رزقهم فذكر تهيئة المسكن للانتفاع والتقلب فيه بالذهاب والمجيء ، والأكل مما أُوْدِع فيه للساكن . ثم نبّه بقوله ﴿ وَإِلَيْهِ النُّشُور ﴾ على أنّا في هذا المسكن غير

مستوطنين ولا مقيمين بل دخلناه عابري سبيل فلا يحسن أن نتخذه وطناً ومستقرّاً ، وإنما دخلناه لنتزوّد منه إلى دار القرار ، فهو منزل عبور لا مستقرّ حبور ، ومعبر وممرّ ، لا وطن ومُستقَرّ .

فتضمّنت الآية الدلالة على ربوبيته ووحدانيته ، وقدرته وحكمته ولطفه ، والتذكير بنِعَمِه وإحسانه ، والتحذير من الركون إلى الدنيا ، واتخاذها وطناً ومستقرّاً ، بل نسرع فيها السير إلى داره وجنته .

فللّه ما في ضمن هذه الآية من معرفته وتوحيده ، والتذكير بنعَمِه ، والحثّ على السير إليه ، والاستعداد للقائه ، والقدوم عليه ، والإعلام بأنه سبحانه يطوي هذه الدار كأن لم تكن ، وأنه يحيي أهلها بعدما أماتهم وإليه النشور .

* * *

٥ ـ فائدة

للإنسان قوّتان : قوة علمية نظرية ، وقوة عملية إرادية . وسعادته التامة موقوفة على استكمال قوتيه العلمية والإرادية . واستكمال القوة العلمية إنما يكون بمعرفة فاطره وبارئه ومعرفة أسمائه وصفاته ومعرفة الطريق التي توصل إليه ومعرفة آفاتها ومعرفة نفسه ومعرفة عيوبها . فبهذه المعارف الخمس يحصل كمال قوته العلمية . وأعلم الناس أعرفهم بها وأفقههم فيها . واستكمال القوة العملية الإرادية لا يحصل إلا بمراعاة حقوقه سبحانه على العبد ، والقيام بها إخلاصاً وصدقاً ونصحاً وإحساناً ومتابعةً وشهوداً لمنّتِه عليه، وتقصيره هو في أداء حقه . فهو مستحيي من

مواجهته بتلك الخدمة لعلمه أنها دون ما يستحقه عليه ودون دون ذلك . وأنه لا سبيل له إلى استكمال هاتين القوتين إلا بمعونته . فهو مضطرّ إلى أن يهديه الصراط المستقيم الذي هدى إليه أولياءَه وخاصتَه، وأن يجنّبه الخروج عن ذلك الصراط ، إما بفساد في قوته العلمية فيقع في الضلال ، وإما في قوته العملية فيوجب له الغضب .

فكمال الإنسان وسعادته لا تتم إلا بمجموع هذه الأمور ، وقد تضمّنتها سورة الفاتحة وانتظمتها أكمل انتظام . فإن قوله : ﴿ الحَمْدُ للَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ * الرَّحَمْنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [الفاتحة : ١ - ٣] يتضمّن الأصل الأول ، وهو معرفة الرب تعالى ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله . والأسماء المذكورة في هذه السورة هي أصول الأسماء الحسنى ، وهي اسم اللَّه والرب والرحمن . فاسم اللَّه متضمن لصفات الألوهية ، واسم الرب متضمن لصفات الربوبية ، واسم الرحمن متضمن لصفات الإحسان والجود والبرّ. ومعاني أسمائه تدور على هذا . وقوله : ﴿ إيّاكَ نعبُد وإيّاكَ نستعينُ ﴾ [الفاتحة : ٤] يتضمن معرفة الطريق الموصلة إليه ، وأنها ليست إلا عبادته وحده بما يحبه ويرضاه ، واستعانته على عبادته . وقوله : ﴿ إهْدِنَا الصِّراطَ المُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة : ٥] يتضمن بيان أن العبد لا سبيل له إلى سعادته إلا باستقامته على الصراط المستقيم ، وأنه لا سبيل له إلى الإستقامة إلّا بهداية ربه له ، كما لا سبيل له إلى عبادته إلَّا بمعونته ، فلا سبيل له إلى الاستقامة على الصراط إلا بهدايته .

وقوله : ﴿ غيرِ المغضُوبِ عليهمْ ولا الضّالِّين ﴾ [الفاتحة : ٦] يتضمن بيان طرفي الانحراف عن الصراط المستقيم ، وأن الانحرافَ إلى

أحد الطرفين انحرافٌ إلى الضلال الذي هو فساد العلم والاعتقاد ، والانحراف إلى الطرف الآخر انحراف إلى الغضب الذي سببه فساد القصد والعمل .

فأول السورة رحمة وأوسطها هداية وآخرها نعمة . وحظ العبد من النعمة على قدر حظه من الهداية ، وحظه منها على قدر حظه من الرحمة ، فعاد الأمر كله إلى نعمته ورحمته . والنعمة والرحمة من لوازم ربوبيته ، فلا يكون إلا رحيماً منعماً وذلك من موجبات إلَهيته ، فهو الإِله الحق ، وإن جحده الجاحدون وعدل به المشركون . فمتى تحقق بمعاني الفاتحة علماً ومعرفةً وعملاً وحالاً فقد فاز من كماله بأوفر نصيب ، وصارت عبوديته عبودية الخاصة الذين ارتفعت درجتهم عن عوام المتعبّدين . واللّه المستعان .



٦ ـ فائدة

الرب تعالى يدعو عباده في القرآن إلى معرفته من طريقين : أحدهما : النظر في مفعولاته . والثاني : التفكُّر في آياته وتدبُّرها ، فتلك آياته المشهودة وهذه آياته المسموعة المعقولة .

فالنوع الأول كقوله : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَٱخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَآ أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاْءِ مِنْ مَاْءٍ فَأَحْيَاْ بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَبَثَّ فِيْهَا مِنْ كُلِّ دَاْبَةٍ . وَتَصْرِيْفِ الرِّيَاْحِ وَالسَّحَاْبِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاْءِ وَالأَرْضِ ، لآيَاْتٍ لِقَوْمٍ

يوقنون ﴾ [البقرة : ١٦٤] . وقوله : ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ﴾ [آل عمران : ١٩٠] . وهو كثير في القرآن .

والثاني : كقوله : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ [النساء : ٨٢] . وقوله : ﴿ أفلم يدبروا القول ﴾ [المؤمنون : ٦٨] . وقوله : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته ﴾ [ص : ٢٩] . وهو كثير أيضاً .

فأما المفعولات فإنها دالَّة على الأفعال ، والأفعال دالَّة على الصفات . فإن المفعول يدلُّ على فاعل فعله ، وذلك يستلزم وجوده وقدرته ومشيئته وعلمه لاستحالة صدور الفعل الاختياري من معدوم أو موجود لا قدرة له ولا حياة ولا علم ولا إرادة .

ثم ما في المفعولات من التخصيصات المتنوعة دالّ على إرادة الفاعل ، وأن فعله ليس بالطبع بحيث يكون واحداً غير متكرر .

وما فيها من المصالح والحِكَم والغايات المحمودة دالّ على حكمته تعالى .

وما فيها من النفع والإحسان والخير دالّ على رحمته .

وما فيها من البطش والانتقام والعقوبة دالّ على غضبه .

وما فيها من الإكرام والتقريب والعناية دال على محبته .

وما فيها من الإهانة والإبعاد والخذلان دال على بُغضِه ومَقتِه .

وما فيها من ابتداء الشيء في غاية النقص والضعف ثم سَوقه إلى تمامه ونهايته دال على وقوع المعاد .

وما فيها من أحوال النبات والحيوان وتصرُّف المياه دليل على إمكان المعاد .

وما فيها من ظهور آثار الرحمة والنعمة على خلقه دليل على صحة النبوّات .

وما فيها من الكمالات التي لو عدمتها كانت ناقصة دليل على أن معطي تلك الكمالات أحق بها .

فمفعولاته أدلّ شيء على صفاته وصدق ما أخبرت به رسُله عنه ، فالمصنوعات شاهدة تصدق الآيات المسموعات ، منبهة على الاستدلال بالآيات المصنوعات . قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] ، أي أن القرآن حق فأخبر أنه لا بد أن يُريهم من آياته المشهودة ما يبيِّن لهم أن آياته المتلوَّة حق . ثم أخبر بكفاية شهادته على صحة خبره بما أقام من الدلائل والبراهين على صدق رسوله . فآياته شاهدة بصدقه ، وهو شاهد بصدق رسوله بآياته . فهو الشاهد والمشهود له ، وهو الدليل والمدلول عليه . فهو الدليل بنفسه على نفسه كما قال بعض العارفين : كيف أطلب الدليل على من هو دليل لي على كل شيء ؟ فأي دليل طلبته عليه فوجوده أظهر منه . ولهذا قال الرسل لقومهم : ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ ؟ ﴾ [إبراهيم : ١٠] فهو أعرَف من كل معروف ، وأبْيَن من كل دليل . فالأشياء عُرفت به في الحقيقة وإن كان عُرف بها في النظر والاستدلال بأفعاله وأحكامه عليه .

* * *

٧ ـ فـائـــدة

في «المسند» و«صحيح أبي حاتم» من حديث عبد اللّٰه بن مسعود قال : قـال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم : « مَا أَصَابَ عَبْداً هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ فقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ ، ابْنُ عَبْدِكَ ، ابْنُ أَمَتِكَ ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ ، أَنْ تَجْعَلِ القُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي ، وَنُورَ صَدْرِي ، وَجَلَاءَ حُزْنِي ، وَذِهَابَ هَمِّي وَغَمِّي ، إِلَّا أَذْهَبَ اللّٰهُ هَمَّهُ وَغَمَّهُ ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحاً . قالوا : يا رسول اللّٰه أفلا نتعلمهن ؟ قال : بَلَىٰ ، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ »[١] .

فتضمن هـذا الحديث العـظيم أموراً من المعـرفة والتـوحيـد والعبودية .

منها أن الداعي به صدَّر سؤاله بقوله «إِنِّيْ عَبْدُكَ ابْنُ عَبْدِكَ ابْنُ أَمَتِكَ» ، وهذا يتناول مَن فوقه مِن آبائه وأمهاته إلى أبويه آدم وحواء ، وفي ذلك تملُّق له واستخذاء[٢] بين يديه واعتراف بأنه مملوكه وآباؤه مماليكه ،

(١) رواه أحمد في « المسند » ١/ ٣٩١ و٤٥٢ ، وابن حبان في « صحيحه » رقم (٢٣٧٢) « موارد » في الأذكار : باب ما يقول إذا أصابه هم أو حزن ، وهو حديث صحيح ، ورواه أيضاً الحاكم ١/ ٥٠٩ ، وأبو يعلى والطبراني والبزار ، وقال الحافظ في « تخريج الأذكار » : حديث حسن ، وقد صححه الألباني في « الأحاديث الصحيحة » رقم (١٩٨) .

(٢) الاستخذاء : الخضوع .

وأن العبد ليس له غير باب سيده وفضله وإحسانه ، وأن سيده إن أهمله وتخلى عنه هلك ، ولم يؤوِه أحد ولم يعطف عليه ، بل يضيع أعظم ضيعة . فتحت هذا الاعتراف : إني لا غنى بي عنك طرفة عين ، وليس لي مَن أعوذ به وألوذ به غيرَ سيدي الذي أنا عبده ، وفي ضمن ذلك الاعتراف بأنه مربوب مدبَّر مأمورٌ منهي ، إنما يتصرف بحكم العبودية ، لا بحكم الاختيار لنفسه . فليس هذا شأن العبد بل شأن الملوك والأحرار . وأما العبيد فتصرُّفهم على محض العبودية ، فهؤلاء عبيد الطاعة المضافون إليه سبحانه في قوله : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الحجر : ٤٢] ، وقوله : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَىٰ الأَرْضِ هَوْناً ﴾ [الفرقان : ٦٣] ، ومَن عداهم عبيد القهر والربوبية ، فإضافتهم إليه كإضافة سائر البيوت إلى ملكه ، وإضافة أولئك كإضافة البيت الحرام إليه ، وإضافة ناقته إليه وداره التي هي الجنة إليه ، وإضافة عبودية رسوله إليه بقوله : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ [البقرة : ٢٣] ، ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ﴾ [الإسراء : ١] ، ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ [الجن : ١٩] .

وفي التحقيق بمعنى قوله « إني عبدك » إلتزام عبوديته من الذلّ والخضوع والإنابة ، وامتثال أمر سيده ، واجتناب نهيه ، ودوام الافتقار إليه ، واللجإ إليه ، والاستعانة به ، والتوكل عليه ، وعياذ العبد به ، ولياذه به ، وأن لا يتعلق قلبه بغيره محبة وخوفاً ورجاءً .

وفيه أيضاً إني عبد من جميع الوجوه : صغيراً وكبيراً ، حيّاً وميتاً ، مطيعاً وعاصياً ، معافى ومبتلى بالروح والقلب واللسان والجوارح .

وفيه أيضاً إن مالي ونفسي مُلكٌ لك ، فإن العبد وما يملك لسيده .

وفيه أيضاً إنك أنت الذي مننتَ عليَّ بكل ما أنا فيه من نعمة ، فذلك كله من إنعامك على عبدك .

وفيه أيضاً إني لا أتصرّف فيما خوّلتَني من مالي ونفسي إلا بأمرك ، كما لا يتصرف العبد إلا بإذن سيده ، وإني لا أملك لنفسي ضَرّاً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً . فإن صحَّ له شهود ذلك فقد قال إني عبدك حقيقة .

* * *

ثم قال: «نَاْصِيَتِيْ بِيَدِكَ»، أي أنت المتصرف فيَّ تصرفني كيف تشاء ، لست أنا المتصرف في نفسي . وكيف يكون له في نفسه تصرف مَنْ نفسُه بيد ربه وسيِّده وناصيتُه بيده وقلبُه بين إصبعين من أصابعه ، وموتُه وحياته وسعادته وشقاوته وعافيته وبلاؤه كلُّه إليه سبحانه ، ليس إلى العبد منه شيء ، بل هو في قبضة سيده أضعف من مملوك ضعيف حقير ، ناصيته بيد سلطان قاهر ، مالك له تحت تصرُّفه وقهره بل الأمر فوق ذلك .

ومتى شَهِدَ العبدُ أن ناصيتَه ونواصي العباد كلها بيد اللَّه وحده يصرفهم كيف يشاء ، لم يَخَفْهُم بعد ذلك ، ولم يَرْجُهُم ، ولم يُنزلهم منزلة المالكين بل منزلة عبيد مقهورين مربوبين ، المتصرف فيهم سواهم ، والمدبّر لهم غيرهم ، فمن شهد نفسه بهذا المشهد ، صار فقرُه وضرورته إلى ربه وصفاً لازماً له ، ومتى شهد الناس كذلك لم يفتقر إليهم ، ولم يعلق أمله ورجاءه بهم ، فاستقام توحيده وتوكله وعبوديته . ولهذا قال هود لقومه : ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَىٰ اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّيّ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : ٥٦] .

* * *

وقوله : «مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ» تضمن هذا الكلام أمرين :

أحدهما : مضاءُ حكمه في عبده .

والثاني : يتضمن حمده وعدله وهو سبحانه له الملك وله الحمد ، وهذا معنى قوله نبيه هود : ﴿ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ ، ثم قال : ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أي مع كونه مالكاً قاهراً متصرفاً في عباده ، نواصيهم بيده فهو على صراط مستقيم . وهو العدل الذي يتصرف به فيهم فهو على صراط مستقيم في قوله وفعله وقضائه وقدره وأمره ونهيه وثوابه وعقابه . فخبره كله صدق ، وقضاؤه كله عدل ، وأمره كله مصلحة ، والذي نهى عنه كله مفسدة ، وثوابُه لمن يستحق الثواب بفضله ، ورحمتُه وعقابُه لمن يستحق العقاب بعدله وحكمته .

وفرَّق بين الحكم والقضاء ،وجعل المضاء للحكم ، والعدل للقضاء ، فإن حكمه سبحانه يتناول حكمه الديني الشرعي ، وحكمه الكوني القدري . والنوعان نافذان في العبد ماضيان فيه ، وهو مقهور تحت الحكمين ، قد مضيا فيه ، ونفذا فيه ، شاء أم أبى ، لكن الحكم الكوني لا يمكنه مخالفته ، وأما الديني الشرعي فقد يخالفه .

ولما كان القضاء هو الإتمام والإكمال ، وذلك إنما يكون بعد مضيّه ونفوذه ، قال: « عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ» أي الحكم الذي أكملته وأتممته ونفذته في عبدك عدل منك فيه . وأما الحكم فهو ما يحكم به سبحانه وقد يشاء تنفيذه وقد لا ينفذه ، فإن كان حكماً دينياً فهو ماضٍ في العبد ، وإن كان كونياً فإن نفذه سبحانه مضى فيه وإن لم ينفذه انْدَفَعَ عنه ، فهو سبحانه يقضي ما يقضي به . وغيره قد يقضي بقضاء ويقدّر أمراً ولا يستطيع تنفيذه . وهو سبحانه يقضي ويُمضي فله القضاء والإمضاء .

وقوله « عدلٌ فيَّ قضاؤك » يتضمن جميع أقضيته في عبده من كل الوجوه ، من صحة وسقم ، وغنى وفقر ، ولذة وألم ، وحياة وموت ، وعقوبة وتجاوز وغير ذلك . قال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى : ٣٠] ، وقال : ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴾ [الشورى : ٤٨] . فكل ما يقضي على العبد فهو عدل فيه .

فإن قيل : فالمعصية عندكم بقضائه وقدره ! فما وجه العدل في قضائها؟ فإن العدل في العقوبة عليها [غير] ظاهر. قيل: هذا سؤال له شأن ، ومن أجله زعمت طائفة أن العدل هو المقدور ، والظلم ممتنع لذاته . قالوا : لأن الظلم هو التصرف في مُلك الغير واللّه له كل شيء . فلا يكون تصرُّفه في خلقه إلا عدلاً .

وقالت طائفة : بل العدل أنه لا يعاقب على ما قضاه وقدَّره ، فلما حسنَ منه العقوبة على الذنب عُلِمَ أنه ليس بقضائه وقدره ، فيكون العدل هو جزاؤه على الذنب بالعقوبة والذمّ إما في الدنيا وإما في الآخرة . وصعب على هؤلاء الجمع بين العدل وبين القدر ، فزعموا أن من أثبت القدر لم يمكنه أن يقول بالعدل ، ومَن قال بالعدل لم يمكنه أن يقول بالقدر . كما صعب عليهم الجمع بين التوحيد وإثبات الصفات ، فزعموا أنهم لا يمكنهم إثبات التوحيد إلا بإنكار الصفات ، فصار توحيدهم تعطيلاً وعدلهم تكذيباً بالقدر .

وأما أهل السنة فهم مثبتون للأمرين ، والظلم عندهم هو وضع الشيء في غير موضعه كتعذيب المطيع ومَن لا ذنب له ، وهذا قد نزَّه اللّه نفسه عنه في غير موضع من كتابه ، وهو سبحانه وإن أضلَّ مَن شاء ،

وقضى بالمعصية والغيّ على مَن شاء ، فذلك محض العدل فيه ، لأنّه وضع الإضلال والخذلان في موضعه اللائق به ، كيف ومن أسمائه الحسنى العدل ، الذي كل أفعاله وأحكامه سداد وصواب وحق ، وهو سبحانه قد أوضح السبُل ، وأرسل الرسُل ، وأنزل الكتب ، وأزاح العلل ، ومكَّن من أسباب الهداية والطاعة بالأسماع والأبصار والعقول ، وهذا عدله ، ووفَّق مَن شاء بمزيد عناية ، وأراد من نفسه أن يعينه ويوفقه ، فهذا فضله ، وخذل مَن ليس بأهل لتوفيقه وفضله ، وخلّى بينه وبين نفسه ، ولم يرد سبحانه من نفسه أن يوفقه ، فقطع عنه فضله ، ولم يحرمه عدله . وهذا نوعان :

أحدهما : ما يكون جزاءً منه للعبد على إعراضه عنه ، وإيثار عدوِّه في الطاعة ، والموافقة عليه ، وتناسي ذكره وشكره ، فهو أهل أن يخذله ويتخلى عنه .

والثاني : أن لا يشاء له ذلك ابتداء لما يعلم منه أنه لا يعرف قدر نعمة الهداية ، ولا يشكره عليه ، ولا يثني عليه بها ، ولا يحبه ، فلا يشاؤها له لعدم صلاحية محله .

قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا : أَهٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ، أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّاكِرِينَ ؟ ﴾ [الأنعام : ٥٣] ، وقال : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ [الأنفال : ٢٣] .

فإذا قضى على هذه النفوس بالضلال والمعصية ، كان ذلك محض العدل ، كما إذا قضي على الحيّة بأن تُقتل وعلى العقرب وعلى الكلب العَقور ، كان ذلك عدلاً فيه ، وإنْ كان مخلوقاً على هذه الصفة . وقد

استوفينا الكلام في هذا في كتابنا الكبير في القضاء والقدر[1] .

والمقصود أن قوله صلى اللّه عليه وسلم : « ماضٍ فيَّ حكمك ، عدلٌ فيَّ قضاؤك » ردّ على الطائفتين : القدرية[2] الذين ينكرون عموم أقضية اللّه في عبده ، ويخرجون أفعال العباد عن كونها بقضائه وقدره ، ويردُّون القضاء إلى الأمر والنهي . وعلى الجبرية[3] الذين يقولون : كل مقدور عدل ، فلا يبقى لقوله « عَدْلٌ فيَّ قضاؤك » فائدة ، فإن العدل عندهم كل ما يمكن فعله والظلم هو المحال لذاته ، فكأنه قال : ماضٍ ونافذ فيَّ قضاؤك . وهذا هو الأول بعينه .

* * *

وقوله : « أسألك بكل اسم » إلى آخره ، توسُّل إليه بأسمائه كلها ما علم العبد منها وما لم يعلم . وهذهٰ أَحَبّ الوسائل إليه ، فإنها وسيلة بصفاته وأفعاله التي هي مدلول أسمائه .

* * *

وقوله : « أَنْ تَجْعَلَ القُرْآنَ رَبِيْعَ قَلْبِيْ وَنُوْرَ صَدْرِيْ» الربيع : المطر الذي يحيي الأرض . شبّه القرآن به لحياة القلوب به . وكذلك شبّهه اللّه بالمطر ، وجمع بين الماء الذي تحصل به الحياة ، والنور الذي تحصل به الإضاءة والإشراق ، كما جمع بينهما سبحانه في قوله :

---

(١) طبع أكثر من مرة باسم « شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل » .

(٢) القدرية : هم المعتزلة الذين يقولون إن أفعال الشر يخلقها الإنسان نفسه. انظر « الملل والنحل » للشهرستاني ١/ ٥٣ و« موقف البشر » لمصطفى صبري ص ٤٨ .

(٣) الجبرية : هم الذين ينفون إرادة الانسان البتة ويقولون إن أفعاله من الله ولا يد له فيها . انظر « الملل والنحل » للشهرستاني ١/ ١٠٨ و« موقف البشر » لمصطفى صبري ص ٤٨ .

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ، فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ، فَٱحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ٱبْتِغَاءَ حِلْيَةٍ ﴾[1] [الرَّعد: ١٧]. وفي

---

(١) قال المصنف رحمه الله تعالى في « الوابل الصيب » ص ١١٤ ـ ١٢٤ فهذا هو المثل المائي ، شبَّه الوحي الذي أنزله بحياة القلوب ، بالماء الذي أنزله من السماء ، وشبه القلوب الحاملة له ، بالأودية الحاملة للسيل .

فقلب كبير يسع علماً عظيماً ، كوادٍ كبير يسع ماءً كثيراً ، وقلب صغير كوادٍ صغير يسع علماً قليلاً ، فحملت القلوب من هذا العلم بقدرها ، كما سالت الأودية بقدرها .

ولما كانت الأودية ومجاري السيول فيها الغثاء ونحوه مما يمر عليه السيل ، فيحتمله السيلُ فيطفو على وجه الماء زبداً عالياً ، يمر عليه متراكباً ، ولكن تحته الماء الفرات الذي به حياة الأرض ، فيقذف الوادي ذلك الغثاء إلى جنبتيه حتى لا يبقى منه شيء ، ويبقى الماء الذي تحت الغثاء يسقي الله تعالى به الأرض ، فيحيي به البلاد والعباد ، والشجر والدواب ، والغثاء يذهب جفاءً يجفى ، ويطرح على شفير الوادي .

فكذلك العلم والإيمان الذي أنزله من السماء في القلوب فاحتملته ، فأثار منها بسبب مخالطته لها ما فيها من غثاء الشهوات وزبد الشبهات الباطلة ، فطفا في أعلاها ، واستقر العلم والإيمان والهدى في جذر القلب وهو أصله ومستقره ، كما قال النبي ﷺ : « نَزَلَ الإِيْمانُ في جَذْرِ قُلُوب الرِّجَالِ » رواه البخاري من حديث حذيفة ، فلا يزال ذلك الغثاء والزبد يذهب جفاءً ، ويزول شيئاً فشيئاً ، حتى يزول كله ، ويبقى العلم النافع والإيمان الخالص في جذر القلب يرده الناس ، فيشربون ويسقون ويمرعون .

وفي « الصحيح » من حديث أبي موسى عن النبي ﷺ قال : « مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ الهُدَى والعِلْم كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضاً ، فَكَانَ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ ، قَبلتِ المَاءَ ، فأَنْبَتَتِ الكَلأ والعُشْبَ الكَثِيرَ ، وَكَانَ مِنْهَا طَائِفَةٌ أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ المَاءَ ، فَسَقَى النَّاسُ وَزَرَعُوا مِنْهَا ، وَأَصَابَ طَائِفَةً أُخْرَى ، إنَّما هِي قِيعَانٌ ، لا تُمْسِكُ مَاءً ، وَلا تُنْبِتُ كَلأً ، فَذٰلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ في دِينِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذلِكَ رَاساً ، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ » .

فجعل النبي ﷺ الناس بالنسبة الى الهدى والعلم ثلاث طبقات :

الطبقة الأولى : ورثة الرسل وخلفاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وهم الذين قاموا بالدين علماً وعملاً ودعوةً الى الله عز وجل ورسوله ﷺ ، فهؤلاء أتباع الرسل ـ صلوات الله عليهم وسلامه ـ حقاً ، وهم بمنزلة الطائفة الطيبة من الأرض التي زكت ، =

فقبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، فزكت في نفسها ، وزكا الناس بها .

وهؤلاء هم الذين جمعوا بين البصيرة في الدين والقوة على الدعوة ، ولذلك كانوا ورثة الأنبياء ﷺ الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ واذْكُرْ عِبَادَنَا إبْراهِيمَ وإسْحاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي والأَبْصار ﴾ [ص : ٤٥] فالأيدي : القوة في أمر الله ، والأبصار : البصائر في دين الله عز وجل : فبالبصائر يدرك الحق ويعرف ، وبالقوى يتمكّن من تبليغه وتنفيذه والدعوة إليه ، فهذه الطبقة كان لها قوة الحفظ والفهم في الدين والبصر بالتأويل ، ففجّرت من النصوص أنهار العلوم ، واستنبطت منها كنوزها ، ورزقت فيها فهماً خاصاً ، كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وقد سئل : هل خصّكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس ؟ فقال : لَا وَالَّذِي فَلَقَ الحَبَّةَ وَبَرأَ النَّسمَةَ ، إلَّا فَهْماً يُؤْتِيهِ اللَّهُ عَبْداً فِي كِتَابِهِ(1) .

فهذا الفهم هو بمنزلة الكلأ والعشب الكثير الذي أنبتته الأرض ، وهو الذي تميزت به هذه الطبقة عن الثانية .

الطبقة الثانية : فإنها حفظت النصوص ، وكان همها حفظها وضبطها ، فوردها الناس وتلقَّوْها منهم ، فاستنبطوا منها ، واستخرجوا كنوزها ، واتّجروا فيها ، وبذروها في أرض قابلة للزرع والنبات ، فاستخرجوا غوامضها وأسرارها ، ووردوها كلٌّ بحسبه ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ﴾ [البقرة : ٦٠] وهؤلاء هم الذين قال فيهم النبي ﷺ : « نَضَّرَ اللَّهُ امْرَءاً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعاها ، ثُمَّ أَدَّاهَا كَمَا سَمِعَها ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيرُ فَقِيهٍ ، ورُبَّ حامِلِ فِقْهٍ إلَى مَنْ هُو أَفْقَهُ مِنْه »(2) .

وهذا عبد الله بن عباس حَبْر الأمة وترجمان القرآن ، مقدار ما سمع من النبي ﷺ لم يبلغ نحو العشرين حديثاً الذي يقول فيه : سمعت ، ورأيت ، وسمع الكثير من الصحابة ، وبورك في فهمه والاستنباط منه حتى ملأ الدنيا علماً وفقهاً .

قال أبو محمد بن حزم : وجمعت فتاويه في سبعة أسفار كبار . وهي بحسب ما بلغ جامعها ، وإلا فعلم ابن عباس كالبحر ، وفقهه واستنباطه وفهمه في القرآن بالموضع الذي فاق به الناس ، وقد سمع كما سمعوا ، وحفظ القرآن كما حفظوا ، ولكن أرضه كانت من أطيب الأراضي وأقبلها للزرع فبذر فيها النصوص ، فأنبتت من كل زوج كريم : ﴿ ذٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يشَاء واللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ ﴾ [الجمعة : ٤] .

(١) متفق عليه . انظر « جامع الأصول » رقم (٥٨٦٣) .

(٢) أحمد ٤/ ٨٠ و٨٢ وابن ماجه رقم (٣٢٥٦) والحاكم ١/ ٨٧ من حديث جبير بن مطعم ، وهو حديث صحيح .

= وأين تقع فتاوي ابن عباس ، وتفسيره ، واستنباطه ، من فتاوي أبي هريرة وتفسيره ؟ وأبو هريرة أحفظ منه ، بل هو حافظ الأمة على الاطلاق : يؤدِّي الحديث كما سمعه ، ويدرسه بالليل درساً ، فكانت هِمَّته مصروفة إلى الحفظ وتبليغ ما حفظه كما سمعه ، وهِمَّة ابن عباس مصروفة الى التفقُّه والاستنباط ، وتفجير النصوص ، وشق الأنهار منها ، واستخراج كنوزها .

وهكذا الناس بعده قسمان :

قسم حفاظ معتنون بالضبط ، والحفظ ، والأداء ، كما سمعوا ، ولا يستنبطون ولا يستخرجون كنوز ما حفظوه .

وقسم معتنون بالاستنباط واستخراج الأحكام من النصوص ، والتفقُّه فيها .

فـ[القسم] الأول كأبي زرعة ، وأبي حاتم ، وابن وارة . وقبلهم : كبندار محمد ابن بشار ، وعمرو الناقد ، وعبد الرزاق . وقبلهم : كمحمد بن جعفر غندر ، وسعيد ابن أبي عَرُوبة ، وغيرهم من أهل الحفظ والإتقان والضبط لما سمعوه من غير استنباط وتصرف ، واستخراج الأحكام من ألفاظ النصوص .

والقسم الثاني : كمالك ، والليث ، وسفيان ، وابن المبارك ، والشافعي ، والأوزاعي ، وإسحاق ، والإمام أحمد بن حنبل ، والبخاري ، وأبي داود ، ومحمد بن نصر المروزي ، وأمثالهم ممن جمع الاستنباط والفقه الى الرواية ، فهاتان الطائفتان هما أسعد الخلق بما بعث الله تعالى به رسوله ﷺ ، وهم الذين قبلوه ورفعوا به رأساً .

الطبقة الثالثة : وأما الطائفة الثالثة وهم أشقى الخلق الذين لم يقبلوا هدى الله ولم يرفعوا به رأساً ، فلا حفظ ، ولا فهم ، ولا رواية ، ولا دراية ، ولا رعاية .

فالطبقة الأولى : أهل رواية ورعاية ودراية .

والطبقة الثانية : أهل رواية ورعاية ، ولهم نصيب من الدراية ، بل حظهم من الرواية أوفر .

والطبقة الثالثة : الأشقياء ، لا رواية ، ولا دراية ، ولا رعاية . ﴿ إنْ هُمْ إلاَّ كالأنْعَام بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبيلاً ﴾ [الفرقان : ٤٤] ، فهم الذين يضيقون الديار ، ويغلون الأسعار ، إنْ هَمَّ أحدهم إلا بطنُه وفرجه ، فإن ترقَّت هِمَّته كان هَمُّه ـ مع ذلك ـ لباسه وزينته ، فإن ترقَّت هِمَّته فوق ذلك ، كان [همه] في داره وبستانه ومركوبه ، فإن ترقت همته فوق ذلك ، كان همه في الرياسة والانتصار للنفس الكلبية ، فإن ارتفعت همته عن نصرة النفس الكلبية ، كان همه في نصرة النفس السبعية ، وأما النفس الملكية فلم يعطها أحد من هؤلاء .

ثم ضرب سبحانه وتعالى مثلاً ثانياً ، وهو المثل الناري ، فقال : ﴿ وَممَّا يُوقدُونَ عَلَيْهِ في النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ﴾ [الرعد : ١٩] ، وهو الحديد =

= والنحاس ، والفضة والذهب وغيرها ، فانها تدخل الكير لتمحص وتخلص من الخبث ، فيخرج خبثها فيرمي به ويطرح ، ويبقى خالصها ، فهو الذي ينفع الناس .

ولما ضرب الله سبحانه وتعالى هذين المثلين ذكر حكم من استجاب له ، ورفع بهداه رأساً ، وحكم من لم يستجب له ، ولم يرفع بهداه رأساً ، فقال : ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الحُسْنَىٰ ، وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ ، أُولئِكَ لَهُمْ سُوءُ الحِسَابِ ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المِهَادُ ﴾ [الرعد : ٢٠] .

والمقصود أن الله تعالى جعل الحياة حيث النور ، والموت حيث الظلمة ، فحياة الوجودين ، الروحي والجسمي بالنور ، وهو مادة الحياة ، كما أنه مادة الإضاءة ، فلا حياة بدونه ، كما لا إضاءة بدونه ، وكما أنه به حياة القلب ، فبه انفساحه وانشراحه وسَعَتُه ، كما في الترمذي عن النبي ﷺ : « إِذَا دَخَلَ النُّورُ القَلْبَ انْفَسَحَ وَانْشَرَحَ » قالوا : وما علامة ذلك ؟ قال : « الإِنَابَةُ إِلى دَارِ الخُلُودِ ، وَالتَّجَافِي عَنْ دَارِ الغُرُورِ ، والاستِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُوله » .

ونور العبد هو الذي يصعد عمله وكَلِمُهُ إلى اللّهِ تعالى ، فإن الله تعالى لا يصعد إليه من الكلم إلا الطيب ، وهو نور ومصدر عن النور ، ولا من العمل إلا الصالح ، ولا من الأرواح إلا الطيبة ، وهي أرواح المؤمنين التي استنارت بالنور الذي أنزله على رسوله ﷺ والملائكة الذين خلقوا من نور ، كما في « صحيح مسلم » ، عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال : « خُلِقَتِ الملائِكَةُ مِنْ نُورٍ ، وَخُلِقَتِ الشَّيَاطِينُ مِنْ نَارٍ ، وَخُلِقَ آدمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ » .

فلما كانت مادة الملائكة من نور ، كانوا هم الذين يعرجون إلى ربهم تبارك وتعالى ، وكذلك أرواح المؤمنين هي التي تعرج إلى ربها وقت قبض الملائكة لها ، فيفتح لها باب السماء الدنيا ، ثم الثانية ، ثم الثالثة ، ثم الرابعة ، إلى أن ينتهي بها إلى السماء السابعة ، فتوقف بين يدي الله عز وجل ، ثم يأمر أن يكتب كتابه في أهل عليين . فلما كانت هذه الروح روحاً زاكية طيبة نيِّرة مشرقة صَعِدَتْ إلى الله عز وجل مع الملائكة .

وأما الروح المظلمة الخبيثة الكدرة ، فإنها لا تفتح لها أبواب السماء ، ولا تصعد إلى الله تعالى ، بل ترد من السماء الدنيا إلى عالمها وعنصرها ، لأنها أرضية سفلية ، والأولى علوية سماوية ، فرجعت كل روح الى عنصرها وما هي منه ، وهذا مبين في حديث البراء بن عازب الطويل الذي رواه الإمام أحمد ، وأبو عوانة الاسفراييني في « صحيحه » ، والحاكم وغيرهم ، وهو حديث صحيح اهـ .

قلت : وهو كما قال انظر الحديث في « المسند » ٤/ ٢٨٧ و٢٨٨ و ٢٩٥

قوله : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ [البقرة: ١٧] ثم قال : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ [البقرة : ١٩] . وفي قوله : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا

و ٢٩٦ ، وفي ابي داود رقم (٤٧٥٣) وفي النسائي ٤/ ١٠١ وعند الحاكم ١/ ٣٧ - ٤٥ وقد ساقه بطوله في « اجتماع الجيوش الإسلامية » ص ٣٦ . وأما حديث « الإبانة إلى دار الخلود . . . » فقد استقصى الشيخ ناصر الدين الألباني تخريجه في « الأحاديث الضعيفة » رقم (٩٦٥) فقال ما ملخصه :

روي من حديث عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس ، ومن حديث الحسن البصري وأبي جعفر المدائني وكلاهما مرسلاً .

وأما حديث ابن مسعود رضي الله عنه فرواه ابن جرير الطبري في « تفسيره » ٨/ ٢١ والحاكم في « المستدرك » ٤/ ٣١١ .

وأما حديث ابن عباس فرواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٣/ ١٠٨ / ١) .

وأما حديث الحسن البصري فقد ذكره السيوطي من تخريج ابن أبي الدنيا في « كتاب ذكر الموت » عنه مرسلاً نحوه .

وأما حديث أبي جعفر المدائني فرواه ابن جرير الطبري في « تفسيره » ٨/ ٢٠ .

قال السيوطي في « الدر المنثور » ٣/ ٤٤ : أخرجه سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في « الأسماء الصفات » عن عبد الله بن مسعود .

وعزاه الحافظ ابن كثير في « تفسيره » ٢/ ١٧٥ لعبد الرزاق وحده ، وهو أول طرق هذا الحديث عنده من ثلاث طرق ، والطريق الثاني لديه عن أبي عبيدة عن ابن مسعود ، والثالثة طريق عبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة ، ثم ختمها بقوله : « فهذه طرق لهذا الحديث مرسلة ومتصلة ، يشد بعضها بعضاً » .

قلت : وهذا من أوهامه رحمه الله تعالى ، فإن طريقه الأولى معضلة مع كذب الذي أعضله ، والثانية منقطعة مع ضعف أحد رواته ، والثالثة معضلة أيضاً مع ضعف أحد رواته ، فأين الطريق المتصلة .

وجملة القول : إن هذا الحديث ضعيف ، فليس في طرقه ما ضَعْفه يسير يمكن أن ينجبر ، خلافاً لما ذهب إليه ابن كثير ، وإن قلده في ذلك جماعة ممن ألغوا في التفسير كالشوكاني في « فتح الغدير » (٢/ ١٥٤) وصديق حسن خان في « فتح البيان » (٢/ ٢١٧) وجزم الألوسي في « روح المعاني » نسبته اليه ﷺ ، ومن قبله المصنف رحمه الله تعالى في « الفوائد » وعزاه للترمذي . فجاء بوهم آخر والعصمة لله وحده . اهـ .

مِصْبَاْحٌ ، المِصْبَاْحُ فِيْ زُجَاْجَةٍ ، الزُّجَاْجَةُ كَأَنَّهَاْ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ، يُوْقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُوْنَةٍ ، لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ ، يَكَاْدُ زَيْتُهَاْ يُضِيْءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَاْرٌ ، نُوْرٌ عَلَىٰ نُوْرٌ ، يَهْدِيْ اللَّهُ لِنُوْرِهِ مَنْ يَشَاْءُ ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَاْلَ لِلنَّاسِ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْمٌ ﴾ [النور : ٣٥] . ثم قال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاْماً ، فَتَرَىٰ الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ ، وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاْءِ مِنْ جِبَاْلٍ فِيْهَا مِنْ بَرَدٍ ، فَيُصِيْبُ بِهِ مَنْ يَشَاْءُ ، وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاْءُ ، يَكَاْدُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَاْرِ ﴾ [النور : ٤٣] . فتضمن الدعاء أن يحيـي قلبه بربيع القرآن وأن ينوِّر به صدره فتجتمع له الحياة والنور . قال تعالى : ﴿ أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ [الأنعام : ١٢٢] .

ولما كان الصدر أوسع من القلب ، كان النور الحاصل له يسري منه إلى القلب ، لأنه قد حصل لما هو أوسع منه . ولما كانت حياة البدن والجوارح كلها بحياة القلب ، تسري الحياة منه إلى الصدر ثم إلى الجوارح ، سأل الحياة له بالربيع الذي هو مادتها . ولما كان الحزن والهمّ والغمّ يضادّ حياة القلب واستنارته ، سأل أن يكون ذهابها بالقرآن ، فإنها أحرى أن لا تعود ، وأما إذا ذهبت بغير القرآن من صحة أو دنيا أو جاه أو زوجة أو ولد ، فإنها تعود بذهاب ذلك . والمكروه الوارد على القلب إن كان من أمر ماضٍ أحدث الحزن ، وإن كان من مستقبل أحدث الهمّ ، وإن كان من أمر حاضر أحدث الغمّ ، والله أعلم .

* * *

٨ ـ فائـــدة

أنزَهُ الموجودات وأظهَرُها وأنوَرها وأشرفها وأعلاها ذاتاً وقدراً وأوسعها عرش الرحمن جلَّ جلاله . ولذلك صلح لاستوائه عليه . وكل ما كان أقرب إلى العرش كان أنور وأنزه وأشرف مما بَعُدَ عنه . ولهذا كانت جنة الفردوس أعلى الجنان وأشرفها وأنورها وأجلّها لقربها من العرش إذ هو سقفها ، وكل ما بَعُدَ عنه كان أظلمَ وأضيَق . ولهذا كان أسفل سافلين شرّ الأمكنة وأضيقها وأبعدها من كل خير .

وخلق اللَّهُ القلوبَ وجعلها محلاً لمعرفته ومحبته وإرادته ، فهي عرش المثل الأعلى الذي هو معرفته ومحبته وإرادته . قال تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [النحل : ٦٠] . وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الروم : ٢٧] . وقال تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] . فهذا من المثل الأعلى وهو مستوٍ على قلب المؤمن فهو عرشه وإن لم يكن أطهر الأشياء وأنزهها وأطيبها وأبعدها من كل دنس وخبث لم يصلح لاستواء المثل الأعلى عليه معرفةً ومحبةً وإرادةً ، فاستوى عليه مثل الدنيا الأسفل ومحبتها وإرادتها والتعلق بها ، فضاق وأظلم وبَعُدَ من كماله وفلاحه حتى تعود القلوب على قلبين : قلب هو عرش الرحمن ففيه النور والحياة والفرح والسرور والبهجة وذخائر الخير . وقلب هو عرش الشيطان ، فهناك الضيق والظلمة والموت والحزن والغمّ

والهمّ ، فهو حزين على ما مضى ، مهموم بما يستقبل ، مغموم في الحال .

وقد روى الترمذي[1] وغيره عن النبي صلى اللّٰه عليه وسلم أنه قال : « إذا دَخَلَ النُّورُ القَلْبَ ، انْفَسَحَ وَانْشَرَحَ ، قالوا : فَمَاْ عَلاَمَةُ ذَلِكَ يَاْ رَسُوْلَ اللّهِ ؟ قَاْلَ : الإِنَابَةُ إِلَىٰ دَارِ الخُلُودِ ، وَالتَّجَافِي عَنْ دَارِ الغُرُورِ ، وَالإِسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ » .

والنور الذي يدخل القلب إنما هو من آثار المثل الأعلى فلذلك ينفسح وينشرح ، وإذا لم يكن فيه معرفة اللّٰه ومحبته ، فحظه الظلمة والضيق .

* * *

٩ ـ فـــائــــدة

تأمَّلْ خطاب القرآن تجد مَلِكاً له المُلْكُ كله ، وله الحمد كله . أزِمَّةُ الأمور كلها بيده ، ومصدرها منه ، ومردُّها إليه ، مستوياً على سرير ملكه ، لا تخفى عليه خافية في أقطار مملكته ، عالِماً بما في نفوس عبيده ، مُطَّلِعاً على أسرارهم وعلانيتهم ، منفرداً بتدبير المملكة ، يسمع

---

(١) إذا أطلق الترمذي ، فهو صاحب السنن ، والحديث ليس عند الترمذي صاحب السنن ، ولعله هو عند الترمذي الحكيم في « نوادر الأصول » . وتقدم تخريج الحديث ص (٥٥) .

ويرى ، ويعطي ويمنع ، ويثيب ويعاقب ، ويُكرم ويُهين ، ويخلق ويرزق ، ويُميت ويُحيي ، ويقدِّر ويقضي ويدبّر .

الأمور نازلةٌ من عنده دقيقها وجليلها ، وصاعدة إليه لا تتحرّك ذرّة إلا بإذنه ، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه . فتأمَّلْ كيف تجده يثني على نفسه ، ويمجد نفسه ، ويحمد نفسه ، وينصح عباده ، ويدلهم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم ، ويرغبهم فيه ، ويحذرهم مما فيه هلاكهم ، ويتعرف إليهم بأسمائه وصفاته ، ويتحبب إليهم بنِعَمه وآلائه ، فيذكِّرهم بنِعَمه عليهم ، ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها . ويحذرهم من نقمه ويذكّرهم بما أعدَّ لهم من الكرامة إن أطاعوه ، وما أعدَّ لهم من العقوبة إن عصوه ، ويخبرهم بصنعه في أوليائه وأعدائه ، وكيف كانت عاقبة هؤلاء وهؤلاء .

ويثني على أوليائه بصالح أعمالهم ، وأحسن أوصافهم ، ويذمُّ أعداءَه بسيء أعمالهم ، وقبيح صفاتهم . ويضرب الأمثال ، وينوِّع الأدلة والبراهين ، ويجيب عن شُبَه أعدائه أحسن الأجوبة ، ويصدق الصادق ، ويكذب الكاذب ، ويقول الحق ، ويهدي السبيل . ويدعو إلى دار السلام ، ويذكر أوصافها وحسنها ونعيمها ، ويحذر من دار البوار ، ويذكر عذابها وقبحها وآلامها ، ويُذكِّر عبادَه فقرهم إليه وشدة حاجتهم إليه من كل وجه ، وأنهم لا غنى لهم عنه طرفة عين ، ويذكر غناه عنهم وعن جميع الموجودات ، وأنه الغني بنفسه عن كل ما سواه ، وكل ما سواه فقير إليه بنفسه ، وأنه لا ينال أحد ذرَّة من الخير فما فوقها إلا بفضله ورحمته ، ولا ذرّة من الشر فما فوقها إلا بعدله وحكمته . ويشهد من خطابه عتابَهُ

لأحبابه ألطف عتاب ، وأنه مع ذلك مُقيلُ عثراتهم وغافر زلَّاتهم ومقيم أعذارهم ومصلح فاسدهم والدافع عنهم ، والمحامي عنهم ، والناصر لهم ، والكفيلُ بمصالحهم ، والمنجي لهم من كل كرب ، والموفي لهم بوعده ، وأنه وليّهم الذي لا وليّ لهم سواه فهو مولاهم الحق ، ونصيرهم على عدوِّهم ، فنعم المولى ونعم النصير .

فإذا شهدت القلوب من القرآن ملكاً عظيماً رحيماً جواداً جميلاً هذا شأنه فكيف لا تحبه ، وتنافس في القرب منه ، وتنفق أنفاسها في التودُّد إليه ، ويكون أحب إليها من كل ما سواه ، ورضاه آثر عندها من رضا كل ما سواه ؟ وكيف لا تلهج بذكره ، ويصير حبه والشوق إليه والأنس به هو غذاؤها وقوتُها ودواؤها ، بحيث إن فقدت ذلك فسدت وهلكت ، ولم تنتفع بحياتها ؟ .

* * *

١٠ ـ فائدة

قبول المحل لما يوضع فيه مشروط بتفريغه من ضدِّه . وهذا كما أنه في الذوات والأعيان فكذلك هو في الاعتقادات والإرادات . فإذا كان القلب ممتلئاً بالباطل اعتقاداً ومحبة ، لم يبقَ فيه لاعتقاد الحَق ومحبته موضع ، كما أن اللسان إذا اشتغل بالتكلم بما لا ينفع ، لم يتمكن صاحبه من النطق بما ينفعه ، إلا إذا فرَّغ لسانه من النطق بالباطل . وكذلك الجوارح إذا اشتغلت بغير الطاعة لم يمكن شغلها بالطاعة إلا إذا فرغها من ضدها . فكذلك القلب المشغول بمحبة غير الله وإرادته ، والشوق إليه ، والأنس به ، لا يمكن شغله بمحبة الله وإرادته وحبه

والشوق إلى لقائه إلا بتفريغه من تعلقه بغيره . ولا حركة اللسان بذكره ، والجوارح بخدمته إلا إذا فرغها من ذكر غيره وخدمته . فإذا امتلأ القلب بالشغل بالمخلوق ، والعلوم التي لا تنفع ، لم يبقَ فيها موضع للشغل بالله ومعرفة أسمائه وصفاته وأحكامه .

وسرُّ ذلك : أن إصغاء القلب كإصغاء الأذن ، فإذا صغى إلى غير حديث الله ، لم يبقَ فيه إصغاء ، ولا فهم لحديثه ، كما إذا مال إلى غير محبة الله ، لم يبقَ فيه مَيْلٌ إلى محبته ، فإذا نطق القلب بغير ذكره ، لم يبقَ فيه محل للنطق بذكره كاللسان .

ولهذا في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لأَنْ يَمْتَلِىءَ جَوْفُ أَحدِكُمْ قَيْحاً حَتَّىٰ يُرِيْهَ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِىء شِعْراً»[1] .

---

(١) رواه البخاري ١٠/ ٤٥٣ في الأدب : باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر ، ومسلم رقم (٢٢٥٧) في الشعر ، والترمذي رقم (٢٨٥٥) في الأدب: باب ما جاء لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خير من أن يمتلىء شعراً ، وأبو داود ولم يذكر « حتى يريه » رقم (٥٠٠٩) في الأدب : باب ما جاء في الشعر ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وفي الباب عن عبد الله بن عمر عند البخاري ، وعن سعد بن أبي وقاص عند مسلم والترمذي ، وعن أبي سعيد الخدري عند مسلم والبخاري .

قوله « يريه » أي يملأ رئته قيحاً وقال أبو عبيد : أي يأكل القيح جوفه .

جاء في « مدارج السالكين شرح منازل السائرين » للمصنف ١/ ٤٥٣ :

نَـزِّهْ فُـؤَادَكَ عَـنْ سِـوَىٰ رَوْضَـاتِـهِ ... فَـرِيَـاضُـهُ حِـلٌّ لِـكُـلِّ مُـنَـزَّهِ
وَالـفَـهْـمُ طِـلَّسْـمٌ لِـكَـنْـزِ عُـلُومِـهِ ... فَـاقْصُـدْ إِلَىٰ الـطِّلَّسْمِ تَحْظَ بِكَنْـزِهِ
لاَ تَخْشَ مِنْ بِـدَعٍ لَـهُمْ وَحَـوَادِثٍ ... مَـا دُمْتَ فِيْ كَنَفِ الكِتَـابِ وَحِـرْزِهِ
مَنْ كَـانَ حَـارِسُـهُ الكِتَـابُ وَدِرْعُـهُ ... لَمْ يَخْشَ مِنْ طَعْـنِ العَـدُوِّ وَوَخْـزِهِ
لاَ تَخْشَ مِنْ شُبُهَـاتِهِمْ وَاحْمِـلْ إِذَا ... مَـا قَـابَلَتْـكَ بِـنَـصْـرِهِ وَبِـعِـزِّهِ
وَاللّهِ مَـا هَـابَ امـرؤٌ شُبُـهَـاتِهِـم ... إِلاَّ لِـضَعْـفِ القَلْـبِ مِنْـهُ وَعَـجْـزِهِ
يَـا وَيْـحَ تَيْسٍ ظَـالِـعٍ يَبْغِي مُسَـا ... بَـقَـةَ الهِـزَبْـرِ بِـعَـدْوِهِ وَبِجَـمْـزِهِ

=

فبيَّنَ أن الجوفَ يمتلىء بالشِعر فكذلك يمتلىء بالشُبَه والشكوك والخيالات والتقديرات التي لا وجود لها ، والعلوم التي لا تنفع ، والمفاكهات والمضحكات والحكايات ونحوها . وإذا امتلأ القلب بذلك جاءته حقائق القرآن والعلم الذي به كماله وسعادته فلم تجد فيه فراغاً لها ولا قبولاً ، فتعدَّته وجاوزته إلى محل سواه ، كما إذا بذلت النصيحة لقلب ملآن من ضدها لا منفذ لها فيه فإنه لا يقبلها ، ولا تلج فيه ، لكن تمرّ مجتازة لا مستوطنة ، ولذلك قيل :

نَـزِّهْ فُؤادَك عَنْ سـوانـا تَلْقَنَـاْ   فَجَنَـابُنَـا حِـلٌّ لِكُـلِّ مُـنَـزِّهِ
والصَّبْـرُ طِلَّسْمٌ لِكَنْـزِ وِصَـاْلِنَـا   مَن حَلَّ ذَا الطِّلَّسْمِ فَاْز بِكَنْزِهِ[1]

وبالله التوفيق .

* * *

١١ ـ فـائــدة

قوله تعالى : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّىٰ زُرْتُمُ المَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُوْنَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُوْنَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُوْنَ عِلْمَ اليَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ اليَقِيْنِ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ [سورة التكاثر] . أخلصت هذه السورة للوعد والوعيد والتهديد، وكفى بها موعظة لمن

وَدُخَـانُ زِبْـلٍ يَـرْتَـقِيْ لِلشَّمْسِ يَسْـ   ـتُـرُ عَيْنَهَـا لَمَّـا سَـرَى فِيْ أَزِّهِ
وَجَبَـانُ قَلْبٍ أَعْـزَلٌ قَـدْ رَامَ يَـأْسِـ   ـرُ فَـارِساً شَـاكِيْ السِـلَاحِ بِهَـزِّهِ

وجاء في « المدارج » ٣/ ٢٥٤ :

نَـزِّهْ فُـؤَادَكَ عَـنْ سِـوَانَـا وَائْتِـنَـا   فَجَنَـابُـنَـا حِـلٌّ لِكُـلِّ مُـنَـزَّهِ
وَالـصَّبْـرُ طِـلَّسْـمٌ لِـكَنْـزِ لِـقَـائِـنَـا   مَنْ حَـلَّ ذَا الـطِلَّسْمِ فَـازَ بِكَنْـزِهِ

عقلها . فقوله تعالى : ﴿ أَلْهَاكُم ﴾ أي شغلكم على وجه لا تُعْذَرون فيه . فإن الإلهاء عن الشيء هو الاشتغال عنه . فإن كان بقصد فهو محل التكليف ، وإن كان بغير قصد كقوله صلى الله عليه وسلم في الخميصة : «إِنَّهَا أَلْهَتْنِي آنِفاً عَنْ صَلَاتِي »[1] كان صاحبه معذوراً وهو نوع من النسيان. وفي الحديث «فَلَهَا صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الصَّبِيِّ»[2] أي ذهل عنه . ويقال : لها بالشيء ، أي اشتغل به . ولها عنه : إذا انصرف عنه . واللهو للقلب ، واللعب للجوارح ، ولهذا يجمع بينهما . ولهذا كان قوله ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ أبلغ في الذمّ من شَغَلَكم . فإن العامل قد يستعمل جوارحه بما يعمل وقلبه غير لاهٍ به . فاللهو هو ذهولٌ وإعراض . والتكاثر تفاعل من الكثرة أي مكاثرة بعضكم لبعض . وأعرض عن ذكر المتكاثَر به إرادةً لإطلاقه وعمومه وأنَّ كل ما يكاثِرُ به العبدُ غَيرَهُ سوى طاعة اللَّه ورسوله وما يعود عليه بنفع معاده فهو داخل في هذا التكاثر . فالتكاثر في كل شيء من مال أو جاه أو رئاسة أو نسوة أو حديث أو علم ، ولا سيما إذا لم يحتج إليه . والتكاثر في الكتب والتصانيف وكثرة المسائل وتفريعها وتوليدها . والتكاثر أن يطلب الرجل أن يكون أكثر من غيره ، وهذا مذموم إلا فيما يقرب إلى الله ، فالتكاثر

---

(١) قطعة من حديث طويل رواه البخاري١/٤٠٦ و٤٠٧في الصلاة : باب إذا صلى في ثوب له أعلام ، وفي أبواب وكتب أخرى ، وأبو داود رقم (٩١٤) في الصلاة : باب النظر في الصلاة ، ورقم (٤٠٥٢) في اللباس : باب من كره لبس الحرير ، والنسائي ٢/ ٧٢ في القبلة : باب الرخصة في الصلاة في خميصة لها أعلام ، وأحمد في « المسند » ٦/ ٣٧ و٤٦ و١٧٧ و١٩٩ و٢٠٩ ، من حديث عائشة رضي الله عنها . انظر روايات الحديث في « جامع الأصول » ٦/ ٤٦٢ - ٤٦٣ رقم (٣٦٥٠) وانظر « إرواء الغليل » للألباني رقم (٥٠٠) .

(٢) البخاري ١٠/٤٧٥ في الأدب : باب تحويل الاسم إلى الاسم الأحسن ، من حديث سهل رضي الله عنه .

فيه منافسة في الخيرات ومسابقة إليها .

وفي « صحيح مسلم » من حديث عبد الله بن الشخير أنه « انْتَهَى إِلَىٰ النَّبِّي صلى الله عليه وسلم وَهُوَ يَقْرَأ : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرَ ﴾ قال : يَقُولُ ابْنُ آدَمَ : مَالِي مَالِي ، وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلاّ مَا تَصَدّقْتَ فَأَمْضَيْتَ ، أَوْ أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ ؟ »[1] .

* * *

١٢ ـ تنبيـــه

* مَن لم ينتفع بعينه لم ينتفع بأذنه .

* للعبد سترٌ بينه وبين الله، وسترٌ بينه وبين الناس، فمن هتك الستر الذي بينه وبين الله ، هتك اللهُ الستر الذي بينه وبين الناس .

* للعبد ربٌّ هو ملاقيه وبيتٌ هو ساكنه ، فينبغي له أن يسترضي ربه قبل لقائه ويعمر بيته قبل انتقاله إليه .

* إضاعة الوقت أشد من الموت ، لأن إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة ، والموت يقطعك عن الدنيا وأهلها .

* الدنيا من أولها إلى آخرها لا تساوي غمّ ساعة ، فكيف بغمّ العمر ؟

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٩٥٨) في الزهد : باب الزهد ، والترمذي رقم (٣٣٥١) في تفسير القرآن : باب من سورة ﴿ الهاكم التكاثر ﴾ ، والنسائي ٦/ ٢٣٨ في الوصايا : باب الكراهية في تأخير الوصية .

* محبوبُ اليوم يعقبه المكروه غداً ، ومكروه اليوم يعقبه المحبوب غداً .

* أعظم الربح في الدنيا أن تشغل نفسك كل وقت بما هو أولى بها وأنفعُ لها في معادها .

* كيف يكون عاقلاً مَن باع الجنة بما فيها بشهوة ساعة ؟

* يخرج العارف من الدنيا ولم يقضِ وطره من شيئين : بكاؤه على نفسه ، وثناؤه على ربه .

* المخلوق إذا خِفْتَهُ استوحشتَ منه وهربت منه ، والرب تعالى إذا خفته أنِسْتَ به وَقَرُبتَ إليه .

* لو نَفَعَ العلمُ بلا عمل لمَا ذمَّ اللهُ سبحانه أحبارَ أهل الكتاب ، ولو نَفَعَ العملُ بلا إخلاص لمَا ذمَّ المنافقين .

* دافعِ الخطرة[1] ، فإن لم تفعل صارت فكرة . فدافع الفكرة ، فإن لم تفعل صارت شهوة . فحاربها ، فإن لم تفعل صارت عزيمة وهمَّة ، فإن لم تدافعها صارت فعلاً ، فإن لم تتداركه بضدِّه صار عادة فيصعب عليك الانتقال عنها .

* التقوى ثلاث مراتب :

إحداها : حميّة القلب والجوارح عن الآثام والمحرمات .

الثانية : حميّتها عن المكروهات .

---

(١) أي ما يخطر في البال .

الثالثة : الحميّة عن الفضول وما لا يعني .

فالأولى تعطي العبد حياته ، والثانية تفيده صحته وقوته ، والثالثة تكسبه سروره وفرحه وبهجته .

* غُمُوْضُ الحَقِّ حَيْنَ تَذُبُّ عَنْهُ   يُقَلِّلُ نَاصِرَ الخَصْمِ المُحِقِّ
تَضِلُّ عَنِ الدَقِيْقِ فُهُوْمُ قَوْمٍ   فَتَقْضِيْ لِلْمُجِلِّ عَلَىٰ المُدِقِّ(١)

* باللّهِ أَبْلُغُ مَا أَسْعَىٰ وَأُدْرِكُهُ   لاَ بِيْ وَلاَ بِشَفِيعٍ لِيْ مِنَ النَّاسِ
إِذا أَيِسْتُ وكَادَ اليَأْسُ يَقْطَعُنِي   جَاْءَ الرَجَا مُسْرِعاً مِنْ جَاْنِبِ اليَاسِ

* مَن خلقه الله للجنة لم تزل هداياها تأتيه من المكاره ، ومَن خلقه للنار لم تزل هداياها تأتيه من الشهوات .

* لمَّا طلب آدم الخلود في الجنة من جانب الشجرة عوقب بالخروج منها ، ولمَّا طلب يوسف الخروج من السجن من جهة صاحب الرؤيا لبث فيه بضع سنين .

* إذا جرى على العبد مقدور يكرهه فله فيه ستة مشاهد :

أحدها : مشهد التوحيد ، وأن الله هو الذي قدَّره وشاءه وخلقه ، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

الثاني : مشهد العدل ، وأنه ماضٍ فيه حكمه ، عدلٌ فيه قضاؤه .

الثالث : مشهد الرحمة ، وأن رحمته في هذا المقدور غالبة لغضبه

---

(١) المجل : الجلي الواضح ، والمدق : الدقيق الغامض .

وانتقامه ، ورحمته حشْوُه[1] .

الرابع : مشهد الحكمة ، وأن حكمته سبحانه اقتضت ذلك،لم يقدّره سُدىً ولا قضاه عبثاً .

الخامس : مشهد الحمد ، وأن له سبحانه الحمد التام على ذلك من جميع وجوهه[2] .

السادس : مشهد العبودية ، وأنه عبدٌ محض من كل وجه تجري عليه أحكام سيده وأقضيته بحكم كونه ملكه وعبده ، فيصرفه تحت أحكامه القدرية كما يصرفه تحت أحكامه الدينية ، فهو محل لجريان هذه الأحكام عليه .

* قلة التوفيق ، وفساد الرأي ، وخفاء الحق ، وفساد القلب ، وخمول الذكر ، وإضاعة الوقت ، ونَفْرَة الخلق ، والوحشة بين العبد وبين ربه ، ومنع إجابة الدعاء ، وقسوة القلب ، ومحْق البركة في الرزق والعمر ، وحرمان العلم ، ولباس الذلّ ، وإهانة العدوّ ، وضيق الصدر ، والابتلاء بقرنَاء السوء الذين يفسدون القلب ويضيعون الوقت ، وطول الهمّ والغمّ ، وضنك المعيشة ، وكسف البال . . . تتولد من المعصية والغفلة عن ذكر الله ، كما يتولد الزرعُ عن الماء ، والإحراقُ عن النار .

وأضداد هذه تتولد عن الطاعة .

* * *

---

(١) أي ظاهره البلاء والمصيبة وباطنه الرحمة واللطف .
(٢) اللهم إنّا نحمدك على كل حال ، ونعوذ بك من حال أهل النار .

١٣ - فصل

طوبى لِمَنْ أنصف ربَّه فأقرَّ له بالجهل في علمه ، والآفات في عمله ، والعيوب في نفسه ، والتفريط في حقه ، والظلم في معاملته . فإن آخذه بذنوبه رأى عدله ، وإن لم يؤاخذه بها رأى فضله .

وإن عمل حسنة رآها من منّتِه وصدقته عليه ، فإنْ قَبِلَها فمِنّة وصدقة ثانية ، وإن ردَّها فلكون مثلها لا يصلح أن يواجه به .

وإن عمل سيئة رآها من تخلِّيه عنه ، وخذلانه له ، وإمساك عصمته عنه ، وذلك من عدله فيه ، فيرى في ذلك فقره إلى ربه ، وظلمه في نفسه ، فإن غفرها له فبمحض إحسانه وجوده وكرمه .

ونكتة المسألة وسرّها أنه لا يرى ربه إلا محسناً ولا يرى نفسه إلا مُسيئاً أو مفرطاً أو مقصراً فيرى كل ما يسرُّه من فضل ربه عليه وإحسانه إليه وكل ما يسوؤه من ذنوبه وعدل الله فيه .

* المحبُّون إذا خربت منازل أحبّائهم قالوا : سقيا لسكانها . وكذلك المحب إذا أتت عليه الأعوام تحت التراب ذكر حينئذٍ حُسْن طاعته له في الدنيا وتودُّده إليه وتجدُّد رحمته وسقياه لمن كان ساكناً في تلك الأجسام البالية .

* * *

١٤ ـ فائدة

الغيرة غيرتان : غيرة على الشيء وغيرة من الشيء . فالغيرة على المحبوب حرصك عليه ، والغيرة من المكروه أن يزاحمك عليه . فالغيرة على المحبوب لا تتم إلا بالغيرة من المزاحم ، وهذه تحمد حيث يكون المحبوب تقبح المشاركة في حبه كالمخلوق ، وأما من تحسن المشاركة في حبه كالرسول والعالم بل الحبيب القريب سبحانه فلا يتصوّر غيرة المزاحمة عليه بل هو حسد .

والغيرة المحمودة في حقه أن يغار المحب على محبته له أن يصرفها إلى غيره ، أو يغار عليها أن يطلع عليها الغير فيفسدها عليه ، أو يغار على أعماله أن يكون فيها شيء لغير محبوبه ، أو يغار عليها أن يشوبها ما يكره محبوبه من رياء أو إعجاب أو محبة لإشراف غيره عليها أو غيبته عن شهود منَّتِه عليها فيها .

وبالجملة ، فغيرته تقتضي أن تكون أحواله وأعماله وأفعاله كلها لله . وكذلك يغار على أوقاته أن يذهب منها وقت في غير رضى محبوبه ، فهذه الغيرة من جهة العبد وهي غيرة من المزاحم له المعوق القاطع له عن مرضاة محبوبه .

وأما غيرة مخبوبه عليه فهي كراهية أن ينصرف قلبه عن محبته إلى محبة غيره ، بحيث يشاركه في حبه ، ولهذا كانت غيرة الله أن يأتي العبد ما حرم عليه ، ولأجل غيرته سبحانه حَرَّم الفاحشة ما ظهَرَ منها وما بَطَنَ ، لأن الخلق عبيده وإماؤه ، فهو يغار على إمائه كما يغار السيد على

جواريه ، ولله المثل الأعلى . ويغار على عبيده أن تكون محبتهم لغيره ، بحيث تحملهم تلك المحبة على عشق الصور ونيـل الفاحشة منها .

* **

* من عَظُمَ وقار الله في قلبه أن يعصيه ، وقرَّه الله في قلوب الخلق أن يذلوه .

* إذا علقت شروش المعرفة في أرض القلب ، نبتت فيه شجرة المحبة ، فإذا تمكنت وقويت أثمرت الطاعة ، فلا تزال الشجرة ﴿ تُؤْتِي أُكلُهَا كُلَّ حِيْنٍ بِإِذْنِ رَبِّها ﴾ [ابراهيم : ٢٥] .

* أول منازل القوم : ﴿ اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرَاً كَثِيراً وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [الأحزاب : ٤١] وأوسطها ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَـاتِ إِلَىٰ النُّورِ ﴾ [الأحـزاب : ٤٣] وآخرهـا : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلقَوْنَهُ سَلامٌ ﴾ [الأحزاب : ٤٤] .

* أرض الفطرة رحبة قابلة لما يغرس فيها ، فـإن غرست شجرة الإيمان والتقوى أورثت حلاوة الأبد ، وإن غرست شجرة الجهل والهوى فكلُّ الثمر مُرّ .

* إرجعْ إلى الله واطلبْه من عينك وسمعك وقلبك ولسانك ، ولا تشرد عنه من هذه الأربعة ، فما رجعَ من رجع إليه بتوفيقه إلا منها ، وما شرد من شرد عنه بخذلانه إلا منها ، فالموفق يسمع ويبصر ويتكلم ويبطش بمولاه ، والمخذول يَصدُر ذلك عنه بنفسه وهواه .

* مثال تولد الطاعة ونموّها وتزايدها ، كمثل نواة غـرستها ،

فصارت شجرة ، ثم أثمرت ، فأكلت ثمرها ، وغرست نواها ، فكلما أثمر منها شيء ، جنيت ثمره ، وغرست نواه . وكذلك تداعي المعاصي ، فليتدبر اللبيب هذا المثال . فمن ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، ومن عقوبة السيئة السيئة بعدها .

* ليس العَجَب من مملوك يتذلل لله ويتعبد له ولا يملّ من خدمته مع حاجته وفقره إليه ، إنما العجب من مالك يتحبب إلى مملوكه بصنوف إنعامه ويتودَّد إليه بأنواع إحسانه مع غناه عنه . كفى بك عزاً أنك له عبد ، وكفى بك فخراً أنه لك ربٌّ .

* * *

١٥ ـ فصل

* إياك والمعاصي فإنها أذلّت عِزَّ ﴿ اسْجِدُوا ﴾ [البقرة : ٣٤] وأخرجت إقطاع ﴿ آسْكُنْ ﴾ [البقرة : ٣٥] .

* يا لها لحظة أثمرت حرارة القلق ألف سنة ما زال يكتب بدم الندم سطور الحزن في القصص، ويرسلها مع أنفاس الأسف حتى جاءه توقيع ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ .

* فرح إبليس بنزول آدم من الجنة ، وما علم أن هبوط الغائص في اللجّة خلف الدُّرّ صعود. كم بين قوله لآدم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة : ٣٠] ، وقوله لك : ﴿ إذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ [الإسراء : ٦٣] .

* ما جرى على آدم هو المراد من وجوده ، « لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا . . . . »[1] .

* يا آدم لا تجزعْ من قولي لك : ﴿ اخْرُجْ مِنْهَا . . ﴾ [الأعراف : ١٨] ، فلك ولصالح ذرّيتك خلقتُها .

* يا آدم كنتَ تدخل عليَّ دخول الملوك على الملوك ، واليوم تدخل عليَّ دخول العبيد على الملوك .

* يا آدم لا تجزعْ من كأس زلل كانت سبب كيسك ، فقد استُخرج منك داء العجب وألبست خلعة العبودية . ﴿ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا . . . ﴾ [البقرة : ٢١٦] .

* يا آدم لم أخرج إقطاعك إلى غيرك ، إنما نحيتك عنه لأكمل عمارته لك ، وليبعث إليَّ العمال نفقة ﴿تتجافى جنوبهم . . . ﴾ [السجدة : ١٦].

* تاللّه ما نفعه عند معصيته عِزّ ﴿اسجدوا . . . ﴾ ولا شرف ﴿وعَلَّمَ آدمَ . . . ﴾ [البقرة : ٣١] ولا خصيصة ﴿لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ . . . ﴾ [ص : ٧٥] ولا فخر ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي . . . ﴾ [الحجر : ٢٩]. وإنما انتفع بذُلّ ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا . . . ﴾ [الأعراف : ٢٣] لما لبس درع التوحيد على بدن الشكر وقع سهم العدو منه في غير مقتل فجرحه فوضع عليه جبار الانكسار فعاد كما كان فقام الجريح كأن لم يكن به قَلَبَةَ[2] .

* * *

---

(١) حديث رواه مسلم رقم (٢٧٤٩) في التوبة باب سقوط الذنوب بالاستغفار من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ولفظه : « وَالَّذِي نَفْسِيْ بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوْا لَذَهَبَ اللّٰهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ فَيُغْفَرُ لَهُمْ » .

(٢) قال في « اللسان » : ما بالعليل قلبه أي ما به شيء ، لا يستعمل إلاّ في النفي ، وما به قلبة : أي ألم وعلة . قال الفراء : معناه ما به علة يخشى عليه منها ، وهو مأخوذ من قولهم : قُلِبَ الرجل إذا أصابه وجعٌ في قلبه .

١٦ ـ فصل

* نجائب[١] النجاة مهيّأة للمراد، وأقدام المطرود موثرته بالقيود. هبّت عواصف الأقدار في بيداء الأكوان ، فتقلب الوجود ونجم الخير ، فلما ركدت الريح إذا أبو طالب[٢] غريق في لجة الهلاك، وسلمان[٣] على

---

(١) جمع نجيبة وهي الناقة القوية الخفيفة السريعة ، والنجيب من الابل والخيل الكريم العتيق .

(٢) هو عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم من قريش والد علي رضي الله عنه ، وعمّ النبي صلى الله عليه وسلم وكافله ومربيه ومناصره، كان من أبطال بني هاشم ورؤسائهم ومن الخطباء العقلاء الأباة ، وله تجارة كسائر قريش، نشأ النبي صلى الله عليه وسلم في بيته وسافر معه إلى الشام في صباه، ولما أظهر الدعوة إلى الإسلام همَّ أقرباؤه بقتله فحماه أبو طالب وصدهم عنه ، فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام فامتنع خوفاً من أن تعيره العرب بتركه دين آبائه وفيه نزلت الآية ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾ مولده بمكة سنة ٨٥ قبل الهجرة ووفاته بها سنة ٣ قبل الهجرة . انظر طبقات ابن سعد ١/ ٧٥ .

(٣) هو أبو عبد الله سلمان الفارسي ، ويقال له : سلمان الخير، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يقول : أنا سلمان بن الإسلام ، وكان أصله من فارس من رامهرمز، ويقال : بل كان أصله من أصبهان من قرية يقال لها جي ، سافر بطلب الدين، فدان أولاً بدين النصرانية ، وقرأ الكتب ، وخبر في ذلك على مشقات نالته ، فأخذه قوم من العرب فباعوه من اليهود ، ثم إنه كوتب ، فأعانه رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتابته ، وقيل إنه اشتراه بشرط العتق ، ويقال إنه تداوله بضعة عشر رجلاً حتى أوصى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وأسلم لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، ومنعه الرق عن بدر وأحد ، وأول مشاهده الخندق فما بعدها ، ولما خط رسول الله صلى الله عليه وسلم الخندق ، جعل لكل نفر أربعين ذراعاً ، فاحتج المهاجرون والأنصار في سلمان وكان رجلاً قوياً ، فقال المهاجرون سلمان منا ، وقال الأنصار : سلمان منا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : سلمان منا أهل البيت ، وهو أحد الذين اشتقات إليه الجنة ، ولاه عمر بن الخطاب المدائن ، وكان من المعمرين ، قيل عاش مائتين وخمسين سنة ، وقيل ثلاثمائة وخمسين والأول أصح ، وكان يأكل من عمل يده ويتصدق بعطائه ، ومناقبه كثيرة وفضائله جمة وغزيرة ، أثنى عليه رسول الله صلى الله =

ساحل السلامة، والوليد بن المغيرة[1] يقدم قومه في التيه، وصهيب[2] قد قدم بقافلة الروم ، والنجاشي[3] في أرض الحبشة : لبيك اللهم لبيك ، وبلال[4] ينادي : الصلاة خيرٌ من النوم، وأبو جهل[5] في رقدة المخالفة.

لما قضي في القدم بسابقة سلمان عرج به دليل التوفيق عن طريق

عليه وسلم ، وروى كثير من الحديث ، ومات بالمدائن سنة خمس وثلاثين ، وقيل مات في زمن عمر .

روى عنه أبو هريرة ، وأنس بن مالك وغيرهما .

(١) انظر ترجمته ص (١٤٣) .

(٢) هو أبو يحيى صهيب بن سنان ، مولى عبد الله بن جدعان التيمي ، وفي نسبه خلاف كثير ، إلا أنه ابن النمر بن قاسط ، كانت منازلهم بأرض الموصل فيما بين دجلة والفرات ، فأغارت الروم على تلك الناحية فسبته وهو غلام صغير ، فنشأ بالروم ، فابتاعه منهم كليب ، ثم قدمت به مكة ، فاشتراه عبد الله بن جدعان التيمي ، فأعتقه ، فأقام معه إلى أن هلك ، وبُعث النبي صلى الله عليه وسلم . ويقال : إنه لما كبر في الروم وعقل هرب منهم ، وقدم مكة فحالف عبد الله بن جدعان ، وأسلم قديماً بمكة ، يقال : إنه أسلم هو وعمار بن ياسر في يوم واحد ورسول الله صلى الله عليه وسلم بدار الأرقم بعد بضعة وثلاثين رجلاً .

وكان من المستضعفين في الله بمكة ، ثم هاجر إلى المدينة بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو من السابقين الأولين ، وفيه نزلت ﴿ ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله . . ﴾ وشهد بدراً والمشاهد كلها .

روى عنه ابن عمر وجابر وابن المسيب .

ومات سنة ثمان وثلاثين بالمدينة وهو ابن سبعين سنة ، ودفن بالبقيع ، وقيل : مات سنة تسع وثلاثين ، وهو ابن ثلاث وسبعين سنة .

(٣) هو أصحمة النجاشي ، أسلم قبل الفتح ، ومات قبله ، وصلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم لما جاء خبر موته ، ولم يره ؛ وقد أورده ابن مندة في جملة أسماء الصحابة . والأولى أن لا يعد في جملة الصحابة ، لأن اسم الصحبة لا يطلق عليه بحال .

(٤) ستأتي ترجمته ص (١١٤) .

(٥) ستأتي ترجمته ص (١٤٤) .

آبائه في التمجس(١) ، فأقبل يناظر أباه في دين الشرك ، فلما علاه بالحجة لم يكن له جواب إلا القيد . وهذا جواب يتداوله أهلُ الباطل من يوم عرفوه ، وبه أجاب فرعون موسى ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المَسْجُوْنِيْنَ﴾ [الشعراء : ٢٩] ، وبه أجاب الجهمية(٢) الإمام أحمد لما عرضوه على السياط . وبه أجاب أهل البدع شيخ الإسلام حين استودعوه السجن ـ وها نحن على الأثر ـ فنزل به ضيف ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم ﴾ فنال بإكرامه مرتبة «سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ البَيْتِ»(٣) ، فسمع أن ركباً على نية السفر، فسرق نفسه من أبيه ولا قَطْع ، فركب راحلة العزم يرجو إدراك مطلب السعادة ، فغاص في بحر البحث ليقع بدرة الوجود ، فوقف نفسه على خدمة الأدلاء وقوف الأذلاء ، فلما أحسّ الرهبان بانقراض دولتهم سلموا إليه أعلام الإعلام على نبوّة نبينا صلى الله عليه وسلم وقالوا : إن زمانه قد أظلَّ ، فاحذر أن تضلَّ ، فرحل مع رفقة لم يرفقوا به وشروه بثَمَن بخس دراهمُ معدودةَ فابتاعه يهودي بالمدينة ، فلما رأى الحرّة توقد حرّاً شَوْقُهُ ، ولم يعلم رب المنزل بوجْد النازل . فبينا هو يكابد ساعات الانتظار قدم البشير بقدوم البشير، وسلمان في رأس نخلة ، وكاد القلق يلقيه(٤) لولا

---

(١) التمجس من المجوسية : وهي : ديانة الفرس قبل الإسلام وهي ديانة محرفة عن الزرادشتية تقول بإلهين ، الأول إله الخير ويسمى أهورامازدا والثاني اله الشر ويسمى أهرمان . انظر الشهرستاني ٢/ ٧٠ (على هامش الفصل) .

(٢) هم المعتزلة .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » والحاكم عن عمرو بن عوف رضي الله عنه . جزم الحافظ الذهبي بضعف سنده ، وقال الهيثمي : فيه عن الطبراني كثير بن عبد الله المزني ضعفه الجمهور ، وبقية رجاله ثقات . قال الألباني وقد صح موقوفاً على علي رضي الله عنه . انظر « ضعيف الجامع » رقم (٣٢٧٢) .

(٤) قصة إسلام سلمان الفارسي رضي الله عنها قال الهيثمي في « المجمع » ٩/٣٣٦ رواه أحمد كله ٥/٤٤١ ـ ٤٤٤ والطبراني في الكبير بنحوه بأسانيد وإسناد =

أن الحزم أمسكه كما جرى يوم ﴿ إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا ﴾ [القصص : ١٠] ، فعجل النزول لتلقي ركب البشارة ولسان حاله يقول :

خَلِيْلَيَّ مِنْ نَجْدٍ قِفَا بِيْ عَلَى الرُّبَا ... فَقَدْ هَبَّ مِنْ تِلْكَ الدِيَارِ نَسِيْمُ

فصاح به سيده : مالك ؟ انصرف إلى شغلك . فقال :

كَيْفَ انْصِرَافِي وَلِيْ فِيْ دَارِكُمْ شُغُلُ

ثم أخذ لسان حاله يترنم لو سمع الأطروش :

خَلِيْلِيَّ لَا وَاللَّهِ مَا أَنَا مِنْكُمَا ... إِذَا عَلَمٌ مِنْ آلِ لَيْلَى بَدَالِيَا

فلما لقي الرسول عارض نسخة الرهبان بكتاب الأصل فوافقه .

* يا محمد أنت تريد أبا طالب ونحن نريد سلمان، أبو طالب إذا سُئل عن اسمه قال عبد مناف ، وإذا انتسب افتخر بالآباء ، وإذا ذكرت الأموال عدَّ الإبل . وسلمان إذا سئل عن اسمه قال عبد الله ، وعن نسبه قال ابن الإسلام ، وعن ماله قال الفقر ، وعن حانوته قال المسجد ، وعن كسبه قال الصبر ، وعن لباسه قال التقوى والتواضع ، وعن وساده قال السهر ، وعن فخره قال : «سَلْمَانُ مِنَّا[1]» وعن قصده قال : ﴿ يُرِيْدُوْنَ وَجْهَهُ ﴾ [الأنعام : ٥٢] وعن سيره قال : إلى الجنة ، وعن دليله في الطريق قال : إمام الخلق وهادي الأئمة .

= الرواية الأولى عند أحمد والطبراني رجالها رجال الصحيح غير محمد بن اسحاق ، وقد صرح بالسماع . ورجال الرواية الثانية انفرد بها أحمد ورجالها رجال الصحيح غير عمرو بن أبي قطرة الكندي وهو ثقة ورواه البزار .

(١) رواه الحاكم ٥٩٨/٣ من حديث أبي فديك عن كثير بن عبد الله عن أبيه عن جده ، وقال الذهبي : سنده ضعيف ، وقال الألباني في « ضعيف الجامع » رقم (٣٢٧٢) : ضعيف جداً .

إذَا نَحْنُ أَدْلَجْنَـا وَأَنْـتِ أَمَـامَنَـا كَفَى بِالْمَطَايَا طِيْبُ ذِكْـرِكِ حَادِيَا
وإن نَحْنُ أَضْلَلْنَا الطَّرِيْق، وَلَمْ نَجِدْ دَلِيْلاً ، كَفَانَا نُوْرُ وَجْهِكِ هَادِيا

* * *

* الذنوب جراحات ، ورُبَّ جرحٍ وقع في مقتل .

* لو خرج عقلك من سلطان هواك ، عادت الدولة له .

* دخلت دار الهوى فقامرت بعمرك .

* إذا عرضت نظرة لا تحل فاعلم أنها مُسَعِّر حرب ، فاستتر منها بحجاب ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ. . . ﴾ [النور: ٣٠] فقد سلمت من الأثر وكفى الله المؤمنين القتال .

* بحر الهوى إذا مدَّ أغرق ، وأخوف المنافذ على السابح فتح البصر في الماء

* مَـا أَحَـدُ أَكْـرَمُ مِنْ مُفْـرَدٍ فِيْ قَبْـرِهِ ، أَعْمَـالُـهُ تُـؤْنِسُـهُ
مُنَعَّمـاً فِي القَبْـرِ فِيْ رَوْضَـةٍ لَيْسَ كَعَـبْـدٍ قَبْـرُهُ مَـحْبَسُـهُ

* عَلَىٰ قَدْرِ فَضْلِ المَرْءِ تَأْتِي خُطُوبُهُ وَتُعْرَفُ عِنْدَ الصَبْرِ فِيْمَا يُصِيْبُهُ
وَمَنْ قَـلَّ فِيْمَا يَتَّقِيْـهِ اصـطِبَـارُهُ فَقَـدْ قَلَّ مِمَّـا يَـرْتَجِيْـهِ نَصِيْبُـهُ

* كم قُطع زرع قبل التمام فما ظنُّ الزرع المستحصد .

* اشترِ نفسك ، فالسوق قائمة والثمن موجود .

* لا بدّ من سِنَةِ الغفلة ورقاد الهوى ، ولكن كُنْ خفيف النوم فحرّاس البلد يصيحون : دنا الصباح .

* نور العقل يضيء في ليل الهوى ، فتلوح جادة الصواب ، فيتلمح البصير في ذلك النور عواقب الأمور .

* أخرجْ بالعزم من هذا الفِنَاء الضيِّق المحشو بالآفات إلى ذلك الفناء الرحب الذي فيه « مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ »[1] ، فهناك لا يتعذر مطلوب ولا يفقد محبوب .

* يا بائعاً نفسَه بهوى مَنْ حبُّه ضنى ، ووصله أذى ، وحسنه إلى فناء ، لقد بعْتَ أنفس الأشياء بثمن بخس ، كأنك لم تعرف قدر السلعة ولا خِسَّة الثمن ، حتى إذا قدمت يوم التغابن تبيَّن لك الغبن في عقد التبايع ، لا إلَه إلا الله سلعةٌ ، اللهُ مشتريها ، وثمنُها الجنة، والدلال الرسول ، ترضى ببيعها بجزء يسير مما لا يساوي كله جناح بعوضة[2] :

* إذَاْ كَاْنَ شَيْءٌ لَا يُسَاوِيْ جَمِيْعُهُ ... جَنَاْحَ بَعُوْضٍ عِنْدَ مَنْ صِرْتَ عَبْدَهُ
وَيَمْلِكُ جُزْءٌ مِنْهُ كُلَّكَ مَاْ الَّذِيْ ... يَكُوْنَ عَلَىٰ ذِيْ الحَاْلِ قَدْرُكَ عِنْدَهُ
وبِعْتَ بِهِ نَفْساً قَدْ أسْتَامَهَا[3] بِمَا ... لَدَيْهِ مِنَ الحُسْنَىٰ وَقَدْ زَاْلَ وُدُّهُ

* يا مخنَّثَ العزم أين أنت ، والطريقُ طريقٌ تعِبَ فيه آدم ، وناح لأجله نوح ، ورُمِي في النار الخليل ، وأُضجع للذبح إسماعيل ، وبيع يوسف بثمن بخس ، ولبث في السجن بضع سنين ، ونُشر بالمنشار زكريا ، وذُبح السيد الحصور يحيى ، وقاسى الضرَّ أيوب ، وزاد على المقدار بكاءُ داود ، وسار مع الوحش عيسى ، وعالج الفقر وأنواع الأذى

---

(١) وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَر ، وَاقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة : ١٧] . متفق عليه .

(٢) وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ما سَقَىٰ كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ » .

(٣) السوم : عرض السلعة للبيع .

محمد صلى الله عليه وسلم = تزها أنت باللهو واللعب .

فَيَـا دَارَهَا بِـالحَزْنِ إنَّ مَـزَارَهَـا قَرِيْبٌ ، وَلَكِنْ دُوْنَ ذٰلِكَ أَهْوَالُ

* الحرب قائمة وأنت أعزل في النظارة ، فإن حركت ركابك فللهزيمة .

* مَنْ لم يباشر حرّ الهَجِيْر في طِلاب المجد لم يَقِل[1] في ظلال الشرف .

تَقُوْلُ سُلَيْمَى لَوْ أَقَمْتَ بِـأَرْضِنَا وَلَمْ تَـدْرِ أَنِّي لِلمُقَـامِ أَطُـوْفُ

قيل لبعض العباد : إلى كم تتعب نفسك !! فقال : راحتها أريد .

* يا مكرَماً بحلة الإيمان بعد حلة العافية وهو يخلقهما[2] في مخالفة الخالق ، لا تنكر السَّلبَ ؛ يستحق من استعمل نعمة المنعم فيما يكره أن يُسلبَها .

* عرائس الموجودات قد تزينت للناظرين ، ليبلوهم أيهم يؤثرهن على عرائس الآخرة ، فمن عرف قدر التفاوت آثر ما ينبغي إيثاره .

وَحِسَـانُ الكَوْنِ لَمَّـا أَنْ بَـدَتْ أَقْبَلْت نَحْوِي ، وَقَالَتْ لِيْ : إلَيْ

فَـتَـعَـامَـيْـتُ كَـأَنّ لَـمْ أَرَهَـا عِنْدَمَا أَبْصَـرْتُ مَقْصُوْدِي لَـدَيْ

* كواكب هِمَم العارفين في بروج عزائمهم سيارة ليس فيها زحل .

* يا مَن انحرف عن جادتهم كنْ في أواخر الركب ونَمْ إذا نمتَ

---

(١) لم يقل : من القيلولة ، وهي نومة منتصف النهار .

(٢) : يخلقهما : يبليهما .

على الطريق ، فالأمير يراعي الساقة[1] .

* قيل للحسن : سبقنا القوم على خيل دهم ونحن على حمر معقرة[2] ، فقال : إن كنت على طريقهم فما أسرع اللحاق بهم .

* * *

١٧ - فائدة

* مَن فقدَ أنسه بين الناس ووجده في الوحدة فهو صادق ضعيف . ومَن وجده بين الناس وفَقدَه في الخلوة فهو معلول . ومَن فقده بين الناس وفي الخلوة فهو ميت مطرود . ومَن وجده في الخلوة وفي الناس فهو المحب الصادق القوي في حاله . ومَن كان فتحه في الخلوة لم يكن مزيده إلا منها . ومَن كان فتحه بين الناس ونصحهم وإرشادهم كان مزيده معهم . ومَن كان فتحه في وقوفه مع مراد الله حيث أقامه ، وفي أي شيء استعمله كان مزيده في خلوته ومع الناس . فأشرف الأحوال أن لا تختار لنفسك حالة سوى ما يختاره لك ويقيمك فيه ، فكن مع مراده منك ولا تكن مع مرادك منه .

* مصابيح القلوب الطاهرة في أصل الفطرة منيرة قبل الشرائع ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ [النور : ٣٥] .

---

(١) الساقة : مؤخرة الجيش .

(٢) أي مجرحة .

* وحَّد قُسٌّ[1] وما رأى الرسول ، وكفر ابن أُبيّ[2] وقد صلى معه في المسجد

* مع الصبّ ريّ ولا ماء ، وكم من عطشان في اللجّة .

---

(١) هو قس بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك من بني إياد ، أحد حكماء العرب ومن خطبائهم في الجاهلية ، كان أسقف نجران . يضرب به المثل في الفصاحة والخطابة ، فيقال : أبلغ من قس ، وهو بضم القاف وتشديد السين المهملة . روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل وفد بكر ، عند قدومهم عليه ، عن رجل كان فيه نازلاً ، يقال له قس بن ساعدة الأيادي ، قالوا : هلك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد رأيته بعكاز يخطب على جمل له أورق ، وهو يقول : أيها الناس ، اجتمعوا واسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، ليل موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تغور ، وبحر يمور . . . أما بعد : فإن في السماء لخبراً ، وإن في الأرض لعبراً ، ما لي أرى الناس يموتون ولا يرجعون ، أرضوا بالإقامة فأقاموا ، أم تركوا كما هم فناموا ؟ ! أقسم بالله قس قسماً حقاً ، فما حنث ولا أثم ، إن لله ديناً هو أرضى من ديننا هذا الذي نحن عليه . ثم قال أبياتاً ما أحفظها . فقال رجل من الأنصار : أنا شاهد يا رسول الله بأبي أنت وأمي ، قال : فأنشدنا ، قال : سمعته يقول :

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارداً للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها تمضي الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضي ولا يبقى من الباقين غابر
أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائر

وفي رواية بعد أن أخبر النبي صلى الله عليه وسلم قال : رحم الله قُسّاً إني لأرجو أن يبعثه الله أمة وحده .

(٢) هو عبد الله بن أبيّ بن مالك بن الحارث بن عبيد الخزرجي ، اشتهر بـ « ابن سلول » .

رأس المنافقين في الإسلام ، كان سيد الخزرج في آخر جاهليتهم ، أظهر الإسلام بعد غزوة بدر تقية ، وكان كلما حلت بالمسلمين نازلة شمت بهم ، وكلما سمع بسيئة نشرها ، نزلت فيه كثير من الآيات التي تفضح المنافقين . توفي عام ٩ هجرية .

* سبق العلم بنبوّة موسى وإيمان آسية فسِيقَ تابوته الى بيتها ، فجاء طفل منفرد عن أم ، إلى امرأة خالية عن ولد . فلله كم في هذه القصة من عبرة . كم ذبح فرعون في طلب موسى من ولد ، ولسان القدر يقول : لا نربيه إلا في حجرك .

* * *

كان ذو البِجادين يتيماً في الصغر ، فكفله عمه ، فنازعته نفسه إلى اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهمَّ بالنهوض ، فإذا بقية المرض مانعة فقعد ينتظر العم ، فلما تكاملت صحته ، نَفِذَ الصبر فناداه ضمير الوجد :

إِلَىٰ كَمْ حَبْسُها تَشْكُوْ المَضِيْقَا أَثِـرَهَا ، رُبَّمـا وَجَـدَتْ طَـرِيْقَـا

فقال : يا عم طال انتظاري لإسلامك وما أرى منك نشاطاً . فقال : والله لئن أسلمتَ لأنتزعنّ كل ما أعطيتك . فصاح لسان الشوق : نظرة من محمد صلى الله عليه وسلم أحبّ إليَّ من الدنيا وما فيها .

وَلَوْ قِيْلَ لِلْمَجْنُـونِ: لَيْلَىٰ وَوَصْلَهَا تُـرِيْدُ أَم الـدُنْيَا وَمَـاْ فِيْ طَوَاْيَـاْهَا
لقـال: غُبَـارٌ مِنْ تُـرَابِ نِعَـالِهـا أَلَــذُّ إلى نَفْسِي وَأَشْفَىٰ لِبَلْوَاهَـا

فلما تجرّد للسير إلى الرسول صلى الله عليه وسلم جرّده عمه من الثياب ، فناولته الأم بجاداً ، فقطعه لسفر الوصل نصفين ، اتَّزَرَ بأحدهما ، وارتدى الآخر . فلما نادى صائح الجهاد قنع أن يكون في ساقة الأحباب ، والمحب لا يرى طول الطريق ، لأن المقصود يعينه .

أَلَا بَلَّغَ اللَّهُ الحِمَى مَنْ يُـرِيْدُهُ وَبَلَّغَ أَكْنَاْفَ الحِمَىٰ مَنْ يُرِيدُهَا

فلما قضى نحبه نزل الرسول صلى الله عليه وسلم يمهّد له لحده

وجعل يقول : « اللَّهُمَّ إِنِّيْ أَمْسَيْتُ عَنْهُ رَاْضِيَاً فَاْرْضَ عَنْهُ » .
فصاح ابن مسعود : يا ليتني كنت صاحب القبر[١] .

* * *

* فيا مخنث العزم أقل ما في الرقعة البيذق ، فلما نهض تفرزن[٢] .

* رأى بعض الحكماء برذوناً[٣] يسقى عليه ، فقال : لو هملج[٤] هذا ، لركب .

* أقدام العزم بالسلوك اندفع من بين أيديها سد القواطع .

* القواطع مِحَنٌ يتبين بها الصادق من الكاذب ، فإذا خضتها انقلبتْ أعواناً لك توصِلك إلى المقصود .

---

(١) رواه ابن اسحاق ٤/ ١٧١ و١٧٢ عن محمد بن ابراهيم بن الحارث التيمي أن عبد الله بن مسعود كان يحدث ، فذكره ، قال الحافظ في « الإصابة » رقم (٤٧٩٥): رواه البغوي بطوله من هذا الوجه ورجاله ثقات إلّا أن فيه انقطاعاً ، وأخرجه ابن منده من طريق سعد بن الصلت عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود قال فذكره . ومن طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده نحوه . وذو البجادين هو عبد الله بن عبد نهم المزني .

(٢) الفرزن هو بمنزلة الوزير للسلطان . والبيذق ، بالذال المعجمة ، وقيل بالدال المهملة ، وهو بمنزلة العساكر ، وكلاهما من قطع الشطرنج معروف عند أهل اللعب به ، ومنه قولهم : تفرزن البيذق : صار فرزاناً . والمعنى ظاهر أن الإنسان إذا نهض وجد في التحصيل أدرك معالي الأمور وساد .

(٣) البرذون : يطلق على غير العربي من الخيل والبغال ، غليظ الأعضاء والحوافز .

(٤) هملج : أي سار سيراً حسناً في سرعة .

١٨ ـ فصل

* الدنيا كامرأة بغيٍّ لا تثبت مع زوج، إنما تخطب الأزواج ليستحسنوا عليها[١] ، فلا ترضى إلَّا بالدياثة .

مَيَّـزْتُ بَيْنَ جَمَالِهَـا وَفِعَالِهَـا   فَإِذَا المَلاَحَةُ بِالقَبَاحِةِ لاَ تَفِيْ
حَلَفَتْ لَنَا أَنْ لاَ تَخُوْنَ عُهُودَنَا   فَكَأَنَّهَا حَلَفَتْ لَنَا أَنْ لاَ تَفِيْ

السير في طلبها سيرٌ في أرضٍ مَسْبَعة[١] ، والسباحة فيها سباحة في غدير التمساح . المفروح به منها هو عين المحزون عليه . آلامُها متولدة من لذّاتها ، وأحزانُها من أفراحها .

مَآرِبُ كَاْنَتْ فِيْ الشَبَاْبِ لِأَهْلِهَا   عِذَاْبَاً ، فَصَاْرَتْ فِيْ المَشِيْبِ عَذَاْبَا

* طائر الطبع يرى الحبة ، وعين العقل ترى الشَرَك ، غير أن عين الهوى عمياء .

وَعَيْنُ الرِّضَاْ عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلَيْلَةٌ   كَمَّا أَنَّ عَيْنَ السُخْطِ تُبْدِيْ المَسَاْوِيَا

* تزخرفت الشهواتِ لأعين الطباع ، فغضَّ عنها الذين يؤمنون بالغيب ، ووقع تابعوها في بيداء الحسرات ، فـ ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة : ٥] ، وهؤلاء يقال لهم : ﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ ﴾ [المرسلات : ٤٦] .

لما عرف الموفقون قدر الحياة الدنيا وقلة المقام فيها ، أماتوا فيها

---

(١) كذا في الأصل ولعلها ليستخذوا لها ، أو يستحسنوا غيها ، والله أعلم .

(٢) أرض مسبعة : أي أرض كثيرة السباع .

الهوى طلباً لحياة الأبد ، ولما استيقظوا من نوم الغفلة ، استرجعوا بالجد ما انتهبه العدو منهم في زمن البطالة ، فلما طالت عليهم الطريق، تلمّحوا المقصد ، فقرَّب عليهم البعيد ، وكلما أمرَّت لهم الحياة ، حَليَ لهم تذكُّر ﴿ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٣] .

وَرَكْبٍ سَرَوْا ، وَاللَّيْلُ مُلْقٍ رِوَاقَهُ عَلَىٰ كُلِّ مُغْبَرِّ المَطَالِعِ قَاتِمِ
حَدَوْا عَزَمَاْتٍ ضَاْعَتِ الأَرْضُ بَيْنَهَا فَصَاْرَ سُرَاهُمْ فِيْ ظُهُوْرِ العَزَائِمِ
تُرِيْهِمْ نُجُوْمُ اللَّيْلِ مَا يَبْتَغُوْنَهُ عَلَىٰ عَاْتِقِ الشِعْرَى ، وَهَاْمِ النَعَائِمِ
إِذَا اطَّرَدَتْ فِيْ مَعْرَكِ الجِدِّ قَصّفَوا رِمَاْحَ العَطَاْيَاْ فِيْ صُدُوْرِ المَكَارِمِ

* * *

١٩ ـ فصل

* من أعجب الأشياء أن تعرفه ، ثم لا تحبه ، وأن تسمع داعيه ، ثم تتأخر عن الإجابة . وأن تعرف قدر الربح في معاملته ، ثم تعامل غيره . وأن تعرف قدر غضبه ، ثم تتعرض له . وأن تذوق ألم الوحشة في معصيته ، ثم لا تطلب الأنس بطاعته . وأن تذوق عصرة القلب عند الخوض في غير حديثه والحديث عنه ، ثم لا تشتاق إلى انشراح الصدر بذكره ومناجاته . وأن تذوق العذاب عند تعلُّق القلب بغيره ، ولا تهرب منه إلى نعيم الإقبال عليه ، والإنابة إليه .

* وأعجب من هذا علمك أنك لا بدّ لك منه ، وأنك أحوج شيء إليه ، وأنت عنهُ مُعرض ، وفيما يبعدك عنه راغب .

* * *

٢٠ ـ فـائـــدة

* ما أخذ العبد ما حرم عليه إلا من جهتين :

إحداهما : سوء ظنه بربِّه ، وأنه لو أطاعه وآثره لم يعطه خيراً منه حلالاً .

والثانية : أن يكون عالماً بذلك ، وأن مَنْ ترك للَّه شيئاً أعاضه خيراً منه ، ولكن تغلب شهوتُه صبرَه ، وهواهُ عقلَه . فالأول من ضعف علمه ، والثاني من ضعف عقله وبصيرته .

قال يحيى بن معاذ[1] : مَن جمع اللَّه عليه قلبه في الدعاء لم يردّه .

قلت : إذا اجتمع عليه قلبُه ، وصدقت ضرورته وفاقته ، وقويَ رجاؤه ، فلا يكاد يُردُّ دعاؤه .

* * *

---

(١) هو يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي ، أبو زكريا ، وهو واعظ ، زاهد ، لم يكن له نظير في وقته ، من أهل الرأي ، أقام بـ « بلخ » ومات في نيسابور سنة ٢٥٨هـ . له كلمات سائرة منها :

اجتنب صحبة ثلاثة أصناف من الناس : العلماء الغافلين ، والقراء المداهنين ، والمتصوفة الجاهلين .

ومن دعائه : اللهم إن كان ذنبي قد أخافني ، فإن حسن ظني بك قد أجارني ، اللهم سترت عليّ في الدنيا ذنوباً أنا إلى سترها في القيامة أحوج ، وقد أحسنت بي إذ لم تظهرها لعصابة من المسلمين فلا تفضحني في ذلك اليوم على رؤوس العالمين يا أرحم الراحمين . وله في هذا الباب كل كلام مليح . انظر ترجمته في « وفيات الأعيان » ٦/ ١٦٦ و« تاريخ بغداد » للخطيب البغدادي ١٤/ ٢٠٨ ـ ٢٠٩ .

٢١ ـ فصل

* لما رأى المتيقظون سطوة الدنيا بأهلها ، وخداع الأمل لأربابه ، وتملّك الشيطان قياد النفوس ، ورأوا الدولة للنفس الأمّارة ، لجأوا إلى حصن التضرُّع والالتجاء ، كما يأوي العبد المذعور إلى حرم سيده .

* شهوات الدنيا كـ «لعب الخيال»[١] ، ونظر الجاهل مقصور على الظاهر ، فأما ذو العقل فيرى ما وراء الستر .

* لاح لهم المشتهى ، فلما مدُّوا أيدي التناول بان لأبصار البصائر خيط الفخ ، فطاروا بأجنحة الحذر ، وصوّبوا إلى الرحيل الثاني : ﴿ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ [يس : ٢٦] تامّحَ القومُ الجودَ ، ففهموا المقصود ، فأجمعوا الرحيل قبل الرحيل وشمَّروا للسير في سواء السبيل ، فالناس مشتغلون بالفضلات ، وهم في قطع الفلوات ، وعصافير الهوى في وثاق الشبكة ينتظرون الذبح .

* وقع ثَعْلَبَان في شبكة ، فقال أحدهما للآخر : أين الملتقى بعد هذا ؟ فقال : بعد يومين في الدباغة .

* تاللَّه ما كانت الأيام إلا مناماً ، فاستيقظوا وقد حصلوا على الظفر .

* ما مضى من الدنيا أحلام ، وما بقي منها أماني ، والوقت ضائع بينهما .

* كيف يسلمُ مَن له زوجةٌ لا ترحمه ، وولد لا يعذره ، وجارٌ لا يأمنه ، وصاحب لا ينصحه ، وشريك لا ينصفه ، وعدوٌّ لا ينام عن

---

(١) هو أشبه بمسرح الدمى المعروف عند العامة بـ « أراكوز » .

معاداته ، ونفس أمَّارة بالسوء ، ودنيا متزينة ، وهوىً مَرِد ، وشهوة غالبة له ، وغضب قاهر ، وشيطان مزيّن ، وضعف مستولٍ عليه . فإن تولاه اللَّه وجذبه إليه انقهرت له هذه كلها ، وإن تخلى عنه ووكله إلى نفسه اجتمعت عليه فكانت الهلكة .

* لما أعرض الناس عن تحكيم الكتاب والسنة والمحاكمة إليهما ، واعتقدوا عدم الاكتفاء بهما ، وعدلوا إلى الآراء والقياس والاستحسان وأقوال الشيوخ ، عرض لهم من ذلك فساد في فطرهم ، وظلمة في قلوبهم ، وكَدر في أفهامهم ، ومحق في عقولهم . وعمتهم هذه الأمور وغلبت عليهم ، حتى ربى فيها الصغير ، وهرمَ عليها الكبير ، فلم يروها منكراً . فجاءتهم دولة أخرى قامت فيها البدَع مقام السنن ، والنفس مقام العقل ، والهوى مقام الرشد ، والضلال مقام الهدى ، والمنكر مقام المعروف ، والجهل مقام العلم ، والرياء مقام الإخلاص ، والباطل مقام الحق ، والكذب مقام الصدق ، والمداهنة مقام النصيحة ، والظلم مقام العدل . فصارت الدولة والغلبة لهذه الأمور ، وأهلها هم المشار إليهم ، وكانت قبل ذلك لأضدادها ، وكان أهلها هم المشار إليهم فإذا رأيت دولة هذه الأمور قد أقبلت ، وراياتها قد نُصبت ، وجيوشها قد ركبت ، فبطنُ الأرض واللَّه خيرٌ من ظهرها ، وقُلَلُ الجبال خيرٌ من السهول ، ومخالطة الوحش أسلم من مخالَطة الناس .

اقشعرّت الأرض ، وأظلمت السماء ، وظهر الفساد في البرِّ والبحر من ظلم الفَجَرة ، وذهبت البركات ، وقلَّت الخيرات ، وهزلت الوحوش ، وتكدّرت الحياة من فسق الظلمَة ، وبكى ضوءُ النهار وظلمة

الليل من الأعمال الخبيثة والأفعال الفظيعة ، وشكا الكرام الكاتبون والمعقبات إلى ربهم من كثرة الفواحش وغلبة المنكرات والقبائح . وهذا واللَّه مُنذِرٌ بسيل عذاب قد انعقد غمامه ، ومُؤْذِن بليل بلاء قد ادلهمَّ ظلامُه . فاعزلوا عن طريق هذا السيـل بتوبة نصوح ما دامت التوبة ممكنة وبابها مفتوح . وكأنكم بالباب وقد أُغلق ، وبالرهن وقد غَلِق وبالجناح وقد علق ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٢٧] .

* اشترِ نفسَك اليوم ، فإن السوق قائمة ، والثمن موجـود ، والبضائع رخيصة ، وسيأتي على تلك السوق والبضائع يوم لا تصل فيه إلى قليل ولا كثير ﴿ . . ذَٰلِكَ يَوْمَ التَّغَابُن ﴾ [التغابن : ٩] ﴿ يَوْمَ يَعُضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾ [الفرقان : ٢٧] .

إِذَاْ أَنْتَ لَمْ تَرْحَلْ بزَاْدٍ مِنَ التُقَىٰ ... وَأَبْصَرْتَ يَوْمَ الحَشْرَ مَنْ قَدْ تَزَوَّدَا
نَدِمْتَ عَلَىٰ أَنْ لَا تَكُوْنَ كَمِثْلِهِ ... وَأَنَّكَ لَمْ تُرْصِدْ كمَا كَاْنَ أَرْصَدَا

* العمل بغير إخلاص ولا اقتداء كالمسافر يملأ جرابه رملاً يثقله ولا ينفعه .

* إذا حملتَ على القلب هموم الدنيا وأثقالهَا ، وتهاونتَ بأوراده التي هي قُوْته وحياته ، كنتَ كالمسافر الذي يحمِّل دابَّته فوق طاقتها ولا يوفيها علفها ، فما أسرع ما تقف به .

ومُشَتَّتُ العَـزَمَـاْتِ يُنْفِقُ عُمْـرَهُ ... حَيْـرَاْنَ لَا ظَفَـرٌ وَلَا إِخْفَـاْقُ

هَلْ السَائِقُ العَجْلَانُ يَمْلِكُ أَمْرَهُ   فَمَا كُلُّ سَيْرِ اليَعْمُلَاتِ وَخِيْدُ[1]
رُوَيْداً بِأَخْفَافِ المَطِيِّ فَإِنَّمَا   تُدَاسُ جِبَاهٌ تَحْتَهَا وَخُدُوْدُ

* مَن تلمَّح حلاوة العافية هانت عليه مرارة الصبر .

* الغاية أول في التقدير ، آخر في الوجود ، مبدأ في نظر العقل ، منتهى في منازل الوصول .

* أَلِفْتَ عجز العادة ، فلو عَلَتْ بك هِمَّتُك رُبا المعالي لاحت لك أنوارُ العزائم .

* إنما تفاوَتَ القوم بالهِمَم لا بالصُّوَر .

* نزولُ هِمَّةِ الكَسَّاح دَلَّاهُ في جُبِّ العَذِرَة .

* بينك وبين الفائزين جبلُ الهوى ، نزلوا بين يديه ونزلتَ خلفَه ، فاطْوِ فضلَ منزل ، تلحق بالقوم .

* الدنيا مضمار سباق، وقد انعقد الغبار، وخَفِيَ السابق، والناس في المضمار بين فارس وراجل وأصحاب حُمرٍ معقرة .

سَوْفَ تَرَىٰ إِذَاْ انْجَلَىٰ الغُبَاْرُ   أَفَرَسٌ تَحْتَكَ أَمْ حِمَاْرُ

* في الطبع شرَه ، والحمية أوفق .

* لصُّ الحرص لا يمشي إلا في ظلام الهوى .

* حبة المشتهى تحت فخ التلف ، فتفكَّر الذبح وقد هان الصبر .

* قوة الطمع في بلوغ الأمل توجب الاجتهاد في الطلب ، وشدةَ الحذر من فوت المأمول .

---

(١) اليعملات : جمع يعملة ، وهي الناقة النجيبة المطبوعة على العمل .
الوخد : ضرب من سير الإبل سريع ، وقيل : رمى بقوائمه كمشي النعام .

* البخيل فقير لا يؤجَرُ على فقره .
* الصبرُ على عطش الضرِّ ، ولا الشربُ من شِرْعةِ مَنٍّ .
* تجوع الحرَّة ، ولا تأكل بثدييها[1] .
* لا تسأل سوى مولاك ، فسؤال العبد غير سيده تشنيع عليه .
* غرس الخلوة يثمر الأنس .
* استوحشْ مما لا يدوم معك ، واستأنسْ بمن لا يفارقك .
* عزلة الجاهل فساد ، وأما عزلة العالِم فمعها حذاؤها وسقاؤها .

* إذا اجتمع العقل واليقين في بيت العزلة ، واستحضر الفكر وجرت بينهم مناجاة:

أَتَـاْكَ حَدِيْثٌ لَا يُمَـلُّ سَمَـاْعُـهُ ... شَهِيٌّ إِلَـيْنَـا نَـثْـرُهُ وَنِـظَاْمُـهُ
إِذَاْ ذَكَـرَتْهُ النَفْسُ زَاْلَ عَنَـاؤُهَا ... وَزَاْلَ عَنِ القَلْبِ المُعَنَّىٰ ظَلَامُهُ

* إذا خَرَجتْ من عَدُوِّكَ لفظةُ سَفَهٍ ، فلا تُلْحِقها بمثلها تُلَقِّحها ، ونسلُ الخصام نسلٌ مذموم .

* حَمِيَّتُكَ لنفسك أثر الجهل بها ، فلو عرفتها حق معرفتها أعَنْتَ الخصمَ عليها .

* إذا اقتدحت نار الانتقام من نار الغضب ابتدأت بإحراق القادح .
* أوثق غضبك بسلسلة الحلم ، فإنه كلب إن أفلت أتلف .
* مَن سبقت له سابقة السعادة ، دلَّ على الدليل قبل الطلب .

---

(١) هو من كلام أكثم بن صيفي ومعناه : أنها لا تكون ظئراً لقوم على جُعل تأخذه منهم وذكر بعض أهل العلم أن المثل للحارث بن سليل الأسدي قاله لامرأته ريا بنت علقمة الطائي . اهـ. قاله أبو عبيد في «فصل المقال» ص ٢٨٩ وانظر «مجمع الأمثال» ١/ ٨١ .

* إذا أراد القدر شخصاً بذر في أرض قلبه بذر التوفيق ، ثم سقاه بماء الرغبة والرهبة ، ثم أقام عليه بأطوار المراقبة ، واستخدم له حارس العلم ، فإذا الزرع قائم على سوقه .

* إذا طلع نجمُ الهمَّة في ظلام ليل البطالة ، وردفه قمر العزيمة ، أشرقت أرض القلب بنور ربِّها .

* إذا جَنَّ الليل تغالَب النومُ والسهر ، فالخوف والشوق في مقدم عسكر اليقظة ، والكسل والتواني في كتيبة الغفلة ، فإذا حمل العزمُ حمل على الميمنة فانهزمت جنود التفريط ، فما يطلع الفجر إلا وقد قُسمت السهمان وبردت الغنيمة لأهلها .

* سفر الليل لا يطيقه إلا مُضَمَّر المجاعة ، النجائب[1] في الأوَّل ، وحاملات الزاد في الأخير .

* لا تسأم من الوقوف على الباب ولو طُردت ، ولا تقطع الاعتذار ولو رُددت ، فإن فُتِحَ البابُ للمقبولين دونك فاهجمْ هجومَ الكذابين وادخلْ دخولَ الطفيلية وابسطْ كفّ ﴿ وَتَصَدَّقْ علينا ﴾ [يوسف : ٨٨] .

* يا مستفتحاً بابَ المعاش بغير إقليد[2] التقوى ، كيف توسع طريق الخطايا وتشكو ضيقَ الرزق .

* لو وَقَفْتَ عند مراد التقوى لم يَفُتْكَ مراد .

* المعاصي سَدٌّ في باب الكسب ، و« إنَّ العَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ

---

(١) النجائب : جمع نجيبة ، وهي خيار الابل .
(٢) الاقليد : المفتاح .

بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ »[1] .

تَـالـلَّهِ مَـا جِئْتُـكُـمُ زَائِـراً   إِلَّا وَجَدْتُ الأَرْضَ تُطْوَىٰ لِيْ
وَلَا انْثَنَىٰ عَـزْمِيَ عَنْ بَابِكُمْ   إِلَّا تَـعَـثَّـرْتُ بِـأَذْيَـالِـيْ

* الأرواح في الأشباح كالأطيار في الأبراج ، وليس ما أُعِدَّ للاستفراخ كمن هُيِّىءَ للسباق .

* مَنْ أراد مِنَ العمال أن يعرف قدره عند السلطان فلينظرْ ماذا يوليه من العمل وبأي شغل يَشغله .

* كنْ من أبناء الآخرة ولا تكن من أبناء الدنيا، فإن الولد يتبع الأم .

* الدنيا لا تساوي نقل أقدامك إليها ، فكيف تعدو خلفها ؟

* الدنيا جيفة ، والأسد لا يقع على الجِيَف .

* الدنيا مجاز والآخرة وطن، والأوطار[2] إنما تُطلَب في الأوطان.

الاجتماع بالإخوان قسمان :

أحدهما : اجتماع على مؤانسة الطبع وشغل الوقت ، فهذا مضرَّته أرجح من منفعته ، وأقل ما فيه أنه يفسد القلب ويضيع الوقت .

الثاني : الاجتماع بهم على التعاون على أسباب النجاة والتواصي بالحق والصبر ، فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها ، ولكن فيه ثلاث آفات :

إحداها : تزيّن بعضهم لبعض .

الثانية : الكلام والخلطة أكثر من الحاجة .

---

(١) رواه ابن ماجه رقم (٤٠٢٢) في الفتن: باب ، العقوبات وأحمد في « المسند » ٥/٢٧٧ ـ ٢٨٠ و ٢٨٢ والحاكم ١/٤٩٣ من حديث ثوبان رضي الله عنه وهو حديث ضعيف انظر « الأحاديث الصحيحة » للألباني رقم (١٥٤) .

(٢) الأوطار : جمع وطر ، وهو الحاجة فيها مأرب وهمة .

الثالثة : أن يصير ذلك شهوة وعادة ينقطع بها عن المقصود .

وبالجملة ، فالاجتماع والخلطة لقاح إما للنفس الأمّارة وإما للقلب والنفس المطمئنة ، والنتيجة مستفادة من اللقاح ، فمن طاب لقاحه طابت ثمرته ، وهكذا الأرواح الطيبة لقاحها من المَلَك ، والخبيثة لقاحها من الشيطان ، وقد جعل اللَّهُ سبحانه بحكمته الطيّباتِ للطيّبين والطيّبين للطيّبات ، وعَكْسَ ذلك .

* * *

٢٢ ـ قاعدة

ليس في الوجود الممكن سببٌ واحد مستقل بالتأثير ، بل لا يؤثر سبب البتة إلا بانضمام سبب آخر إليه وانتفاء مانع يمنع تأثيره . هذا في الأسباب المشهودة بالعيان ، وفي الأسباب الغائبة والأسباب المعنوية كتأثير الشمس في الحيوان والنبات فإنه موقوف على أسباب أُخَر ، من وجودِ محل قابل ، وأسباب أُخَر تنضم إلى ذلك السبب . وكذلك حصول الولد موقوف على عدة أسباب غير وطء الفحل ، وكذلك جميع الأسباب مع مسبباتها ، فكل ما يُخاف ويُرجى من المخلوقات فأعلى غاياته أن يكون جزءَ سببٍ غير مستقل بالتأثير ، ولا يستقل بالتأثير وحده دون توقف تأثيره على غيره إلا اللّه الواحد القهّار ، فلا ينبغي أن يُرجى ولا يُخاف غيره . وهذا برهان قطعي على أن تعلُّق الرجاء والخوف بغيره باطل ، فإنه لو فرض أن ذلك سبب مستقل وحده بالتأثير لكانت سببيته من غيره لا منه ، فليس له من نفسه قوة يفعل بها ، فإنه لا حولَ ولا قوَّة إلا باللّه فهو الذي بيده الحول كله والقوة كلها ، فالحول والقوة التي يُرْجَىٰ لأجلهما المخلوق ويُخاف إنما هما للّه وبيده في الحقيقة . فكيف يُخاف ويُرجى

مَن لا حول له ولا قوة ، بل خوف المخلوق ورجاؤه أحد أسباب الحرمان ونزول المكروه بمن يرجوه ويخافه ، فإنه على قدر خوفك من غير اللَّه يسلَط عليك ، وعلى قدر رجائك لغيره يكون الحرمان . وهذا حال الخلق أجمعه ، وإن ذهب عن أكثرهم علماً وحالاً ، فما شاء اللَّه كان ولا بد ، وما لم يشأ لم يكن ولو اتفقت عليه الخليقة .

* * *

التوحيد مفزع أعدائه وأوليائه : فأما أعداؤه فينجيهم من كُرَب الدنيا وشدائدها ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَىٰ ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٥] . وأما أولياؤه فينجيهم من كربات الدنيا والآخرة وشدائدها . ولذلك فزع إليه يونس ، فنجّاه اللَّه من تلك الظلمات . وفزع إليه أتباع الرسل فنجوا به مما عَذَّبَ به المشركون في الدنيا وما أُعِدَّ لهم في الآخرة . ولما فزع إليه فرعون ، عند معاينة الهلاك وإدراك الغرق ، لم ينفعه ، لأن الإيمان عند المعاينة لا يُقبَل . هذه سُنَّة اللَّه في عباده . فما دُفِعَتْ شدائدُ الدنيا بمثل التوحيد . ولذلك كان دعاء الكرب[1] بالتوحيد ودعوة ذي النون التي ما دعا بها مكروب

---

(١) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عند الكرب : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ العَظِيْمُ الحَلِيْمُ ، لَا إِلَّا اللَّهُ رَبُّ العَرْشِ العَظِيْمِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَمَاوَاْتِ وَالأَرْضِ وَرَبُّ العَرْشِ الكَرِيْمِ » .

رواه البخاري ١١/ ١٢٣ في الدعوات باب : الدعاء عند الكرب ، وفي التوحيد باب وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم ، وباب قول الله تعالى : ﴿ تعرج الملائكة والروح فيه ﴾ ، ومسلم رقم (٢٧٣٠) في الذكر والدعاء ، باب : دعاء الكرب . والترمذي رقم (٣٤٣١) في الدعوات ، باب ما يقول عند الكرب وابن ماجة رقم (٣٨٨٣) في الدعاء باب الدعاء عند الكرب ، وأحمد في « المسند » ١/ ٢٢٨ ، ٢٥٤ ، ٣٣٩ ، ٣٥٦ .

إلا فرَّج اللَّه كربه بالتوحيد[1]. فلا يُلْقي في الكُرَب العظامَ إلا الشركُ ولا يُنجي منها إلا التوحيد ، فهو مفزَع الخليقة وملجؤها وحصنها وغياثها . وباللَّه التوفيق .

* * *

٢٣ ـ فائدة

اللذة تابعة للمحبة ، تَقْوَىٰ بقوَّتها وتضعف بضعفها ، فكلما كانت الرغبةُ في المحبوب والشوقُ إليه أقوى كانت اللذة بالوصول إليه أتمّ . والمحبة والشوق تابع لمعرفته والعلم به ، فكلما كان العلم به أتمّ كانت محبته أكمل ، فإذا رجع كمال النعيم في الآخرة وكمال اللذة إِلَىٰ العلم والحب، فمن كان يؤمن باللَّه وأسمائه وصفاته ودينه أَعْرَف، كان له أَحَب ، وكانت لذته بالوصول إليه ومجاورتِهِ والنظر إلى وجهه وسماعِ كلامه أتمّ . وكل لذة ونعيم وسرور وبهجة بالإضافة إلىٰ ذلك كقطرة في بحر ، فكيف يُؤثر مَن له عقلٌ لذةً ضعيفةً قصيرةً مشوبة بالآلام على لذة عظيمة دائمة أبد الآباد ؟! وكمال العبد بحسب هاتين القوتين : العلم والحب ، وأفضل العلم العلم باللَّه ، وأعلى الحب الحب له ، وأكمل اللذة بحسبهما . واللَّه المستعان .

---

(١) وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «دعوة ذي النون إذ دعا بها وهو بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ـ لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له » رواه الترمذي رقم (٣٥٠٠) وأحمد في « المسند » ١/ ١٧٠ ، والحاكم ١/ ٥٠٥ وصححه ووافقه الذهبي ، وهو كما قالا : انظر« الفتوحات الربانية » ٤/ ١١ .

٢٤ ـ قاعدة

طالبُ اللَّه والدارَ الآخرة لا يستقيم له سيرُه وطلبُه إلا بحبسين : حبس قلبه في طلبه ومطلوبه ، وحبسه عن الالتفات إلى غيره . وحبس لسانه عما لا يفيد ، وحبسه على ذكر اللَّه وما يزيد في إيمانه ومعرفته . وحبس جوارحه عن المعاصي والشهوات، وحبسها على الواجبات والمندوبات ، فلا يفارق الحبس حتى يلقى ربه فيخلصه من السجن إلى أوسع فضاء وأطيبه . ومتى لم يصبر على هذين الحبسين وفرَّ منهما إلى فضاء الشهوات أعقبه ذلك الحبس الفظيع عند خروجه من الدنيا ، فكل خارج من الدنيا إما متخلص من الحبس وإما ذاهب إلى الحبس . وباللَّه التوفيق .

* * *

وَدَّعَ ابنُ عونٍ[1] رجلاً فقال : عليك بتقوى اللَّه ، فإن المتقي ليست عليه وحشة .

وقال زيد بن أسلم[2]: كان يقال: مَن اتَّقى اللَّهَ أحبَّه الناس وإنْ كرِهوا .

---

(١) هو عبد الله بن عون بن أرطبان المزني ، مولاهم ، أبو عون الخراز ، البصري ، أحد الأعلام .

روى عن عطاء ومجاهد وسالم والحسن والشعبي وخلق .

روى عنه : شعبة والثوري وابن علية ويحيى بن سعيد القطان وخلائق .

قال ابن مهدي : ما أحد أعلم بالسنة بالعراق من ابن عون . وقال روح بن عبادة : ما رأيت أعبد منه . وقال يحيى القطان : مات سنة احدى وخمسين ومائة .

(٢) هو أبو أسامة زيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب ، مدني ، من أكابر التابعين .

روى عنه الثوري ، وأيوب السختياني ، ومالك ، وابن عيينة .

مات سنة ست وثلاثين ومائة .

وقال الثوري[1] لابن أبي ذئب[2] : إن اتقيتَ اللّه كفاك الناس ، وإن اتقيتَ الناس لن يُغنوا عنك من اللّه شيئاً .

---

(١) هو أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب بن رافع بن عبد الله بن موهبة بن منقذ بن نصر بن الحكم بن الحارث بن مالك بن ملكان بن ثـور بن عبد مناة بن أُد بن طابخة بن اليـاس بن مضر ، الثوري الكوفي ، إمام المسلمين ، وحجة الله على خلقه ، تفوت فضائله الاحصاء ، وتعجـز العادين ، جمـع في زمنه بين الفقـه والاجتهاد ، في الحديث وغيره من العلوم ، اجمع الناس على دينه وزهده وورعه وثقته . ولم يختلفوا في ذلك ، وهو أحد الأئمة المجتهدين ، وأحد أقطاب الإسلام وأركان الدين .

ولد في أيام سليمان بن عبد الملك سنة تسع وتسعين ، وقيل غير ذلك .

سمع أبا إسحاق السبيعي ، وعمرو بن مرة ، ومنصور بن المعتمر ، وكهيل ، وحبيب ابن أبي ثابت وعبد الملك بن عمير ، والأعمش ، وإسماعيل بن أبي خالد ، وأيوب السختياني ، وسليمان التيمي ، وخلقاً كثيراً .

روى عنه معمر بن راشد ، والأوزاعي ، وابن جريج ، ومحمد بن إسحاق ، ومالك ، وشعبة ، وابن عيينة ، وإبراهيم بن سعـد ، وسليمان بن بلال ، وحماد بن سلمة ، وفضيل بن عياض ، ويحيـى بن سعيد القطان ، وابن مهدي ، ووكيع وبن المبارك .

ومات بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة ي خلافة المهدي .

(٢) هو محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة بن الحارث بن أبي ذئب ، واسم أبي ذئب هشام بن شعبة ، الإمام شيخ الإسلام ، أبو الحارث القرشي العامري المدني الفقيه .

قال أحمد : كان يشبه بسعيد بن المسيب . فقيل لأحمد : خلَّف مثله ؟ قال : لا ، ثم قال : كان أفضل من مالك ، إلّا أن مالكاً رحمه الله أشد تنقية للرجال منه .

قال محمد بن عمر الواقدي : ولد سنة ثمانين وكان من أورع الناس وأفضلهم وكان يصلي الليل أجمع ويجتهد في العبادة ، ولو قيل له : إن القيامة تقوم غداً ما كان فيه مزيد من الاجتهاد .

أخبرني أخوه قال : كان أخي يصوم يوماً ويفطر يوماً ، ثم سرد الصوم وكان خشن العيش يتعشى الخبز والزيت وله قميص وطليسان يشتو فيه ويصيف .

قال : وكان من رجال الناس صرامة وقولاً بالحق ، مات سنة ثمان وخمسين ومئة .

انظر ترجمته في « سير أعلام النبلاء » ٧/ ١٣٩ - ١٤٩ .

وقال سليمان بن داود : أُوتينا مما أُوتي الناس ومما لم يُؤتَوْا ، وعَلِمْنا مما عَلِمَ الناس ومما لم يَعْلَموا ، فلم نجد شيئاً أفضل من تقوى اللَّه في السرِّ والعلانية ، والعدل في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنى .

وفي «الزهد» للإمام أحمد(١) أثر إلّهي : «ما من مخلوق اعتصم بمخلوق دوني إلا قطعت أسباب السموات والأرض دونَه ، فإنْ سألني لم أُعْطِه ، وإن دعاني لم أُجبْه ، وإن استغفرني لم أغفر له .

---

(١) هو الإمام، العلم، إمام المحدثين ، ناصر السنة ، والصابر في المحنة ، أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني ، مروزي الأصل ، قدمت به أمه بغداد وهي حامل فولدته بها.

طلب العلم ، وسمع الحديث من شيوخها ، ورحل إلى الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والجزيرة والشام .

أخذ عن هشيم وابراهيم بن سعد ويزيد بن هارون وابن عيينة وعبد الرزاق ووكيع بن الجراح وابن عدي . وأخذ عنه خلائق منهم الإمام البخاري ومسلم وأبو داود وأبو زرعة وموسى بن هارون وابن معين وابن المديني وأبو القاسم البغوي .

قال ابن كثير في « البداية » ١٠/٣٢٧ : وقد قال الشافعي لأحمد لما اجتمع به في الرحلة الثانية إلى بغداد سنة تسعين ومئة ، وعمر أحمد إذ ذاك نيف وثلاثون سنة ، قال له : يا أبا عبد الله إذا صح عندكم الحديث فأعلمني به أذهب إليه حجازياً كان أو شامياً أو عراقياً أو يمنياً ، يعني لا يقول بقول فقهاء الحجاز الذين لا يقبلون إلا رواية الحجازيين وينزلون أحاديث من سواهم منزلة أحاديث أهل الكتاب ، وقول الشافعي له هذه المقالة تعظيم لأحمد وإجلال له وأنه عنده بهذه المثابة إذا صحح أو ضعف يرجع إليه .

وقال الشافعي : خرجت من بغداد وما خلفت بها أفقه ولا أعلم ولا أورع ولا أزهد من أحمد بن حنبل . وقال يحيى بن معين : ما رأيت خيراً من أحمد بن حنبل قط ، ما افتخر علينا قط بالعربية ولا ذكرها . وقال يحيى بن آدم : أحمد بن حنبل إمامنا ، وقال علي بن المديني : أحمد بن حنبل سيدنا . وقال رحمه الله تعالى : إن الله أعز هذا الدين برجلين لا ثالث لهما أبي بكر الصديق يوم الردة ، وأحمد بن حنبل يوم المحنة .

وكان رحمه الله تعالى يحفظ ألف ألف حديث ، توفي رحمه الله تعالى سنة احدى وأربعين ومائتين ، وولد سنة أربع وستين ومائة .

وما من مخلوق اعتصم بي دون خلقي إلا ضمِنَتْ السمواتُ والأرضُ رزقَه ، فإنْ سألني أعطيته ، وإن دعاني أجبتُه ، وإن استغفرني غفرتُ له » .

* * *

٢٥ ـ فائدة جليلة

* جمع النبي صلى اللّه عليه وسلم بين تقوى اللّه وحُسن الخلق ، لأن تقوى اللّه تُصْلح ما بين العبد وبين ربه ، وحُسن الخلق يُصْلح ما بينه وبين خلقه . فتقوى اللّه توجب له محبة اللّه ، وحُسن الخلق يدعو الناس إلى محبته .

* * *

٢٦ ـ فائدة جليلة

* بين العبد وبين اللّه والجنة قنطرة تُقطَع بخطوتين : خطوة عن نفسه ، وخطوة عن الخلق ، فيسقط نفسه ويلغيها فيما بينه وبين الناس ، ويسقط الناس ويلغيهم فيما بينه وبين اللّه ، فلا يلتفت إلا إلى مَن دَلَّه على اللّه وعلى الطريق الموصلة إليه .

* صاح بالصحابة واعظ ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ [الأنبياء : ١] ، فجزعَتْ للخوف قلوبهم ، فجرت من الحذر العيون ﴿ فسالَتْ أوديةٌ بقَدَرها ﴾ [الرعد : ١٧] .

* تزيَّنت الدنيا لعلي رضي الله عنه فقال : «أنتِ طالقٌ ثلاثاً لا رجعةَ لي فيكِ » . وكانت تكفيه واحدة للسنة ، لكنه جمع الثلاث لئلا يُتَصَوَّر للهوى جواز المراجعة . ودينه الصحيح وطبعه السليم يأنفان من

المحلل ، كيف وهو أحد رُواة حديث « لعن الله المحلل »[1] .

* ما في هذه الدار موضع خلوة فاتخذه في نفسك .

لا بدَّ أن تجذبك الجواذب فاعرفْها وكنْ منها على حذر ، ولا تضرّك الشواغل إذا خلوت منها وأنت فيها .

* نور الحق أضوأ من الشمس ، فيحقُّ لخفافيش البصائر أن تعشو عنه .

* الطريق إلى الله خالٍ من أهل الشك ومن الذين يتبعون الشهوات ، وهو معمور بأهل اليقين والصبر ، وهم على الطريق كالأعلام ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ٢٤] .

* * *

٢٧ ـ قاعـــدة

لشهادة « أن لا إلَه إلا الله » عند الموت تأثير عظيم في تكفير السيئات وإحباطها[2]، لأنها شهادة من عبد موقن بها عارف بمضمونها، قد ماتت منه الشهوات ولانت نفسُه المتمردة ، وانقادت بعد إبائها واستعصائها وأقبلت بعد إعراضها وذلَّتْ بعد عزِّها ، وخرج منها حرصُها

---

(١) وهو حديث صحيح ، من حديث عبد الله بن مسعود وأبي هريرة ، وعلي بن أبي طالب ، وجابر بن عبد الله ، وابن عباس ، وعقبة بن عامر ، رضي الله عنهم . انظر « ارواء الغليل » ٦/ ٣٠٧ ـ ٣١١ و « جامع الأصول » ١١/ ٥٠١ ـ ٥٠٢ .

(٢) روى مسلم رقم (٢٦) في الإيمان : باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه، ما لفظه « من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة » . ورواه أيضاً أحمد في « المسند » ١/ ٦٥ ، وابن حبان في « صحيحه » رقم (٢٠١) « الإحسان » ورقم (٦) « موارد » .

على الدنيا وفضولها ، واستخذَتْ بين يَدَيْ ربها وفاطرها ومولاها الحق أذلَّ ما كانت له وأرْجَى ما كانت لعفوه ومغفرته ورحمته ، وتجرَّد منها التوحيد بانقطاع أسباب الشرك وتحقق بطلانه ، فزالت منها تلك المنازعات التي كانت مشغولة بها ، واجتمع همّها على مَن أيقنت بالقدوم عليه والمصير إليه ، فوجَّهَ العبدُ وجهَهُ بكليته إليه ، وأقبل بقلبه وروحه وهَمِّه عليه . فاستسلم وحده ظاهراً وباطناً ، واستوى سرُّه وعلانيته فقال : « لا إله إلا الله » مخلصاً من قلبه . وقد تخلّص قلبُه من التعلق بغيره والالتفات إلى ما سواه . قد خرجت الدنيا كلها من قلبه ، وشارف القدوم على ربه ، وخمدت نيرانُ شهوته ، وامتلأ قلبه من الآخرة ، فصارت نصب عينيه ، وصارت الدنيا وراء ظهره ، فكانت تلك الشهادة الخالصة خاتمة عمله ، فطهّرَتْه من ذنوبه ، وأدخلَتْهُ على ربِّه ، لأنه لقي ربَّه بشهادة صادقة خالصة ، وافق ظاهرُها باطنَها وسرُّها علانيتَها ، فلو حصلت له الشهادة على هذا الوجه في أيام الصحة لاستوحش من الدنيا وأهلها ، وفرَّ إلى الله من الناس ، وأنِسَ به دون ما سواه ، لكنه شهد بها بقلبٍ مشحون بالشهوات وحُبِّ الحياة وأسبابها ، ونفسٍ مملوءةٍ بطلب الحظوظ والالتفات إلى غير الله . فلو تجردت كتجرُّدها عند الموت لكان لها نبأ آخر وعيش آخر سوى عيشها البهيمي . والله المستعان .

* * *

* ماذا يملك مِنْ أَمرِهِ مَنْ ناصيتُه بيد الله ونفسُه بيده ، وقلبُه بين إصبعين من أصابعه يقلبه كيف يشاء[1]، وحياته بيده، وموته بيده،

---

(١) روى مسلم في القدر باب تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء رقم (٢٦٥٤) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن قلوب بنى آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد =

وسعادته بيده ، وشقاوته بيده ، وحركاته وسكناته وأقواله وأفعاله بإذنه ومشيئته . فلا يتحرك إلا بإذنه ، ولا يفعل إلا بمشيئته .

إنْ وكّله إلى نفسه وكّله إلى عجز وضيعة ، وتفريط وذنب وخطيئة .

وإنْ وكله إلى غيره ، وكله إلى مَنْ لا يملك له ضرّاً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً .

وإنْ تخلى عنه استولى عليه عدوّه وجعله أسيراً له . فهو لا غِنى له عنه طرفة عين ، بل هو مضطرٌّ إليه على مدى الأنفاس في كل ذرّة من ذرّاته باطناً وظاهراً : فاقتُه تامة إليه . ومع ذلك فهو متخلف عنه مُعْرِض عنه، يتبغض إليه بمعصيته، مع شدة الضرورة إليه من كل وجه، قد صار لذكره نَسِيّاً، واتخذه وراءه ظهريّاً، هذا وإليه مرجعُه وبين يديه موقفُه.

***

فَرِّغْ خَاطِرَك للهَمِّ بما أمرت به ولا تشغله بما ضُمِنَ لك ، فإن الرزق والأجل قرينان مضمونان . فما دام الأجل باقياً ، كان الرزق آتياً . وإذا سَدَّ عليك بحكمته طريقاً من طرقه ، فتح لك برحمته طريقاً أنفع لك منه .

فتأمَّلْ حال الجنين يأتيه غذاؤه ، وهو الدم ، من طريق واحدة وهو السرّة ، فلما خرج من بطن الأم ، وانقطعت تلك الطريق ، فتح له طريقين اثنين وأجرى له فيهما رزقاً أطيب وألذّ من الأول ، لبناً خالصاً سائغاً .

فإذا تمَّتْ مدة الرضاع وانقطعت الطريقان بالفطام فتح طرقاً أربعة

يصرِّفه حيث يشاء ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم مصرِّف القلوب صرِّف قلوبنا على طاعتك » .

أكمل منها : طعامان وشرابان ، فالطعـامان من الحيـوان والنبات ، والشرابات من المياه والألبان وما يضاف إليهما من المنافع والملاذّ .

فإذا مات انقطعت عنه هذه الطرق الأربعة . لكنه سبحانه فتح له ـ إن كان سعيداً ـ طرقاً ثمانية ، وهي أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيِّها شاء .

فهكذا الرب سبحانه لا يمنع عبده المؤمن شيئاً من الدنيا إلا ويؤتيه أفضل منه وأنفع له . وليس ذلك لغير المؤمن . فإنه يمنعه الحظ الأدنى الخسيس ، ولا يرضى له به ليعطيه الحظ الأعلى النفيس . والعبد لجهله بمصالح نفسه ، وجهله بكرم ربه وحكمته ولطفه ، لا يعرف التفاوت بين ما مُنع منه وبين ما ادّخر له . بل هو مولع بحب العاجل وإن كان دنيئاً ، وبقلة الرغبة في الآجل وإن كان عليّاً . ولو أنصف العبدُ ربَّه ، وأنَّى له بذلك ، لعَلِمَ أن فضله عليه فيما منعه من الدنيا ولذاتها ونعيمها أعظم من فضله عليه فيما آتاه من ذلك ، فيما منعه إلا ليعطيه ، ولا ابتلاه إلا ليعافيه ، ولا امتحنه إلا ليصافيه ، ولا أماته إلا ليحييه ، ولا أخرجه إلى هذه الدار إلا ليتأهب منها للقدوم عليه وليسلك الطريق الموصلة إليه . فـ ﴿ جَعَلَ اللَّيْلَ والنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾ [الفرقان : ٦٢] ﴿وَأَبَى الظَّالِمُونَ إلَّا كُفُوراً ﴾ [الإسراء : ٩٩] . والله المستعان .

* * *

* مَن عرف نفسه اشتغل بإصلاحها عن عيوب الناس ، ومن عرف ربه اشتغل به عن هوى نفسه .

* أنفع العمل أن تغيب فيه عن الناس بالإخلاص ، وعن نفسك بشهود المنّة ، فلا ترى فيه نفسك ولا ترى الخلق .

* دخل الناسُ النارَ من ثلاثة أبواب :

باب شبهة أورثت شكاً في دين الله .

وباب شهوة أورثت تقديم الهوى على طاعته ومرضاته .

وباب غضب أورث العدوان على خلقه .

* أصول الخطايا كلها ثلاثة :

الكِبْر : وهو الذي أصارَ إبليس إلى ما أصاره .

والحرص : وهو الذي أخرج آدم من الجنة .

والحسد : وهو الذي جَرَّأَ أحَدَ ابنَي آدم على أخيه . فمَنْ وُقِيَ شر هذه الثلاثة فقد وقي الشر .

فالكفر من الكبر ، والمعاصي من الحرص ، والبغي والظلم من الحسد .

* جعل الله بحكمته كل جزء من أجزاء ابن آدم ، ظاهرة وباطنة ، آلة لشيء إذا استعمل فيه فهو كماله . فالعين آلة للنظر . والأذن آلة للسماع . والأنف آلة للشم . واللسان للنطق . والفرج للنكاح . واليد للبطش . والرِّجل للمشي . والقلب للتوحيد والمعرفة . والروح للمحبة . والعقل آلة للتفكر والتدبُّر لعواقب الأمور الدينية والدنيوية وإيثار ما ينبغي إيثاره وإهمال ما ينبغي إهماله .

* أخسر الناس صفقة مَن اشتغل عن الله بنفسه ، بل أخسر منه مَن اشتغل عن نفسه بالناس .

* * *

* في السنن من حديث أبي سعيد[1] يرفعه « إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسَانَ ، تَقُولُ : اتَّقِ الله ، فإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ ، فَإِن اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا ، وإِن اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا »[2] .

قوله : « تُكَفِّر اللسان » ، قيل : معناه تخضع له وفي الحديث : إن الصحابة لما دخلوا على النجاشي لم يُكفِّروا[3] له ، أي

---

(١) هو سعد بن مالك بن سنان بن ثعلبة بن عبيد بن الأبجر ، وهو خدرة بن عوف بن الحارث الخزرجي الأنصاري الخدري ، اشتهر بكنيته ، كان من الحفاظ المكثرين العلماء الفضلاء العقلاء .

أول مشاهده الخندق ، وذلك أنه قال : عرضت على النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، وأنا ابن ثلاث عشرة سنة ، فجعل أبي يأخذ بيدي ، فيقول : يا رسول الله ! إنه عبد الفطام ، وإن كان مؤذناً ـ أي قصيراً ـ فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يصعد في بصره ويصوبه ثم قال : رده ، فردني ، فخرجنا نلتقي رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أقبل من أُحد ، فنظر إليَّ ، فقال : سعد بن مالك ؟ ! قلت : نعم بأبي وأمي ، فدنوت ، فقبلت ركبته ؟ فقال : آجرك الله في أبيك ، وكان قتل يومئذ شهيداً . وغزا أبو سعيد مع النبي صلى الله عليه وسلم اثنتي عشرة غزوة .

روى عنه جماعة من الصحابة والتابعين منهم : ابن عمر ، وجابر ، وزيد بن ثابت ، وغيرهم . مات سنة أربع وسبعين ، ودفن بالبقيع ، وله أربع وثمانون سنة .

(٢) رواه الترمذي مرفوعاً ومرسلاً رقم (٢٤٠٩) في الزهد : باب ما جاء في حفظ اللسان ، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وهو حديث حسن . ورواه أيضاً ابن خزيمة في « صحيحه » والبيهقي في « شعب الإيمان » وابن أبي الدنيا .

(٣) حديث دخول الصحابة على النجاشي ، ومناظرة عمرو بن العاص له . رواه ابن هشام في « السيرة النبوية » ١/ ٣٥٦ ـ ٣٦٢ ، قال الهيثمي في « المجمع » ٦/ ٢٤ ـ ٢٧ : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ، غير ابن إسحاق ، وقد صرح بالسماع .

رواه أحمد في « المسند » ١/ ٢٠٢ و٥/ ٢٩٠ و٢٩٢ عن محمد بن إسحاق ، حدثني محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب ، عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي ، عن أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة زوج النبي صلى الله عليه وسلم . . . وهذا الإسناد صحيح ، فقد صرح ابن إسحاق بالتحديث فانتفت شبهه تدليسه .

لم يسجدوا ولم يخضعوا . ولذلك قال له عمرو بن العاص[1] : أيها الملك : إنهم لا يُكَفِّرون لك = وإنما خَضَعَتْ[2] للسان لأنه بريد القلب وترجمانه والواسطة بينه وبين الأعضاء .

وقولها : « إنَّمَا نَحْنُ بِكَ » ، أي نجاتنا بك وهلاكنا بك ، ولهذا قالت : فإن استقمتَ استقمنا وإن اعوججت اعوججنا .

* * *

٢٨ ـ فصل

* جمع النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : « فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ »[3] بين مصالح الدنيا والآخرة ، ونعيمُها ولذاتُها إنما

---

(١) هو أبو عبد الله ، ويقال : أبو محمد ، عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم السهمي ، القرشي .
أسلم سنة خمس من الهجرة ، وقيل : سنة ثمان ، قال ابن عبد البر : وهو الصحيح .
قدم مع خالد بن الوليد ، وعثمان بن طلحة ، فأسلموا جميعاً ، وولاه النبي صلى الله عليه وسلم على عُمَان ، فلم يزل عليها حتى قُبض النبي صلى الله عليه وسلم ، وعمل لعمر وعثمان ومعاوية ، وهو ولاه فتح مصر لعمر ، ولم يزل عاملاً له عليها إلى آخر وفاته ، أو أقره عثمان عليها نحو من أربع سنين وعزله ، ثم أقطعه إياها معاوية لما صار الأمر إليه ، فمات بها سنة ثلاث وأربعين ، وقيل : اثنتين وأربعين ، وقيل : ثمان وأربعين ، وقيل : إحدى وخمسين ، والصحيح الأول ، وله يومئذ تسعون سنة ، وولي مصر بعده ابنه عبد الله ، ثم عزله معاوية .
روى عنه ابنه عبد الله ، وابن عمر ، وقيس بن أبي حازم .

(٢) أي الجوارح .

(٣) حديث صحيح بشواهده ، رواه أبو نعيم في « الحلية » ١٠ / ٢٦ ـ ٢٧ من حديث أبي =

يُنال بتقوى الله .

وراحة القلب والبدن ، وترك الاهتمام والحرص الشديد والتعب والعناد والكدّ والشقاء في طلب الدنيا ، إنما يُنال بالإجمال في الطلب ، فمن اتقى الله فاز بلذّة الآخرة ونعيمها ، ومَن أجمَلَ في الطلب استراح من نكد الدنيا وهمومها ، فالله المستعان .

قَدْ نَادَتِ الدُّنْيَا عَلَىٰ نَفْسِهَا لَوْ كَانَ فِيْ ذَا الخَلْقِ مَنْ يَسْمَعُ
كَمْ وَاثِقٍ بِالعَيْشِ أَهْلَكْتُهُ وَجَامِعٍ فَرَّقْتُ مَا يَجْمَعُ

* * *

٢٩ ـ فائدة

* جمع النبي صلى الله عليه وسلم [في تعوذه] بين المأثم والمغرم[(١)] ، فإن المأثم يوجب خسارة الآخرة ، والمغرم يوجب خسارة الدنيا .

* * *

أمامة رضي الله عنه ، وفي سنده عفير بن معدان وهو ضعيف ، وباقي رجاله ثقات ، وأورده الهيثمي في « المجمع » ٤/ ٧٢ ونسبه للطبراني في « الكبير » وأعله بعفير بن معدان ، ولكن له شاهد من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عند الحاكم في « المستدرك » ٢/ ٤ ، وآخر عند ابن ماجه رقم (٢١٤٤) وابن حبان رقم (١٠٨٤) و (١٠٨٥) والحاكم ٢/ ٤ و ٤/ ٣٢٥ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، ومن حديث حذيفة عن البزار كما في « المجمع » ٤/ ٧١ ، فيصح الحديث بها . وقد استقصى تخريج الحديث الشيخ أحمد محمد شاكر رحمه الله في « الرسالة للشافعي » ص ٩٣ ـ ١٠٣ .

(١) روى البخاري ٢/ ٢٦٣ في صفة الصلاة : باب الدعاء قبل السلام ، وفي الاستقراض : باب من استعاذ من الدين ، وفي الفتن : باب ذكر الدجال ، ومسلم رقم (٥٨٩) في المساجد : باب ما يستعاذ منه في الصلاة ، وأبو داود رقم (٨٨٠) في الصلاة : باب الدعاء في الصلاة ، والنسائي ٣/ ٥٦ في السهو : باب نوع آخر من التعوذ في الصلاة ، وأحمد في « المسند » ٦/ ٨٩ و٢٤٤ ، من حديث عائشة =

٣٠ - فـائـــدة

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت : ٢٩] . عَلّق سبحانه الهداية بالجهاد ، فأكملُ الناس هدايةً أعظمُهم جهاداً ، وأفرض الجهاد جهاد النفس ، وجهاد الهوى ، وجهاد الشيطان ، وجهاد الدنيا(١) . فمَنْ جاهدَ هذه الأربعة في الله هداه الله سُبُلَ رضاه الموصلة إلى جنته ، ومَن ترك الجهاد فاته من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد .

قال الجنيد(٢) : والذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة لنهدينهم سُبُل الإخلاص ، ولا يتمكن من جهاد عدوه في الظاهر إلاَ مَن جاهد هذه الأعداء باطناً ، فمَن نُصِرَ عليها نُصِرَ على عدوه ، ومَن نُصِرَتْ عليه نُصِرَ عليه عدوُّه .

* * *

= رضي الله عنها ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو في الصلاة يقول : « اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات ، اللهم إني أعوذ بك من المأثم والمغرم » فقال له قائل : ما أكثر ما تستعيذ من المغرم ؟ فقال : « إن الرجل إذا غرم حدَّث فكذب ، ووعد فأخلف » .

(١) انظر كتاب « الجهاد في الإسلام » للاستاذ محمد شديد فإنه من أنفس ما كتب في بابه .

(٢) هو الجنيد بن محمد بن الجنيد ، البغدادي ، الخزاز أبو القاسم ، مولده ومنشأه ووفاته ببغداد ، وكان إمام الدنيا في زمانه ، كما وصفه ابن الأثير . وعده العلماء شيخ مذهب التصوف لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة ، ولكونه مصوناً من العقائد الذميمة ، محميّ الأساس من شُبه الغلاة ، سالماً من كل ما يوجب اعتراض الشرع . من كلامه : طريقنا مضبوط بالكتاب والسنة ، من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدى به . توفي في بغداد سنة ٢٩٧هـ .

٣١ - فصــل

ألقى اللهُ سبحانه العداوةَ بين الشيطان وبين الملك ، والعداوة بين العقل وبين الهوى ، والعداوة بين النفس الأمّارة وبين القلب . وابتلى العبدَ بذلك وجمع له بين هؤلاء ، وأمدَّ كل حب بجنود وأعوان ، فلا تزال الحرب سجالاً ودُولاً بين الفريقين ، الى أن يستولي أحدهما على الآخر ، ويكون الآخر مقهوراً معه .

فإذا كانت النوبة للقلب والعقل والملك فهنالك السرور والنعيم واللذة والبهجة والفرح وقُرّة العين وطيب الحياة وانشراح الصدر والفوز بالغنائم .

وإذا كانت النوبة للنفس والهوى والشيطان فهنالك الغموم والهموم والأحزان وأنواع المكاره وضيق الصدر وحبس الملك . فما ظنُّكَ بمَلِكٍ استولى عليه عدوُّه فأنزله عن سرير مُلكه وأسَرَهُ وحبسَه وحالَ بينه وبين خزائنه وذخائره وخدمه وصَيَّرها له ، ومع هذا فلا يتحرك الملك لطلب ثأره ، ولا يستغيث بمن يغيثه ، ولا يستنجد بمن ينجده . وفوق هذا الملك ملك قاهر لا يُقهر ، وغالب لا يُغلَب ، وعزيز لا يُذَلّ ، فأرسل إليه : إن استنصرتني نصرتك ، وإن استغثت بي أغثتك، وإن التجأتَ إليَّ أخذتُ بثأرك ، وإن هربتَ إليَّ وأوَيْتَ إليَّ سلّطتُكَ على عدوِّك ، وجعلته تحت أسرك .

فإنْ قال هذا الملك المأسور : قد شَدّ عدوّي وثَاقي وأحكَمَ رباطي ، واستوثق مني بالقيود ، ومنعني من النهوض إليك ، والفرار إليك ، والمسير إلى بابك ، فإنْ أرسلتَ جنداً من عندك يحلّ وثَاقي ،

ويفكّ قيودي ، ويخرجني من حبسه ، آمكنني أن أوافي بابك ، وإلا لم يمكنني مفارقة محبسي ، ولا كسر قيودي .

فإنْ قال ذلك احتجاجاً على ذلك السلطان ، ودَفْعاً لرسالته ، ورضا بما هو فيه عند عدوِّه ، خلّاه السلطان الأعظم وحالَه وولّاه ما تولى .

وإنْ قال ذلك افتقاراً إليه ، وإظهاراً لعجزه وذُلّه ، وأنه أضعف وأعجز [من] أن يسير إليه بنفسه ، ويخرج من حبس عدوِّه، ويتخلص منه بحَوْله وقوّته ، وأنّ من تمام نعمة ذلك عليه ، كما أرسل إليه هذه الرسالة ، أن يمدّه من جنده ومماليكه بمن يعينه على الخلاص ، ويكسر باب محبسه ، ويفكّ قيوده ، فإنْ فعل به ذلك فقد أتمّ إنعامه عليه ، وإنْ تخلّى عنه ، فلم يظلمه ، ولا منعه حقاً هو له ، وأنَّ رحمته وحكمته اقتضى منعه وتخليته في محبسه ، ولا سيما إذا علم أن الحبس حبسه ، وأن هذا العدو الذي حبسه مملوكٌ من مماليكه ، وعبدٌ من عبيده ، ناصيته بيده لا يتصرف إلا بإذنه ومشيئته ، فهو غير ملتفت إليه ، ولا خائف منه ، ولا معتقد أن له شيئاً من الأمر ، ولا بيده نفعٌ ولا ضرّ ، بل هو ناظر إلى مالكه ، ومتولي أمره ومَن ناصيته بيده ، وقد أفرده بالخوف والرجاء ، والتضرُّع إليه والالتجاء ، والرغبة والرهبة ، فهناك تأتيه جيوش النصر والظفر .

* * *

* أعلى الهِمَم في طلب العلم ، طلب علم الكتاب والسنة ، والفهم عن الله ورسوله نفس المراد ، وعلم حدود المنزل . وأخَسّ هِمَم طلاب العلم ، قصر هِمّته على تتبُّع شواذ المسائل ، وما لم ينزل ، ولا

هو واقع ، أو كانت هِمّته معرفة الاختلاف ، وتتبُّع أقوال الناس ، وليس له هِمّة إلى معرفة الصحيح من تلك الأقوال . وقَلَّ أن ينتفع واحد من هؤلاء بعلمه .

وأعلى الهِمَم في باب الإرادة أن تكون الهِمّة متعلقة بمحبة الله والوقوف مع مراده الديني الأمري . وأسفلها أن تكون الهمّة واقفة مع مراد صاحبها من اللّه ، فهو إنما يعبده لمراده منه لا لمراد اللّه منه ، فالأول يريد اللّه ويريد مراده ، والثاني يريد من اللّه وهو فارغ عن إرادته .

* * *

* علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم ويدعونهم إلى النار بأفعالهم ،فكلما قالت أقوالهم للناس: هلمُّوا ، قالت أفعالهم: لا تسمعوا منهم . فلو كان ما دعوا إليه حقاً كانوا أول المستجيبين له ، فهم في الصورة أدلاء وفي الحقيقة قُطّاع الطرق .

* إذا كان اللّه وحده حظك ومرادك فالفضل كله تابع لك يزدلف[١] إليك، أي أنواعه تبدأ به، وإذا كان حظك ما تنال منه، فالفضل موقوف عنك لأنه بيده تابع له ، فعل من أفعاله ، فإذا حصل لك ، حصل لك الفضل بطريق الضمن والتبع ، وإذا كان الفضل مقصودك ، لم تحصل اللّه بطريق الضمن والتبع ، فإن كنتَ قد عرفته ، وأنستَ به ، ثم سقطتَ إلى طلب الفضل ، حرمك إياه عقوبة لك ففاتك اللّه وفاتك الفضل .

* * *

---

(١) أي يتقدم ويقترب .

٣٢ - فصل

لما خرج رسول اللّه صلى الله عليه وسلم من حصر العدو دخل في حصر النصر ، فعبثت أيدي سراياه بالنصر في الأطراف، فطار ذكره في الآفاق ، فصار الخلق معه ثلاثة أقسام : مؤمن به، ومسالم له، وخائف منه .

ألقى بذر الصبر في مزرعة ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف : ٣٥] ، فإذا أغصان النبات تهتزُّ بخزامى[١] ﴿ وَٱلْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ﴾ [البقرة : ١٩٤] .

فدخل مكة دخولاً ما دخله أحد قبله ولا بعده . حوله المهاجرون والأنصار لا يبين منهم إلا الحدق[٢] . والصحابة على مراتبهم ، والملائكة فوق رؤوسهم ، وجبريل يتردّد بينه وبين ربه ، وقد أباح له حرمه الذي لم يحلّه لأحد سواه ، فلما قايس بين هذا اليوم وبين يوم[٣] ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ [الأنفال : ٣٠] فأخرجوه ثاني اثنين[٤] . دخل وذَقْنُهُ تمسُّ قربوس[٤] سرجه خضوعاً وذلاً لمن ألبسه ثوب هذا العز الذي رفعتْ إليه فيه الخليقةُ رؤوسها

---

(١) الخزامى : عشبة طويلة العيدان ، صغيرة الورق ، حمراء الزهرة ، طيبة الريح ، لها نَوْر كنَوْر البنفسج ، ولم نجد من الزهر أطيبَ نفحة من نفح الخزامي .

(٢) الحدق : جمع حدقة ، وهي السواد المستدير وسط العين .

(٣) هو يوم الهجرة. انظر الفصل (٣٧) .

(٤) القَرَبوس : حنو السرج ، قال الأزهري : وللسرج قربوسان . فأما القربوس المقدم ففيه العضدان وهما رجلا السراج ، ويقال لهما : حنواه ، والقربوس الآخر فيه رجلا المؤخرة ، وهم حنواه أيضاً .

وَمَدَّتْ إليه الملوكُ أعناقَهَا . فدخل مكة مالكاً مؤيَّداً منصوراً .

وعـلا كَعْبُ بلالٍ[1] فوق الكعبة بعد أن كان يُجَرُّ في الرمضاء على جمر الفتنة ، فنشر بزّاً[2] طوي عن القوم من يوم قوله : « أحد أحد » . ورفع صوته بالأذان ، فأجابته القبائل من كل ناحية ، فأقبلوا يؤمّون الصوت ، فدخلوا في دين اللّه أفواجاً وكانوا قبل ذلك يأتون آحاداً .

فلما جلس الرسول صلى الله عليه وسلم على منبر العز ، وما نزل عنه قط ، مدَّت الملوكُ أعناقَهَا بالخضوع إليه . فمنهم من سَلَّمَ إليه مفاتيح البلاد ، ومنهم مَن سأله الموادعة والصلح ، ومنهم مَن أقرَّ بالجزية والصغَّار ، ومنهم مَن أخذ في الجمع والتأهب للحرب ، ولم يدرِ أنه لم يزد على جمع الغنائم وَسَوْق الأسارى إليه .

فلما تكامل نصرُهُ وبَلَّغ الرسالة وأدّى الأمانة وجاءه منشور ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً ﴾ الفتح : ١ ـ ٣] ، وبعده توقيع ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً ﴾ [النصر : ١ ـ ٢] ، جاءه رسولُ ربه يخيِّره بين المُقام في الدنيا وبين لقائه ، فاختار لقاءَ ربه شوقاً إليه ،

---

١) هو أبو عبد الرحمن ، وقيل أبو عبد الله ، وقيل أبو عبد الكريم ، وقيل : أبو عمرو ، بلال بن رباح ، مولى أبي بكر الصديق ، وأمه حمامة ، وهو من مولدي السراة ، أسلم قديماً ، وهو أول من أظهر اسلامه بمكة ، شهد بدراً وما بعدها من المشاهد ، وسكن الشام أخيراً ، ولا عقب له .

روى عنه أبو بكر ، وعمر ، وابن عمر ، وجماعة من الصحابة والتابعين .

ومات بدمشق سنة عشرين ، وقيل : ثماني عشرة ، ودفن بباب الصغير ، وله بضع وستون سنة ، وقيل : وسبعون ، وقيل : دفن بباب كيسان .

(٢) البز : نوع من الثياب تصنع من الكتان أو القطن .

فتزيَّنت الجنان ليوم قدوم روحه الكريمة لا كزينة المدينة يوم قدوم الملِك .

إذا كان عرش الرحمن قد اهتز لموت بعض أتباعه[1] فرحاً واستبشاراً بقدوم روحه ، فكيف بقدوم روح سيد الخلائق ؟ فيا منتسباً إلى غير هذا الجناب ، ويا واقفاً بغير هذا الباب ، ستعلم يوم الحشر أي سريرة تكون عليها ﴿ يَوْمَ تُبْلَىٰ السَّرَائِرُ ﴾ [الطارق : ٩] .

* * *

٣٣ ـ فصل

* يا مغروراً بالأماني : لُعِنَ إبليسُ وأُهْبِطَ من منزل العز بترك سجدة واحدة أُمِرَ بها ، وأخرج آدمُ من الجنة بلقمة تناولها ، وحجب القاتل عنها بعد أن رآها عياناً بملء كفٍّ من دم ، وأمر بقتل الزاني أشنع القتلات بإيلاج قدر الأنملة فيما لا يحلّ ، وأمر بإيساع الظهر سياطاً بكلمة قذف أو بقطرة من مُسْكِر ، وأبان عضواً من أعضائك بثلاثة دراهم فلا تأمنه أن يحبسك في النار بمعصية واحدة من معاصيه ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ [الشمس : ١٥] .

دخلت امرأة النار في هرَّة[2] . وإن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي

(١) روى البخاري ٧/ ٩٣ في فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : باب مناقب سعد بن معاذ ، ومسلم رقم (٢٤٦٧) في فضائل الصحابة : باب من فضائل سعد بن معاذ ، والترمذي رقم (٣٨٤٧) في المناقب : باب مناقب سعد بن معاذ رضي الله عنه ، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اهتز العرش لموت سعد بن معاذ » .

(٢) قطعة من حديث رواه البخاري ٦/ ٢٥٤ في بدء الخلق : باب إذا وقع الذباب في

لها بالاً يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب[1] ، وإن الرجل ليعمل بطاعة اللّه ستين سنة ، فإذا كان عند الموت جارَ في الوصية فيختم له بسوء عمله فيدخل النار[2] . العمر بآخره والعمل بخاتمته[3].

= شراب أحدكم فليغمسه ، وفي الشرب : باب فضل الماء ، وفي الأنبياء : باب ما ذكر عن بني اسرائيل ، ومسلم رقم (٢٢٤٢) في البر : باب تحريم تعذيب الهرة من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ولفظه : « دخلت امرأة النار في هرة ، ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خُشاش الأرض » . وفي رواية « عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت . . . » الحديث .

(١) معنى حديث رواه البخاري ١١/ ٢٦٦ في الرقاق : باب حفظ اللسان ، ومسلم رقم (٢٩٨٨) في الزهد : باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار ، والترمذي رقم (٢٣١٥) في الزهد : باب فيمن تكلم بكلمة ليضحك الناس ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، ولفظه : « إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً ، يرفعه الله بها في الجنة ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يُلقي لها بالاً ، يهوي بها في جهنم » .

(٢) رواه أبو داود رقم (٢٨٦٨) في الوصايا باب ما جاء في كراهية الإضرار في الوصية والترمذي رقم (٢١١٨) في الوصايا باب رقم (٢) ولفظه « إن الرجل ليعملُ والمرأةَ بطاعة الله ستين سنة ثم يحضرهما الموت ، فيضاران في الوصية فتجب لهما النار » من حديث أبي هريرة .

ورواه أحمد في « المسند » ٢/ ٢٧٨ وابن ماجه رقم (٢٧٠٤) في الوصايا باب الحيف في الوصية من حديثه أيضاً بلفظ : « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة ، فإذا أوصى حافَ في وصيته فيختم له بشر عمله فيدخل النار ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة فيعدل في وصيته فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة » والروايتان من طريق شهر بن حوشب وهو ضعيف، وأوردهما الألباني في « ضعيف الجامع » رقم ١٤٥٧ و١٤٥٨ .

قال شيخنا الاستاذ عبد القادر الأرنؤوط وللحديث شاهد بمعناه من حديث ابن عباس « الإضرار بالوصية من الكبائر » رواه سعيد بن منصور موقوفاً بسند صحيح والنسائي مرفوعاً ورجاله ثقات ، والله أعلم .

(٣) روى البخاري ١١/ ٤٣٦ في القدر : باب العمل بالخواتيم ، وفي الرقاق : باب الأعمال بالخواتيم وما يخاف منها ، وأحمد في « المسند » ٥/ ٣٣٥ من حديث سهل =

* مَن أحدث قَبْلَ السلام بَطلَ ما مضى من صلاته ، وَمَن أفطر قبل غروب الشمس ذهب صيامُهُ ضائعاً ، ومَن أساء في آخر عمره لقي ربه بذلك الوجه .

لو قدمت لقمة وجدتها[1]، ولكن يؤذيك الشره .

كم جاء الثواب يسعى إليك فوقف بالباب فردَّه بوَّابُ « سوفَ ولعلَّ وعسى » .

* كيف الفلاح بين إيمان ناقص ، وأمل زائد ، ومرض لا طبيب له ولا عائد ، وهوىً مستيقظٍ ، وعقلٍ راقدٍ ، ساهياً في غمرته ، عَمِهاً في سكرته ، سابحاً في لجة جهله ، مستوحشاً من ربِّه ، مستأنساً بخلقه ، ذكْرُ الناس فاكهتُهُ وقوتُه ، وذكْرُ اللّه حبْسُه وَمَوْتُهُ ، للّه منه جزءٌ يسيرٌ من ظاهره ، وقلبُه ويقينُهُ لغيره .

لَا كَـانَ مَنْ لِسِـوَاكَ فِيْـهِ بَقِيَّـةٌ   يَجِـدُ السَبِيْلَ بِهَـا إِلَيْـهِ العُـذَّلُ

* * *

٣٤ ـ فَصـــل

كان أولَ المخلوقات القلم[1] ليكتب المقادير قبل كونها ، وجعل آدم آخر المخلوقات وفي ذلك حكم .

= ابن سعد الساعدي رضي الله عنه ، ما لفظه :

« . . . إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار ، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبـدو للناس وهو من أهل الجنة ، وإنما الأعمال بالخواتيم ، أو بخواتيمها» .

(١) أي لو قدمتها في الدنيا لوجدتها في الآخرة .

(٢) أبو داود رقم (٤٧٠٠) في السنة : باب في القدر، والترمذي رقم (٢١٥٦) في =

أحدها : تمهيد الدار قبل الساكن .

الثانية : أنه الغاية التي خلق لأجلها ما سواه من السموات والأرض والشمس والقمر والبر والبحر .

الثالثة : أن أحذق الصنّاع يختم عمله بأحسنه وغايته كما يبدؤه بأساسه ومبادئه .

الرابعة : أن النفوس متطلعة إلى النهاياتِ والأواخر دائماً ، ولهذا قال موسى للسحَرة : ﴿ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴾ [يونس : ٨٠] أولاً ، فلما رأى الناسُ فعْلَهم تطلَّعوا إلى ما يأتي بعده .

الخامسة : أن اللّه سبحانه أخَّر أفضل الكتب والأنبياء والأمم إلى آخر الزمان ، وجعل الآخرة خيراً من الأولى ، والنهايات أكمل من البدايات ،فكم بين قول الملَك للرسول إقرأ ، فيقول : ما أنا بقارىء ، وبين قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة : ٣٠] .

السادسة : أنه سبحانه جمع ما فرّقه في العالم في آدم ، فهو العالم الصغير وفيه ما في العالم الكبير[1] .

= القدر باب رقم ١٧ ، وأحمد في « المسند » ٥/ ٣١٧ ، من حديث عبادة بن الصامت . وإسناده حسن ، وهو حديث صحيح بطرقه ، ولفظه عند أبي داود : قال عبادة بن الصامت لابنه : يا بني ! إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب ، قال : ربِّ ! وماذا أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة » يا بني ! إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من مات على غير هذا فليس مني » .

(١) قال الشاعر :

وَتَحْسَبُ أَنَّكَ جُرْمٌ صَغِيْرٌ وَفِيْكَ انْطَوَى الْعَالَمُ الأَكْبَرُ

السابعة : أنه خلاصة الوجود وثمرته ، فناسب أن يكون خلقه بعد الموجودات .

الثامنة : أن من كرامته على خالقه أنه هيَّأ له مصالحه وحوائجه وآلاتِ معيشته وأسبابَ حياته ، فما رفع رأسه إلا وذلك كله حاضر عتيد .

التاسعة : أنه سبحانه أراد أن يظهر شرفه وفضله على سائر المخلوقات ، فقدمها عليه في الخلق ، ولهذا قالت الملائكة : ليخلق ربنا ما شاء فلن يخلق خلقاً أكرم عليه منا . فلما خلق آدم وأمَرَهم بالسجود له ظهر فضلُه وشرفُهُ عليهم بالعلم والمعرفة ، فلما وقع في الذنب ظنَّت الملائكة أن ذلك الفضل قد نسخ ولم تطَّلع على عبودية التوبة الكامنة ، فلما تاب إلى ربّه ، وأتى بتلك العبودية ، علمت الملائكة أنّ للّه في خلقه سرّاً لا يعلمه سواه .

العاشرة : أنه سبحانه لما افتتح خلق هذا العالم بالقلم كان من أحسن المناسبة أن يختمه بخلق الإنسان ، فإن القلم آلة العلم ، والإنسان هو العالِم . ولهذا أظهر سبحانه فضلَ آدم على الملائكة بالعلم الذي خُصَّ به دونهم .

وتأمَّلْ كيف كتب سبحانه عذر آدم قبل هبوطه إلى الأرض ونبّه الملائكة على فضله وشرفه ونوَّه باسمه قبل إيجاده بقوله : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] . وتأمَّلْ كيف وَسَمَهُ بالخلافة وتلك ولايةٌ له قبل وجوده ، وأقام عذره قبل الهبوط بقوله : ﴿ فِي الأَرْضِ ﴾ - والمحبُّ يقيم عذر المحبوب قبل جنايته . فلما صوَّره على باب الجنة أربعين سنة لأن دأب المحب الوقوف على باب الحبيب ، ورمى به في

طريق ذلّ ﴿ لم يكن شيئاً ﴾ لئلا يُعْجَبَ يوم ﴿ اسجدوا ﴾ . وكان إبليس يمرّ على جسده فيعجب منه ويقول : لأمر قد خُلقت ، ثم يدخل من فيه ويخرج من دبره ويقول : لئن سلطت عليك لأهلكنك ولئن سلطت عليَّ لأعصينك ، ولم يعلم أن هلاكه على يده . رأى طيناً مجموعاً فاحتقره ، فلما صوّر الطين صورة دبَّ فيه داء الحسد ، فلما نفخ فيه الروح مات الحاسد . فلما بسط له بساط العزِّ ، عرضت عليه المخلوقات ، فاستحضر مدّعي ﴿ وَنَحْنُ نسَبِّح ﴾ إلى حاكم ﴿ أَنْبِئُونِي ﴾ . وقد أخفى الوكيل عنه بيّنة ﴿ وَعَلَّمَ ﴾ فنكسوا رؤوس الدعاوى على صدور الإقرار .

فقام منادي التفضيل في أندية الملائكة ينادي : ﴿ اسجدوا ﴾ ، فتطهّروا من حَدَث دعوى ﴿ ونحن ﴾ بماء العذر في آنية ﴿ لا عِلمَ لنا ﴾ ، فسجدوا على طهارة التسليم ، وقام إبليس ناحية لم يسجد ، لأنه خَبَثٌ ، وقد تَلَوّن بنجاسة الاعتراض . وما كانت نجاسته تُتلافى بالتطهير ، لأنها عينية ، فلما تمّ كمال آدم قيل : لا بُدّ من خال جَمالٍ على وجه ﴿ اسْجُدُوا ﴾ ، فجرى القدر بالذنب ، ليتبين أثر العبودية في الذلّ .

* يا آدم ! لو عفى لك عن تلك اللقمة لقال الحاسدون : كيف فُضِّلَ ذو شره لم يصبر على شجرة .

لولا نزولك ما تصاعدت صعداء الأنفاس ، ولا نزلت رسائل « هل من سائل »[1] ؟ ولا فاحت روائح « وَلَخُلُوف فَمِّ

---

(١) قطعة من حديث النزول رواه البخاري ١٣/ ٣٨٩ - ٣٩٠ في التوحيد : باب قول الله تعالى : ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ و٣/ ٢٥ - ٢٦ في التهجد : باب الدعاء والصلاة من آخر الليل ، ومسلم رقم (٧٥٨) في صلاة المسافرين وقصرها : باب =

الصّائِمِ »[1] ، فتبيّن حينئذٍ أن ذلك التناول لم يكن عن شره .

* يا آدم ، ضحككَ في الجنة لك ، وبكاؤك في دار التكليف لنا .

* ما ضرَّ من كَسَرَهُ عِزِّي ، إذا جَبَرَهُ فَضْلِي .

* إنما تليق خلعة العزِّ ببدن الانكسار .

= الترغيب في الدعاء والذكر آخر الليل ، و« الموطأ » ١/ ٢١٤ في القرآن : باب ما جاء في الدعاء ، والترمذي رقم (٣٤٩٣) في الدعوات : باب رقم ٨٠ ، وأبو داود رقم (١٣١٥) في الصلاة : باب أي الليل أفضل ، ورقم (٤٧٣٣) في السنة : باب في الرد على الجهمية ، وأحمد في « المسند » ٢/ ٢٥٨ و٢٦٤ و٢٦٥ و٢٨٢ و٤١٩ و٤٣٣ و٤٨٧ و٥٠٤ ، وابن ماجه رقم (١٣٦٦) وفي إقامة الصلاة : باب ما جاء في أي ساعات الليل أفضل ، والدارمي رقم (١٤٨٦) و (١٤٨٧) في الصلاة : باب ينزل الله إلى السماء الدنيا ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وفي الباب عن علي ، وابن مسعود ، وعثمان بن أبي العاص ، وعمرو بن عبسة رضي الله عنهم عند أحمد ، وعن جبير بن مطعم ورفاعة الجهني رضي الله عنهما عند النسائي ، وعن أبي الدرداء وعبادة بن الصامت رضي الله عنهما عند الطبراني ، وعن عقبة بن عامر وجابر بن عبد الله رضي الله عنهم عند الدارقطني .

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى مؤلف كبير شرح به هذا الحديث طبع أكثر من مرة باسم « شرح حديث النزول » .

وإحدى ألفاظ الحديث : « ينزل الله إلى السماء الدنيا كل ليلة ، حين يمضي ثلث الليل الأول ، فيقول : أنا الملك ، أنا الملك ، من ذا الذي يدعوني فأستجيب له ، من ذا الذي يسألني فأعطيه ، من ذا الذي يستغفرني فأغفر له ، فلا يزال كذلك حتى يضيء الفجر » .

(١) قطعة من حديث رواه البخاري ٤/ ٨٨ ـ ٩٤ في الصوم : باب فضل الصوم ، وفي أبواب وكتب أخرى ، ومسلم رقم (١١٥١) في الصيام : باب حفظ اللسان ، وأبو داود رقم (٢٣٦٣) في الصوم : باب الغيبة للصائم ، والترمذي رقم (٧٦٤) في الصوم : باب ما جاء في فضل الصوم ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . أنظر ألفاظ الحديث في : « جامع الأصول » رقم « ٧١٣٤) . وانظر شرح الحديث للمصنف رحمه الله تعالى في «الوابل الصيب » ص ٣٣ ـ ٣٨ من طبعتنا ـ مكتبة دار البيان بدمشق .

* أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي .

* ما زالت تلك الأكْلة تُعادُه[1] حتى استولى داؤه على أولاده ، فأرسل إليهم اللطيف الخبير الدواء على أيدي أطباء الوجود ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ آتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ [طه : ١٢٣] . فحماهم الطبيب بالمناهي ، وَحَفِظَ القوةَ بالأوامر ، واستفرغ أخلاطهم الرديئة بالتوبة ، فجاءت العافية من كل ناحية . فيا مَنْ ضَيَّعَ القوة ولم يحفظها ، وخلَطَ في مرضه وما احتمى ، ولا صبر على مرارة الاستفراغ ، لا تُنْكِرْ قربَ الهلاك ، فالداء مترامٍ إلى الفساد . لو ساعَدَ القدَرُ فأعنتَ الطبيبَ على نفسك بالحمية من شهوة خسيسة ظَفرْتَ بأنواع اللذات وأصناف المشتهيات . ولكنّ بخارَ الشهوة غطّى عينَ البصيرة ، فظننتَ أن الحزم بَيْعُ الوعد بالنقد .

* يا لها بصيرة عمياء، جَزِعَتْ من صبر ساعة، واحتمَلَتْ ذُلَّ الأبد . سافَرَتْ في طلب الدنيا وهي عنها زائلة ، وقعدَتْ عن السفر إلى الآخرة وهي إليها راحلة .

* إذا رأيت الرجل يشتري الخسيس بالنفيس ويبيع العظيم بالحقير ، فاعلمْ بأنه سفيه .

* * *

---

(١) « الأكلة » أي أكل آدم عليه السلام من الشجرة ، « تعاده » : من العداد يقال : به مرض عداد وهو أن يدعه زماناً ثم يعاوده وقد عادَّه معادَّة وعداداً ، كأن اشتقاقه من الحساب من قبل عدد الشهور والأيام . أي أن الوجع كأنه يعدُّ ما يمضي من السنة ليعاوده .

٣٥ ـ فصـــل

* لما سلم لآدم أصل العبودية لم يقدح فيه الذنب .

* « ٱبْنَ آدَمَ ، لَوْ لَقِيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَاْ ثُمَّ لَقِيْتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِيْ شَيْئاً ، لَقِيْتُكَ بِقُرَابِهَاْ مَغْفِرَةً »(١) .

* لما علم السيد أن ذنب عبده لم يكن قصداً لمخالفته ولا قدحاً في حكمته ، علَّمه كيف يعتذر إليه ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة : ٣٧] .

العبدُ لا يريد بمعصيته مخالفةَ سيده ولا الجرأة على محارمه ، ولكن غلبات الطبع ، وتزيين النفس والشيطان ، وقهر الهوى ، والثقة بالعفو ، ورجاء المغفرة ، هذا من جانب العبد . وأما من جانب الربوبية فجريان الحكم ، وإظهار عزِّ الربوبية وذلِّ العبودية وكمال الاحتياج ،

---

(١) رواه الترمذي رقم (٣٥٣٤) في الدعوات باب رقم (١٠٦) من حديث أنس بن مالك رضي اللّه عنه ولفظه : « قال اللّه تعالى : يا ابن آدم ! ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي ، يا ابن آدم ! لو بلغت ذنوبك عنان الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة » وقال الترمذي : حديث حسن غريب لا نعرفه إلَّا من هذا الوجه ، وفي سنده كثير بن فائـد لم يوثقه غير ابن حبان .

ورواه أحمد في « المسند » ٥/ ١٦٧ و ١٧٢ والدارمي رقم (٢٧٩١) في الرقاق : باب إذا تقرب العبد إلى اللّه من حديث أبي ذر الغفاري رضي اللّه عنه . وفي سـنده عندهما شهر بن حوشب وهو صدوق كثير الإرسال والأوهام .

قال الألباني في « الأحاديث الصحيحة » رقم (١٢٨) : ورجاله موثوقون غير كثير بن فائد لم يوثقه غير ابن حبان ولكن الحديث حسن كما قال الترمذي لشواهده . انتهى .

قال النووي في رياض الصالحين رقم (٤٤٩) من طبعتنا : قوله « قرابها » بضم القاف وقيل بكسرها ، والضم أصح وأشهر وهو ما يقارب ملأها ،واللّه أعلم .

وظهور آثار الأسماء الحسنى : كالعفوِّ والغفور والتوّاب والحليم ، لمن جاء تائباً نادماً ، والمنتقم والعدل وذي البطش الشديد لمن أصرَّ ولزم المعرّة[1] . فهو سبحانه يريد أن يُري عبدَه تفرُّده بالكمال، ونقص العبد وحاجته إليه . ويشهده كمال قدرته وعزَّته ، وكمال مغفـرته وعفـوه ورحمته ، وكمال برِّه وستره ، وحلمه وتجاوزه وصفحه ، وأن رحمته به إحسان إليه لا معارضة ، وأنه إنْ لم يتغمّده برحمته وفضله فهو هالك لا محالة . فللَّه كم في تقدير الذنب من حكمة ، وكم فيه مع تحقيق التوبة للعبد من مصلحة ورحمة[2] .

التوبة من الذنب كشرب الدواء للعليل ، ورُبَّ علة كانت سبب الصحة .

لَعَـلَّ عَتْبَكَ مَحْمُـوْدٌ عَوَاقِبُـهُ   وَرُبَّما صَحَّتِ الأَجْسَادُ بِالعِلَلِ

* لولا تقدير الذنب هلك ابن آدم من العُجْب .
* ذنب يذلُّ به أحبُّ إليه من طاعة يدلُّ بها عليه .
* شمعة النصر إنما تنزل في شمعدان الانكسار .

---

(١) المعرة : الإثم والجناية (ر : اللسان) .

(٢) عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال : قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « لن يدخل أحداً منكم عملُه الجنة ، قالوا : ولا أنت ، قال : ولا أنا إلَّا أن يتغمدني اللَّه منه بفضل ورحمة » رواه البخاري في المرضى ١٠/ ١٠٩ باب تمني الموت ، وفي الرقاق ٢٥٢/١١ ، ٢٥٤ باب القصد والمداومة على العمل ومسلم رقم (٢٨١٦) في صفات المنافقين باب لن يدخل أحد الجنة بعمله والنسائي ٨/ ١٢١ ، ١٢٢ في الإيمان باب الدين يسر ، وأحمد في « المسند » ٢/ ٥١٤ .

ورواه مسلم رقم (٢٨١٧) من حديث جابر بن عبد اللَّه رضي اللَّه عنهما بلفظ « لا يدخل أحداً منكم عمله الجنة ولا يجيره من النار ولا أنا إلَّا برحمة اللَّه عز وجل » .

* لا يكرم العبدُ نفسَه بمثل إهانتها ، ولا يعزُّها بمثل ذلِّها ، ولا يريحها بمثل تعبها ، كما قيل :

سَأُتْعِبُ نَفْسِيْ أَوْ أُصَادِفَ رَاْحَةً   فَإِنَّ هَوَاْنَ النَفْسِ فِيْ كَرَمِ النَفْسِ

ولا يشبعها بمثل جوعها ، ولا يؤمنها بمثل خوفها ، ولا يؤنسها بمثل وحشتها من كل ما سوى فاطِرها وبارئها ولا يحييها بمثل إماتتها ، كما قيل :

مَـوْتُ النُفُوْسِ حَيَـاتُهَا   مَنْ شَاْءَ أَنْ يَحْيَاْ يُـمِتْ

* شراب الهوى حلو ولكنه يورث الشَّرَق[1] .

* مَن تذكّر خَنْقَ الفخ هانَ عليه هجران الحبة .

* يا معرقلاً في شركِ الهوى! جَمْزَة[2] عزمٍ وقد خرقت الشبكة ، لا بُدّ من نفوذ القدر فاجنحْ للسلم .

* للَّه مُلكُ السموات والأرض ، واستقرَضَ منك حبة فبخلتَ بها ، وخلق سبعة أبحر وأحَبَّ منك دمعةً فقحطت عينك بها .

* إطلاق البصر ينقش في القلب صورة المنظور ، والقلب كعبة ، والمعبود لا يرضى بمزاحمة الأصنام .

* لذات الدنيا كسوداء وقد غلبت عليك ، والحور العين يعجبن

---

(١) الشرق : الغصة بالماء . ومنه حديث « الحرق والشرق وشهادة » أي الذي يشرق بالماء فيموت .

(٢) الجمز : العدو والإسراع . ويقال : هو نوع من السير أشد من العنق . أو لعلها « القمزة » بالعامية وقد كتبها المصنف بالجيم كما كان يلفظها بلهجته (لهجة إزرع من أعمال حوران) ومعناها القفزة والله أعلم .

من سوء اختيارك عليهن ، غير أن زوبعة الهوى إذا ثارت سَفَت[1] في عين البصيرة فخفيت الجادة .

* سبحان اللّه ، تزيَّنت الجنةُ للخطّاب فجدُّوا في تحصيل المهر ، وتعرَّف رب العزّة إلى المحبّين بأسمائه وصفاته فعملوا على اللقاء وأنت مشغول بالجيف .

لَا كَانَ مَنْ لِسَوَاكَ مِنْهُ قَلْبُهُ   وَلَكَ اللِسَانُ مَعَ الوِدَادِ الكَاذِبِ

* المعرفةُ بساط لا يطأ عليه إلا مقرّب ، والمحبة نشيد لا يطرب عليه إلا مُحِبّ مُغرَم .

* الحب غدير في صحراء ليست عليه جادة ، فلهذا قلَّ وارده .

* المحِبّ يهرب إلى العزلة والخلوة بمحبوبه والأنس بذكره كهرب الحوت إلى الماء والطفل إلى أمه .

وَأَخْـرُجُ مِنْ بَيْنِ البُيُوْتِ لَعَلَّنِي   أُحَدِّثُ عَنْكِ القَلْبَ بِالسِّرِّ خَالِيًا

* ليس للعابد مستراح إلا تحت شجرة طوبى ، ولا للمحب قرار إلا يوم المزيد[2] .

* اشتغل به في الحياة يكفِكَ ما بعد الموت .

* يا منفقاً بضاعة العمر في مخالفة حبيبه والبعد منه ، ليس في أعدائك أضرّ عليك منك .

---

(١) قوله « كسوداء » أي كامرأة سوداء ، قوله « سفت » : ذَرّت .

(٢) قال الله تعالى : ﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُوْنَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيْدٌ ﴾ [ق : ٣٥] .

مَاْ يَبْلُغُ الأَعْدَاْءُ مِنْ جَاْهِلٍ   مَاْ يَبْلُغُ الجَاْهِلُ مِنْ نَفْسِهِ

* الهمّة العليّة مَن استعدّ صاحبها للقاء الحبيب ، وقدم التقادم بين يدي الملتقى ، فاستبشر عند القدوم ﴿ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ، وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ، وَٱعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ ، وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٣] .

* تاللّه ما عدا عليك العدوّ إلا بعد أن تولى عنك الوليّ ، فلا تظنّ أنَّ الشيطان غلب ، ولكن الحافظ أعرض .

* إحذرْ نفسَك ، فما أصابك بلاءٌ قط إلا منها ، ولا تهادنها فواللّه ما أكرمها مَن لم يُهِنها ، ولا أعزَّها مَن لم يُذِلّها ، ولا جَبَرَهَا مَن لم يكسرها ، ولا أراحها مَن لم يُتعبها ، ولا أمِنَها مَن لم يخوّفها ، ولا فرّحها مَن لم يحزنها .

* سبحان اللّه ، ظاهرك متجمّل بلباس التقوى ، وباطنك باطيّة[1] لخمر الهوى ، فكلما طيّبتَ الثوب فاحت رائحة المسكر من تحته ، فتباعد منك الصادقون ، وانحاز إليك الفاسقون .

* يدخل عليك لص الهوى وأنت في زاوية التعبُّد فلا يرى منك طرداً له ، فلا يزال بك حتى يخرجك من المسجد .

* اصدقْ في الطلب وقد جاءتك المعونة .

---

(١) الباطية : آنية من الزجاج عظيمة تملأ من الشراب وتوضع بين الشرب يغرفون منها ويشربون ، إذا وضع فيها القدح سبحت به ورقصت من عظمها وكثرة ما فيها من الشراب.

* قال رجل لمعروف[1] : علمني المحبة ، فقال : المحبة لا تجيء بالتعليم .

هُوَ الشَّوْقُ مَدْلُوْلاً عَلَىٰ مَقْتَلِ الفَتَى ... إِذَاْ لَمْ يَعِـدْ صَبّـاً بِلُقْيَـا حَبِيْبِـهِ

* ليس العجب من قوله يحبونه ، إنما العجب من قوله يحبهم .

* ليس العجب من فقير مسكين يحب محسناً إليه ، إنما العجب من محسن يحب فقيراً مسكيناً .

* * *

٣٦ ـ فصـــل

القرآن كلام اللّٰه ، وقد تجلى اللّٰه فيه لعباده بصفاته ، فتارة يتجلى في جلباب الهيبة والعـظمة والجـلال ، فتخضع الأعنـاق ، وتنكسر النفوس ، وتخشع الأصوات ، ويذوب الكبر ، كما يذوب الملح في الماء ، وتارة يتجلى في صفات الجمال والكمال ، وهو كمال الأسماء ،

---

(١) معروف بن فيروزالكرخي، علم الزهاد ، بركة العصر أبو محفوظ البغدادي ، كان من موالي الإمام علي الرضى بن موسى الكاظم ، ولد بكرخ بغداد ، ونشأ بها قال الإمام أحمد : هل يراد من العلم إلّا ما وصل إليه معروف .

قال اسماعيل بن شداد قال لنا سفيان بن عيينة : ما فعل ذلك الحَبْر الذي فيكم ببغداد ؟ قلنا : من هو ؟ قال : أبو محفوظ معروف ، قلنا : بخير قال : لا يزال أهل تلك المدينة بخير ما بقي فيهم. توفي ببغداد سنة ٢٠٠ هـ . ولابن الجوزي كتاب في أخباره وآدابه :

ومن بديع قوله :

من كابر اللّٰه صرعه ، ومن نازعه قمعه ، ومن ماكره خدعه ، ومن توكل عليه منعه ، ومن تواضع له رفعه ، كلام العبد فيما لا يعنيه خذلان من اللّٰه.

وجمال الصفات ، وجمال الأفعال الدالّ على كمال الذات ، فيستنفِد حُبُّه من قلب العبد قُوّة الحب كلَّها ، بحسب ما عرفه من صفات جماله ، ونعوت كماله ، فيصبح فؤاد عبده فارغاً إلا من محبته ، فإذا أراد منه الغير أن يعلق تلك المحبة به أبى قلبُه وأحشاؤه ذلك كل الإباء ، كما قيل :

يُـرَادُ مِنَ القَلْبِ نِسْيَانُكُمْ   وَتَأْبَى الطِّبَاعُ عَلَى النَّاقِلِ[1]

فتبقى المحبة له طبعاً لا تكلفاً . وإذا تجلى بصفات الرحمة والبر واللطف والإحسان انبعثت قوة الرجاء من العبد ، وانبسط أمله ، وقويَ طمعُه ، وسار إلى ربه ، وحادي الرجاء يحدو ركابَ سيره . وكلما قويَ الرجاءُ جدَّ في العمل ، كما أن الباذر كلما قويَ طمعُهُ في المَغَلّ غلق أرضه بالبذر ، وإذا ضعف رجاؤه قصر في البذر .

وإذا تجلى بصفات العدل والانتقام والغضب والسخط والعقوبة ، انقمعت النفس الأمّارة وبطلت أو ضعفت قواها من الشهوة والغضب واللهو واللعب والحرص على المحرمات ، انقبضت أعِنَّة[2] رعوناتها ، فأحضَرَت المطيةُ حظها من الخوف والخشية والحذر .

وإذا تجلى بصفات الأمر والنهي والعهد والوصية وإرسال الرسل وإنزال الكتب وشرع الشرائع ، انبعثت منها قُوّةُ الامتثال ، والتنفيذ

---

(١) الناقل : المتحول من مكان إلى مكان وهنا المتحول من محب إلى محب وبهذا المعنى قول أبي تمام :

نقل فؤادك حيث شئتَ من الهوى   مـا الـحب إلاَّ لـلحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألفه الفتى   وحـنـيـنـه أبـداً لأول مـنـزل

(٢) الأعنة : جمع عنان ، وهو الزمام تمسك به الدابة .

لأوامره ، والتبليغ لها ، والتواصي بها ، وذكْرِها وَتَذَكُّرِها ، والتصديق بالخبر ، والامتثال للطلب ، والاجتناب للنهي .

وإذا تجلى بصفات السمع والبصر والعلم ، انبعثت من العبد قوّةُ الحياء ، فيستحيي [من] ربِّه أن يراه على ما يكره ، أو يسمع منه ما يكره ، أو يخفي في سريرته ما يمقته عليه ، فتبقى حركاته وأقواله وخواطره موزونة بميزان الشرع ، غير مهملة ولا مرسلة تحت حكم الطبيعة والهوى .

وإذا تجلى بصفات الكفاية والحسب ، والقيام بمصالح العباد ، وَسَوْق أرزاقهم '' هم ، ودفع المصائب عنهم ، وَنَصْره لأوليائه ، وحمايته لهم ، ومعيَّته الخاصة لهم ، انبعثت من العبد قوة التوكل عليه ، والتفويض إليه ، والرضا به في كل ما يُجريه على عبده ، ويقيمه فيه مما يرضى به هو سبحانه .

والتوكل معنى يلتئم من علم العبد بكفاية اللَّه ، وحسن اختياره لعبده ، وثقته به ، ورضاه بما يفعله به ويختاره له .

وإذا تجلى بصفات العزِّ والكبرياء ، أعطت نفسه المطمئنة ما وصلت إليه من الذلِّ لعظمته ، والانكسار لعزَّته ، والخضوع لكبريائه ، وخشوع القلب والجوارح له ، فتعلوه السكينة والوَقَار في قلبه ولسانه وجوارحه وسمته ، ويذهب طيشه وقوّتُهُ وحدّتُهُ .

وجماع ذلك : أنه سبحانه يتعرّف إلى العبد بصفات إلهيته تارة ، وبصفات ربوبيته تارة ، فيوجب له شهودُ صفاتِ الآلهية المحبةَ الخاصة ، والشوقَ إلى لقائه ، والأُنْسَ والفرحَ به ، والسرور .

بخدمته ، والمنافسةَ في قربه ، والتودُّدَ إليه بطاعته ، واللهج بذكره ، والفرارَ من الخلق إليه ، ويصير هو وحده هَمَّهُ دون ما سواه . . .

ويوجب له شهودُ صفاتِ الربوبية التوكلَ عليه ، والافتقارَ إليه ، والاستعانة به ، والذلَّ والخضوعَ والانكسار له .

وكمالُ ذلك أن يشهد ربوبيته في إلهيته ، وإلهيته في ربوبيته ، وحمده في ملكه ، وعزِّه في عفوه ، وحكمته في قضائه وقدره ، ونعمته في بلائه ، وعطاءَه في منعه ، وبرَّه ولطفه وإحسانه ورحمته في قيُّوميَّته ، وعَدْلَه في انتقامه، وجودَه وكرمَه في مغفرته وسترِه وتجاوزِه . ويشهد حكمتَه ونعمته في أمره ونهيه ، وعزَّه في رضاه وغضبه ، وحِلْمَه في إمهاله ، وكرمَه في إقباله ، وغِناه في إعراضه .

وأنتَ إذا تدبَّرْت القرآن وأجَرْتَه من التحريف ، وأن تقضي عليه بآراء المتكلمين وأفكار المتكلفين ، أشهدك مَلِكاً قَيُّوماً فوق سماواته على عرشه، يدبِّر أمرَ عباده، يأمر وينهى، ويرسل الرسل، وينزل الكتب، ويرضى ويغضب ، ويُثيب ويعاقب ، ويعطي ويمنع ، ويُعِزّ ويُذِلّ ، ويخفض ويرفع ، يَرَىٰ من فوق سبع ويسمع ، ويعلم السرّ والعلانية ، فعَّالٌ لِما يريد ، موصوف بكل كمال، منزَّهٌ عن كل عيب ، لا تتحرّك ذرّة فما فوقها إلا بإذنه ، ولا تسقط ورَقة إلا بعلمه ، ولا يشفع أحدٌ عنده إلا بإذنه ، ليس لعباده من دونه وليٌّ ولا شفيع .

* * *

٣٧ ـ فصــــل

لما بايع الرسول صلى اللّٰه عليه وسلم أهل العقبة أمر أصحابه بالهجرة إلى المدينة ، فعلمت قريش أن أصحابه قد كثروا وأنهم سيمنعونه ، فأعملَتْ آراءها في استخراج الحيَل ، فمنهم مَن رأى الحَبْسَ ، ومنهم مَن رأى النفي . ثم اجتمع رأيهم على القتل ، فجاء البريد بالخبر من السماء وأمَرَه أن يفارق المضجع ، فبات عليٌّ مكانه ونهض الصدِّيق لرفقة السفر . فلما فارقا بيوت مكة اشتدَّ الحذر بالصديق فجعل يذكر الرصد فيسير أمامه وتارة يذكر الطلب فيتأخر وراءه ، وتارة عن يمينه وتارة عن شماله إلى أن انتهيا إلى الغار ، فبدأ الصديق بدخوله ليكون وقاية له إن كان ثَمَّ مؤذٍ . وأنبتَ اللّٰهُ شجرةً لم تكن قبلُ ، فأظلَّت المطلوب وأضلّت الطالب ، وجاءت عنكبوت فحازت وجه الغار فحاكت ثوب نسجها على منوال الستر ، فأحكمت الشقة حتى عميَ على القائف المَطْلَب ، وأرسل اللّه حمامتين فاتخذتا هناك عشاً جعل على أبصار الطالبين غشاوة ،وهذا أبلغ في الإعجاز من مقاومة القوم بالجنود(٢) .

فلما وقفَ القومُ على رؤوسهم وصار كلامهم بسمع الرسول

---

(١) حديث الهجرة رواه أحمد في « المسند » ١/ ٣٤٨ من حديث عبد اللّٰه بن عباس وفيه ذكر العنكبوت فحسب،وهو حديث ضعيف فإن في إسناده عثمان بن عمرو بن ساج الجزري لا يحتج به. وذكر الهيثمي حديث العنكبوت والحمام في « المجمع » ٦/ ٥٣ من حديث أبي مصعب المكي قال : أدركت زيد بن أرقم ، والمغيرة بن شعبة وأنس بن مالك يحدثون أن النبي صلى اللّٰه عليه وسلم : « لما كان ليلة بات في الغار أمر اللّٰه تبارك وتعالى شجرة فنبتت في وجه الغار فسترت وجه النبي صلى اللّٰه عليه وسلم وأمر اللّٰه تبارك وتعالى العنكبوت فنسجت على وجه الغار ، وأمر اللّٰه تبارك وتعالى حمامتين وحشيتين فوقعا بفم الغار . . . . » الحديث ثم قال : رواه البزار والطبراني وفيه جماعة لم أعرفهم .

صلى الله عليه وسلم والصدِّيق ، قال الصديق وقد اشتدّ به القلق : يا رسول اللَّه ، لو أنّ أحدهم نظر إلى ما تحت قدميه لأبصَرنا تحت قدميه . فقال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « يا أبا بكر ، ما ظنك بإثنين اللَّه ثالثهما ؟ » لما رأى الرسول صلى الله عليه وسلم حزنه قد اشتد ، لكن لا على نفسه، قَوَّى قلبه ببشارة ﴿لَا تَحْزَنْ إنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠][1].

فظهر سرُّ هذا الاقتران في المعية لفظاً ، كما ظهر حكماً ومعنىً ، إذ يقال : رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم وصاحب رسول اللَّه رضي الله عنه ، فلما مات صلى اللَّه عليه وسلم قيل : خليفة رسول اللَّه ، ثم انقطعت إضافة الخلافة بموته فقيل : أمير المؤمنين .

فأقاما في الغار ثلاثاً ثم خرجا منه ولسان القدر يقول : لَتَدْخُلَنَّها دخولاً لم يدخله أحدٌ قبلك ولا ينبغي لأحد من بعدك[2] . فلما استقلا على البيداء لحقهما سراقةُ بن مالك[3] ، فلما شارفَ الظفر أرسل عليه

---

(١) رواه البخاري ٧/ ٩ و ١٠ في فضائل أصحاب النبي صلى اللَّه عليه وسلم باب : مناقب المهاجرين وفضلهم ، وباب هجرة النبي صلى اللَّه عليه وسلم إلى المدينة ، وفي تفسير سورة براءة باب قوله ﴿ ثاني اثنين إذ هما في الغار ﴾ ، ومسلم رقم (٢٣٨١) في فضائل الصحابة باب من فضائل أبي بكر رضي اللَّه عنه ، والترمذي رقم (٣٠٩٥) في التفسير باب : ومن سورة التوبة، وأحمدفي « المسند » من حديث أنس بن مالك رضي اللَّه عنه ولفظه : قال أبو بكر رضي اللَّه عنه : « نظرت إلى أقدام المشركين ونحن في الغار ، وهم على رؤوسنا ، فقلت : يا رسول اللَّه ! لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه ، فقال : يا أبا بكر ما ظنك باثنين اللَّه ثالثهما » .

(٢) انظر الفصل رقم (٣٢) .

(٣) هو أبو سفيان سراقة بن مالك بن جعشم بن مالك بن عمرو بن مالك بن تيم بن مدلج ابن مر بن عبد مناة بن علي بن كنانة المدلجي الكناني .
كان ينزل قديداً ، ويعد في أهل المدينة ، ويقال : إنه سكن مكة . =

الرسول صلى الله عليه وسلم سهماً من سهام الدعاء ، فساخت قوائم فرسه في الأرض إلى بطنها[1] ، فلما علمَ أنه لا سبيل له عليهما أخذ يعرض المال على مَن قد ردَّ مفاتيح الكنوز ويقدم الزاد إلى شبعان « أبِيتُ عِنْدَ رَبِّي يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي »[2] .

كانت تحفة ثاني اثنين مدخرة للصدِّيق ، دون الجميع ، فهو الثاني في الإسلام وفي بذل النفس وفي الزهد وفي الصحبة وفي الخلافة وفي العُمْر ، وفي سبب الموت ، لأن الرسول ﷺ مات عن أثر السم[3] ، وأبو بكر سُمَّ فمات[4] .

= روى عنه ابنه محمد ،وجابر بن عبد الله ،وابن عباس ،وابن المسيب ، وطاووس ، وعطاء .

قال له النبي صلى الله عليه وسلم : « كيف بك إذا لبست سواري كسرى ؟ » فلما أتي عمر بن الخطاب بسواري كسرى ومنطقته وتاجه ، دعا سراقة بن مالك ، فألبسه إياهما . وكان سراقة رجلاً كثير شعر الساعدين ، فقال له عمر : ارفع يديك فقال : الله أكبر ، الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز الذي كان يقول : أنا رب الناس ، وألبسهما سراقة بن مالك بن جعشم أعرابي من بني ملدج ، ورفع عمر صوته .

وكان سراقة شاعراً مجيداً ، ومات سنة أربع وعشرين ، وقيل : إنه مات بعد عثمان رضي الله عنه .

(١) حديث الهجرة رواه البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها ، والبخاري ومسلم من حديث البراء بن عازب ، وأنس بن مالك رضي الله عنهما . انظره في « جامع الأصول » ١١ / ٥٨٣ ـ ٦٠٠ من طبعتنا .

(٢) قطعة من حديث رواه البخاري ٤ / ١٧٩ في الصوم : باب التنكيل لمن أكثر الوصال ، وفي كتب وأبواب عدة ، ومسلم رقم (١١٠٣) في الصيام : باب النهي عن الوصل ، وأحمد في « المسند » ٢ / ٢٣١ و٢٣٧ و٢٥٣ ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في مرضه الذي مات فيه : « يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر ، وهذا أوان ما وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم » رواه البخاري تعليقاً .

(٤) روى الطبري في تاريخه ٣ / ٤١٩ (ط دار المعارف) قال : توفي أبو بكر وهو ابن ثلاثة =

وستين سنة في جمادى الآخرة يوم الاثنين لثمان بقين منه . قالوا : وكان سبب وفاته أن اليهود سمَّته في أرُزَّة ، ويقال في جذيذة ، وتناول معه الحارث بن كلدة منها ، ثم كف وقال لأبي بكر : أكلت طعاماً مسموماً سمّ سنة فمات بعد سنة ، ومرض خمسة عشر يوماً ، فقيل : لو أرسلت إلى الطبيب فقال : قد رآني ، قالوا : فما قال لك ؟ قال : إني أفعل ما أشاء .

(٤) هو أمير المؤمنين أبو عبد الله ، وقيل : أبو عمرو : عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب الأموي القرشي ، يقال : إنه كان يكنى في الجاهلية « أبا عمرو » ، فلما ولدت له رقية بنت النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله اكتنى به؛ وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، أسلمت.

وكان إسلام عثمان في أول الإسلام على يد أبي بكر قبل دخول النبي صلى الله عليه وسلم دار الأرقم ، وهاجر إلى الحبشة الهجرتين ، ولم يشهد بدراً لأنه تخلف . بمرض رقية بنت النبي صلى الله عليه وسلم ، وضرب له النبي صلى الله عليه وسلم فيها بسهم ، ولم يشهد بالحديبية بيعة الرضوان ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان بعثه إلى مكة في أمر الصلح ، فلما كانت البيعة ضرب النبي صلى الله عليه وسلم يده على يده وقال : « هذه لعثمان » .

وسمي : ذا النورين ، لجمعه بين بنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم : رقية وأم كلثوم وهو من العشرة المبشرين بالجنة ومن الستة الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راضٍ .

كان أبيض ربعة ، وقيل : أسمر ، رقيق البشرة ، حسن الوجه، بعيد ما بين المنكبين ، كثير شعر الرأس ، عظيم اللحية يصفرها .

استخلف أول يوم من المحرم سنة أربع وعشرين ، وقُتِلَ يوم الجمعة لثمان عشرة خلت من ذي الحجة ، سنة خمس وثلاثين ، وقيل : لثلاث عشرة خلت منه ، وقيل : لثلاث بقين . قتله الأسود التجيبي من أهل مصر ، وقيل : غيره ، ودفن ليلة السبت بالبقيع ، وقيل : إن قبره خارج البقيع في أقصاه ، وله يومئذ من العمر اثنتان وثمانون سنة ، وقيل : ثمانٍ وثمانون ، وقيل : تسعون . وصلى عليه حكيم بن حزام ، وقيل : الزبير بن العوام ، وقيل : جبير بن مطعم .

وكانت خلافته اثنتي عشرة سنة إلا أياماً .

يلقى آباء النبي صلى الله عليه وسلم في عبد مناف .

روى عنه ابن الزبير ، وأنس بن مالك ، وزيد بن خالد الجهني ، وأبان ابنه ،

. . . . وطلحة[1] والزبير[2] وعبد

= وحمران مولاه ، ومروان بن الحكم ، وأبو عبد الرحمٰن السلمي ، وغيرهم .

وقد نشر مجمع اللغة العربية بدمشق ترجمة عثمان رضي الله عنه من تاريخ دمشق لابن عساكر في مجلد ضخم .

(١) هو أبو محمد طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة ابن كعب بن لؤي بن غالب التيمي القرشي . وأمه الصعبة بنت عبد الله بن عباد الحضرمي ، هي أخت العلاء بن الحضرمي ، أسلمت وأسلم طلحة قديماً على يد أبي بكر الصديق .

وشهد المشاهد كلها غير بدر ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان نفذه مع سعيد ابن زيد يتعرفان خبر العير التي كانت لقريش مع أبي سفيان بن حرب ، فعاد يوم اللقاء ببدر ، ووقى النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد بيده ، فشلت أصبعه ، وجرح يومئذ أربعاً وعشرين جراحة . وقيل : كانت فيه خمس وسبعون بين طعنة وضربة ورمية .

وسماه النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد : « طلحة الخير » وسماه يوم غزوة ذات العسرة : « طلحة الفياض » ، ويوم حنين : « طلحة الجود » وهو من العشرة المبشرين والستة المرضيين .

وكان آدم كثير الشعر ، ليس بالجعد القطط ولا بالسبط ، حسن الوجه ، دقيق العرنين ، لا يغير شعره .

وقتل في وقعة الجمل يوم الخميس لعشر بقين في جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين ، ويقال : إن مروان بن الحكم قتله ، وقيل : أصابه سهم في حلقه . ودفن بالبصرة وله أربع وستون ، وقيل : اثنان وستون ، وقيل : ستون .

يلقى آباء النبي صلى اللّه عليه وسلم في مرة بن كعب .

روى عنه السائب بن يزيد ، وعبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي ، وأبو عثمان النهدي ، وقيس بن أبي حازم ، وموسى بن طلحة ، وغيرهم .

(٢) هو أبو عبد الله الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب الأسدي القرشي . امه صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أسلمت ، وأسلم هو قديماً على يد أبي بكر الصديق ، وهو ابن ست عشرة سنة ، فعذبه عمه بالدخان ليترك الإسلام فلم يفعل ، وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرتين . وهو من العشرة المبشرين والستة المرضين .

وشهد المشاهد كلها مع النبي صلى الله عليه وسلم .

وهو أول من سل السيف في سبيل الله ، وثبت مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد .

كان أبيض طويلاً ، ويقال : لم يكن بالطويل ولا بالقصير ، يميل إلى الخفة في =

الرحمن بن عوف[1] وسعد بن أبي وقاص[2] . وكان عنده يوم أسلم

= اللحم ، ويقال : كان أسمر ، كثير الشعر ، خفيف العارضين .

قتله عمير بن جرموز بسفوان من أرض البصرة سنة ست وثلاثين ، وله أربع وستون سنة ، وقيل : ستون ، وقيل : بضع وخمسون ، ودفن بوادي السباع ، ثم حول إلى البصرة ، وقبره مشهور بها .

يلقي آباء النبي صلى اللّه عليه وسلم في قصي بن كلاب .

روى عنه ابناه عبد الله وعروة ، وغيرهما .

(١) هو أبو محمد عبد الرحمن بن عوف بن عبد الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب ابن لؤي بن غالب الزهري القرشي ، كان اسمه في الجاهلية: عبد عمرو ، فسماه النبي صلى الله عليه وسلم : عبد الرحمن . وأمه الشفا بنت عوف بن عبد الحارث بن زهـرة أسلمت وهاجرت .

وأسلم هو قديماً على يد أبي بكر الصديق ، وهاجر إلى الحبشة الهجرتين ، وشهد المشاهد كلها مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وثبت يوم أحد ، وصلى النبي صلى الله عليه وسلم خلفه في غزوة تبوك وأتم ما فاته. وهو العشرة المبشرين والستة المرضيين .

كان طويلاً ، رقيق البشرة ، أبيض ، مشرباً حمرة ضخم الكفين أقنى .

كان ساقط الثنيتين ، أعرج . أصيب يوم أحد ، جرح عشرين جراحة أو أكثر ، فأصابه بعضها في رجله ، فعرج .

ولد بعد الفيل بعشر سنين ، ومات سنة اثنين وثلاثين ، ودفن وله اثنتان وسبعون سنة ، وقيل : خمس وسبعون ، وقيل : ثمان وسبعون .

يلقي آباء النبي صلى الله عليه وسلم في كلاب بن مرة .

روى عنه ابن عباس ، وابنه ابراهيم ، وبجالة بن عبد .

(٢) هو أبو إسحاق سعد بن أبي وقاص ، واسم أبي وقاص : مالك بن وهيب ، ويقال : أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب الزهري القرشي ، وأمه حمنة بنت سفيان ، وقيل : بنت أبي سفيان بن عبد شمس بن عبد مناف .

أسلم قديماً على يد أبي بكر الصديق،وهو ابن سبع عشرة سنة،وقال:كنت ثالث الإسلام، وأنا أول من رمى بسهم في سبيل الله. وهو من العشرة المبشرين والستة المرضيين .

شهد المشاهد كلها مع النبي صلى الله غليه وسلم ، كان قصيراً غليظاً ، ذا هامة ، شثن الأصابع ، آدم ، أفطس ، أشعر الجسد . =

أربعون ألف درهم فأنفقها أحوج ما كان الإسلام إليها ، فلهذا جلبت نفقته عليه « مَا نَفَعَنِي مَالٌ ، مَا نَفَعَنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ »(١) . فهو خيرٌ من مؤمن آل فرعون ، لأن ذلك كان يكتم إيمانه والصدِّيق أعلن به . وخيرٌ من مؤمن آل ﴿يٓس﴾ ، لأن ذلك جاهد ساعة والصدِّيق جاهد سنين .

عاينَ طائرَ الفاقة يحوم حول حبّ الإيثار ويصيح ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ [البقرة : ٢٤٥] ، فألقى له حبَّ المال على روض الـرضى واستلقى على فراش الفقر ، فنقل الطائرُ الحَبَّ إلى حوصلة المضاعفة ثم علا على أفنان شجرة الصدق يغرِّد بفنون المدح ، ثم قام في محاريب الإسلام يتلو ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴾ [الليل : ١٧ ـ ١٨] .

نطقتْ بفضله الآياتُ والأخبار ، واجتمع على بيعته المهاجرون والأنصار . فيا مبغضيه في قلوبكم من ذكره نار ، كلما تُلِيَتْ فضائلُه علا عليهم الصَّغار . أترى لم يسمع الروافض الكفار ﴿ ثَانِيَ آثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي

= مات في قصره بالعقيق قريباً من المدينة ، فحمل على رقاب الرجال إلى المدينة ، وصلى عليه مـروان بن الحكم ـ وهو يومئذ والي المدينة ـ ودفن : بالبقيع سنة خمس وخمسين ، وقيل : سنة سبع وخمسين ، وقيل : سنة ثمانٍ وخمسين ، وله بضع وسبعون سنة ، وقيل : اثنتان وثمانون ، وهو آخر العشرة موتاً ، ولاه عمر وعثمان الكوفة .

يلقي آباء النبي صلى الله عليه وسلم في كلاب بن مرة .

روى عنه عبد الله بن عمر ، وجابر بن سمرة ، وعامر ومحمد ومصعب بنوه ، وابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، وابن المسيب ، وأبو عثمان النهدي ، وقيس بن أبي حازم .

(١) قطعة من حديث رواه الترمذي رقم (٣٦٦٢) في المناقب : باب مناقب أبي بكر رضي الله عنه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب ، وهو كما قال : فإنه حسن بشواهده ، وقد ذكره الحافظ في « الفتح » وسكت عليه .

ٱلْغَارِ ﴾ [التوبة : ٤٠] . دُعِيَ إلىٰ الإسلام فما تلعثم ولا أبى ، وسار على المحجَّة فما زَلَّ ولا كَبَا ، وصبرَ في مدته من مِدى العدى على وقع الشبا ، وأكثرَ في الإنفاق فما قلل حتى تخلل بالعبا .

تاللَّه قد زاد على السبك في كل دينار دينار ﴿ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الغَارِ ﴾ .

مَن كان قرينَ النبي في شبابه ؟ مَن ذا الذي سبق إلى الإيمان من أصحابه ؟ مَن الذي أفتى بحضرته سريعاً في جوابه ؟ مَن أولَ من صلى معه ؟ مَن آخر مَن صلى به ؟ مَن الذي ضاجعه بعد الموت في ترابه ، فاعرفوا حقَّ الجار .

نهض يوم الرِّدة بفهم واستيقاظ ، وأبانَ من نـصِّ الكتاب معنى دقَّ عن حديد الألحاظ . فالمحب يفرح بفضائله والمبغض يغتاظ . حسرة الرافضي أن يفرَّ من مجلس ذكره ، ولكن أين الفرار ؟ .

كم وقى الرسولَ بالمال والنفس ، وكان أخص به في حياته وهو ضجيعه في الرمس . فضائله جليَّة وهي خليَّة عن اللبس . يا عجباً ! من يغطي عين ضوء الشمس في نصف النهار ، لقد دخلا غاراً لا يسكنه لابث ، فاستوحش الصدِّيق من خوف الحوادث ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : ما ظنك باثنين واللَّه الثالث . فنزلت السكينة فارتفع خوف الحادث . فزال القلق وطاب عيش الماكث . فقام مؤذن النصر ينادي على رؤوس منائر الأمصار ﴿ ثَاني اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا في الغَارِ ﴾ .

حُبُّه واللَّه رأسُ الحنيفية ، وبُغضُه يدلُّ على خبث الطويَّة . فهو خير الصحابة والقرابة ، والحجة على ذلك قوية . لولا صحة إمامته ما

قال ابن الحنفية . . . مهلاً مهلاً !! فإن دَم الروافض قد فار .

واللَّه ما أحببناه لهوانا ، ولا نعتقد في غيره هواناً ، ولكن أخذنا بقول عليّ رضي الله عنه[1] وكفانا : « رَضِيَك رسولُ اللَّه لديننا ، أفلا

---

(١) هو أمير المؤمنين أبو الحسن وأبو تراب ، علي بن أبي طالب ، واسم أبي طالب : عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف الهاشمي القرشي ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم ، أسلمت وهاجرت .

ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوج ابنته الزهراء رضي الله عنهما وأبو ريحانتيه الحسن والحسين رضي الله عنهما مناقبه جمة تفوق الحصر وفضائله عظيمة تجل عن الوصف والتي منها شجاعته التي يضرب بها المثل وفصاحته التي يقتدي بها أرباب اللسان وزهده حتى صار إمام الزاهدين رضي الله عنه وكرم وجهه وهو أول من أسلم من الذكور في أكثر الأقوال ، وقد اختلف في سنه يومئذ ، فقيل : كان له خمس عشرة سنة ، وقيل : ست عشرة ، وقيل : أربع عشرة ، وقيل : ثلاث عشرة سنة ، وقيل : ثماني سنين ، وقيل : سبع سنين ، وقيل : تسع سنين ، وقيل : عشر سنين .

شهد مع النبي صلى الله عليه وسلم المشاهد كلها غير تبوك ، فإنه خلفه في أهله ، وفيها قال له : « ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى » .

كان آدم شديد الأدمة ، عظيم العينين ، أقرب إلى القصر من الطول ، ذا بطن ، كثير الشعر ، عريض اللحية ، أصلع ، أبيض الرأس ، لم يصفه أحد بالخضاب إلا نادراً .

استخلف يوم قتل عثمان ، وهو يوم الجمعة لثمان عشرة خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين ، وضربه عبد الرحمن بن ملجم المرادي بالكوفة صبيحة الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة أربعين ، ومات بعد ثلاث ليالٍ من ضربته ، وقيل : ضرب ليلة إحدى وعشرين ومات ليلة الأحد ، وقيل : يوم الأحد .

وغسله ابناه : الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر ، وصلى عليه الحسن ، ودفن سحراً ، وله من العمر ثلاث وستون سنة ، وقيل : خمس وستون سنة ، وقيل : سبع ، وقيل : ثمان وخمسون .

وكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر وأياماً . يلقي النبي صلى الله عليه وسلم في عبد المطلب .

روى عنه بنوه : الحسن والحسين ومحمد ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن جعفر ، وابن المسيب ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، وزيد بن وهب ، وخلق كثير من الصحابة والتابعين .

نرضاك لدنيانا » . تاللّه لقد أخذت من الروافض بالثأر[1] . تاللّه لقد

---

(١) ذكر أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني في كتابه « إعجاز القرآن » ص ١٤٣ - ١٤٥ « من كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : لما قبض أبو بكر رضي الله عنه ارتجت المدينة بالبكاء ، كيوم قبض النبي صلى الله عليه وسلم ، وجاء عليٌّ باكياً مسترجعاً ، وهو يقول : اليوم انقطعت خلافة النبوة ، حتى وقف على باب البيت الذي فيه أبو بكر فقال :

رحمك الله أبا بكر كنت إلْفَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وأُنْسَهُ ، وثقته وموضع سرّه ، كنت أول القوم إسلاماً ، وأخلصهم إيماناً ، وأشدَّهم يقيناً ، وأخوفهم لله وأعظمهم غناءً في دين الله ، وأحوطهم على رسول الله ، وأثبتهم على الإسلام ، وأيمنهم على أصحابه ، وأحسنهم صحبة ، وأكثرهم مناقب ، وافضلهم سوابق ، وأرفعهم درجة ، وأقربهم وسيلة ، وأشبههم برسول الله صلى الله عليه وسلم سَنناً وهدياً، ورحمةً وفضلاً ، وأشرفهم منزلة ، وأكرمهم عليه ، وأوثقهم عنده .

فجزاك الله عن الإسلام وعن رسوله خيراً ، كنت عنده بمنزلة السَّمع والبصر .

صدَّقت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كذّبه الناس ، فسمّاك في تنزيله صديقاً فقال : ﴿ والذي جاء بالصِّدْق وصدَّق به ﴾ [الزمر : ٣٣] .

واسيته حين بخلوا ، وقمت معه عند المكاره حين قعدوا ، وصحبته في الشدائد أكرم الصحبة ، ثاني اثنين وصاحبه في الغار ، والمنزل عليه السكينة والوقار ، ورفيقه في الهجرة ، وخليفته في دين الله وفي أمته - أحسن الخلافة - حين ارتد الناس ، فنهضت حين وهن أصحابك ، وبرزت حين استكانوا ، وقويت حين ضعفوا ، وقمت بالأمر حين فشلوا ، ونطقت حين تتعتعوا ، مضيت بنور إذ وقفوا ، واتبعوك فهدوا . وكنت أصوبهم منطقاً ، وأطولهم صمتاً ، وأبلغهم قولاً ، وأكثرهم رأياً ، وأشجعهم نفساً ، وأعرفهم بالأمور ، وأشرفهم عملاً .

كنت للدين يعسوباً ، أولاً حين نفر عنه الناس ، وآخراً حين قفلوا ، وكنت للمؤمنين أباً رحيماً ، إذ صاروا عليك عيالاً ، فحملت أثقال ما ضعفوا عنه ، ورعيت ما أهملوا ، وحفظت ما أضاعوا ، شمرت إذ خنعوا ، وعلوت إذ هلعوا ، وصبرت إذ جزعوا ، وأدركت أوتار ما طلبوا ، وراجعوا رشدهم برأيك فظفروا ، ونالوا بك ما لم يحتسبوا .

وكنت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أَمَنَّ الناس عليه في صحبتك ، وذات يدك ، وكنت كما قال : ضعيفاً في بدنك قوياً في أمر الله ، متواضعاً في نفسك ، عظيماً عند الله ، جليلاً في أعين الناس ، كبيراً في أنفسهم . =

وجب حق الصدِّيق علينا ، فنحن نقضي بمدائحه ونقرُّ بما نقرُّ به من السنا عيناً ، فمن كان رافضياً فلا يعد إلينا وليقل : لي أعذار .

* * *

٣٨ ـ تنبيه

* اجتنِبْ مَن يعادي أهل الكتاب والسنة لئلا يعديك خسرانه .

* احترزْ من عدُوَّين هلك بهما أكثر الخلق : صادٍّ عن سبيل اللَّه بشبهاته وزخرف قوله ، ومفتونٍ بدنياه ورئاسته .

* مَن خُلِقَ فيه قوةٌ واستعداد لشيء ، كانت لذته في استعمال تلك القوة فيه ، فلذةُ من خُلِقَتْ فيه قوةٌ واستعداد للجماع استعمالُ قوتِهِ فيه ، ولذةُ من خلقت فيه قوة الغضب والتوثب استعمالُ قوتِهِ الغضبية في متعلَقِها ، ومن خلقت فيه قوة الأكل والشرب فلذتُهُ باستعمالُ قوتِهِ فيهما .

لم يكن لأحد فيك مغمز ، ولا لأحد مطمع ، ولا لمخلوق عندك هوادة ، الضعيفُ الذليل عندك قويٌّ عزيز ، حتى تأخذ له بحقه ، والقوي العزيز عندك ضعيف ذليل ، حتى تأخذ منه الحق ، القريب والبعيد عندك سواء ، أقرب الناس إليك أطوعهم لله .

شأنك الحق والصدق والرفق ، وقولك حكم وحتم ،وأمرك حلْم وحزم ، ورأيك علم وعزم ، فأبلغت وقد نهج السبيل ، وسهل العسير ، وأطفأت النيران ، واعتدك بك الدين ، وقوي الإيمان ، وظهر أمر الله ولو كره الكافرون ، وأتعبت من بعدك إتعاباً شديداً ، وفزت بالخير فوزاً عظيماً ، فجلَلْتَ عن البكاء ، وعظمت رزِيَّتُكَ في السماء ، وَهَدَّتْ مصيبتُكَ الأيام ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، رضينا عن الله قضاءَه ، وسلَّمنا له أمره ، فوالله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثلك أبداً ، فألحقك الله بنبيِّـه ،ولا حَرَمَنَا أجرك ، ولا أضلَّنا بعدك .

وسكت الناسُ حتى انقضى كلامُهُ ، ثم بَكَوْا حتى علت أصواتهم . ا هـ .

ومن خلقت فيه قوة العلم والمعرفة فلذته باستعمال قوته وصرفها إلى العلم . ومن خلقت فيه قوة الحب للَّه ، والإنابة إليه ، والعكوف بالقلب عليه ، والشوق إليه ، والأنس به ، فلذته ونعيمه استعمال هذه القوة في ذلك . وسائر اللذات دون هذه اللذة مضمحلة فانية ، وأَحمَدُ عاقبتها أن تكون لا له ولا عليه .

* * *

٣٩ ـ تنبيه

* يا أيها الأعزل احذر فراسة المتقي ، فإنه يرى عورة عملك من وراء ستر « اتَّقُوا فِرَاسَةَ المُؤْمِنِ »[١] .

* سبحان اللَّه ، في النفس كِبَرُ إبليس ، وحسدُ قابيل ، وعُتُوُّ عاد ، وطغيانُ ثمود ، وجرأةُ نمرود ، واستطالة فرعون ، وبغي قارون ، وقِحَّة هامان ، وهَوَى بلعام ، وحِيَلُ أصحاب السبت ، وتمرُّدُ الوليد[٢] ،

---

(١) رواه الترمذي رقم (٣١٢٥) في التفسير : باب ومن سورة الحجر ، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وفي سنده عطية العوفي وهو ضعيف ، وأورده السيوطي في « الدر المنثور » ٤/ ١٠٣ وزاد نسبته لابن حجر وابن أبي حاتم والبخاري في « التاريخ » وابن السني وأبي نعيم معاً في « الطب » وابن مردويه والخطيب . ولفظه بتمامه : « اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله » ثم قرأ : ﴿ ان في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ [الحجر : ٧٥] .

(٢) هو الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، أبو عبد شمس ، من زعماء قريش ، قال ابن الأثير ، وهو الذي جمع قريشاً وقال : إن الناس يأتونكم أيام الحج فيسألونكم عن محمد ، فتختلف أقوالكم فيه ، فيقول هذا : كاهن ، ويقول هذا : شاعر ، ويقول هذا : مجنون ، وليس يشبه واحداً مما يقولون ، ولكن أصلح ما قيل فيه : ساحر ، لأنه يفرق بين المرء وأخيه ، والزوج وزوجه ، وهلك بعد الهجرة بثلاثة =

وجهلُ أبي جهل[1] .

وفيها من أخلاق البهائم حرصُ الغراب ، وشرهُ الكلب ، ورعْونة الطاووس ، ودناءة الجُعَل ، وعقوق الضب ، وحِقْد الجمل ، ووثوبُ الفهد ، وصولةُ الأسد ، وفسقُ الفأرة ، وخبثُ الحيَّة ، وعبث القرد ، وجمع النملة ، ومكر الثعلب ، وخفة الفراش ، ونوم الضبع . غير أن الرياضة والمجاهدة تُذْهِب ذلك . فمن استرسل مع طبعه فهو من هذا

= أشهر عن عمر يناهز ٩٥ سنة ، ودفن بالحجون ، وهو والد سيف الله خالد بن الوليد .

وكان من خبره ما رواه العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : دخل الوليد ابن المغيرة على أبي بكر بن أبي قحافة ، فسأله عن القرآن ، فلما أخبره خرج على قريش فقال : يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشة ، فوالله ما هو بشعر ، ولا بسحر ، ولا بهذي من الجنون ، وإن قوله لمن كلام الله . فلما سمع بذلك النفر من قريش ائتمروا وقالوا : والله لئن صبا الوليد لتصبوا قريش ، فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام قال : أنا والله أكفيكم شأنه . فانطلق حتى دخل عليه بيته ، فقال له أبو جهل : يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه ، فقال الوليد : أقد تحدث به عشيرتي ؟ ! فلا والله لا أقرب ابن أبي قحافة ولا عمر ولا ابن أبي كبشة ، وما قوله إلا سحر ، فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً * وجعلت له مالاً ممدوداً * وبنين شهوداً * ومهدت له تمهيداً * ثم يطمع أن أزيد * كلا إنه لآياتنا عنيداً * سأرهقه صعوداً * إنه فكر وقدر * فقتل كيف قدر * ثم قتل كيف قدر * ثم نظر * ثم عبس وبسر * ثم أدبر واستكبر * فقال إن هذا إلا سحر يؤثر * إن هذا إلا قول البشر * سأصليه سقر * وما أدراك ما سقر * لا تبقي ولا تذر ﴾ [المدثر : ١١ ـ ٢٨]. وقال قتادة : زعموا أنه قال : والله لقد نظرت فيما قال الرجل فإذا هو ليس بشعر ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه ليعلو وما يعلى عليه ، وما أشك أنه سحر ، فأنزل الله تعالى : ﴿ فقتل كيف قدر ﴾ . انظر تفسير الطبري ٢٩ / ٩٨ ـ ١٠٠ ، وتفسير ابن كثير ٧/ ١٥٦ ـ ١٥٨ ، والتصوير الفني في القرآن لسيد قطب ص ١١ ـ ١٢ طبعة دار المعارف .

(١) هو عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي ، كان يكنى بأبي الحكم ، فكناه النبي صلى الله عليه وسلم أبا جهل ، فغلبت عليه هذه الكنية ، كان من أشد الناس عداوة للنبي صلى الله عليه وسلم في صدر الإسلام ، حتى قتل في وقعة بدر الكبرى في السنة ٢هـ.

الجند ، ولا تصلح سلعته لعقد ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ [التوبة : ١١١] ، فما اشترى إلا سلعة هذبهاالإيمان ،فخرجت من طبعها إلى بلد سكانه التائبون العابدون .

* سَلِّم المبيعَ قبل أن يتلف في يدك فلا يقبله المشتري ، قد علم المشتري بعيب السلعة قبل أن يشتريها ، فسلِّمْها ولك الأمان من الردّ .

* قَدْرُ السلعة يُعْرَف بقَدْرِ مشتريها ، والثمنِ المبذولِ فيها ، والمنادي عليها ، فإذا كان المشتري عظيماً ، والثمنُ خطيراً ، والمنادي جليلاً ، كانت السلعة نفيسة .

* * *

ولي من الأبيات[1] :

يَا بَائِعاً نَفْسَهُ بَيْعَ الهَوَانِ ،لَوْ اسْـ ... ـتَرْجَعْتَ ذَا البَيْعَ قَبْلَ الفَوْتِ، لَمْ تَخِبِ
وَبَائِعاً طِيْبَ عَيْشٍ مَالَـهُ خَطَرٌ، ... بِـطَيْفِ عَيْشٍ مِنَ الآلاَمِ مُنْتَهَبِ
غُبِنْتَ واللّهِ !!غُبْناً فَاحِشـاً، وَلَدَى ... يَوْمِ التَغَابُنِ تَلْقَى غَايَةَ الحَرَبِ
وَوَارِداً صَفْـوَ عَيْشٍ كُلُّهُ كَـدَرٌ، ... أَمَامَكَ الوِرْدُ حَقاً لَيْسَ بِالكَذِبِ
وَحَاطِبَ اللَّيْلِ فِي الظَّلْمَاءِ مِنْتَصِباً ... لِكُـلِّ دَاْهِيَةٍ،تُـدْنِيْ مِنَ العَـطَبِ
تَرْجُوْ الشِّفَاْءَ بِأَحْدَاقٍ بِهَاْ مَرَضٌ ... فَهَلْ سَمِعْتَ بِبُرْءٍ جَاْءَ مِنْ عَطَبِ
وَمُفْنِيـاً نَفْسَـهُ فِيْ إِثْـرِ أَقْبَحِهِمْ ... وَصَـفْاً لِلَطْخِ جَمْالٍ فِيْهِ مُسْتَلَبِ
وَوَاْهِباً نَفْسَهُ مِنْ مِثْلِ ذَاْ سَفَهاً، ... لَوْ كُنْتَ تَعْرِفُ قَدْرَ النَفْسِ لَمْ تَهَبِ
شَاْبَ الصِّبا، والتَصَابِيْ بَعْدُ لَمْ يَشِبِ، ... وَضَاْعَ وَقْتُكَ بَيْنَ اللَّهْـوِ وَاللَّعِبِ
وَشَمْسُ عُمْرِكَ قَدْ حَاْنَ الغُرُوْبُ لَهَاْ، ... وَالْفَيْءُ فِي الأُفُقِ الشَرْقِي لَمْ يَغِبِ
وَفَاْزَ بِالوَصْلِ مَنْ قَدْ جَدَّ، وَانْقَشَعَتْ ... عَنْ أُفْقِهِ ظُلُمَاْتُ اللَّيْلِ وَالسُحُبِ
كَمْ ذَاْ التَّخَلُّفُ، وَالدُّنْيَا قَدِ ارْتَحَلَتْ، ... وَرُسْلُ رَبِّكَ قَدْ وَاْفَتْكَ فِيْ الطَّلَبِ

(١) انظر « بدائع الفوائد » ٢ / ٢٧١ - ٢٧٢ .

مَاْ فِي الدِّيَاْرِ، وَقَدْ سَاْرَتْ رَكَائِبُ مَنْ تَهْوَاْهُ، للصَّبِ مِنْ شُكْرٍ وَلاَ أَرَبِ
فأفرِشِ الخدَّ ذَيَّاكَ التُّرَاْبَ، وَقُلْ مَاْ قَاْلَهُ صَاْحِبُ الأَشْوَاقِ وَالحُقَبِ
مَاْ رَبْعُ مَيَّةَ مَحْفُوْفاً يُطِيْفُ بِهِ غَيْلاَنُ[1]، أَشْهَى لَهُ مِنْ رَبْعِكِ الخَرِبِ
وَلاَ الخُدُوْدُ وَلَوْ أَدْمَيْنَ مِنْ ضَرَجٍ أَشْهَىٰ إِلَىٰ نَاْظِرِيْ مِنْ خَدِّكِ التَّرِبِ
مَنَاْزِلاً كَاْنَ يَهْوَاْهَا، وَيَأْلَفُهَا أَيَّامَ كَاْنَ مَنَاْلُ الوَصْلِ عَنْ كَثَبِ
فَكُلَّمَا جُلِّيَتْ تِلْكَ الرُّبُوْعُ لَهُ، يَهْوِيْ إِلَيْهَا هَوِيَّ المَاْءِ فِي الصَّبَبِ
أَحْيَىٰ لَهُ الشَّوْقَ تِذْكَاْرُ العُهُوْدِ بِهَا، فَلَوْ دَعَا القَلْبَ لِلسُّلْوَاْنِ لَمْ يُجِبِ
هذَاْ، وَكَمْ مَنْزِلٍ فِيْ الأَرْضِ يَأْلَفُهُ، وَمَاْلَهُ فِيْ سِوَاْهَا الدَّهْرَ مِنْ رَغَبِ
مَاْ فِيْ الخِيَاْمِ أَخُوْ وَجْدٍ يُرِيْحُكَ إِنْ بَثَثْتَهُ بَعْضَ شَأْنِ الحُبِ، فَاغْتَرِبِ
وَأَسْرِ فِيْ غَمَرَاْتِ اللَّيْلِ مُهْتَدِياً بِنَفْحَةِ الطِيْبِ، لاَ بِالعُوْدِ وَالحَطَبِ
وَعَاْدِ كُلَّ أَخِيْ جُبْنٍ وَمَعْجَزَةٍ، وَحَاْرِبِ النَفْسَ، لاَ تُلْقِيْكَ فِيْ الحَرَبِ
وَخُذْ لِنَفْسِكَ نُوْراً تَسْتَضِيْءُ بِهِ يَوْمَ اقْتِسَامِ الوَرَىٰ الأَنْوَارَ بِالرُّتَبِ
فَالجِسْرُ ذُوْ ظُلُمَاتٍ لَيْسَ يَقْطَعُهُ إلاَّ بِنُوْرٍ يُنَجِّي العَبْدَ فِي الكُرَبِ

* * *

إِنْ كَاْنَ يُوْجِبُ صَبْرِيْ رَحْمَتِيْ فَرَضاً بِسُوْءِ حَاْلِي وَحَلَّ لِلضَّنَا بَدَنِي
مَنَحْتُكَ الرُّوْحَ لاَ أَبْغِيْ لَهَا ثَمَناً إلاَّ رِضَاْكَ وَوَاْفَقْرِي إلى الثَّمَنِ

* * *

(١) هو ذو الرُّمة بن عقبة العدوي (٧٧هـ ـ ١١٧هـ) من مضر، شاعر من فحول الطبقة الثانية في عصره، قال أبو عمر بن العلاء: فتح الشعر بامرىء القيس وختم بذي الرمة أكثر شعره في التشبيب وبكاء الأطلال، يذهب في ذلك مذهب الجاهلين، وكان مقيماً بالبادية يحضر إلى اليمامة والبصرة كثيراً، امتاز بإجادة التشبيه وعشق « مية المنقرية » واشتهر بها، له ديوان شعر كبير.

(٢) تضرج بالدم أي تلطخ وضرج الثوب ضبغ بالحمرة او الصفرة وقيل: الإضريح ضبغ أحمر.

أَحِنُّ بِأَطْرَافِ النَّهَارِ صَبَابَةً وَبِاللَّيْلِ يَدْعُوْنِي الهَوَىٰ فَأُجِيْبُ

* * *

وَإِذَاْ لَمْ يَكُنْ مِنْ العِشْقِ بُدٌ فَمِنَ العَجْزِ عِشْقُ غَيْرِ الجَمِيْلِ

* * *

فَلَوْ أَنَّ مَاْ أَسْعَىٰ لِعَيْشٍ مُعَجَّلٍ كَفَانِيَ مِنْهُ بَعْضُ مَاْ أَنَاْ فِيْهِ
وَلَكِنَّمَا أَسعَى لمُلْكٍ مُخَلَّدٍ فَوَا أَسَفَا إِنْ لَمْ أَكُنْ بِمَلاَقِيه

* * *

* يا مَن هو من أرباب الخبرة ، هل عرفت قيمة نفسك ؟ إنما خلقت الأكوان كلها لك .

* يا مَن غُذِّيَ بِلُبان البرّ ، وقُلِّبَ بأيدي الألطاف ، كلُّ الأشياء شجرة وأنت الثمرة ، وصورةٌ وأنت المعنى ، وصدَفٌ وأنت الدُّرّ ، ومخيضٌ[1] وأنت الزُّبْد .

* منشور اختيارنا لك واضح الخط ، ولكن استخراجك ضعيف .

* مَتى رُمْتَ طلبي فاطلبني عندك ، اطلبني منك تجدني قريباً ، ولا تطلبني من غيرك فأنا أقرب إليك منه .

* لو عرفتَ قدر نفسك عندنا ما أهنتها بالمعاصي ، إنما أبْعَدْنَا إبليسَ إذ لم يسجد لك ، وأنت في صُلب أبيك ، فواعجباً كيف صالحته وتركتنا ! لو كان في قلبك محبة لَبَانَ أثرها على جسدك .

---

(١) المخيض : هو اللبن الذي أخذ زبده .

وَلَمَّا ادَّعَيْتُ الحُبَّ قَالَتْ كَذَبْتَنِي أَلَسْتَ أَرَىٰ الأَعْضَاءَ مِنْكَ كَوَاسِيَا

* لو تغذّى القلبُ بالمحبة لذهبت عنه بِطنة الشهوات .

وَلَوْ كُنْتَ عُذْرِيَّ الصَّبَابَةِ لَمْ تَكُنْ بَطِيْناً وَأَنْسَاكَ الهَوَىٰ كَثْرَةَ الأَكْلِ

* لو صحَّت محبك لاستوحشت ممن لا يذكِّرك بالحبيب . واعجباً لمن يدَّعي المحبة ، ويحتاج إلى مَن يُذكّره بمحبوبه ، فلا يذكره إلا بمذكِّر . أقلّ ما في المحبة أنها لا تنسيك تذكُّرَ المحبوب .

ذَكَرْتُكِ لاَ أَنِّيْ نَسِيْتُكِ سَاْعَةً وَأَيْسَرُ مَاْ فِيْ الذِكْرِ ذِكْرُ لِسَانِيْ

* إذا سافر المحب للقاء محبوبه ، ركبت جنوده معه ، فكان الحب في مقدمة العسكر ، والرجاء يحدو بالمَطِيِّ ، والشوق يسوقها ، والخوف يجمعها على الطريق ، فإذا شارف قدوم بلد الوصل ، خرجت تَقَادِمُ الحبيب باللقاء .

فَدَاْوِ سُقْماً بجسمٍ أَنْتَ مُتْلِفُهُ وَابْرُدْ غَرَاْماً بِقَلْبٍ أَنْتَ مُضْرِمُهُ
وَلاَ تَكِلْنِيْ عَلَىٰ بُعْدِ الدِيَاْرِ إِلَىٰ صَبْرِيْ الضَعِيْفِ فَصَبْرِيْ أَنْتَ تَعْلَمُهُ
تَلَقَّ قَلْبِي فَقَدْ أَرْسَلْتُهُ عَجِلاً إِلَىٰ لِقَائِكَ وَالأَشْوَاقُ تَقْدُمُهُ

فإذا دخل على الحبيب أُفيضت عليه الخِلَع[1] من كل ناحية ، ليمتحن أيسكن إليها فتكونَ حظه ، أم يكونَ التفاته إلى مَن ألبسه إياها .

* ملأوا مراكب القلوب متاعاً لا تَنفُقُ إلا على الملك ، فلما هبَّتْ رياحُ السَحَر أقلعت تلك المراكب ، فما طلع الفجر إلا وهي بالميناء .

---

(١) الخلع : جمع خلعة ، وهي الثوب .

* قطعوا بادية الهوى بأقدام الجِدِّ ، فما كان إلا القليل حتى قدموا من السفر ، فأعقبهم الراحة في طريق التلقي ، فدخلوا بلد الوصل وقد حازوا ربح الأبد .

* فَرَّغَ القومُ قلوبَهُم من الشواغل فضُرِبَتْ فيها سُرادِقَاتُ المحبة ، فأقاموا العيون تحرس تارة وترش أخرى .

* سُرادق المحبة لا يضرب إلا في قاع نزهٍ فارغ .

نَـزِّهْ فُؤَادَكَ مِنْ سِـوَانَـا وَالْقَنَا فَجَنَـابُنَـا حِـلٌّ لِكُـلِّ مُـنَـزَّهِ
وَالصَّبْـرُ طِلَّسْمٌ لِكَنْزِ وِصَـالِنَـا مَن حَلَّ ذَا الطِلَّسْمِ ، فَازَ بِكَنْزِهِ

* اعرفْ قدرَ ما ضاع منك وابكِ بكاء مَن يدري مقدار الفائت .

* لو تخيّلتَ قرب الأحباب لأقمت المأتم على بُعْدِك .

* لو استنشقت ريح الأسحار لأفاق منك قلبك المخمور .

* مَن استطال الطريق ضَعُفَ مشيُه .

وَمَا أَنْتَ بِالْمُشْتَاقِ ، إنْ قُلْتَ: بَيْنَنَا طِـوَالُ اللَّيَالِيْ ،أَوْ بَعِيْـدُ المَفَـاوِزِ

* أمَا علمت أن الصادق :

إذا هَمَّ ألقى بين عينيه عزمَه[1] .

* إذا نزل آبُ في القلب حَلَّ آذار في العين[2] .

---

(١) صدر بيت لسعد بن ناشب وعجزه : ونكّب عن ذكر العواقب جانباً .

(٢) أي إذا حلّت حرارة الحب في القلب رأيت كل ما في المحبوب جميلاً وكل ما يفعله المحبوب جميل، فكنى بآب الذي فيه حرارة الصيف عن حرارة الحب وبآذار الذي فيه جمال الربيع عن جمال المحبوب .

* هانَ سهرُ الحراس لما علموا أن أصواتهم بسمع المِلِك .

* مَن لاح له حال الآخرة هان عليه فراق الدنيا .

* إذا لاح للباشق الصيد نسي مألوف الكف .

* يا أقدام الصبر احملي بَقِيَ القليل .

* تذكَّرْ حلاوةَ الوصال يَهُنْ عليك مُرُّ المجاهدة .

* قد علمَتْ أين المنزل فاحْدُ لها تَسِر .

* أعلى الهِمَمِ هِمَّةُ من استعَدَّ صاحبُها للقاء الحبيب ، وقدَّم التقادِمَ بين يدي الملتقى ، فاستبشر بالرضا عند القدوم ، ﴿ وقَدِّموا لأنفسكم ﴾ [البقرة : ٢٢٣] .

* الجنة ترضى منك بأداء الفرائض ، والنار تندفع عنك بترك المعاصي ، والمحبة لا تقنع منك إلا ببذل الروح .

* للّه ! ! ما أحلى زمان تسعى فيه أقدام الطاعة على أرض الاشتياق .

* لما سلم القوم النفوس إلى رائض الشرع ، علمها الوفاق على خلاف الطبع ، فاستقامت مع الطاعة ، كيف دارت دارت معها .

وَإِنِّيْ إِذَاْ اصْطَكَّتْ رِقَابُ مَطِيِّهِمْ ... وَثَـوَّبَ[1] حَـاْدٍ بِـالـرِفَـاْقِ عَجُـوْلُ

أُخَالِفُ بَيْنَ الرَاحَتَيْنِ عَلَىٰ الْحَشَا ... وَأَنْـظُرُ أَنِّـي مِـلْثَـمُ فَـأَمِـيْـلُ

* * *

٤٠ ـ فصل

* علَّمتَ كلبك ، فهو يترك شهوته في تناول ما صاده احتراماً لنعمتك ، وخوفاً من سطوتك ، وكم علَّمَكَ معلم الشرع وأنت لا تَقْبَل .

---

(١) في نسخة وثوَّر .

* حُرِّمَ صيد الجاهِلِ والممسكِ لنفسه ، فما ظنُّ الجاهل الذي أعماله لهوى نفسه .

* جَمَعَ فيك عقل الملَك ، وشهوة البهيمة ، وهوى الشيطان ، وأنت للغالب عليك من الثلاثة : إن غلبتَ شهوتك وهواك ؛ زدتَ على مرتبة ملَك ، وإن غلبك هواك وشهوتك ؛ نقصْتَ عن مرتبة كلب .

* لما صاد الكلبُ لربِّه أُبيح صيدُه ، ولما أَمْسَكَ على نفسه حَرُمَ ما صاده .

* مصدر ما في العبد من الخير والشرّ والصفات الممدوحة والمذمومة من صفة المعطي المانع . فهو سبحانه يصرِّف عباده بين مقتضى هذين الاسمين ، فحظ العبد الصادق من عبوديته بهما الشكر عند العطاء ، والافتقار عند المنع ، فهو سبحانه يعطيه ليشكره ، ويمنعه ليفتقر إليه ، فلا يزال شكوراً فقيراً .

* * *

قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيراً ﴾ [الفرقان : ٥٥] .
هذا من ألطف خطاب القرآن وأشرف معانيه ، وإنَّ المؤمن دائماً مع اللّه على نفسه وهواه وشيطانِهِ وعدوِّ ربه . وهذا معنى كونه من حزب اللّه وجنده وأوليائه ، فهو مع اللّه على عدوِّه الداخل فيه والخارج عنه ، يحاربهم ويعاديهم ويُغْضِبهم له سبحانه . كما يكون خواص الملِك معه على حرب أعدائه ، والبعيدون منه فارغون من ذلك ، غير مهتمين به ، والكافر مع شيطانه ونفسه وهواه على ربه . وعبارات السلف على هذا تدور .

ذكرَ ابنُ أبي حاتم[1] عن عطاء بن دينار[2] عن سعيد بن جبير[3] قال : عوناً للشيطان على ربه بالعداوة والشرك .

وقال الليث[4] عن مجاهد قال : يظاهِرُ الشيطانَ على معصية اللّه

---

(١) هو عبد الرحمٰن بن محمد بن أبي حاتم بن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي ، أبو محمد ، حافظ للحديث ولد سنة ٢٤٠هـ ، وكانت وفاته سنة ٣٢٧هـ . من تصانيفه : « الجرح والتعديل » و « الرد على الجهمية » و « الكنى » و « المراسيل » و « التفسير » و « علل الحديث » وغيرها .

(٢) هو عطاء بن دينار الهذلي ، مولاهم ، المصري ، من رجال الحديث ، له كتاب في « التفسير » يرويه عن سعيد بن جبير ، توفي بمصر سنة ١٢٦هـ .

(٣) هو أبو عبد الله سعيد بن جبير بن هشام الأسدي ، مولى بني والبة بطن من بني أسد بن خزيمة ، كوفي ، أحد أعلام التابعين ، ولد سنة ٤٥هـ .

سمع أبا مسعود ، وابن عباس ، وابن عمر ، وابن الزبير ، وأنساً .

سمع منه عمرو بن دينار ، وأيوب ، وجعفر بن إياس .

قتله الحجاج بن يوسف في شعبان سنة خمس وتسعين ، وله تسع وأربعون سنة ، ويقال : مات بعده بستة أشهر ، ودفن بظاهر واسط العراق وقبره بها يزار . اهـ .

قال الإمام أحمد : قتل الحجاج سعيداً وما على وجه الأرض أحد إلا وهو مفتقر إلى علمه .

(٤) هو أبو الحارث ، ليث بن سعد بن عبد الرحمن ، فقيه أهل مصر ، يقال : إنه مولى خالد بن ثابت الفهمي ، وأهل بيته يقولون : إنه من الفرس ، من أهل اصفهان ، والمشهور أنه فهمي ، مولاهم مولده بقرية قلقشندة في اسفل مصر سنة أربع وتسعين ، وقيل : سنة اثنتين ، وقيل : سنة ثلاث .

روى عن عطاء بن أبي رباح ، والزهري ، وابن أبي مليكة ، وسعيد المقبري ، وأبي الزبير المكي ، ونافع وغيرهم .

وحدث عنه هشيم ، وابن المبارك ، وعبد الله بن وهب ، ويحيى بن بكير ، وابن النضر ، وغيرهم .

قدم بغداد سنة احدى وستين ومائة ، وعرض عليه المنصور ولاية مصر فأبى ، واستعفاه ،

وقال يحيى بن بكير : ما رأيت أحداً أكمل من الليث بن سعد . وقال ابن وهب : كل ما في كتب مالك أخبرني من أرضى من أهل العلم فهو ليث بن سعد ، وقال قتيبة بن =

يعينه عليها. وقال زيد بن أسلم: ظهيراً أي موالياً[1]. والمعنى: أنه يوالي عدوه على معصيته والشرك به، فيكون مع عدوِّه معيناً له على مساخط ربه.

فالمعيّة الخاصة التي للمؤمن مع ربه وإلّهه قد صارت لهذا الكافر والفاجر مع الشيطان ومع نفسه وهواه وقربانه، ولهذا صَدَّر الآية بقوله: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنْفَعُهُمْ وَلاَ يَضُرُّهُمْ ﴾ [الفرقان: ٥٥]، وهذه العبادة هي الموالاة والمحبة والرضا بمعبوديهم المتضمنة لمعيّتهم الخاصة، فظاهروا أعداء اللّه على مُعاداته ومخالفته وَمَساخطه، بخلاف وليّه سبحانه، فإنه معه على نفسه وشيطانه وهواه. وهذا المعنى من كنوز القرآن لمن فَهِمَه وَعَقلَه، وباللّه التوفيق.

* * *

قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً ﴾ [الفرقان: ٧٣]. قال مقاتل: إذا وعظوا بالقرآن لم يقعوا عليه صُمّاً لم يسمعوه، وعمياناً لم يبصروه، ولكنهم سمعوا وأبصروا وأيقنوا به. وقال ابن عباس: لم يكونوا عليه صماً وعمياناً، بل كانوا خائفين خاشعين. وقال الكلبي[2]: يخرُّونَ عليها سمعاً وبصراً. وقال الفراء:

= سعيد: كان ابن سعد يستغل في كل سنة عشرين ألف دينار، وما وجبت عليه زكاة، ومات في شعبان سنة خمس وسبعين ومائة.

(١) انظر «تفسير ابن كثير» ٥/ ١٥٩ - ١٦٠.

(٢) هو محمد بن السائب بن بشر بن عمرو بن الحارث الكلبي، أبو النضر، نسابة، راوية، عالم بالتفسير وأيام العرب، من أهل الكوفة مولده ووفاته سنة ١٤٦هـ فيها. وشهد وقعة دير الجماجم مع ابن الأشعث، من تصانيفه «تفسير القرآن» وهو ضعيف في الحديث. قال النسائي: حدث عنه ثقات من الناس ورضوه في التفسير وأما في الحديث ففيه مناكير، أما في الأنساب فهو العمدة.

وإذا تُلِيَ عليهم القرآن لم يقعدوا على حالهم الأولى كأنهم لم يسمعوه ، فذلك الخُـرُور . وسُمِعت العرب تقول : قعد يشتمني ، كقولك : قام يشتمني ، وأقبل يشتمني : والمعنى على ما ذكر : لم يصيروا عندها صماً وعمياناً . وقال الزجاج : المعنى : إذا تليت عليهم خَرُّوا سُجَّداً وبُكِيّاً سامعين مبصرين كما أُمِروا به . وقال ابن قتيبة : أي لم يتغافلوا عنها كأنهم صُمٌّ لم يسمعوها وعُمْيٌ لم يروها .

قلت : ها هنا أمران ذِكْرُ الخـرور ، وتسلِيْطُ النفي عليه ، وهل هو خرور القلب أو خرور البدن للسجود ؟ وهل المعنى : لم يكن خرورهم عن صَمم وعمَه فلهم عليها خرور بالقلب خضوعاً ، أو بالبدن سجوداً ، أو ليس هناك خرور وعبّر عن القعود ؟ .

***

أصول المعاصي كلها ، كبارها وصغارها ، ثلاثة : تعلُّق القلب بغير اللّه ، وطاعة القوة الغضبية ، والقوة الشهوانية ، وهي الشرك والظلم والفواحش . فغاية التعلق بغير اللّه شرك وأن يُدعى معه إلّه آخر . وغاية طاعة القوة الغضبية القتل . وغاية طاعة القوة الشهوانية الزنا .

ولهذا جمع اللّه سبحانه بين الثلاثة في قوله : ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُون مَعَ اللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ، وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ، وَلاَ يَزْنُونَ ﴾ [الفرقان : ٦٨] .

وهذه الثلاثة يدعو بعضها إلى بعض ، فالشرك يدعو إلى الظلم والفواحش ، كما أن الإخلاص والتوحيد يصرفهما عن صاحبه ، قال تعـالى : ﴿ كَذٰلِـكَ لِنَصْرِفَ عَنْـهُ السُّوءَ وَٱلْفَحْشَـاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَـادِنَـا الْمُخْلَصِين ﴾ [يوسف : ٢٤] .

فالسوء : العشق ، والفحشاء : الزنا .

وكذلك الظلم يدعو إلى الشرك والفاحشة ، فإن الشرك أظلم الظلم ، كما أن أعدل العدل التوحيد . فالعدل قرين التوحيد ، والظلم قرين الشرك ، ولهذا يجمع سبحانه بينهما . أما الأول ، ففي قوله : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ ﴾ [آل عمران : ١٨] .

وأما الثاني فكقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : ١٣] .

والفاحشة تدعو إلى الشرك والظلم ، ولا سيما إذا قويت إرادتها ولم تحصل إلا بنوع من الظلم والاستعانة بالسحر والشيطان . وقد جمع سبحانه بين الزنا والشرك قي قوله : ﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور : ٣] .

فهذه الثلاثة يجرُّ بعضها إلى بعض ويأمر بعضها ببعض . ولهذا كلما كان القلب أضعف توحيداً وأعظم شركاً كان أكثر فاحشة وأعظم تعلقاً بالصور وعشقاً لها . ونظير هذا قوله تعالى : ﴿ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ [الشورى : ٣٦ ـ ٣٧] . فأخبر أنّ ما عنده خيرٌ لمن آمن به وتوكل عليه ، وهذا هو التوحيد . ثم قال : ﴿ والَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ ﴾ فهذا اجتناب داعي القوة الشهوانية . ثم قال : ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ ، فهذا مخالفة القوة الغضبية ، فجمع بين التوحيد والعِفّة والعدل التي هي جماع الخير كله .

٤١ - فائـــدة

هجر القرآن أنواع :

أحدها : هجر سماعه والإيمانِ به والإصغاءِ إليه .

والثاني : هجر العمل به والوقوفِ عند حلاله وحرامه ، وإنْ قرأه وآمن به .

والثالث : هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه واعتقاد أنه لا يفيد اليقين ، وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم .

والرابع : هجر تدبُّره وتفهُّمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه .

والخامس : هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها ، فيطلب شفاء دائه من غيره، ويهجر التداوي به ، وكل هذا داخل في قوله : ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً ﴾ [الفرقان : ٣٠] ، وإن كان بعض الهجر أهون من بعض .

وكذلك الحرج الذي في الصدور منه .

فإنه تارة يكون حرجاً من إنزاله وكونه حقاً من عند الله .

وتارة يكون من جهة المتكلّم به ، أو كونه مخلوقاً من بعض مخلوقاته ألهم غيره أن تكلم به .

وتارة يكون من جهة كفايته وعدمها وأنه لا يكفي العباد ، بل هم محتاجون معه إلى المعقولات والأقيسة ، أو الآراء أو السياسات .

وتارة يكون من جهة دلالته ، وما أريد به حقائقه المفهومة منه عند الخطاب ، أو أريد به تأويلها ، وإخراجها عن حقائقها إلى تأويلات مستكرهة مشتركة .

وتارة يكون من جهة كون تلك الحقائق وإن كانت مرادة ، فهي ثابتة في نفس الأمر، أو أَوْهَمَ أنها مرادة لضرب من المصلحة .

فكل هؤلاء في صدورهم حرج من القرآن ، وهم يعلمون ذلك من نفوسهم ويجدونه في صدورهم . ولا تجد مبتدعاً في دينه قط إلا وفي قلبه حرج من الآيات التي تخالف بدعته . كما أنك لا تجد ظالماً فاجراً إلا وفي صدره حرج من الآيات التي تحول بينه وبين إرادته .

فتدبّر هذا المعنى ثم ارضَ لنفسك بما تشاء .

* * *

٤٢ ـ فائدة

كمال النفس المطلوب ما تضمن أمرين :

أحدهما : أن يصير هيئة راسخة وصفة لازمة لها .

الثاني : أن يكون صفة كمال في نفسه . فإذا لم يكن كذلك لم يكن كمالاً ، فلا يليق بمن يسعى في كمال نفسه المنافسة عليه ، ولا الأسف على فوته ، وذلك ليس إلا معرفة بارئها وفاطرها ومعبودها وإلهها الحق الذي لا صلاح لها ولا نعيم ولا لذة إلا بمعرفته ، وإرادة وَجْهِهِ ، وسلوكِ الطريق الموصلة إليه ، وإلى رضاه وكرامته . وأن تعتاد ذلك فيصير لها هيئة راسخة لازمة. وما عدا ذلك من العلوم والإرادات والأعمال فهي بين ما لا ينفعها ولا يكملها ، وما يعود بضررها ونقصها وألمها ، ولا سيما إذا صار هيئة راسخة لها ، فإنها تعذب وتتألم به بحسب لزومه لها .

وأما الفضائل المنفصلة عنها كالملابس والمراكب والمساكن والجاه والمال ، فتلك في الحقيقة عوارٍ أُعِيْرَتْهَا مدة ، ثم يرجع فيها المُعير ، فتتألم وتتعذب برجوعه فيها بحسب تعلقها بها ، ولا سيما إذا كانت هي غاية كمالها ، فإذا سلبتها أحضرت أعظم النقص والألم والحسرة .

فليتدبّر مَن يريد سعادة نفسه ولذتها هذه النكتة ، فأكثر هذا الخلق إنما يسعون في حرمان نفوسهم وألمها وحسرتها ونقصها من حيث يظنون أنهم يريدون سعادتها ونعيمها . فلذتها بحسب ما حصل لها من تلك المعرفة والمحبة والسلوك . وألمها وحسرتها بحسب ما فاتها من ذلك . ومتى عدم ذلك ، وخلا منه ، لم يبقَ فيه إلا القوى البدنية النفسانية ، التي بها يأكل ويشرب ، وينكح ويغضب ، وينال سائر لذّاته ، ومرافق حياته . ولا يلحقه من جهتها شرف ولا فضيلة ، بل خساسة ومنقصة . إذ كان إنما يناسب بتلك القوى البهائم ويتصل بجنسها ويدخل في جملتها ويصير كأحدها . وربما زادت في تناولها عليه واختصّت دونه بسلامة عاقبتها والأمن من جلب الضرر عليها .

فكمالٌ تشاركك فيه البهائم ، وتزيد عليك ، وتختص عنك فيه بسلامة العاقبة ، حقيقٌ أن تهجره إلى الكمال الحقيقي الذي لا كمال سواه ، وباللّه التوفيق .

* * *

٤٣ ـ فائدة جليلة

إذا أصبح العبد وأمسى وليس همُّه إلا اللّه وحده تحمَّل اللّه سبحانه حوائجه كلها ، وَحَمَلَ عنه كل ما أهمّه ، وفَرَّغ قلبه لمحبته ، ولسانه لذكره ، وجوارحه لطاعته . وإنْ أصبح وأمسى والدنيا همُّه حمَّله اللّهُ همومَهَا وغمومها وأنكادها ! ووكّله إلى نفسه ، فشغل قلبه عن محبته بمحبة الخلق ، ولسانه عن ذكره بذكرهم ، وجوارحه عن طاعته بخدمتهم وأشغالهم ، فهو يكدح كدح الوحش في خدمة غيره ، كالكير ينفخ بطنه ويعصِر أضلاعه في نفع غيره . فكل مَن أعرض عن عبودية اللّه وطاعته ومحبته بُلِيَ بعبودية المخلوق ومحبته وخدمته . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف : ٣٦] .

قال سفيان بن عيينة(١) : لا تأتون بمثلٍ مشهور للعرب إلا جئتكم به

---

(١) هو أبو محمد سفيان بن عيينة بن أبي عمران الهلالي ، مولاهم ، قيل : إنه مولى محمد ابن إبراهيم الهلالي . وابن عيينة هو أبو عمران .

ولد بالكوفة للنصف من شعبان سنة سبع ومائة ، قال : جالست الزهري وأنا ابن ستة عشر سنة وشهرين ونصف شهر . قال : قدم علينا الزهري سنة ثلاثة وعشرون ومائة .

كان إماماً عالماً ثبتاً حجة ، زاهداً ، ورعاً ، مجمعاً على صحة حديثه وروايته .

سمع الزهري ، وعمرو بن دينار ، وأبا إسحاق السبيعي ، وعبد الله بن دينار ، وزيد بن أسلم ، واسماعيل بن أبي خالد ، وسهيل بن أبي صالح ، وأيوب السختياني ، وخلقاً كثيراً .

روى عنه : الأعمش والثوري وشعبة ، وهم من شيوخه ، وابن يحيى بن سعيد القطان ، ومحمد ابن ادريس الشافعي الإمام ، وابن مهدي ، وابن المبارك ، ووكيع ، وأحمد ، وخلق سواهم كثير .

مات بمكة أول يوم من رجب سنة ثمان وتسعين ومئة ودفن بالحجون وكان حج سبعين حجة .

من القرآن . فقال له قائل : فأين في القرآن « اعطِ أخاكَ تمرة فإنْ لم يقبل فاعطِه جمرة ؟ » فقال في قوله : ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً ﴾ الآية [الزخرف : ٣٦] .

* * *

٤٤ ـ فَائـدة

العلمُ : نَقْلُ صورة المعلوم من الخارج وإثباتها في النفس .

والعمل : نقل صورة علمية من النفس وإثباتها في الخارج . فإنْ كان الثابت في النفس مطابقاً للحقيقة في نفسها فهو علم صحيح . وكثيراً ما يثبت ويتراءى في النفس صُوَر ليس لها وجود حقيقي ، فيظنها الذي قد أثبتها في نفسه علماً ، وإنما هي مقدرة لا حقيقة لها . وأكثر علوم الناس من هذا الباب . وما كان منها مطابقاً للحقيقة في الخارج فهو نوعان : نوع تكمل النفس بإدراكه والعلم به ، وهو العلم باللّه وأسمائه وصفاته وأفعاله وكتبه وأمْره ونهْيه . ونوع لا يحصل للنفس به كمال ، وهو كل علم لا يضرُّ الجهل به فإنه لا ينفع العلم به ، و « كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَسْتَعِيذُ باللّهِ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ »[1]. وهذا حال أكثر العلوم

(١) روى النسائي ٨/ ٢٥٥ في الاستعاذة : باب الاستعاذة من قلب لا يخشع ، والترمذي رقم (٣٤٧٨) في الدعوات : باب رقم ٦٩ وأحمد في « المسند » ٢/ ١٦٧ و١٩٨ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع ، ودعاء لا يسمع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن علم لا ينفع ، أعوذ بك من هؤلاء الأربع » ، وهو حديث صحيح .

وفي الباب عن جابر وأبي هريرة وابن مسعود رضي الله عنهم .

الصحيحة المطابقة التي لا يضرُّ الجهل بها شيئاً ، كالعلم بالفَلَك ودقائقه ودرجاته ، وعدد الكواكب ومقاديرها . والعلم بعدد الجبال وألوانها ومساحاتها ونحو ذلك[1] .

فشرف العلم بحسب شرف معلومه وشدةِ الحاجة إليه . وليس ذلك إلا العلم باللّه وتوابعُ ذلك . وأما العلم فآفتهِ عدم مطابقته لمراد اللّه الديني الذي يحبه اللّه ويرضاه ، وذلك يكون من فساد العلم تارة ومن فساد الإرادة تارة . ففساده من جهة العلم أن يعتقد أن هذا مشروع محبوب للّه وليس كذلك ، أو يعتقد أنه يقربه إلى اللّه وإن لم يكن مشروعاً ، فيظن أنه يتقرب إلى اللّه بهذا العمل ، وإن لم يعلم أنه مشروع .

وأما فساده من جهة القصد فإن لا يُقْصَد به وجه الله والدار الآخرة ، بل يُقصَد به الدنيا والخَلْقُ . وهاتان الآفتان في العلم والعمل لا سبيل إلى السلامة منهما إلا بمعرفة ما جاء به الرسول في باب العلم والمعرفة وإرادة وجه اللّه والدار الآخرة في باب القصد والإرادة . فمتى خلا من هذه المعرفة وهذه الإرادة فسدَ علمُهُ وعملُهُ .

والإيمان واليقين يورثان صحة المعرفة وصحة الإرادة ، وهما

---

(١) فيما ذكر المصنف نظر ، فإن في علم الفلك من الآيات الجليلات التي تدل على قدرة الله وعظمته ما تأسر العقول وتأخذ بالألباب كيف لا والله سبحانه قد أمرنا بالتفكر في خلق السماوات والأرض ، وجعل الشمس والقمر والنجوم والكواكب والجبال والأنهار والبحار آيات أمر عباده بالنظر فيها والتفكر في خلقها للاستدلال على عظمته وقدرته وإبداعه ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت * وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ انظر كتابي الاستاذ الدكتور أحمد زكي « مع الله في السماء » و « مع الله في الأرض » ففيها تأييداً لما ذهبنا إليه ، والله أعلم .

يورثان الإيمان ويمدّانه . ومن هنا يتبين انحراف أكثر الناس عن الإيمان لانحرافهم عن صحة المعرفة وصحة الإرادة .

ولا يتمُّ الإيمان إلا بتلقِّي المعرفة من مشكاة النبوّة ، وتجريد الإرادة عن شوائب الهوى وإرادة الخلق ، فيكون عِلمُه مقتَبساً من مشكاة الوحي ، وإرادتُهُ للّه والدار الآخرة ، فهذا أصحّ الناس علماً وعملاً وهو من الأئمة الذين يهدون بأمر الّله ومن خلفاءِ رسوله صلى الله عليه وسلم في أُمَّتِهِ .

* * *

٤٥ ـ قاعدة

الإيمان له ظاهر وباطن ، وظاهره قول اللسان وعمل الجوارح ، وباطنه تصديق القلب وانقياده ومحبته . فلا ينفع ظاهر لا باطن له وإن حقن به الدماء وعصم به المال والذرية ، ولا يجزىء باطن لا ظاهر له إلا إذا تعذّر بعجز أو إكراه وخوف هلاك . فتخلُّفُ العملِ ظاهراً مع عدم المانع دليلٌ على فساد الباطن وخلوّه من الإيمان ، ونقصُهُ دليلُ نقصه ، وقوّته دليلُ قوّتِهِ .

فالإيمان قلبُ الإسلام ولبُّه . واليقين قلب الإيمان ولبُّه . وكل علم وعمل لا يزيد الإيمانَ واليقينَ قوةً فمدخول ، وكل إيمانٍ لا يبعث على العمل فمدخول(١) .

* * *

(١) فيما ذكر المصنف رحمه الله هنا ردٌّ على المتصوفة الذين يقولون بالشريعة والحقيقة ويفصلون بينهما ويجعلون الدين رسوماً وصوراً غير مرادة، هذا من جهة ومن جهة أخرى فيه ردٌّ على التقية الشيعيَّة .

٤٦ ـ قاعدة

التوكل على اللّه نوعان :

أحدهما : توكل عليه في جلب حوائج العبد وحظوظه الدنيوية ، أو دفع مكروهاته ومصائبه الدنيوية .

والثاني : التوكل عليه في حصول ما يحبه هو ويرضاه من الإيمان واليقين والجهاد والدعوة إليه .

وبين النوعين من الفضل ما لا يحصيه إلا اللّه . فمتى توكل عليه العبدُ في النوع الثاني حَقَّ توكله كفاه النوع الأول تمام الكفاية . ومتى توكل عليه في النوع الأول دون الثاني كفاه أيضاً ، لكنْ لا يكون له عاقبة المتوكل فيما يحبه ويرضاه .

فأعظم التوكل عليه ألتوكل في الهداية ، وتجريد التوحيد ، ومتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وجهاد أهل الباطل ، فهذا توكل الرُّسُل وخاصة أتباعهم .

والتوكل تارةً يكون توكل اضطرار وإلجاء ، بحيث لا يجد العبدُ ملجأ ولا وزراً إلا التوكل ، كما إذا ضاقت عليه الأسبابُ وضاقت عليه نفسُه وظنَّ أنْ لا ملجأ من الله إلا إليه ، وهذا لا يتخلف عنه الفَرج والتيسير البتة . وتارةً يكون توكل اختيار ، وذلك التوكل مع وجود السبب المفضي إلى المراد ، فإنْ كان السبب مأموراً به ذمَّ على تركه . وإن قام بالسبب ، وترك التوكل ، ذمّ على تركه أيضاً ، فإنه واجب باتفاق الأمة ونص القرآن ، والواجب القيام بهما ، والجمع بينهما . وإن كان السبب محرماً ، حرم عليه مباشرته ، وتوحّد السبب في حقه في التوكل ، فلم

يبقَ سبب سواه ، فإن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المراد ، ودفع المكروه ، بل هو أقوى الأسباب على الإطلاق .

وإنْ كان السبب مباحاً نظرتَ هل يُضْعِفُ قيامُك به التوكلَ أو لا يضعفه ؟ فإنْ أضعفه وفرَّق عليك قلبك وشتت همّك فتركه أوْلى ، وإنْ لم يضعفه فمباشرته أوْلى ، لأن حكمة أحكم الحاكمين اقتضت ربط المسبب فلا تعطل حكمته مهما أمكنك القيام بها ، ولا سيما إذا فعلته عبودية ، فتكون قد أتيت بعبودية القلب بالتوكل ، وعبودية الجوارح بالسبب المنوي به القربة . والذي يحقق التوكل القيام بالأسباب المأمور بها ، فمن عطّلها لم يصحّ توكله كما أن القيام بالأسباب المفضية إلى حصول الخير يحقق رجاءه ، فمَن لم يقم بها كان رجاؤه تمنياً ، كما أنَ من عطّلها يكون توكله عجزاً وعجزه توكلاً[1] .

وسرُّ التوكل وحقيقته هو اعتماد القلب على الله وحده ، فلا يضرُّه مباشرة الأسباب مع خلوِّ القلب من الاعتماد عليها والركون إليها ، كما لا ينفعه قوله : توكلت على الله ، مع اعتماده على غيره وركونه إليه وثقته به ، فتوكل اللسان شيء وتوكل القلب شيء [آخر] ، كما أن توبة اللسان مع إصرار القلب شيء ، وتوبة القلب وإن لم ينطق اللسان شيء [آخر] . فقول العبد : توكلت على الله ، مع اعتماد قلبه على غيره ، مثل قوله : تبْتُ إلى الله ، وهُو مُصِرّ على معصيته مرتكب لها .

* * *

(١) قال ابن عطاء الله السكندري في حكمه : تركك الأسباب تعطيل لحكمة الله ، وإثبات الأثر للاسباب مع الله إشراك بالله .

٤٧ ـ فائـــدة

الجاهل يشكو الله إلى الناس ، وهذا غاية الجهل بـالمشكو والمشكو إليه ، فإنه لو عرف ربّه لمَا شكاه ، ولو عرف الناسَ لَما شكا إليهم . ورأى بعضُ السلف رجلاً يشكو إلى رجل فاقتَه وضرورتَه ، فقال : يا هذا ، والله ما زدتَ على أن شكوتَ مَن يرحمك إلى مَن لا يرحمك ، وفي ذلك قيل :

وَإِذَا شَكَوْتَ إِلَىٰ ابْنِ آدَمَ إِنَّمَا   تَشْكُوْ الرَحِيْمَ إِلَىٰ الَّذِيْ لَا يَرْحَمُ

والعارف إنما يشكو إلى الله وحده . وأعرَف العارفين مَن جعل شكواه إلى الله من نفسه لا من الناس ، فهو يشكو من موجبات تسليط الناس عليه ، فهو ناظر إلى قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى : ٣٠] ، وقوله : ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ [النساء : ٧٩] وقوله : ﴿ أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٦٥] .

فالمراتب ثلاثة : أخسّها أن تشكو الله إلى خلقه ، وأعلاها أن تشكو نفسك إليه ، وأوسطها أن تشكو خلقه إليه .

* * *

٤٨ ـ قاعدة جليلة

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَآعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٤] ، فتضمّنت هذه الآية أموراً ، أحدها : أن الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ورسوله ، فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له ، وإن كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات . فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة مَن استجاب لله والرسول ظاهراً وباطناً . فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا ، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان . ولهذا كان أكملُ الناس حياة أكملَهم استجابة لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فإن كل ما دعا إليه ففيه الحياة ، فَمَنْ فاته جزءٌ منه فاته جزءٌ من الحياة ، وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول صلى الله عليه وسلم .

قال مجاهد : ﴿ لِما يُحْيِّيكُمْ ﴾ يعني للحق . وقال قتادة : هو هذا القرآن فيه الحياة والثقة والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة .

وقال السدي[1] : هو الإسلام أحياهم بعد موتهم بالكفر .

---

(١) هو اثنان الكبير هو : أبو محمد اسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة الهاشمي السدي الكوفي الأعور ، أصله حجازي ، مولى زينب بنت قيس بن مخرمة ، وإنما قيل له : السدي ، لأنه كان يعقد في سدة الجامع .

قال يحيى بن القطان : ما سمعت أحداً يذكر السدي إلا بخير .

قال الحافظ في « التقريب » : ثقة يغرب .

سمع أنس بن مالك ، ومرة الهمداني . سمع منه شعبة والثوري وزايد . مات سنة سبع وعشرين ومائة .

والثاني : السدي الصغير وهو محمد بن مروان بن عبد الله الكوفي مولى عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب صاحب « التفسير »

وقال ابن اسحاق[١]: [عن محمد بن جعفر بن الزبير عن]عروة بن الزبير[٢] : واللفظ له ﴿ لِما يحييكم ﴾ يعني للحرب التي أعزَّكم الله بها بعد الذُّلّ ، وقوَّاكم بعد الضعف ، ومنعكم بها من عدوِّكم بعد القهر منهم لكم[٣] .

= يروي عن الأعمش والكلبي ويحيى بن سعيد الأنصاري وغيرهم .
يروي عنه الأصمعي وابنه علي بن محمد السدي وأبو عمرو الدوري المقرىء .
قال عباس الدوري والغلابي عن يحيى بن معين : ليس بثقة ، وقال أبو حاتم :
قال عبد السلام بن حازم عن جرير بن عبد الحميد : كذاب . وقال أبو حاتم :
ذاهب الحديث متروك الحديث لا يكتب حديثه البتة ، وقال البخاري : لا يكتب حديثه البتة . وقال النسائي : متروك الحديث .

(١) هو أبو بكر ، وقيل أبو عبد الله محمد بن يسار المدني ، مولى قيس بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف ، تابعي .
رأى أنس بن مالك ، وسعيد بن المسيب ، وسمع القاسم بن محمد بن الصديق ، وأبان بن عثمان بن عفان ، ومحمد بن علي الباقر ، وأبا سلمة بن عبد الرحمن بن عوف ، وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج ونافعاً مولى ابن عمر والزهري وغيرهم .
حدث عنه الأئمة العلماء : يحيى بن سعيد الأنصاري ، وسفيان الثوري وابن جريج ، وشعبة ، وجرير بن حازم ، وحماد بن سلمة ، وحماد بن زيد ، وشريك بن عبد الله النخعي ، وابن عيينة .
كان عالماً بالسير والمغازي ، وأيام الناس ، وأخبار المبتدأ ، وقصص الأنبياء ، وعلم الحديث ، والقرآن والفقه .
قدم بغداد وحدث بها ، ومات بها سنة خمسين ومائة ، وقيل : سنة إحدى وخمسين ، وقيل سنة اثنتين ، وقيل سنة ثلاث ودفن بمقبرة الخيزران في الجانب الشرقي . انظر « عيون الأثر » ١/ ١٠ ـ ٢١ .

(٢) هو أبو عبد الله عروة بن الزبير بن العوام ، القرشي الأسدي .
سمع أباه ، وأمه أسماء ، وعائشة ، وعبد الله بن عمرو ، وغيرهم من كبار الصحابة. روى عنه ابنه هشام، والزهري ، وعمر بن عبد العزيز ، وغيرهم .
ولد سنة اثنتين وعشرين ، وقيل : غير ذلك ، ومات سنة أربع وتسعين ، وهو من كبار التابعين ، وهو أحد الفقهاء السبعة من أهل المدينة .

(٣) انظر «تفسير ابن كثير» ٣/ ٢٩٧ (ط البابي الحلبي بمصر) . =

وكل هذه عِبارات عن حقيقة واحدة وهي القيام بما جاء به الرسول ظاهراً وباطناً .

قال الواحدي[1] والأكثرون على أن معنى قوله ﴿ لِما يُحْيِّيكُمْ ﴾ هو الجهاد ، وهو قولُ ابن اسحاق واختيارُ أكثر أهل المعاني .

قال الفراء : إذا دعاكم إلى إحياء أمركم بجهاد عدوكم يريد إنما يقوى بالحرب والجهاد ، فلو تركوا الجهاد ضعُفَ أمرُهم واجترأ عليهم عدوُّهم .

قلت : الجهاد من أعظم ما يحييهم به في الدنيا وفي البرزخ[2] وفي الآخرة . أما في الدنيا فإن قوتهم وقهرهم لعدوِّهم بالجهاد .

وأما في البرزخ فقد قال تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الذينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩] .

وأما في الآخرة فإن حظ المجاهدين والشهداء من حياتها ونعيمها أعظم من حظ غيرهم . ولهذا قال ابن قتيبة : ﴿ لِما يُحْيِّيكُمْ ﴾ يعني الشهادة . وقال بعض المفسرين : ﴿ لِما يُحْيِّيكُمْ ﴾ يعني الجنة . فإنها دار الحيوان وفيها الحياة الدائمة الطيبة . حكاه أبو علي الجرجاني[3] .

---

(١) هو أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي بن مَتُّويه الواحدي ، مفسر ، لغوي ، نحوي ، فقيه ، أصله من « ساوه » . نعته الذهبي بإمام علماء التأويل . توفي سنة ٤٦٨هـ ، ومن تصانيفه : « البسيط » في تفسير القرآن الكريم ، و« الوسيط » و« الوجيز » ، ومنه أخذ أبو حامد الغزالي أسماء كتبه الثلاثة ، وله كتاب « أسباب النزول » و« التحبير في أسماء الله تعالى الحسنى » وغيرها . وقد طبعنا تفسيره الوجيز في مكتبتنا دار البيان بدمشق .

(٢) البرزخ لغة : ما بين شيئين وشرعاً : ما بين الدنيا والآخرة قبل الحشر من وقت الموت إلى البعث . « اللسان » مادة « برزخ » .

(٣) لم أجد من ترجم له .

والآية تتناول هذا كله ، فإن الإيمان والإسلام والقرآن والجهاد تحيي القلوب الحياة الطيبة . وكمالُ الحياة في الجنة ، والرسول داعٍ إلى الإيمان وإلى الجنة ، فهو داعٍ إلى الحياة في الدنيا والآخرة . والإنسان مضطرّ الى نوعين من الحياة : حَيَاةِ بدنه التي بها يدرك النافع والضارّ ويؤثر ما ينفعه على ما يضرُّه . ومتى نقصت فيه هذه الحياة ناله من الألم والضعف بحسب ذلك . ولذلك كانت حياة المريض والمحزون وصاحب الهمِّ والغمِّ والخوف والفقر والذُّلِّ دون حياة مَن هو معافى من ذلك . وحياة قلبه وروحه التي بها يميز بين الحق والباطل والغيِّ والرشاد والهوى والضلال ، فيختار الحق على ضدِّه . فتفيد هذه الحياة قوة التمييز بين النافع والضارّ في العلوم والإرادات والأعمال . وتفيد قوةَ الإيمان والإرادة والحب للحقِّ ، وقوةَ البغضِ والكراهة للباطل .

فشعورُه وتمييزُه وحبُّه ونَفْرتُهُ بحسب نصيبه من هذه الحياة ، كما أن البدن الحيّ يكون شعوره وإحساسه بالنافع والمؤلم أتمّ ، ويكون ميله إلى النافع ونفرته عن المؤلم أعظم . فهذا بحسب حياة البدن ، وذاك بحسب حياة القلب . فإذا بطلتْ حياته بطلَ تمييزه . وإن كان له نوع تمييز لم يكن فيه قوة يؤثر بها النافع على الضارّ . كما أن الإنسان لا حياة له حتى ينفخ فيه الملك ، الذي هو رسول الله ، من روحه ، فيصير حيّاً بذلك النفخ . وكان قبل ذلك من جملة الأموات . وكذلك لا حياة لروحه وقلبه حتى ينفخ فيه الرسول صلى الله عليه وسلم من الروح الذي ألقي إليه ، قال تعالى : ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [النحل : ٢] ، وقال : ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [غافر : ١٥] ، وقال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا

كُنْتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى : ٥٢] .

فأخبر أن وحيه روح ونور ، فالحياة والاستنارة موقوفة على نفخ الرسول الملكي ، فمَنْ أصابه نفخُ الرسول الملكـي ونفخ الرسول البشري حصلت له الحياتان ، ومَنْ حصل له نفخُ الملك دون نفخ الرسول حصلت له إحدى الحياتين وفاتته الأخرى ، قال تعالى : ﴿ أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ [الأنعام : ١٢٢] ، فجمع له بين النور والحياة كما جمع لمن أعرض عن كتابه بين الموت والظلمة . قال ابن عباس وجميع المفسرين : كان كافراً ضالاًّ فهديناه .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ يتضمّن أموراً :

أحدها : أنه يمشي في الناس بالنور وهم في الظلمة ، فمثلُه ومثلهُم كمثل قومٍ أظلم عليهم الليل فضلُّوا ولم يهتدوا للطريق . وآخر معه نور يمشي به في الطريق ويراها ويرى ما يحذره فيها .

وثانيها : أنه يمشي فيهم بنوره فهم يقتبسون منه لحاجتهم إلى النور .

وثالثها : أنه يمشي بنوره يوم القيامة على الصراط إذا بقي أهل الشرك والنفاق في ظلمات شركهم ونفاقهم .

وقوله : ﴿ وَٱعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ [الأنفال : ٢٤] . المشهور في الآية أنه يحول بين المؤمن وبين الكفر ، وبين الكافر

وبين الإيمان . ويحول بين أهل طاعته وبين معصيته ، وبين أهل معصيته وبين طاعته ، وهذا قول ابن عباسٍ وجمهور المفسرين .

وفي الآية قول آخر أن المعنى أنه سبحانه قريب من قلبه لا تخفى عليه خافية ، فهو بينه وبين قلبه . ذكره الواحدي عن قتادة ، وكان هذا أنسب بالسياق ، لأن الاستجابة أصلها بالقلب فلا تنفع الاستجابة بالبدن دون القلب ، فإن الله سبحانه بين العبد وبين قلبه فيعلم هل استجاب له قلبه وهل أضمر ذلك أو أضمر خلافه .

وعلى القول الأول ، فوجه المناسبة أنكم إن تثاقلتم عن الاستجابة وأبطأتم عنها فلا تأمنوا أن يحول الله بينكم وبين قلوبكم فلا يمكنكم بعد ذلك من الاستجابة عقوبة لكم على تركها بعد وضوح الحق واستبانته ، فيكون قوله : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام : ١١٠] وقوله : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف : ٥] ، وقوله : ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ [الأعراف : ١٠١] ، ففي الآية تحذير عن ترك الاستجابة بالقلب وإن استجاب بالجوارح .

وفي الآية سرٌّ آخر : وهو أنه جمع لهم بين الشرع والأمر به ، وهو الاستجابة ، وبين القدر والإيمان به ، فهي كقوله : ﴿ لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ [التكوير : ٢٨ - ٢٩] ، وقوله : ﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [المدثر : ٥٥ - ٥٦] ، والله أعلم .

* * *

٤٩ ـ فائدة جليلــة

قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ، وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ ، وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٦] ، وقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلُ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً ﴾ [النساء : ١٩] .

فالآية الأولى في الجهاد الذي هو كمال القوة الغضبية . والثانية في النكاح الذي هو كمال القوة الشهوانية .

فالعبد يكره مواجهة عدوِّه بقوَّته الغضبية خشية على نفسه منه ، وهذا المكروه خيرٌ له في معاشه ومعاده ، ويحب الموادعة والمتاركة ، وهذا المحبوب شرٌّ له في معاشه ومعاده .

وكذلك يكره المرأة لوصف من أوصافها وله في إمساكها خير كثير لا يعرفه . ويحب المرأة لوصف من أوصافها وله في إمساكها شرٌّ كثير لا يعرفه . فالإنسان كما وصفه به خالقه ظَلومٌ جَهولٌ[1] ، فلا ينبغي أن يجعل المعيار على ما يضرّه وينفعه ميلُهُ وحبُّه ونَفْرتُه وبُغضُه ، بل المعيار على ذلك ما اختاره الله له بأمره ونهيه .

فأنفعُ الأشياء له على الإطلاق طاعة ربه بظاهره وباطنه ، وأضرُّ

---

(١) قال تعالى ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُوْلاً ﴾ [الأحزاب : ٧٢] .

الأشياء عليه على الإطلاق معصيته بظاهره وباطنه ، فإذا قام بطاعته وعبوديته مخلصاً له فكل ما يجري عليه مما يكرهه يكون خيراً له ، وإذا تخلى عن طاعته وعبوديته فكل ما هو فيه من محبوب هو شرٌ له . فمَنْ صحَّت له معرفة ربه والفقه في أسمائه وصفاته ، عَلِمَ يقيناً أن المكروهات التي تصيبه والمِحَن التي تنزل به فيها ضروب من المصالح والمنافع التي لا يحصيها علمه ولا فكره ، بل مصلحة العبد فيما يكره أعظم منها فيما يحب .

فعامَّة مصالح النفوس في مكروهاتها ، كما أن عامة مضارّها وأسباب هلكتها في محبوباتها . فانظر إلى غارس جنة من الجنات خبير بالفلاحة غَرَسَ جنة وتعاهدها بالسقي والإصلاح حتى أثمرت أشجارُها ، فأقبل عليها يفصل أوصالها ويقطع أغصانها لعلمه أنها لو خُلِّيَتْ على حالها لم تطِبْ ثمرتها ، فيُطَعِّمها من شجرة طيبة الثمرة ، حتى إذا الْتَحَمَتْ بها واتَّحَدَتْ وأعطت ثمرتها أقبل يُقلِّمها ويقطع أغصانها الضعيفة التي تُذْهِب قوتها ، ويُذيقها ألم القطع والحديد لمصلحتها وكمالها ، لتصلح ثمرتها أن تكون بحضرة الملوك . ثم لا يدعها ودواعي طبعها من الشرب كل وقت ، بل يعطشها وقتاً ويسقيها وقتاً ، ولا يترك الماء عليها دائماً وإن كان ذلك أنضر لورقها وأسرع لنباتها . ثم يَعْمِدُ إلى تلك الزينة التي زينت بها من الأوراق فيلقي عنها كثيراً منها ، لأن تلك الزينة تحول بين ثمرتها وبين كمالُ نضجها واستوائها كما في شجر العنب ونحوه . فهو يقطع أعضاءها بالحديد ويلقي عنها كثيراً من زينتها ، وذلك عين مصلحتها . فلو أنها ذات تمييز وإدراك كالحيوان ، لَتَوَهَّمَتْ أنَّ ذلك إفساد لها وإضرار بها ، وإنما هو عين مصلحتها .

وكذلك الأب الشفيق على ولده العالِم بمصلحته ، إذا رأى مصلحته في إخراج الدم الفاسد عنه ، بَضَعَ جلده[1] وقطع عروقه وأذاقه الألم الشديد . وإن رأى شفاءه في قطع عضو من أعضائه أبانه عنه[2] ، كلُّ ذلك رحمةً به وشفقة عليه . وإن رأى مصلحته في أن يمسك عنه العطاء لم يُعْطِهِ ولم يوسع عليه ، لعلمِهِ أن ذلك أكبر الأسباب إلى فساده وهلاكه . وكذلك يمنعه كثيراً من شهواته حمية له ومصلحة لا بخلاً عليه .

فأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وأعلم العالمين ، الذي هو أرحم بعباده منهم بأنفسهم ومن آبائهم وأمهاتهم ، إذا أنزل بهم ما يكرهون كان خيراً لهم من أن لا ينزله بهم ، نظراً منه لهم وإحساناً إليهم ولطفاً بهم ، ولو مكنوا من الاختيار لأنفسهم لَعَجزوا عن القيام بمصالحهم علماً وإرادة وعملاً ، لكنه سبحانه تولى تدبير أمورهم بموجب علمه وحكمته ورحمته ، أحبوا أم كرهوا ، فعرف ذلك الموقنون بأسمائه وصفاته فلم يتهموه في شيء من أحكامه ، وخفي ذلك على الجهال به وبأسماءه وصفاته ، فنازعوه تدبيره ، وقدحوا في حكمته ، ولم ينقادوا لحكمه ، وعارضوا حكمه بعقولهم الفاسدة وآرائهم الباطلة وسياساتهم الجائرة ، فلا لربهم عرفوا ، ولا لمصالحهم حَصَّلوا ، والله الموفق .

ومتى ظفر العبدُ بهذه المعرفة سكن في الدنيا قبل الآخرة في جنة لا يشبه نعيمها إلا نعيم جنة الآخرة ، فإنه لا يزال راضياً عن ربه ، والرضا جنة الدنيا ومستراح العارفين ، فإنه طَيِّبُ النفس بما يجري عليها من

---

(١) بضع جلده : شقه .

(٢) أبانه عنه : قطعه .

المقادير التي هي عين اختيار اللّه له ، وطمأنينتها إلى أحكامه الدينية ، وهذا هو الرضا باللّه رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً . وما ذاق طعم الإيمانَ من لم يَحْصل له ذلك[1] . وهذا الرضا هو بحسب معرفته بعدل اللّه وحكمته ورحمته وحسن اختياره ، فكلما كان بذلك أعرَف كان به أرضى . فقضاء الرب سبحانه في عبده دائر بين العدل والمصلحة والحكمة والرحمة ، لا يخرج عن ذلك البتة كما قال صلى الله عليه وسلم في الدعاء المشهور : « اللَّهُمَّ إنِّي عَبْدُكَ ، ابْنُ عَبْدِكَ ، ابْنُ أَمَتِكَ ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ ، مَاضٍ فيَّ حُكْمُكَ ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي ، وَنُورَ صَدْرِي ، وَجَلَاءَ حُزْنِي ، وَذِهَابَ هَمِّي وَغَمِّي . مَا قَالَهَا أَحَدٌ قَطُّ إلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَغَمَّهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجاً » . قالوا : أفلا نتعلمهن يا رسول الله ؟ قال : بَلَى ! يَنْبَغِيْ لِمَنْ يَسْمَعْهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ »[2] .

والمقصود قوله : « عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ » ، وهذا يتناول كل قضاء يقضيه على عبده ، من عقوبة أو ألم وسبب ذلك ، فهو الذي قضى

---

(١) عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال : إنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ذَاقَ طَعْمُ الإيْمَانِ مَنْ رَضِيَ بالله رَبَّاً وَبِالإسْلَامِ دِيْناً وبِمُحَمَّدٍ رَسُوْلاً » رواه مسلم في « صحيحه » في الإيمان : باب الدليل على أن من رضي بالله رباً . . . رقم (٣٤) ،والترمذي فيه: باب ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان رقم (٢٧٥٨) وأحمد في « المسند » ١/ ٢٠٨ .

(٢) قطعة من حديث تقدم تخريجه ص (٤٤) وأوله : « ما أصاب عبداً همٌّ ولا حزن فقال : اللهم إني عبدك ، . . . » الحديث .

بالسبب وقضى بالمسبب . وهو عدلٌ في هذا القضاء . وهذا القضاء خير للمؤمن كما قال صلى الله عليه وسلم : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَقْضِي اللّهُ لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْراً لَهُ ، وَلَيْسَ ذٰلِكَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ »[1] .

قال العلاّمة ابن القيم : فسألت شيخنا[2] هل يدخل في ذلك قضاء الذنب ؟ فقال : نعم بشرطه ، فأجمل في لفظه « بشرطه » ما يترتب على الذنب من الآثار المحبوبة للّه من التوبة والانكسار والندم والخضوع والذُّلّ والبكاء وغير ذلك .

* * *

٥٠ ـ فائدة

لا تتمُّ الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا ، ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين :

النظر في الدنيا وسرعة زوالها وفنائها واضمحلالها ونقصها وخِسّتها ، وألم المزاحمة عليها والحرص عليها ، وما في ذلك من الغصص والنغص والأنكاد ، وآخرُ ذلك الزوال والانقطاع مع ما يعقب من الحسرة والأسف ، فطالبُهَا لا ينفكُّ من هَمٍّ قبل حصولها ، وَهَمٍّ في حال الظفر بها ، وَغَمٍّ وحزن بعد فواتها . فهذا أحد النظرين .

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٩٩٩) في الزهد : باب المؤمن أمره كله خير ، من حديث صهيب رضي الله عنه ، ولفظه عنده : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له » .

(٢) هو شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني الإمام المجدد المجاهد تقدمت ترجمته ص (٢٢) .

النظر الثاني في الآخرة وإقبالها ومجيئها ولا بُدَّ، ودوامها وبقائها، وشرف ما فيها من الخيرات والمسرَّات والتفاوت الذي بينه وبين ما ها هنا فهي كما قال سبحانه : ﴿ وَٱلۡآخِرَةُ خَيۡرٌ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾ [الأعلى : ١٧] . فهي خيرات كاملة دائمة ، وهذه خيالات ناقصة منقطعة مضمحلة . فإذا تمَّ له هذان النظران آثرَ ما يقتضي العقلُ إيثارَهُ، وَزَهِدَ فيما يقتضي الزهد فيه. فكلُّ أحدٍ مطبوع على أن لا يترك النفع العاجل واللذة الحاضرة إلى النفع الآجل واللذة الغائبة المنتظرة ، إلا إذا تبيَّن له فضل الآجل على العاجل وقويَتْ رغبتُهُ في الأعلى الأفضل . فإذا آثَرَ الفاني الناقص كان ذلك إما لعلم تبيَّن الفضل له ، وإما لعدم رغبته في الأفضل ، وكلُّ واحد من الأمرين يدلُّ على ضعف الإيمان وضعف العقل والبصيرة . فإن الراغب في الدنيا الحريص عليها المؤْثِر لها إما أن يصدِّق بأن ما هناك أشرف وأفضل وأبقى، وإما أن لا يصدق، فإن لم يصدِّق بذلك كان عادماً للإيمان رأساً ، وإنْ صدَّق بذلك ولم يؤثِرْهُ كان فاسدَ العقل سيء الاختيار لنفسه . وهذا تقسيم حاضر ضروري لا ينفكُّ العبدُ من أحد القسمين منه . فإيثار الدنيا على الآخرة إما من فسادٍ في الإيمان ، وإما من فسادٍ في العقل . وما أكثر ما يكون منهما . ولهذا نبذها رسولُ اللَّه صلى اللّه عليه وسلم وراء ظهره هو وأصحابه وصرفوا عنها قلوبهم ، واطرحوها ولم يألفوها ، وهجروها ولم يميلوا إليها ، وعَدُّوها سجناً لا جنة[1] . فزهدوا فيها حقيقة الزهد ، ولو أرادوها لنالوا منها كل محبوب وَلَوصلوا منها إلى كل مرغوب . فقد عُرِضَتْ عليه مفاتيحُ كنوزِها فردَّها ،

---

(١) روى مسلم رقم (٢٩٥٦) في الزهد والرقائق ، وأحمد في « المسند » ٢/ ٣٢٣ و ٣٨٩ و ٣٨٥ ، والترمذي رقم (٢٣٢٥) في الزهد ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الدنيا سجن المؤمن ، وجنة الكافر» .

وفاضت على أصحابه فآثروا بها ولم يبيعوا حظهم من الآخرة بها ، وَعَلِموا أنها معبر وممرّ لا دار مقام ومستقرّ ، وأنها دار عبور لا دار سرور[1] ، وأنها سحابة صيف تنقشع عن قليل ، وخيال طيف ما استتمَّ الزيارة حتى آذن بالرحيل .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « مَالِي وِلِلدُّنْيَا ، إِنَّمَا أَنَا كَرَاكِبٍ قَالَ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا »[2] . وقال : « مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يُدْخِلُ أَحَدُكُمْ أُصْبَعَهُ فِي اليَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ »[3] .

وقال خالقها سبحانه : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ، فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَٱلأَنْعَامُ ، حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ ٱلأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ ، وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا ، أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهاراً ، فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِٱلأَمْسِ ، كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [يونس : ٢٤ ـ ٢٥] ، فأخبر عن خِسَّةِ الدنيا وزَهَّدَ فيها ، وأخبر عن دار السلام ودعا إليها .

---

(١) رحم الله القائل :

إِنَّ لِلَّهِ عِبَاداً فُطَنَا … طَلَّقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الفِتَنَا
نَظَرُوا فِيهَا فَلَمَّا عَلِمُوا … أَنَّهَا لَيْسَتْ لِحَيٍّ وَطَنَا
جَعَلُوهَا لُجَّةً وَاتَّخَذُوا … صَالِحَ الأَعْمَالِ فِيهَا سُفُنَا

(٢) رواه الترمذي رقم (٢٣٧٨) في الزهد : باب رقم ٤٤ ، وابن ماجه رقم (٤١٠٩) في الزهد : باب مثل الدنيا ، والحاكم ٤/ ٣١٠ ، وأحمد في « المسند » ٢/ ٧٠ ، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وهو حديث صحيح ، وقال الترمذي : وفي الباب عن عمر وابن عباس . انظر «الأحاديث الصحيحة» للألباني رقم (٤٣٨) .

(٣) رواه مسلم رقم (٢٨٥٨) في الجنة وصفة نعيمها : باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة ، والترمذي رقم (٢٣٢٤) في الزهد : باب رقم ١٥ ، وابن ماجه رقم (٤١٠٨) في الزهد : باب مثل الدنيا من حديث قيس بن أبي حازم رحمه الله تعالى .

وقال تعالى : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ ٱلْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ، فَٱخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ ٱلأَرْضِ ، فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ، وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً * الْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَٱلْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً ، وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ [الكهف : ٤٥ ـ ٤٦] .

وقال تعالى : ﴿ ٱعْلَمُوا أَنَّمَا ٱلْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلأَمْوَالِ وَٱلأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ، ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَراً ، ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً ، وفِي ٱلآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللّهِ وَرِضْوَانٌ ، وَمَا ٱلْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلَّا مَتَاعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد : ٢٠] .

وقال تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَاطِيرِ ٱلْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلأَنْعَامِ وَٱلْحَرْثِ ، ذٰلِكَ مَتَاعُ ٱلْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، واللّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ ٱلْمَآبِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذٰلِكُمْ ، لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ، وَرِضْوَانٌ مِنَ اللّهِ ، واللّهُ بَصِيرٌ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران : ١٤ ـ ١٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَفَرِحُوا بِٱلحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إلَّا مَتَاعٌ ﴾ [الرعد: ٢٦] .

وقد توعَّد سبحانه أعظم الوعيد لمن رضيَ بالحياة الدنيا واطمأنَّ بها وغفل عن آياته ولم يَرْجُ لقاءَه ، فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِٱلْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [يونس : ٧ ـ ٨] .

وعيَّر سبحانه مَنْ رضي بالدنيا من المؤمنين ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ ، أَرَضِيتُمْ بِٱلْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ ، فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة : ٣٨] .

وعلى قدر رغبة العبد في الدنيا ورضاه بها يكون تثاقله عن طاعة اللّه وطلب الآخرة ، ويكفي في الزهد في الدنيا قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ* مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٠٥ - ٢٠٧] ، وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ ، يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس : ٤٥] .

وقوله : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَاسِقُونَ ﴾ [الأحقاف : ٣٥] .

وقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا* فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا * إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا * كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ [النازعات : ٤٢ - ٤٦] .

وقوله : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم : ٥٥] .

وقوله : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ* قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، فَٱسْأَلِ ٱلْعَادِّينَ* قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١٢ - ١١٤] .

وقوله : ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ، وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً* يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ، إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً ﴾ [طه : ١٠٢ - ١٠٤] ، والله المستعان وعليه التُّكْلان .

* * *

٥١ ـ قاعدة

أساسُ كُلِّ خيرٍ أن تعلم أن ما شاء اللّه كانَ ، وما لم يشأ لم يكن . فتيقن حينئذٍ أنَّ الحسنات من نِعَمِهِ ، فتشكره عليها ، وتتضرع إليه أن لا يقطعها عنك ، وأنَّ السيئات من خذلانه وعقوبته ، فتبتهل إليه أن يحول بينك وبينها ، ولا يكِلك في فعل الحسنات وترك السيئات إلى نفسك . وقد أجمع العارفون على أن كل خير فأصله بتوفيق الله للعبد ، وكل شر فأصله خذلانه لعبده . وأجمعوا أن التوفيق أن لا يكِلَكَ اللّهُ إلى نفسك ، وأن الخذلان هو أن يخلي بينك وبين نفسك ، فإذا كان كل خير فأصله التوفيق ، وهو بيد اللّه لا بيد العبد ، فمفتاحه الدعاء والافتقار وصدق اللجأ والرغبة والرهبة إليه . فمتى أعْطَى العبدَ هذا المفتاح فقد أراد أن يفتَحَ له ، ومتى أضلَّه عن المفتاح بقي بابُ الخير مُرْتجاً دونه .

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إني لا أحمل همَّ الإجابة ، ولكن همَّ الدعاء ، فإذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه . وعلى قدر نيَّةِ العبد وهمَّته ومراده ورغبته في ذلك يكون توفيقه سبحانه وإعانته . فالمعونة من اللّه تنزل على العباد على قدر هِمَمِهِم وثباتهم ورغبتهم ورهبتهم ، والخذلان ينزل عليهم على حسب ذلك ، فاللّه سبحانه أحكم الحاكمين وأعلم العالمين ، يضع التوفيق في مواضعه اللائقة به والخذلان في مواضعه اللائقة به ، وهو العليم الحكيم ، وما أُتِيَ من أُتيَ إلا من قِبَل إضاعة الشكر وإهمال الافتقار والدعاء ، ولا ظفر مَن ظَفِرَ بمشيئة اللّه وعونه إلا بقيامه بالشكر وصدق الافتقار والدعاء . وملاك ذلك الصبر فإنه من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، فإذا قُطع الرأس فلا بقاء للجسد .

* * *

* ما ضُرِبَ عبدٌ بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبعد عن اللّه .

* خُلِقَت النار لإذابة القلوب القاسية .

* أبعد القلوب من اللّه القلب القاسي .

* إذا قسا القلب قحطت العين .

* قسوة القلب من أربعة أشياء إذا جاوزت قدر الحاجة : الأكل والنوم والكلام والمخالطة . كما أن البدن إذا مرض لم ينفع فيه الطعام والشراب ، فكذلك القلب إذا مرض بالشهوات لم تنجع فيه المواعظ .

* مَنْ أراد صفاءَ قلبه فليؤْثر اللّه على شهوته .

* القلوب المتعلقة بالشهوات محجوبة عن اللّه بقدر تعلُّقها بها .

* القلوب آنية اللّه في أرضه ، فأحَبُّها إليه أرقّها وأصلبها وأصفاها .

* شغلوا قلوبهم بالدنيا ، ولو شغلوها باللّه والدار الآخرة لجالت في معاني كلامه وآياته المشهودة ورجعت إلى أصحابها بغرائب الحِكَم وطُرَف الفوائد[1] .

* إذا غُذِّيَ القلبُ بالتذكُّر ، وسُقِيَ بالتفكُّر ، ونُقي من الدغل[2] ، رأى العجائب وألهم الحكمة .

* ليس كل من تحلى بالمعرفة والحكمة وانتحلها كان من أهلها ، بل أهل المعرفة والحكمة الذين أحيوا قلوبهم بقتل الهوى . وأما مَن قتل قلبه فأحيى الهوى ، فالمعرفة والحكمة عارِيَّةٌ على لسانه .

* خراب القلب من الأمن والغفلة ، وعمارته من الخشية والذكر .

* إذا زَهِدَتِ القلوبُ في موائد الدنيا قعدت على موائد الآخرة بين

---

(١) انظر الفائدة رقم (٦) ص (٤١) .

(٢) أي الفساد .

أهل تلك الدعوة ، وإذا رضيت بموائد الدنيا فاتتها تلك الموائد .

* الشوق إلى الله ولقائه نسيم يهبُّ على القلب يُرَوِّحُ عنه وَهَجَ الدنيا .

* مَن وَطَّنَ قلبَه عند ربه ، سكن واستراح ، ومَن أرسله في الناس اضطرب واشتدَّ به القلق .

* لا تدخل محبةُ الله في قلب فيه حب الدنيا إلا كما يدخل الجمل في سمِّ الإبرة .

* إذا أَحَبَّ اللهُ عبداً اصطنعه لنفسه واجتباه لمحبته ، واستخلصه لعبادته ، فشغل همَّهُ به ، ولسانَه بذكره ، وجوارحَه بخدمته .

* القلب يمرض كما يمرض البدن ، وشفاؤه في التوبة والحمية ، ويصدأ كما تصدأ المرآة وجلاؤه بالذكر ، ويَعْرَى كما يعرى الجسم ، وزينته التقوى ، ويجوع ويظمأ كما يجوع البدن ، وطعامُه وشرابه المعرفةُ والمحبة والتوكل والإنابة والخدمة .

* إياك والغفلة عمن جعل لحياتك أجلاً ولأيامك وأنفاسك أمداً ومن كل ما سواه بُدّ ولا بُدَّ لك منه .

* مَن ترك الاختيار والتدبير في طلب زيادة دنيا أو جاه أو في خوف نقصان أو في التخلص من عدوّ ، توكلاً على الله وثقة بتدبيره له وحسن اختياره له ، فألقى كنفه بين يديه ، وسلم الأمر إليه ، ورضي بما يقضيه له = استراح من الهموم والغموم والأحزان .

وَمَن أبى إلا تدبيره لنفسه ، وقع في النكد والنصبَ وسوء الحال

والتعب ، فلا عيشَ يصفو ، ولا قلب يفرح ، ولا عمل يزكو ، ولا أمل يقوم ، ولا راحة تدوم .

واللهُ سبحانه سَهَّلَ لِخَلْقِه السبيلَ إليه وحَجَبهم عنه بالتدبير ، فمَنْ رضي بتدبير الله له ، وسكن الى اختياره ، وسلم لحكمه ، أزال ذلك الحجاب ، فأفضى القلب الى ربه ، واطمأن اليه وسكن .

* المتوكل لا يسأل غير الله ، ولا يَرُدُّ على الله ، ولا يدخر مع الله .

* مَن شغل بنفسه شغل عن غيره ، ومَن شغل بربه شغل عن نفسه .

* الإخلاص هو ما لا يعلمه مَلَك فيكتُبَه ولا عدو فيُفسده ولا يُعْجَب به صاحبه فيُبْطِله .

* الرضا سكون القلب تحت مجاري الأحكام .

* الناس في الدنيا معذَّبون على قدر هِمَمِهم بها .

* للقلب ستة مواطن يجول فيها لا سابع لها ، ثلاثة سافلة وثلاثة عالية .

فالسافلة : دنيا تتزين له ، ونفس تحدثه ، وعدو يوسوس له . فهذه مواطن الأرواح السافلة التي لا تزال تجول فيها .

والثلاثة العالية : علم يتبين له ، وعقل يرشده ، وإلّه يعبده . والقلوب جوّالة في هذه المواطن .

* اتباع الهوى وطول الأمل مادة كل فساد ، فإن اتباع الهوى يعمي عن الحق معرفة وقصداً ، وطول الأمل ينسي الآخرة ، ويصد عن الاستعداد لها .

* لا يشمُّ عبدٌ رائحةَ الصدق ويداهن نفسه ، أو يداهن غيره .

* إذا أراد الله بعبدٍ خيراً جعله معترفاً بذنبه ، ممسكاً عن ذنب غيره ، جواداً بما عنده ، زاهداً فيما عند غيره ، محتملاً لأذى غيره ، وإنْ أراد به شراً عكس ذلك عليه .

* الهمّة العليّة لا تزال حائمة حول ثلاثة أشياء :

تعرُّفُ لصفة من الصفات العليا تزداد بمعرفتها محبةً وإرادة .

وملاحظةٌ لمِنَّة تزداد بملاحظتها شكراً وطاعة .

وتذكُّرٌ لذنب تزداد بتذكُّره توبة وخشية . فإذا تعلقت الهمّة بسوى هذه الثلاثة جالت في أودية الوساوس والخطرات .

* مَن عشق الدنيا نظَرَتْ إلى قدرها عنده فصيَّرته من خدمها وعبيدها وأذلَّته . ومَن أعرض عنها نظَرَتْ إلى كبر قدره فخدمته وذلَّتْ له .

* إنما يُقْطَع السفر ويصل المسافر بلزوم الجادة وسير الليل ، فإذا حادَ المسافر عن الطريق ، ونام الليل كله ، فمتى يصل إلى مقصده ؟

* * *

٥٢ ـ فائدة جليلة

كلُّ مَن آثر الدنيا من أهل العلم واستحبَّها ، فلا بد أن يقول على الله غير الحق في فتواه وحكمه ، في خبره وإلزامه ، لأن أحكام الرب سبحانه كثيراً ما تأتي على خلاف أغراض الناس ، ولا سيما أهل

الرئاسة . والذين يتبعون الشهوات فإنهم لا تتمُّ لهم أغراضهم إلا بمخالفة الحق ودفعه كثيراً ، فإذا كان العالِم والحاكم محبين للرئاسة ، متبعين للشهوات ، لم يتم لهما ذلك إلا بدفع ما يضادّه من الحق ، ولا سيما إذا قامت له شبهة ، فتتفق الشبهة والشهوة ، ويثور الهوى ، فيخفى الصواب ، وينطمس وجه الحق . وإن كان الحق ظاهراً لا خفاء به ولا شبهة فيه ، أقدم على مخالفته وقال : لي مخرج بالتوبة . وفي هؤلاء وأشباههم قال تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَٱتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ﴾ [مريم : ٥٩] .

وقال تعالى فيهم أيضاً : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا ٱلْكِتَابَ ، يَأْخُذُونَ عَرَضَ هٰذَا الأَدْنَىٰ ، وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ، وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ، أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ ٱلْكِتَابِ أَنْ لاَ يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ ٱلْحَقَّ ، وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ، وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ، أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٦٩] .

فأخبر سبحانه أنهم أخذوا العَرَضَ الأدنى مع علمهم بتحريمه عليهم وقالوا سيغفر لنا ، وإنْ عَرَضَ لهم عَرَضٌ آخر أَخذوه فهم مُصِرُّون على ذلك ، وذلك هو الحامل لهم على أن يقولوا على الله غير الحق ، فيقولون هذا حكمه وشرعه ودينه وهم يعلمون أن دينه وشرعه وحكمه خلاف ذلك ، أوَ لا يعلمون أن ذلك دينه وشرعه وحكمه ؟ فتارة يقولون على الله ما لا يعلمون ، وتارة يقولون عليه ما يعلمون بطلانه ، وأما الذين يتقون فيعلمون أن الدار الآخرة خير من الدنيا ، فلا يحملهم حبُّ الرئاسة والشهوة على أن يؤثروا الدنيا على الآخرة . وطريق ذلك أن يتمسكوا بالكتاب والسنة ، ويستعينوا بالصبر والصلاة ، ويتفكروا في الدنيا وزوالها وخِسَّتها ، والآخرة وإقبالها ودوامها .

وهؤلاء لا بد أن يبتدعوا في الدين مع الفجور في العمل فيجتمع لهم الأمران ، فإن اتباع الهوى يعمي عين القلب ، فلا يميز بين السنة والبدعة ، أو ينكسه فيرى البدعة سنة ، والسنة بدعة .

فهذه آفة العلماء إذا آثروا الدنيا ، واتبعوا الرئاسات والشهوات . وهذه الآيات فيهم إلى قوله : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَٱنْسَلَخَ مِنْهَا ، فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ، وَلٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ ، وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ ، إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ ، أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ﴾ [الأعراف : ١٧٥ - ١٧٦] ، فهذا مثل عالم السوء الذي يعمل بخلاف علمه .

وتأمّلْ ما تضمّنته هذه الآية من ذمِّه ، وذلك من وجوه :

أحدها : أنه ضلَّ بعد العلم ، واختار الكفر على الإيمان عمداً لا جهلاً .

وثانيها : أنه فارق الإيمان مفارقة مَن لا يعود إليه أبداً ، فإنه انسلخ من الآيات بالجملة ، كما تنسلخ الحيّة من قشرها ، ولو بقي معه منها شيء ، لم ينسلخ منها .

وثالثها : أن الشيطان أدركه ولحقه ، بحيث ظفر به وافترسه ، ولهذا قال : ﴿ فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ ﴾ ، ولم يقل تبعه ، فإن في معنى أتبعه أدركه ولحقه ، وهو أبلغ من تبعه لفظاً ومعنى .

ورابعها : أنه غوى بعد الرشد . والغيّ : الضلال في العلم والقصد ، وهو أخص بفساد القصد والعمل ، كما أن الضلال أخص بفساد العلم والاعتقاد . فإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر ، وإن اقترنا فالفرق ما ذكر .

وخامسها : أنه سبحانه لم يشأ أن يرفعه بالعلم فكان سبب هلاكه ، لأنه لم يرفع به فصار وبالاً عليه ، فلو لم يكن عالماً كان خيراً له وأخف لعذابه .

وسادسها : أنه سبحانه أخبر عن خِسّةِ هِمّتِه ، وأنه اختار الأسفل الأدنى على الأشرف الأعلى .

وسابعها : أن اختياره للأدنى لم يكن عن خاطر وحديث نفس ، ولكنه كان عن إخلاد إلى الأرض ، وميل بكليته إلى ما هناك ، وأصل الإخلاد اللزوم على الدوام ، كأنه قيل : لزم الميل إلى الأرض ، ومن هذا يقال : أخلد فلان بالمكان إذا لزم الإقامة به، قال مالك بن نويرة[1] :

بِـأَبْنَاءِ حَيٍّ مِنْ قَبَـائِـلِ مَـالِـكٍ وَعَمْرِوْ بنِ يَرْبُوْعٍ أَقَامُوْا فَأَخْلَدُوْا

وعبّر عن ميله إلى الدنيا بإخلاده إلى الأرض ، لأن الدنيا هي الأرض وما فيها وما يستخرج منها من الزينة والمتاع .

وثامنها : أنه رغب عن هداه ، واتبع هواه ، فجعل هواه إماماً له ، يَقْتَدِي به ، ويتبعه .

وتاسعها : أنه شبّهه بالكلب الذي هو أخَسّ الحيوانات هِمّة ، وأسقطها نفساً ، وأبخلها وأشدّها كَلَباً ، ولهذا سمي كَلْباً .

---

(١) هو مالك بن نويرة بن جمرة بن شداد اليربوعي التميمي ، أبو حنظلة ، أدرك الإسلام وأسلم ، وولاه رسول الله صلى الله وسلم صدقات قومه بني يربوع ، ولما صارت الخلافة إلى أبي بكر اضطرب مالك في أموال الصدقات وفرّقها . وقيل : ارتد ، فتوجه إليه خالد بن الوليد وقبض عليه في البطاح ، وأمر ضرار بن الأزور الأسدي فقتله سنة ١٢هـ .

وفي « خزانة الأدب » للبغدادي ١/ ٢٣٦ تفصيل السبب الذي قتل من أجله مالك ابن نويرة ، وما دار بينه وبين خالد قبل ذلك .

وعاشرها : أنه شبَّه لهثه على الدنيا ، وعدم صبره عنها ، وجزعه لفقدها، وحرصه على تحصيلها ، بلهث الكلب في حالتي تركه والحمل عليه بالطرد ، وهكذا . هذا إن ترك فهو لهثان على الدنيا ، وإن وعظ وزجر فهو كذلك . فاللهث لا يفارقه في كل حال كلهث الكلب .

قال ابن قتيبة : كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال ، وحال الراحة ، وحال الريّ ، وحال العطش ، فضربه الله مثلاً لهذا الكافر فقال : إنْ وعظته فهو ضال ، وإنْ تركته فهو ضالّ كالكلب إنْ طردته لهث ، وإنْ تركته على حاله لهث . وهذا التمثيل لم يقع بكل كلب ، وإنما وقع بالكلب اللاهث ، وذلك أخَسّ ما يكون وأشنعه .

* * *

٥٣ ـ فصل

فهذا حالُ العالِم المؤثر الدنيا على الآخرة ، وأما العابدُ الجاهل فآفته من إعراضه عن العلم وأحكامه وغلبَةُ خياله وذوقه ووجده وما تهواه نفسه . ولهذا قال سفيان بن عيينة وغيره : احذروا فتنة العالم الفاجر ، وفتنة العابد الجاهل ، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون ، فهذا بجهله يصدُّ عن العلم وموجبه ، وذاك بغَيِّه يدعو إلى الفجور .

وقد ضرب الله سبحانه مثل النوع الآخر بقوله : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ : ٱكْفُرْ ، فَلَمَّا كَفَرَ ، قَالَ : إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ ، إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ ٱلْعَالَمِينَ * فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا ، وذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ [الحشر : ١٦ ـ ١٧] ، وقصته معروفة ، فإنه بنى

وفاضت على أصحابه أساس أمره على عبادة الله بجهل، فأوقعه الشيطان بجهله ، وكفَّره بجهله . فهذا إمام كل عابد جاهل يكفر ولا يدري ، وذاك إمام كل عالم فاجر ، يختار الدنيا على الآخرة .

وقد جعل سبحانه رضى العبد بالدنيا ، وطمأنينته وغفلته عن معرفة آياته ، وتدبُّرها والعمل بها ، سببَ شقائه وهلاكه ، ولا يجتمع هذان ، أعني الرضى بالدنيا والغفلة عن آيات الرب إلا في قلب مَن لا يؤمن بالمعاد ، ولا يرجو لقاء رب العباد ، وإلا فلو رسخ قدمه في الإيمان بالمعاد ، لَمَا رضي الدنيا ، ولا اطمأنَّ إليها ، ولا أعرض عن آيات الله .

وأنت إذا تأمَّلتَ أحوالَ الناس وجدتَ هذا الضرب هو الغالب على الناس وهم عُمّار الدنيا . وأقل الناس عدداً مَن هو على خلاف ذلك ، وهو من أشد الناس غربة بينهم ، لهم شأن وله شأن ، علمه غير علومهم ، وإرادته غير إرادتهم ، وطريقه غير طريقهم ، فهو في وادٍ وهم في واد ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [يونس : ٧ - ٨] .

ثم ذكر وصف ضد هؤلاء ومآلهم وعاقبتهم بقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ [يونس : ٩] . فهؤلاء إيمانهم بلقاء الله أورثهم عدم الرضا بالدنيا والطمأنينة إليها ، ودوام ذكر آياته ، فهذه مواريث الإيمان بالمعاد ، وتلك مواريث عدم الإيمان به والغفلة عنه .

* * *

٥٤ ـ فائدة عظيمة

أفضل ما اكتسبته النفوس ، وحصلته القلوب ، ونال به العبدُ الرفعةَ في الدنيا والآخرة ، هـو العلم والإيمان ، ولهذا قرن بينهما سبحانه في قوله : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ﴾ [الروم : ٥٦] . وقوله : ﴿ يَرْفَعِ ٱللهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] ، وهؤلاء هم خلاصة الوجود ولبُّه ، والمؤهلون للمراتب العالية ، ولكن أكثر الناس غالطون في حقيقة مسمى العلم والإيمان اللذين بهمـا السعادة والـرفعة ، وفي حقيقتهما . حتى أَنّ كل طائفة تظنُّ أن ما معها من العلم والإيمان هو هذا الذي به تُنال السعادة ، وليس كذلك بل أكثرهم ليس معهم إيمان ينجي ولا علم يرفع ، بل قد سدّوا على نفوسهم طرق العلم والإيمان اللذين جاء بهما الرسول صلى الله عليه وسلم ودعا إليهما الأمة ، وكان عليهما هو وأصحابه من بعده وتابعوهم على منهاجهم وآثارهم .

فكل طائفة اعتقدت أن العلم ما معها وفرحت به ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٣] ، وأكثر ما عندهم كلام وآراء وخرص،والعلم وراء الكلام كما قال حماد بن زيد[1] :

---

(١) هو أبو اسماعيل حماد بن زيد بن درهم الجهضمي الأزدي ، مولى آل جرير بن حازم البصري ، أحد الأعلام وكان جده درهم من سبي سجستان .

روى عن ثابت البناني . وأيوب وعمرو بن دينار .

روى عنه ابن المبارك ، ويحيى بن سعيد ، وابن المهدي .

ولد في زمن سليمان بن عبد الملك ، وقيل : في زمن عمر بن عبد العزيز . ومات سنة تسع وسبعين ومائة . وكان ضريراً .

قلت لأيوب[1] : العلم اليوم أكثر أو فيما تقدم ؟ فقال : الكلام اليوم أكثر والعلم فيما تقدم أكثر !

ففرَّق هذا الراسخُ بين العلم والكلام . فالكتب كثيرة جداً والكلام والجدال والمقدرات الذهنية كثيرة ، والعلم بمعزل عن أكثرها ، وهو ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم عن الله سبحانه ، قال تعالى : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ . . . ﴾ [آل عمران : ٦١][2] ، وقال : ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَائَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ ٱلْعَلْمِ . . . ﴾ [البقرة : ١٢٠][3] ، وقال في القرآن : ﴿ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ [النساء : ١٦٦] أي وفيه عِلمُه .

ولما بَعُدَ العهدُ بهذا العلم آلَ الأمرُ بكثيرٍ من الناس إلى أن اتخذوا هواجس الأفكار وسوانح الخواطر والآراء علماً ، ووضعوا فيها الكتب ، وأنفقوا فيها الأنفاس ، فضيَّعوا فيها الزمان ، وملأوا بها الصحف مداداً ، والقلوب سواداً ، حتى صرَّح كثيرٌ من الناس منهم أنه ليس في القرآن والسنة علم ، وأن أدلتهما لفظية لا تفيد يقيناً ولا علماً . وصرخ الشيطان بهذه الكلمة فيهم ، وأذَّن بها بين أظهرهم ، حتى أسمعها دانيهم لقاصيهم ، فانسلخت بها القلوب من العلم والإيمان كانسلاخ الحيَّة من قشرها ، والثوب عن لابسه .

قال الإمام العلاّمة شمس الدين ابن القيم : ولقد أخبرني بعض

---

(١) هو أبو بكر بن أبي تميمة كيسان السختياني البصري، سيد فقهاء عصره، تابعي، من النساك الزهاد ، ومن حفاظ الحديث ، كان ثبتاً ، رُوي عنه نحو ٨٠ حديثاً . ولد سنة ٦٦ وتوفي سنة ١٣١هـ رحمه الله تعالى أنظر «سير أعلام النبلاء » ٦/ ١٥ - ٢٦ .

(٢) وتمام الآية ﴿ . . . فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَىٰ الْكَاذِبِينَ ﴾ .

(٣) وتمام الآية ﴿ . . . مَالَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ .

أصحابنا عن بعض أتباع أتباع تلاميذ هؤلاء أنه رآه يشتغل في بعض كتبهم ولم يحفظ القرآن ، فقال له : لو حفَظَتَ القرآن أولاً كان أولى ، فقال : وهل في القرآن علم !

قال ابن القيم : وقال لي بعضُ أئمة هؤلاء : إنما نسمع الحديث لأجل البركة لا لنستفيد منه العلم لأن غيرنا قد كفانا هذه المؤونة فعمدتنا على ما فهموه وقرروه[1] ، ولا شك أن مَن كان هذا مبلغه من العلم فهو كما قال القائل :

نَزَلُوْا بِمَكَّةَ فِيْ قَبَائِلِ هَاْشِمٍ وَنَزَلْتُ بِالْبَطْحَاءِ أَبْعَدَ مَنْزِلِ

قال : وقال لي شيخنا مرة في وصف هؤلاء : إنهم طافوا على أرباب المذاهب ففازوا بأخس المطالب ، ويكفيك

---

(١) قال سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام رحمه الله تعالى في « القواعد الكبرى »
ومن العجب العجيب أن الفقهاء المقلدين يقف أحدهم على ضعف مأخذ إمامه بحيث لا يجد لضعفه مدفعاً وهو مع ذلك يقلده فيه ويترك مَنْ شهد الكتاب والسنة والأقيسة الصحيحة لمذهبه جموداً على تقليد إمامه بل يتخيل لدفع ظواهر الكتاب والسنة ويتأولهما بالتأويلات البعيدة الباطلة نضالاً عن مقلده .

وقد رأيناهم يجتمعون في المجالس فإذا ذكر لأحدهم خلاف ما وطّن نفسه عليه تعجب منه غاية العجب من غير استرواح إلى دليل، بل لما ألفه من تقليد إمامه حتى ظن أن الحق منحصر في مذهب إمامه ولو تدبره لكان تعجبه من مذهب إمامه أولى من تعجبه من مذهب غيره .

فالبحث مع هؤلاء ضائع مفض إلى التقاطع والتدابر من غير فائدة يجديها، وما رأيت أحداً رجع عن مذهب إمامه إذا ظهر له الحق في غيره ، بل يصرُّ عليه مع علمه بضعفه وبُعْدِهِ ، فالأولى ترك البحث مع هؤلاء الذين إذا عجز أحدهم عن تمشية مذهب إمامه قال : لعل إمامي وقف على دليل لم أقف عليه ولم أهتد إليه ، ولم يعلم المسكين أن هذا مقابل بمثله ويفضل لخصمه ما ذكره من الدليل الواضح والبرهان اللائح .

فسبحان الله !! ما أكثر من أعمى التقليد بصره حتى حمله على مثل ما ذكر ، وفقنا الله لاتباع الحق أينما كان وعلى لسان من ظهر وأين هذا من مناظرة السلف ومشاورتهم في الأحكام ، ومسارعتهم إلى اتباع الحق إذا ظهر على لسان الخصم . اهـ .

دليلاً على أن هذا الذي عندهم ليس من عند الله ، ما ترى فيه من التناقض والاختلاف ومصادمة بعضه لبعض ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدَ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَافاً كَثِيراً ﴾ [النساء : ٨٢] وهذا يدلُّ على أن ما كان من عنده سبحانه لا يختلف ، وأن ما اختلف وتناقض فليس من عنده ، وكيف تكون الآراء والخيالات وسوانح الأفكار ديناً يُدان به ويُحكم به على الله ورسوله ، سبحانك هذا بهتان عظيم .

وقد كان علم الصحابة الذي يتذاكرون فيه غير علوم هؤلاء المختلفين الخراصين كما حكى الحاكم[١] في ترجمة أبي عبد الله البخاري[٢] ، قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اجتمعوا إنما يتذاكرون كتاب ربهم وسُنَّة نبيهم ، ليس بينهم رأي ولا قياس . ولقد أحسن القائل :

الْعِلْمُ قَالَ الله قَالَ رَسُوْلُهُ قَالَ الصَّحَابَةُ ، لَيْسَ بِالتَّمْوِيهِ

(١) هو الحافظ أبو عبد الله بن عبد الله النيسابوري ، المشهور بالحاكم ، من حفاظ الحديث ، مولده ووفاته بنيسابور (٣٢١ ـ ٤٠٥ هـ) صنف كتباً كثيراً منها : « تاريخ نيسابور » و« المستدرك على الصحيحين » و« تراجم الشيوخ » و« معرفة علوم الحديث » وغيرها .

(٢) هو أمير المؤمنين في الحديث ، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، ولد في شوال سنة ١٩٤هـ ، وطلب الحديث وهو صغيراً ، ورد على بعض أشياخه غلطاً وهو ابن ١١ سنة فأصلح كتابه من حفظه . سمع الحديث ببلده بخارى ثم رحل إلى عدة أماكن وسمع الكثير ، وألف « الصحيح » من زهاء ستمائة ألف حديث بمكة . وقال : أحفظ مائة ألف حديث صحيح ومائتي ألف غير صحيح . وكتب عن أكثر من ألف شيخ .

قال فيه أحمد بن حنبل : ما أخرجت خراسان مثل البخاري فقيه هذه الأمة . وقال أبو بكر بن الأعين : كتبنا عن محمد بن إسماعيل وما في وجهه شعرة .

وما برح يدأب ويجتهد حتى صار أنصر أهل زمانه وفارس ميدانه والمقدم على أقرانه ، وانتشر صيته في البلدان ، ورُحل إليه من كل مكان .

وكانت وفاته بخرتنك وقت العشاء ليلة السبت ليلة عيد الفطر سنة ٢٥٦هـ ، عن ٦٢ سنة إلا ١٣ يوماً ، ولم يخلف ولداً . رحمه الله تعالى .

مَا العِلْمُ نَصْبَكُ لِلْخِلَافِ سَفَاهَةً ... بَيْنَ الرَّسُوْلِ وَبَيْنَ رَأْيِ فَقِيْهِ
كَلَّا ، وَلَا جَحْدَ الصِفَاتِ وَنَفْيَها ... حَذَراً مِنْ التَمْثِيلِ والتَّشْبِيهِ

* * *

٥٥ ـ فصل

وأما الإيمان فأكثرُ الناس ، أو كلُّهم ، يدَّعونه ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣] وأكثر المؤمنين إنما عندهم إيمان مجمل ، وأما الإيمان المفصل بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم معرفة وعلماً وإقراراً ومحبة ومعرفة بضدِّه وكراهيته وبغضه ، فهذا إيمان خواصِّ الأمة وخاصة الرسول ، وهو إيمان الصدِّيق وحزبه .

وكثير من الناس حظهم من الإيمان الإقرار بوجود الصانع ، وأنه وحده هو الذي خلق السموات والأرض وما بينهما ، وهذا لم يكن ينكره عُبَّادُ الأصنام من قريش ونحوهم .

وآخرون الإيمان عندهم هو التكلم بالشهادتين ، سواء كان معه عمل أو لم يكن ، وسواء وافق تصديق القلب أو خالفه .

وآخرون عندهم الإيمان مجرَّدُ تصديقُ القلب بأن الله سبحانه خالق السموات والأرضِ وأن محمداً عبده ورسوله وإنْ لم يُقِرْ بلسانه ولم يعمل شيئاً ، بل ولو سَبَّ اللهَ ورسولَه وأتى بكل عظيمة ، وهو يعتقد وحدانية الله ونبوة رسوله فهو مؤمن .

وآخرون عندهم الإيمان هو جَحْدُ صفاتِ الرب تعالى من علوِّه على عرشه وتكلُّمه بكلماته وكتبه وسمعه وبصره ومشيئته وقدرته وإرادته وحُبِّه وبُغضه ، وغير ذلك مما وصف به نفسه ، ووصفه به رسوله . فالإيمان عندهم إنكار حقائق ذلك كله وجحدُه والوقوفُ مع ما تقتضيه آراء المتهوكين وأفكار المخرصين الذين يردُّ بعضُهم على بعض وينقضُ بعضُهم قولَ بعض، الذين هم كما قال عمر بن الخطاب والإمام أحمد:

مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، متفقون على مفارقة الكتاب.

وآخرون عندهم الإيمان عبادة الله بحكم أذواقهم ومواجيدهم وما تهواه نفوسهم من غير تقييد بما جاء به الرسول.

وآخرون الإيمان عندهم ما وجدوا عليه آباءهم وأسلافهم بحكم الاتفاق كائناً ما كان، بل إيمانهم مبني على مقدمتين، إحداهما: أن هذا قول أسلافنا وآبائنا. والثانية: أن ما قالوه فهو الحق.

وآخرون عندهم الإيمان مكارم الأخلاق وحسن المعاملة وطلاقة الوجه وإحسان الظن بكل أحد وتخلية الناس وغفلاتهم.

وآخرون عندهم الإيمان التجرُّد من الدنيا وعلائقها وتفريغ القلب منها والزهد فيها. فإذا رأوا رجلاً هكذا جعلوه من سادات أهل الإيمان، وإن كان منسلخاً من الإيمان علماً وعملاً. وأعلى مِن هؤلاء مَن جعل الإيمان هو مجرد العلم وإن لم يقارنه عمل.

وكل هؤلاء لم يعرفوا حقيقة الإيمان ولا قاموا به ولا قام بهم، وهم أنواع: منهم مَن جعل الإيمان ما يضاد الإيمان، ومنهم مَن جعل الإيمان ما لا يعتبر في الإيمان، ومنهم مَن جعله ما هو شرط فيه ولا يكفي في حصوله، ومنهم مَن اشترط في ثبوته ما يناقضه ويضاده، ومنهم مَن اشترط فيه ما ليس منه بوجه.

والايمان وراء ذلك كله، وهو حقيقة مركبة من معرفة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، والتصديق به عقداً، والاقرار به نطقاً، والانقياد له محبةً وخضوعاً، والعمل به باطناً وظاهراً، وتنفيذه والدعوة إليه بحسب الامكان. وكماله في الحب في الله والبغض في الله، والعطاء لله والمنع لله، وأن يكون الله وحده إلّهه ومعبوده. والطريق إليه تجريد متابعة رسوله ظاهراً وباطناً، وتغميض عين القلب عن الالتفات

إلى سوى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وبالله التوفيق(١) .

* * *

* من اشتغل بالله عن نفسه ، كفاهُ اللهُ مؤونة نفسه ، ومَن اشتغل بالله عن الناس ، كفاه الله مؤونة الناس ، ومَن اشتغل بنفسه عن الله ، وكله الله إلى نفسه ، ومَن اشتغل بالناس عن الله ، وكله الله إليهم .

---

(١) قال شارح « العقيدة الطحاوية » القاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز ص ٦ ـ ١٠ من طبعتنا ـ مكتبة دار البيان بدمشق :

ولا يقبل الله من الأولين والآخرين ديناً يدينون به إلا أن يكون موافقاً لدينه الذي شرعه على ألسنة رسله عليهم السلام .

وقد نزَّه الله تعالى نفسه عما يَصِفُه به العبادُ إلا ما وصفه به المرسَلون بقوله سبحانه : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى المُرْسَلِينَ * والحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ [الصافات : ١٨٠ ، ١٨٢] فنزَّه نفسه سبحانه عما يَصِفُه به الكافرون ، ثم سلَّم على المرسلين ، لسلامة ما وصفوه بِهِ من النقائص والعيوب ، ثم حَمِدَ نفسه على تفرده بالأوصاف التي يستحق عليها كمالَ الحمد .

ومضى على ما كان عليه الرسولُ صلى الله عليه وسلم خيرُ القرون ، وهُم الصحابةُ والتابعون لهم بإحسان ، يُوصي به الأولُ الآخِرَ ، ويقتدي فيه اللاحقُ بالسابق ، وهم في ذلك كُلِّه بنبيهم محمدٍ صلى الله عليه وسلم مُقتدون ، وعلى مِنهاجه سالِكون ، كما قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف : ١٠٨] فإن كان قولُه : ﴿ ومَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ معطوفاً على الضمير في ﴿ أدعو ﴾ ، فهو دليل على أن أتباعه هم الدعاةُ إلى الله ، وإن كان معطوفاً على الضمير المنفصل ، فهو صريحٌ أن أتباعه هُمْ أهلُ البصيرة فيما جاء به دُون غيرهم ، وكلا المعنيين حق .

وقد بلَّغ الرسولُ صلى الله عليه وسلم البلاغَ المبين ، وأوضح الحُجة للمُستبصِرين ، وسلك سَبيلَه خير القرون ، ثم خلف مِن بعدهم خَلْفٌ اتَّبعوا أهواءَهم ، وافترقوا ، فأقام الله لهذه الأمة من يحفظ عليها أصولَ دينها ، كما أخبر الصادِق صلى الله عليه وسلم بقوله : « لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِن أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ » .

وممن قام بهذا الحقِّ مِن علماء المسلمين : الإمام أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي ، تغمَّده الله برحمته ، بعد المائتين ، فإن مولده سنة تسع وثلاثين ومائتين ، ووفاته سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة .

فأخبر رحمه الله عما كان عليه السلفُ ، ونقل عن الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت =

= الكُوفي ، وصاحِبَيْه : أبي يوسف يعقوبَ بن إبراهيم الحِميري الأنصاري ، ومحمد بن الحسنِ الشَّيباني رضي الله عنهم ـ ما كانوا يعتقِدونه مِن أصول الدين ، ويَدينون به ربَّ العالمين .

وكلما بعُد العهدُ ، ظهرت البدَع ، وكثُر التَّحريفُ الذي سماه أهلُه تأويلاً ، ليقبل ، وقلَّ من يهتدي إلى الفرق بين التحريفِ والتأويل ، إذ قد سُمي صرفُ الكلام عن ظاهره إلى معنى آخر يحتمِلُه اللفظ في الجملة تأويلاً ، وإن لم يكن ثَمَّ قرينةٌ تُوجبُ ذلك ، ومِن هنا حصل الفَساد ، فإذا سمَّوه تأويلاً ، قُبِلَ وراج على من لا يهتدي إلى الفرق بينهما .

فاحتاج المؤمنون بعد ذلك إلى إيضاح الأدلة ، ودفع الشُّبَهِ الوارِدَةِ عليها ، وكثر الكلام والشَّغَب ، وسببُ ذلك إصغاؤُهم إلى شُبَه المبطلين ، وخوضُهم في الكلام المذموم الذي عابه السلف ، ونَهَوْا عن النظر فيه ، والاشتغال به ، والإصغاء إليه ، امتثالاً لأمر ربهم ، حيث قال : ﴿ وإذَا رَأَيْتَ الَّذين يَخُوضُونَ في آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا في حَدِيثٍ غَيْرِه ﴾ [الأنعام : ٦٨] ، فإن معنى الآية يشملهم .

وكلٌ مِن التحريف والانحراف على مراتب ، فقد يكون كفراً ، وقد يكون فسقاً ، وقد يكون معصية ، وقد يكون خطأ .

فالواجبُ اتباعُ المرسلين ، واتباعُ ما أنزله الله عليهم . وقد ختمهم الله بمحمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ، فجعله آخِرَ الأنبياء ، وجعل كِتابه مُهَيْمِناً على ما بين يديه من كتب السماء ، وأنزل عليه الكتابَ والحِكمة ، وجَعَل دعوتَه عامة لجميع الثقلين : الجنِّ والإنْسِ ، باقيةً إلى يوم القيامة ، وانقطعت به حُجَّةُ العباد على اللّه وقد بين اللَّهُ به كلَّ شيء ، وأكمل له ولأمته الدين خبراً وأمراً ، وجعل طاعَتَه طاعة له ، معصيتَه معصية له ، وأقسم بنفسه أنهم لا يُؤمِنُونَ حتى يُحكِّموه فيما شجر بينهم ، وأخبرَ أن المنافقين يُريدُون أن يتحاكمُوا إلى غيره ، وأنَّهم إذا دُعوا إلى اللَّه والرسول ـ وهو الدعاءُ إلى كِتاب اللَّه وسنةِ رسوله ـ صَدُّوا صُدوداً ، وأنَّهم يزعمون أنهم إنما أرادوا إحساناً وتوفيقاً ، كما يقوله كثيرٌ من المتكلمة والمتفلسفة وغيرهم : إنما نريد أن نُحِسَّ الأشياء بحقيقتها ، أي : ندركها ونعرفها ، ونريدُ التوفيق بين الدلائل التي يُسمونها العقليات ـ وهي في الحقيقة جهليات ـ وبينَ الدلائل النقلية المنقولة عن الرسولِ ، أو نريدُ التوفيق بين الشريعة والفلسفة .

وكما يقولُه كثيرٌ مِن المبتدعة ، من المتنسّكة والمتصوفة : إنما نريد للأعمال بالعمل الحسن ، والتوفيق بين الشريعة وبين ما يدَّعونه مِن الباطل الذي يسمونه : حقائق ، وهي جهل وضلال .

وكما يقولُه كثيرٌ مِن المتملكة والمتأمِّرة : إنما نريد الإحسانَ بالسياسة الحسنة والتوفيق بينها وبين الشريعة ، ونحو ذلك .

وكُلُّ من طَلَب أن يُحكِّم في شيء من أمر الدين غيرَ ما جاء به الرسولُ ، ويظن أن ذلك =

٥٦ ـ فائدة جليلة

إنما يجد المشقةَ في ترك المألوفات والعوائد مَنْ تركها لغير الله .

أما مَنْ تركها صادقاً مخلصاً من قلبه لله فإنه لا يجد في تركها مشقة إلا في أول وهلة ليُمْتَحَن أصادقٌ هو في تركها أم كاذب ، فإنْ صبرَ على تلك المشقة قليلاً استحالت لذة .

قال ابن سيرين(١) : سمعت شريحاً(٢) يحلف بالله ما ترك عبدٌ لله شيئاً فوجد فقده .

وقولهم « مَن ترك لله شيئاً عوّضه الله خيراً منه » حقٌ ، والعِوض أنواع مختلفة ، وأجَلُّ ما يُعوّض به الأنسُ بالله ومحبتُه ، وطمأنينة القلب به ، وقوَّتُه ونشاطه وفرحه ورضاه عن ربه تعالى .

حسن ، وأن ذلك جمعٌ بين ما جاء به الرسولُ وبين ما يخالفه ـ فله نصيبٌ من ذلك ، بل ما جاء به الرسولُ كافٍ كامل ، يدخُلُ فيه كُلُّ حق ، وإنما وقع التقصيرُ مِن كثيرٍ من المنتسبين إليه ، فلم يعلم ما جاء به الرسولُ في كثير من الأمور الكلامية الاعتقادية ، ولا في كثير من الأحوال العبادية ، ولا في كثير من الإمارة السياسية ، أو نسبوا إلى شريعة الرسل بظنهم وتقليدهم ما ليس منها ، وأخرجوا عنها كثيراً مما هو منها .

فَبسبب جهل هؤلاء وضلالهم وتفريطهم ، وبسبب عُدوان أولئك وجهلهم ونفاقهم ، كَثُرَ النفاقُ ، وَدَرَس كثيرٌ مِن علم الرسالة . اهـ .

(١) هو أبو بكر محمد بن سيرين ، مولى أنس بن مالك ، من سبي عين التمر .

روى عن أنس ، وابن عمر ، وأبي هريرة .

روى عنه الشعبي ، وأيوب السختياني ، وقتادة ، وسلمة بن علقمة ، وخلق كثير .

كان فقيهاً ، عالماً ، زاهداً ، عابداً ، ورعاً ، محدثاً ، من مشاهير التابعين وجلتهم ، لقي صدراً كبيراً من الصحابة ، واشتهر بفنون علوم الشريعة ، مات سنة عشرة ومائة ، وهو ابن سبع وسبعين سنة ، وقيل : إنه ولد لسنتين بقيتا من خلافة عثمان .

(٢) هو أبو أمية ، شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم الكندي ، من أشهر القضاة الفقهاء في صدر الإسلام ، أصله من اليمن ، ولي قضاء الكوفة في زمن عمر وعثمان وعلي ومعاوية ، واستعفى أيام الحجاج ، فأعفاه سنة ٧٧هـ وكان ثقة في الحديث ، مأموناً في القضاء ، عمر طويلاً ، ومات بالكوفة سنة ٧٨هـ .

* أغبى الناس مَن ضَلّ في آخر سفره وقد قارب المنزل .

* العقول المؤيدة بالتوفيق ترى أن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم هو الحق الموافق للعقل والحكمة . والعقول المضروبة بالخذلان ترى المعارضة بين العقل والنقل وبين الحكمة والشرع[1] .

* أقرب الوسائل إلى الله ملازمة السنة ، والوقوف معها في الظاهر والباطن ، ودوام الافتقار إلى الله ، وإرادة وجهه وحده بالأقوال والأفعال ، وما وصل أحد إلى الله إلا من هذه الثلاثة وما انقطع عنه أحد إلا بانقطاعه عنها أو عن أحدها .

* الأصول التي انبنى عليها سعادة العبد ثلاثة ، ولكل واحد منها ضد ، فمَن فَقَدَ ذلك الأصل حصل على ضدِّه .

التوحيد وضدُّه الشرك ،
والسُّنَّة وضدُّها البدعة .
والطاعة وضدُّها المعصية .

ولهذه الثلاثة ضد واحد : وهو خُلوّ القلب من الرغبة في الله وفيما عنده ، ومن الرهبة منه ومما عنده .

* * *

---

(١) وقد فصل هذا المعنى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في كتابه الجليل : « درء العقل عن معارضة النقل » أو « موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول » .

٥٧ ـ قاعدة جليلة

قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام : ٥٥] ، وقال : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى ﴾ الآية [النساء : ١١٥] . والله تعالى قد بَيَّنَ في كتابه سبيلَ المؤمنين مفصَّلة ، وسبيلَ المجرمين مفصَّلة ، وعاقبة هؤلاء مفصلة ، وأعمالَ هؤلاء وأعمالَ هؤلاء ، وأولياء هؤلاء وأولياءَ هؤلاء ، وخذلانَه لهؤلاء وتوفيقَه لهؤلاء ، والأسبابَ التي وفَّق بها هؤلاء ، والأسبابَ التي خذل بها هؤلاء ، وجَلا سبحانه الأمرين في كتابه وكشفهما وأوضحهما ، وبيَّنهما غاية البيان ، حتى شاهدتهما البصائر كمشاهدة الأبصار للضياء والظلام .

فالعالِمون بالله وكتابه ودينه عرفوا سبيلَ المؤمنين معرفة تفصيلية ، وسبيلَ المجرمين معرفة تفصيلية ، فاستبانت لهم السبيلان كما يستبين للسالك الطريق الموصل إلى مقصوده ، والطريق الموصل إلى الهلكة . فهؤلاء أعلم الخلقَ وأنفعهم للناس وأنصحهم لهم ، وهم الأدلاء الهداة ، وبذلك برز الصحابة على جميع مَن أتى بعدهم إلى يوم القيامة ، فإنهم نشأوا في سبيل الضلال والكفر والشرك والسُّبُل الموصلة إلى الهلاك وعرفوها مفصلة ، ثم جاءهم الرسول فأخرجهم من تلك الظلمات إلى سبيل الهدى ، وصراط الله المستقيم ، فخرجوا من الظلمة الشديدة إلى النور التام ، ومن الشرك إلى التوحيد ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الغيِّ إلى الرشاد ، ومن الظلم إلى العدل ، ومن الحيرة والعمى إلى الهدى والبصائر ، فعرفوا مقدار ما نالوه وظفروا به ، ومقدار ما كانوا فيه . فإن الضد يُظهِر حُسْنَه الضدُّ ، وإنما تتبين الأشياء

بأضدادها . فازدادوا رغبة ومحبة فيما انتقلوا إليه ، ونفرة وبغضاً لِما انتقلوا عنه ، وكانوا أحَبَّ الناس للتوحيد[1] والإيمان والإسلام وأبغض الناس لضده[1] ، عالمين بالسبيل على التفصيل .

وأما مَن جاء بعد الصحابة ، فمنهم مَن نشأ في الإسلام غيرَ عالم تفصيل ضده ، فالتبس عليه بعض تفاصيل سبيل المؤمنين بسبيل المجرمين ، فإن اللبس إنما يقع إذا ضعف العلم بالسبيلين أو أحدهما كما قال عمر بن الخطاب : « إنما تُنقَضُ عُرَى الاسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام مَنْ لم يعرف الجاهلية » وهذا من كمال علم عمر رضي الله عنه ، فإنه إذا لم يعرف الجاهليَّة وحكمها وهو كل ما خالف ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فإنه من الجاهلية ، فإنها منسوبة إلى الجهل ، وكل ما خالف الرسول فهو من الجهل .

فمَنْ لم يعرف سبيلَ المجرمين ، ولم تستبن له ، أوشك أن يظن في بعض سبيلهم أنها من سبيل المؤمنين ، كما وقع في هذه الأمة من أمور كثيرة في باب الاعتقاد والعلم والعمل هي من سبيل المجرمين والكفار وأعداء الرسل ، أدخلها من لم يعرف أنها من سبيلهم في سبيل المؤمنين ، ودعا اليها ، وكفَّر مَن خالفها ، واستحلَّ منه ما حرَّمه الله ورسوله ، كما وقع لأكثر أهل البِدَع من الجهمية والقدرية والخوارج والروافض وأشباههم ، ممن ابتدع بدعة ، ودعا اليها ، وكفَّر مَن خالفها .

والناس في هذا الموضع أربع فرق :

الفرقة الأولى : مَن استبان له سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين على التفصيل علماً وعملاً ، وهؤلاء أعلم الخلق .

(١) في الأصل : في التوحيد ، في ضده .

الفرقة الثانية : مَن عميت عنه السبيلان من أشباه الأنعام ، وهؤلاء بسبيل المجرمين أحضَر ، ولها أسلَك .

الفرقة الثالثة : مَن صرف عنايته إلى معرفة سبيل المؤمنين دون ضدِّها فهو يعرف ضدَّها من حيث الجملة والمخالفة ، وأن كل ما خالف سبيل المؤمنين فهو باطل وإن لم يتصوَّره على التفصيل ، بل إذا سمع شيئاً مما خالف سبيل المؤمنين صرف سمعه عنه ، ولم يشغل نفسه بفهمه ، ومعرفة وجه بطلانه ، وهو بمنزلةَ من سلمت نفسه من إرادة الشهوات فلم تخطر بقلبه ولم تدعه إليها نفسه ، بخلاف الفرقة الأولى ، فإنهم يعرفونها وتميل إليها نفوسهم ويجاهدونها على تركها لله .

وقد كتبوا الى عمر بن الخطاب يسألونه عن هذه المسألة أيهما أفضل : رجل لم تخطر له الشهوات ولم تمر بباله ، أو رجل نازعته إليها نفسه فتركها لله ؟ فكتب عمر : إن الذي تشتهي نفسه المعاصي ويتركها لله عز وجل من ﴿ الَّذِيْنَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلوْبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحجرات : ٣] .

وهكذا مَن عَرَفَ البدَعَ والشرك والباطل وطرقه فأبغضها لله ، وحَذِرَها وحَذَّر منها ، ودفعها عن نفسه ، ولم يدعها تخدش وجه إيمانه ، ولا تورثه شبهةً ولا شكاً ، بل يزداد بمعرفتها بصيرة في الحق ومحبة له ، وكراهة لها ونفرة عنها = أفضل ممن لا تخطر بباله ولا تمرُّ بقلبه . فإنه كلما مرَّت بقلبه وتصوَّرت له ازداد محبة للحق ومعرفة بقدره وسروراً به ، فيقوى إيمانه به . كما أن صاحب خواطر الشهوات والمعاصي كلما مرَّت به فرغب عنها إلى ضدِّها ازداد محبة لضدِّها ورغبة فيه، وطلباً له وحرصاً عليه ، فما ابتلى اللَّهُ سبحانه عبدَه المؤمن بمحبة الشهوات والمعاصي

وميل نفسه إليها إلا ليسوقه بها إلى محبة ما هو أفضل منها ، وخير له وأنفعَ وأدْوَم ، وليجاهد نفسه على تركها له سبحانه ، فتورثه تلك المجاهدة الوصول إلى المحبوب الأعلى . فكلما نازعته نفسه إلى تلك الشهوات واشتدَّت إرادته لها وشوقه إليها : صرف ذلك الشوق والإرادة والمحبة إلى النوع العالي الدائم ، فكان طلبه له أشدّ وحرصه عليه أتمّ ، بخلاف النفس الباردة الخالية من ذلك ، فإنها وإن كانت طالبة للأعلى لكن بين الطلبين فرق عظيم . ألا ترى أنَ من مشى إلى محبوبه على الجمر والشوك أعظم ممن مشى إليه راكباً على النجائب ! فليس مَن آثر محبوبه مع منازعة نفسه كمن آثره مع عدم منازعتها إلى غيره ، فهو سبحانه يتبلي عبدَه بالشهوات ، إما حجاباً له عنه ، أو حاجباً له يوصله إلى رضاه وقربه وكرامته .

الفرقة الرابعة : فرقة عرفت سبيل الشر والبدَع والكفر مفصلة ، وسبيل المؤمنين مجملة ، وهذا حال كثير ممن اعتنى بمقالات الأمم ومقالات أهل البدع ، فعرفها على التفصيل ولم يعرف ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم كذلك ، بل عرفه معرفة مجملة وإن تفصلت له في بعض الأشياء . ومَن تأمَّل كتبَهم رأى ذلك عياناً . وكذلك مَن كان عارفاً بطرق الشر والظلم والفساد على التفصيل سالكاً لها ، إذا تاب ورجع عنها إلى سبيل الأبرار يكون علمه بها مجملاً غير عارف بها على التفصيل معرفة مَن أفنى عمره في تصرُّفها وسلوكها .

والمقصود أن الله سبحانه يحبُّ أن تُعرَف سبيلُ أعدائه لتُجتَنب وتُبغَض ، كما يحب أن تُعرَف سبيلُ أوليائه لتُحَب وتُسلَك . وفي هذه المعرفة من الفوائد والأسرار ما لا يعلمه إلا الله من معرفة عموم ربوبيته

سبحانه وحكمته وكمال أسمائه وصفاته وتعلُّقها بمتعلقاتها واقتفائها لآثارها وموجباتها . وذلك من أعظم الدلالة على ربوبيته وملكه وإلهيته وحُبِّه وبُغضه وثوابه وعقابه ، والله أعلم[1] .

* * *

* أرباب الحوائج على باب الملِك يسألون قضاء حوائجهم ، وأولياؤه المحِبُّون له الذين هو همُّهم ومرادهم جُلسَاؤه وخواصه ، فإذا أراد قضاء حاجة واحد من أولئك أذِنَ لبعض جلسائه وخاصته أن يشفع فيه رحمةً له وكرامة للشافع ، وسائر الناس مطرودون عن الباب مضروبون بسياط البُعد .

* * *

٥٨ ـ فصل

عشرة أشياء ضائعة لا ينتفع بها :

علم لا يعمل به ، وعمل لا إخلاص فيه ولا اقتداء . ومال لا ينفق منه فلا يستمتع به جامعه في الدنيا ، ولا يقدمه أمامه إلى الآخرة . وقلب فارغ من محبة الله والشوق إليه والأنس به ، وبدن معطل من طاعته وخدمته . ومحبة لا تتقيد برضاء المحبوب وامتثال أوامره ، ووقت معطل عن استدراك فارط ، أو اغتنام بر وقربة ، وفكر يجول فيما لا ينفع ، وخدمة من لا تقربك خدمته إلى الله ، ولا تعود عليك بصلاح دنياك

---

(١) وقد صنف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في بيان سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين كتباً نافعة منها : « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » و« الفرقان بين الحق والباطل » و« اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم » وهي من منشوراتنا في مكتبة دار البيان بدمشق .

وخوفك ورجاؤك لمن ناصيته بيد الله ، وهو أسير في قبضته ، ولا يملك لنفسه ضرّاً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً = [سعي ضائع] .

وأعظم هذه الإضاعات إضاعتان هما أصل كل إضاعة : إضاعة القلب وإضاعة الوقت ، فإضاعة القلب من إيثار الدنيا على الآخرة ، وإضاعة الوقت من طول الأملِ ، فاجتمع الفسادُ كله في اتباعِ الهوى وطولِ الأمل ، والصلاحُ كله في اتباع الهدى والاستعداد للِّقاء ، والله المستعان .

* * *

* العَجَب ممن تَعْرُضُ له حاجة فيصرف رغبته وهمَّته فيها إلى الله ليقضيها له ولا يتصدَّى للسؤال لحياة قلبه من موت الجهل والإعراض وشفائه من داء الشهوات والشبهات ، ولكن إذا مات القلب لم يشعر بمعصيته .

* * *

٥٩ ـ فصل

لله سبحانه على عبده أمرٌ أمره به ، وقضاءٌ يقضيه عليه ، ونعمةٌ ينعم بها عليه فلا ينفكّ من هذه الثلاثة . والقضاء نوعان : إما مَصائب وإما مَعائب ، وله عليه عبودية في هذه المراتب كلها ، فأَحَبُّ الخلق إليه مَن عرف عبوديته في هذه المراتب ووفاها حقها ، فهذا أقرب الخلق إليه . وأبعدهم منه مَن جهل عبوديته في هذه المراتب فعطَّلها علماً وعملاً . فعبوديته في الأمر امتثاله إخلاصاً واقتداءً برسول الله صلى الله عليه وسلم . وفي النهي اجتنابه خوفاً منه وإجلالاً ومحبة .

وعبوديته في قضاء المصائب الصبر عليها ثم الرضا بها وهو أعلى منه ، ثم الشكر عليها وهو أعلى من الرضا ، وهذا إنما يتأتى منه إذا تمكَّن حبُّه من قلبه وَعَلِمَ حسن اختياره له وبرّه به ولطفه به وإحسانه إليه بالمصيبة وإن كره المصيبة .

وعبوديته في قضاء المعائب المبادرة إلى التوبة منها والتنصُّل ، والوقوف في مقام الاعتذار والانكسار ، عالماً بأنه لا يرفعها عنه إلا هو ، ولا يقيه شرَّها سواه ، وأنها إن استمرّت أبعدته من قربه ، وطردته من بابه ، فيراها من الضرِّ الذي لا يكشفه غيره ، حتى إنه ليراها أعظم من ضرِّ البدن .

فهو عائذ برضاه من سخطه ، وبعفوه من عقوبته ، وبه منه مستجير ، وملتجىء منه إليه ، يعلم أنه إذا تخلى عنه وخلى بينه وبين نفسه فعنده أمثالها وشرٌّ منها ، وأنه لا سبيل له إلى الإقلاع والتوبة إلا بتوفيقه وإعانته ، وأن ذلك بيده سبحانه لا بيد العبد ، فهو أعجز وأضعف وأقل من أن يوفق نفسه أو يأتي بمرضاة سيده بدون إذنه ومشيئته وإعانته ، فهو ملتجىء إليه ، متضرِّع ذليل مسكين ، مُلْقٍ نفسه بين يديه ، طريحُ ببابه ، مُسْتَخذٍ له ، أذلَّ شيء وأكسره له ، وأفقره وأحوَجه إليه ، وأرغبه فيه ، وأحبه له ، بدنُهُ متصرف في أشغاله ، وقلبُهُ ساجد بين يديه ، يعلم يقيناً أنه لا خير فيه ولا له ولا به ولا منه ، وأن الخير كله للّه وفي يديه وبه ومنه ، فهو وليُّ نعمته ، ومبتدئه بها من غير استحقاق ، ومُجْريها عليه مع تَمَقّتِهِ إليه بإعراضه وغفلته ومعصيته ، فحظه سبحانه الحمد والشكر والثناء ، وحظ العبد الذمّ والنقص والعيب ، قد استأثر بالمحامد والمدح والثناء ، وولّى العبدَ الملامة والنقائص والعيوب ، فالحمد كله له والخير كله في يديه ، والفضل كله له والثناء كله له والمِنّة كلها له ، فمنه

الإحسان ، ومن العبد الإساءة ، ومنه التودُّد إلى العبد بنِعَمِهِ ، ومن العبد التبغض إليه بمعاصيه ، ومنه النصح لعبده ، ومن العبد الغش له في معاملته .

وأما عبودية النعم فمعرفتها والاعتراف بها أولاً ، ثم العياذ به أن يقع في قلبه نسبتها وإضافتها إلى سواه . وإن كان سبباً من الأسباب فهو مسببه ومقيمه ، فالنعمة منه وحده بكل وجه واعتبار ، ثم الثناء بها عليه ومحبته عليها وشكره بأن يستعملها في طاعته .

ومن لطائف التعبُّد بالنعم أن يستكثر قليلها عليه ، ويستقلّ كثير شكره عليها ، ويعلم أنها وصلت إليه من سيده من غير ثمن بذله فيها، ولا وسيلة منه توسل بها إليه، ولا استحقاق منه لها ، وأنها للّه في الحقيقة لا للعبد ، فلا تزيده النعم إلا انكساراً وذلاً وتواضعاً ومحبة للمنعم . وكلما جدّدَ له نعمةً أحدث لها عبودية ومحبة وخضوعاً وذلاً ، وكلما أحدث له قبضاً أحدث له رضى ، وكلما أحدث ذنباً أحدث له توبة وانكساراً واعتذاراً . فهذا هو العبد الكيِّس والعاجز بمعزل عن ذلك ، وباللّه التوفيق .

* * *

٦٠ - فصــل

مَن ترك الاختيار والتدبير في رجاء زيادة أو خوف نقصان أو طلب صحة أو فرار من سقم ، وعلمَ أن اللّه على كل شيء قدير ، وأنه المتفرد بالاختيار والتدبير ، وأن تدبيره لعبده خير من تدبير العبد لنفسه ، وأنه أعلم بمصلحته من العبد ، وأقدر على جلبها وتحصيلها منه ، وأنصح

للعبد منه لنفسه ، وأرحم به منه بنفسه ، وأبَرّ به منه بنفسه . وعلم مع ذلك أنه لا يستطيع أن يتقدم بين يدي تدبيره خطوة واحدة ولا يتأخر عن تدبيره له خطوة واحدة ، فلا متقدم له بين يدي قضائه وقدره ولا متأخر ، فألقى نفسه بين يديه ، وسلم الأمر كله إليه ، وانطرح بين يديه انطراح عبد مملوك ضعيف بين يدي ملك عزيز قاهر ، له التصرف في عبده بكل ما يشاء ، وليس للعبد التصرف[1] بوجه من الوجوه ، فاستراح حينئذٍ من الهموم والغموم والأنكاد والحسرات ، وحَمَّل كله وحوائجه ومصالحه من لا يبالي بحملها ولا يثقله ولا يكترث بها ، فتولاها دونه وأراه لطفه وبرَّه ورحمته وإحسانه فيها من غير تعب من العبد ولا نصب ولا اهتمام منه ، لأنه قد صرف اهتمامه كله إليه وجعله وحده همَّه ، فصرف عنه اهتمامه بحوائجه ومصالح دنياه ، وفرَّغ قلبه منها ، فما أطيب عيشه وما أنعم قلبه وأعظم سروره وفرحه .

وإن أبى إلا تدبيره لنفسه ، واختياره لها ، واهتمامه بحظه ، دون حق ربه ، خلّاه وما اختاره ، وولاه ما تولى ، فحضره الهمّ والغمّ والحزن والنكد والخوف والتعب وكسف البال وسوء الحال ، فلا قلب يصفو ، ولا عمل يزكو ، ولا أمل يحصل ، ولا راحة يفوز بها ، ولا لذة يهنأ بها ، بل قد حيل بينه وبين مسرَّته وفرحه وقرَّة عينه ، فهو يكدح في الدنيا كدح الوحش ، ولا يظفر منها بأمل ، ولا يتزوّد منها لمعاد .

واللّه سبحانه قد أمر العبد بأمر ، وضمن له ضماناً ، فإن قام بأمره بالنصح والصدق والإخلاص والاجتهاد ، قام اللّه سبحانه له بما ضمنه له من الرزق والكفاية والنصر وقضاء الحوائج ، فإنه سبحانه ضمن الرزق لمن عَبَدَه ، والنصر لمن توكل عليه واستنصر به ، والكفاية لمن كان هو

---

(١) في الأصل : التصرف فيه .

همّه ومراده ، والمغفرة لمن استغفره ، وقضاء الحوائج لمن صَدَقَه في طلبها ، ووثق به ، وقوي رجاؤه وطمعه في فضله وجوده . فالفَطِنُ الكيِّس إنما يهتم بأمره وإقامته وتوفيته لا بضمانه ، فإنه الوفيُّ الصادق ، وَمَن أوفى بعهده من اللّه . فمن علامات السعادة صرف اهتمامه إلى أمر الله دون ضمانه . ومن علامات الحرمان فراغ قلبه من الاهتمام بأمره وحبه وخشيته والاهتمام بضمانه ، والله المستعان .

* * *

* قال بشر بن الحارث(١) : أهل الآخرة ثلاثة : عابد وزاهد وصديق ، فالعابد يعبد اللّه مع العلائق ، والزاهد يعبده على ترك العلائق ، والصديق يعبده على الرضا والموافقة ، إنْ أراه أَخْذَ الدنيا أَخَذَها ، وإنْ أراه تَرْكَهَا تَرَكَها .

* * *

---

(١) هو أبو نصر بشر بن الحارث المروزي البغدادي المشهور بالحافي، الإمام العالم المحدث الزاهد الرباني القدوة ، كان رأساً في الورع والإخلاص، قال إبراهيم الحربي : ما أخرجت بغداد أتم عقلاً من بشر ولا أحفظ للسانه منه ، كان في شعرة منه عقل ، وطيء الناس عقبه خمسين سنة ، ما عرف له غيبة مسلم ، ما رأيت أفضل منه .

من أقواله رحمه الله :

لا تجد حلاوة العبادة حتى تجعل بينك وبين الشهوات سداً .

ما اتقى الله من أحب الشهرة .

لا تعمل لتذكر ، اكتم الحسنة كما تكتم السيئة .

ليس أحد يحب الدنيا إلّا لم يحب الموت ، ومن زهد فيها أحب لقاء مولاه .

ولد في مرو سنة خمسين ومئة وتوفي في بغداد سنة سبع وعشرين ومئتين .

قيل لأحمد : مات بشر ، قال : مات والله وما له نظير إلّا عامر بن عبدقيس . وقد أفرد ابن الجوزي مناقبه في كتاب .

* إذا كان اللَّه ورسوله صلى الله عليه وسلم في جانب فاحذر أن تكون في الجانب الآخر ، فإن ذلك يفضي إلى المشاقة والمحادة ، وهذا أصلها ومنه اشتقاقها ، فإن المشاقة أن يكون في شقّ وَمَن يخالفه في شقّ ، والمحادة أن تكون في حدّ و[يكون] هو في حدّ ، ولا تستسهل هذا فإن مبادئه تجرُّ إلى غايته ، وقليلُهُ يدعو إلى كثيرِه ، وكُنْ في الجانب الذي فيه اللَّهُ ورسولُه صلى الله عليه وسلم ، وإن كان الناسُ كلُّهم في الجانب الآخر ، فإن لذلك عواقب هي أحمَدُ العواقب وأفضلُها ، وليس للعبد [شيء] أنفع من ذلك في دنياه قبل آخرته ، وأكثر الخلق إنما يكونون في الجانب الآخر، ولا سيما إذا قويت الرغبة والرهبة ، فهناك لا تكاد تجِد أحداً في الجانب الذي فيه اللَّهُ ورسولُه صلى الله عليه وسلم ، بل يعدُّه الناسُ ناقصَ العقل سيءَ الاختيار لنفسه ، وربما نسبوه إلى الجنون ، وذلك من مواريث أعداء الرسل فإنهم نسبوهم إلى الجنون لما كانوا في شق وجانب والناس في شق وجانب آخر ، ولكن مَن وَطَّنَ نفسه على ذلك فإنه يحتاج إلى علم راسخ بما جاء به الرسول صلى اللَّه عليه وسلم يكون يقيناً له لا ريب عنده فيه ، وإلى صبر تام على معاداتَ من عاداه ولومةَ مَن لاَمَه ، ولا يتم له ذلك إلا برغبة قوية في اللَّه والدار الآخرة ، بحيث تكون الآخرة أَحَبّ إليه من الدنيا وآثر عنده منها ، ويكون اللَّه ورسوله صلى الله عليه وسلم أحب إليه مما سواهما ، وليس شيء أصعب على الإنسان من ذلك في مباديء الأمر ، فإن نفسه وهواه وطبعه وشيطانه وإخوانه ومعاشريه من ذلك الجانب يدعونه إلى العاجل ، فإذا خالفهم تصدّوا لحربه ، فإنْ صَبَرَ وَثَبَتَ جاءه العون من اللَّه وصار ذلك الصعب سهلاً ، وذلك الألم لذة ، فإن الرب شكور ، فلا بد أن يذيقه لذة تحيُّزِهِ إلى اللَّه وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويُريه كرامة ذلك ،

فيشتدُّ به سروره وغبطته ، ويبتهج به قلبه ، ويظفر بقوته وفرحه وسروره ، ويبقى من كان محارباً له ـ على ذلك ـ بين هائب له ومسالم له ومساعد وتارك ، ويقوي جنده ، ويضعف جند العدو .

ولا تستصعب مخالفة الناس والتحيُّز إلى اللَّه ورسوله صلى الله عليه وسلم ولو كنت وحدك ، فإن الله معك وأنت بعينه وكلاءته وحفظه لك ، وإنما امتحنَ يقينك وصبرك . وأعظم الأعوان لك على هذا بعد عون اللَّه التجرُّد من الطمع والفزع ، فمتى تجرّدْتَ منهما هانَ عليك التحيُّز إلى اللَّهِ ورسوله ، وكنت دائماً في الجانب الذي فيه اللَّه ورسوله ، ومتى قام بك الطمع والفزع فلا تطمع في هذا الأمر ولا تحدث نفسك به . فإن قلت : فبأي شيء أستعين على التجرُّد من الطمع ومن الفزع ؟

قلت : بالتوحيد والتوكل والثقة باللَّه ، وعلمك بأنه لا يأتي بالحسنات إلا هو ، ولا يذهب بالسيئات إلا هو ، وأن الأمر كله للّه ليس لأحد مع اللّه شيء[1] .

***

٦١ ـ نصيحة

هلمّ إلى الدخول على اللّه ومجاورته في دار السلام بلا نَصَب ولا تعب ولا عناء بل من أقرب الطرق وأسهلها . وذلك أنك في وقت بين وقتين ، وهو في الحقيقة عمرك ، وهو وقتك الحاضر بين ما مضى وما يستقبل ، فالذي مضى تصلحه بالتوبة والندم والاستغفار ، وذلك شيء لا تعب عليك فيه ولا نَصَب ، ولا معاناةَ عمل شاق ، إنما هو عمل قلب ، وتمتنع فيما يستقبل من الذنوب ، وامتناعك ترك وراحة ليس هو عملاً

(١) انظر ما سيأتي ص٣٢٩ ـ ٣٣٠ .

بالجوارح يشقُّ عليك معاناته ، وإنما هو عزم ونيَّة جازمة تريح بدنك وقلبك وسرَّك ، فما مضى تصلحه بالتوبة ، وما يستقبل تصلحه بالامتناع والعزم والنيَّة ، وليس للجوارح في هذين نصَب ولا تعب ، ولكن الشأن في عمرك وهو وقتك الذي بين الوقتين ، فإن أضَعْتَه أضَعْتَ سعادتك ونجاتك ، وإنْ حفظته مع إصلاح الوقتين اللذين قبله وبعده بما ذكر نَجَوْتَ وفُزْتَ بالراحة واللذة والنعيم . وحفظه أشق من إصلاح ما قبله وما بعده ، فإن حفظه أن تلزم نفسك بما هو أولى بها وأنفع لها وأعظم تحصيلاً لسعادتها . وفي هذا تفاوَتَ الناسُ أعظم تفاوُت ، فهي واللّه أيامك الخالية التي تجمع فيها الزاد لمعادك ، إما إلى الجنة وإما إلى النار ، فإن اتخذتَ إليها سبيلاً إلى ربك بلغتَ السعادة العظمى ، والفوز الأكبر في هذه المدة اليسيرة التي لا نسبة لها إلى الأبد ، وإن آثرْتَ الشهوات والراحات ، واللهو واللعب ، انقضت عنك بسرعة ، وأعقبتك الألم العظيم الدائم الذي مُقاساته ومعاناته أشق وأصعب وأدوم من معاناة الصبر عن محارم اللَّه ، والصبر على طاعته ، ومخالفة الهوى لأجله[1] .

* * *

(١) قال الجاحظ في كتاب « البيان والتبيين » ١/ ١٦٥ : خطب النبي صلى الله عليه وسلم بعشر كلمات : حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أَيُّها النَّاسُ !

إنَّ لكم معالم فانتهوا إلى معالِمكم ، وإنَّ لكم نهايةً فانتهوا إلى نهايتكم .

إنَّ المؤمنَ بين مخافتين :

بين عاجل قد مضى لا يدري ما الله صانع به .

وبين آجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه .

فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبرة ، ومن الحياة قبل الموت، فوالذي نفسي محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب وما بعد الدنيا من دار إلاّ الجنة أو النار » .

٦٢ - فصل

* علامة صحة الإرادة أن يكونَ هَمّ المريد رضا ربه واستعداده للقائه، وحزنَه على وقت مَرَّ في غير مرضاته، وأسفَه على قربه والأنس به . وجماع ذلك أن يصبح ويمسي وليس له هَمّ غيره .

* * *

٦٣ - فصل

* إذا استغنى الناسُ بالدنيا فاستغنِ أنت باللّه، وإذا فرحوا بالدنيا فافرحْ أنت باللّه ، وإذا أنِسُوا بأحبابهم فاجعل أنْسَكَ باللّه ، وإذا تعرَّفُوا إلى ملوكهم وكبرائهم وتقرَّبوا إليهم لينالوا بهم العزَّة والرفعة فتعرَّفْ أنت إلى اللّه، وتودَّدْ إليه تَنَلْ بذلك غاية العزِّ والرفعة .

* * *

* قال بعض الزهّاد : ما علمت أن أحداً سمع بالجنة والنار تأتي عليه ساعة لا يطيع اللّه فيها بذكرٍ أو صلاةٍ أو قراءةٍ أو إحسان .

فقال له الرجل : إني أُكثر البكاء .

فقال : إنك إنْ تضحكْ وأنت مُقِرٌّ بخطيئتك خيرٌ من أن تبكي وأنت مُدِلّ بعملك ، فإن المدلّ لا يصعد عمله فوق رأسه .

فقال : أوْصِنِي .

فقال : دَعِ الدنيا لأهلها كما تركوا هم الآخرة لأهلها ، وكُنْ في الدنيا كالنحلة ، إنْ أكلَتْ أكلت طيباً ، وإنْ أطعَمَتْ أطعمت طيباً ، وإنْ سقطت على شيء لم تكسره ولم تخدشه .

* * *

٦٤ ـ فصل

الزهد أقسام :

زهد في الحرام ؛ وهو فرض عين .

وزهد في الشبهات ؛ وهو بحسب مراتب الشبهة ، فإنْ قويت التحقت بالواجب ، وإن ضعفت كان مستحباً .

وزهذ في الفضول .

وزهد فيما لا يعني من الكلام والنظر والسؤال واللقاء وغيره .

وزهد في الناس .

وزهد في النفس بحيث تهون عليه نفسه في اللّه .

وزهد جامع لذلك كله وهو الزهد فيما سوى اللّه ، وفي كل ما شغلك عنه .

وأفضلُ الزهد إخفاء الزهد ، وأصعَبُه الزهدُ في الحظوظ . والفرق بينه وبين الورع أن الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة ، والورعُ ترك ما يُخشى ضرره في الآخرة . والقلب المعلق بالشهوات لا يصح له زهد ولا ورع .

* * *

قال يحيى بن معاذ : عجبت من ثلاث : رجل يرائي بعمله مخلوقاً مثله ويترك أن يعمله للّه ، ورجل يبخل بماله وربه يستقرضه منه فلا يقرضه منه شيئاً ، ورجل يرغب في صحبة المخلوقين ومودّتهم ، واللّه يدعوه إلى صحبته ومودّته .

* * *

٦٥ ـ فائدة جليلة

قال سهل بن عبد الله :[١] ترك الأمر عند اللّه أعظم من ارتكاب النهي ، لأن آدم نُهي عن أكل الشجرة فأكل منها فتاب عليه ، وإبليس أُمِرَ أن يسجد لآدم فلم يسجد فلم يتب عليه .

قلت : هذه مسألة عظيمة لها شأن وهي أن ترك الأوامر أعظم عند اللّه من ارتكاب المناهي ، وذلك من وجوه عديدة :

أحدها : ما ذكره سهل من شأن آدم وعدو اللّه إبليس .

***

الثاني : إن ذنب ارتكاب النهي مصدره في الغالب الشهوة والحاجة ، وذنب ترك الأمر مصدره في الغالب الكبر والعزة ، و« لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كان فِيْ قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ »[٢] ، ويدخلها مَن مات على التوحيد وإنْ زنى وسرق[٣] .

***

---

(١) هو أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى التستري ، أحد أئمة الصوفية وعلمائهم والمتكلمين في علوم الإخلاص والرياضات . ولد في « تستر » سنة ٢٠٠هـ وتوفي بالبصرة سنة ٢٨٣هـ . من تصانيفه : « دقائق المحبين » و « قصص الأنبياء » و « جوابات أهل اليقين » وغيرها .

(٢) رواه مسلم رقم (٩١) في الايمان باب تحريم الكبر وبيانه ، وأبو داود رقم (٤٠٩١) في الأدب باب ما جاء في الكبر ، والترمذي رقم (١٩٩٩) في البر والصلة باب ما جاء في الكبر ، وأحمد في « المسند » ١/ ٣٨٥ ، ٤٢٧ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٣) عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أَتَانِي جِبْرِيْلُ فَبَشَّرَنِيَ أَنَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِكَ لَا يُشْرِكُ بِاللّهِ شَيْئاً دَخَلَ الجَنَّةَ ، فَقُلْتُ : وَإِنْ زَنَىٰ وَإِنْ سَرَقْ ؟ قَاْلَ : وَإِنْ زَنَىٰ وَإِنْ سَرَقَ » . =

الثالث : إن فعل المأمور أحَبّ إلى اللّهِ من ترك المنهي ، كما دلّ على ذلك النصوص كقوله صلى الله عليه وسلم : « أَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَىٰ اللّهِ الصَّلاَةُ عَلَىٰ وَقْتِهَا »[1] ، وقوله : « أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَب والوَرِقِ ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مَنْ أَنْ تَلْقُوا عَدُوَّكُمْ ، فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ ، وَيَضْرِبُوْا أَعْنَاقَكُمْ ؟

قَالُوا : بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللّهِ ،

قَالَ : ذِكْرُ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ »[2] .

رواه البخاري ٣/ ٨٨ و٨٩ في الجنائز باب في الجنائز ومن كان آخر كلامه لا إله إلّا الله، وفي التوحيد باب كلام الرب مع جبريل ونداء الله الملائكة، ومسلم رقم (٩٤) في الإيمان باب : من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، والترمذي رقم (٢٦٤٦) في الإيمان باب ما جاء في افتراق هذه الأمة ، وأحمد في « المسند » ٥/ ١٥٢ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٦ انظر روايات الحديث في « جامع الأصول » رقم (٦٧٥٦ و٧٠٠٧) .

(١) رواه البخاري ٢/ ٧ في مواقيت الصلاة : باب فضل الصلاة لوقتها ، وكتب وأبواب أخر ، ومسلم رقم (٨٥) في الإيمان : باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال ، والترمذي رقم (١٨٩٩) في البر والصلة : باب رقم ٢ ، والنسائي ١/ ١٩٤ و١٩٥ في المواقيت : باب فضل الصلاة لمواقيتها ، وأحمد في « المسند » ١/ ٤٥١ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ولفظه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أي العمل أحب إلى الله تعالى ؟ قال : الصلاة لميقاتها ، قلت : ثم أيّ ؟ قال : بر الوالدين ، قلت : ثم أيٌّ ؟ قال : الجهاد في سبيل الله » قال : حدثني بهن ، ولو استزدته لزادني .

(٢) رواه أحمد في « المسند » ٥/ ٢٣٩ من حديث زياد بن أبي زياد عن معاذ ، وإسناده منقطع ، ورواه مالك في « الموطأ » ١/ ٢١١ موقوفاً على أبي الدرداء ، وإسناده منقطع ، وقد وصله أحمد في « المسند » ٥/ ١٩٥ ، والترمذي رقم (٣٣٧٤) في الدعوات ، وابن ماجه رقم (٣٧٩٠) في الأدب : باب فضل الذكر ، والحاكم في « المستدرك » ١/ ٤٩٦ كلهم من حديث أبي الدرداء ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ، وهو كما قالا .

وقوله : « وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمْ الصَّلَاةَ »[1] ، وغير ذلك من النصوص .

وتَرْكُ المناهي عمل فإنه كفّ النفس عن الفعل ، ولهذا علق سبحانه المحبة بفعل الأوامر كقوله : ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيْلِهِ صَفّاً ﴾ [الصف : ٤] ﴿ وَاللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] ، وقوله : ﴿ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِيْنَ ﴾ [الحجرات : ٩] ﴿ وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٩] .

وأما في جانب المناهي فأكثر ما جاء النفي للمحبة كقوله : ﴿ وَاللهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ [البقرة : ٢٠٥] ، وقوله : ﴿ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد : ٢٣] . وقوله : ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٠] ، وقوله : ﴿ لَا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِٱلسُّوءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ ﴾ [النساء : ١٤٨] وقوله : ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ﴾ [النساء : ٣٦] ونظائره .

وأخبر في موضع آخر أنه يكرهها ويسخطها ، كقوله : ﴿كُلُّ ذٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً ﴾ [الاسراء : ٣٨] ، وقوله : ﴿ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ ﴾ [محمد : ٢٨] .

---

(١) رواه ابن ماجه رقم (٢٧٧) والدارمي رقم (٦٦١) في الوضوء : باب ما جاء في الطهور وأحمد في «المسند» ٥/ ٢٧٦ ، ٢٧٧ و٢٨٢ ومالك في «الموطأ» ١/ ٣٤/ ٣٦ بلاغاً والحاكم ١/ ١٣٠ وقال: صحيح على شرط الشيخين ، ولست أعرف له علة يعلل بمثلها، ووافقه الذهبي وذلك من حديث ثوبان رضي الله عنه بلفظ « استقيموا ولن تحصوا ، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوء إلّا مؤمن » وهو حديث صحيح . انظر روايات الحديث في « إرواء الغليل » للألباني رقم (٤١٢) .

إذا عُرِفَ هذا ففعلُ ما يحبه سبحانه مقصود بالذات . ولهذا يقدِّرُ ما يكرهه ويُسْخِطه لإفضائه إلى ما يحب ، كما قدّر المعاصي والكفر والفسوق لما ترتب على تقديرها مما يحبه من لوازمها من الجهاد واتخاذ الشهداء . وحصول التوبة من العبد والتضرُّع إليه والاستكانة وإظهار عدله وعفوه وانتقامه وعزِّه . وحصول الموالاة والمعاداة لأجله ، وغير ذلك من الآثار التي وجودُها بسبب تقديره لما يكره أحب إليه من ارتفاعها بارتفاع أسبابها ، وهو سبحانه لا يقدِّر ما يحب لإفضائه إلى حصول ما يكرهه ويُسْخِطه كما يقدِّر ما يكرهه لإفضائه إلى ما يحبه ، فعلم أن فعل ما يحبه أحب إليه مما يكرهه .

* * *

يوضحه **الوجه الرابع** : إن فعل المأمور مقصود لذاته وترك المنهي مقصود لتكميل فعل المأمور ، فهو منهي عنه لأجل كونه يخل بفعل المأمور أو يضعفه وينقصه ، كما نبّه سبحانه على ذلك في النهي عن الخمر والميسر بكونهما يصدّان عن ذكر الله وعن الصلاة . فالمنهيات قواطع وموانع صادَّة عن فعل المأمورات أو عن كمالها ، فالنهي عنها من باب المقصود لغيره ، والأمر بالواجبات من باب المقصود لنفسه .

* * *

يوضحه **الوجه الخامس** : إن فِعْلَ المأمورات من باب حفظ قوة الايمان وبقائها وتَرْكَ المنهيات من باب الحِمْيَة عما يشوش قوة الإيمان ويخرجها عن الاعتدال ، وحفظ القوة مقدم على الحمية ، فإن القوة كلما قويت دفعت المواد الفاسدة وإذا ضعفت غلبت المواد الفاسدة ، فالحمية مرادة لغيرها وهي حفظ القوة وزيادتها وبقاؤها ، ولهذا كلما قويت قوة

الإيمان دفعت المواد الرديئة ومنعت من غلبتها وكثرتها بحسب القوة وضعفها ، وإذا ضعفت غلبت المواد الفاسدة . فتأمَّلْ هذا الوجه .

* * *

الوجه السادس: إن فعل المأمورات حياة القلب وغذاؤه وزينته وسروره وقرّة عينه ولذته ونعيمه ، وترك المنهيات بدون ذلك لا يحصلُ له شيءٌ من ذلك ، فإنه لو ترك جميع المنهيات ولم يأتِ بالإيمان والأعمال المأمور بها لم ينفعه ذلك الترك شيئاً وكان خالداً مخلداً في النار .

* * *

وهذا يتبين **بالوجه السابع** : إن مَن فَعَلَ المأمورات والمنهيات فهو إما ناجٍ إن غلبَتْ حسناتُه سيئاتِه ، وإما ناجٍ بعد أن يؤخذ منه الحق ويعاقب على سيئاته فمآله إلى النجاة وذلك بفعل المأمور .

ومَن ترك المأمورات والمنهيات فهو هالك غير ناجٍ ولا ينجو إلا بفعل المأمور وهو التوحيد .

فإنْ قيل : فهو إنما هلك بارتكاب المحظور وهو الشرك ، قيل : يكفي في الهلاك ترك نفس التوحيد المأمور به وإن لم يأتِ بضدّ وجودي في الشرك ، بل متى خلا قلبُه من التوحيد رأساً فلم يوحّد الله فهو هالك وإن لم يعبد معه غيره ، فإذا انضاف إليه عبادة غيره عُذِّبَ على ترك التوحيد المأمور به وفعل الشرك المنهي عنه .

* * *

يوضحه **الوجه الثامن** : أن المدْعُوَّ إلى الإيمان إذا قال: لا أصدق

ولا أكذب ولا أحب ولا أُبغِض ولا أعبده ولا أعبد غيره ، كان كافراً بمجرد الترك والإعراض ، بخلاف ما إذا قال : أنا أصدق الرسول وأحبه وأؤمن به وأفعل ما أمرني ، ولكن شهوتي وإرادتي وطبعي حاكمة عليّ لا تدعني أترك ما نهاني عنه وأنا أعلم أنه قد نهاني وكَرِهَ لي فعل المنهي ولكن لا صبر لي عنه ، فهذا لا يعدُّ كافراً بذلك ، ولا حكمه حكم الأول ، فإن هذا مطيع من وجه ، وتارك المأمور جملةً لا يعدُّ مطيعاً بوجه .

* * *

يوضحه **الوجه التاسع** : إن الطاعة والمعصية إنما تتعلق بالأمر أصلاً ، وبالنهي تبعاً ، فالمطيع ممتثل المأمور ، والعاصي تارك المأمور ، قال تعالى : ﴿ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ ﴾ [التحريم : ٦] ، وقال موسى لأخيه : ﴿ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ [طه : ٩٣] .

وقال عمرو بن العاص عند موته : أنا الذي أمرتني فعصيت ، ولكن لا إلَه إلا أنت .

وقال الشاعر :

أَمَرْتُكَ أَمْراً حَازِماً فَعَصَيْتَنِي

والمقصود من إرسال الرُّسُل طاعة المُرْسِل ولا تحصل إلا بامتثال أوامره ، واجتناب المناهي من تمام امتثال الأوامر ولوازمه . ولهذا لو اجتنب المناهي ولم يفعل ما أُمِرَ به لم يكن مطيعاً وكان عاصياً ، بخلاف ما لو أتى بالمأمورات وارتكب المناهي . فإنه وإن عُدَّ عاصياً مذنباً فإنه

مطيع بامتثال الأمر ، عاصٍ بارتكاب النهي بخلاف تارك الأمر فإنه لا يُعَدُّ مطيعاً باجتناب المنهيات خاصة .

* * *

الوجه العاشر : ان امتثال الأمر عبودية وتقرُّب وخدمة، وتلك العبادة التي خُلِقَ لأجلها الخلق كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] ، فأخبر سبحانه أنه إنما خلقهم للعبادة ، وكذلك إنما أرسل إليهم رُسله وأنزل عليهم كتبه ليعبدوه . فالعبادة هي الغاية التي خُلقوا لها ولم يخلقوا لمجرد الترك فإنه أمر عدمي لا كمال فيه من حيث هو عدم ، بخلاف امتثال المأمور فإنه أمر وجودي مطلوب الحصول .

* * *

وهذا يتبين **بالوجه الحادي عشر** : وهو أن المطلوب بالنهي عدم الفعل وهو أمر عدمي ، والمطلوب بالأمر إيجاد فعل وهو أمر وجودي ، فمتعلق الأمر الإيجاد ، ومتعلق النهي الإعدام أو العدم وهو أمر لا كمال فيه إلا إذا تضمَّن أمراً وجودياً ، فإن العدم من حيث هو عدم لا كمال فيه ولا مصلحة إلا إذا تضمَّن أمراً وجودياً مطلقاً ، وذلك الأمر الوجودي مطلوب مأمور به فعادت حقيقة النهي إلى الأمر ، وأن المطلوب به ما في ضمن النهي من الأمر الوجودي المطلوب به .

* * *

وهذا يتضح **بالوجه الثاني عشر** : وهو أن الناس اختلفوا في المطلوب بالنهي على أقوال :

أحدها : أن المطلوب به كف النفس عن الفعل ، وحَبْسُها عنه ، وهو أمر وجودي . قالوا : لأن التكليف إنما يتعلق بالمقدور ، والعدم المحض غير مقدور . وهذا قول الجمهور .

وقال أبو هاشم[1] وغيره : بل المطلوب عدم الفعل ، ولهذا يحصل المقصود من بقائه على العدم ، وإن لم يخطر بباله الفعل ، فضلاً أن يقصد الكف عنه ، ولو كان المطلوب الكف لكان عاصياً إذا لم يأتِ به ، ولأن الناس يمدحون بعدم فعل القبيح من لم يخطر بباله فعله والكف عنه . وهذا أحد قوليَ القاضي أبي بكر[2] ولأجله التزم أن عدم الفعل مقدور للعبد وداخل تحت الكسب ، قال : والمقصود بالنهي الإبقاء على العدم الأصلي وهو مقدور .

وقالت طائفة : المطلوب بالنهي فعل الضد فإنه هو المقدور وهو المقصود للناهي ، فإنه إنما نهاه عن الفاحشة طلباً للعفة وهي المأمور

---

(١) هو أبو هاشم ، عبد السلام بن أبي علي محمد الجبائي بن عبد الوهاب بن سلام بن خالد بن حُمران بن أبان مولى عثمان بن عفان . من كبار المعتزلة .

ولد سنة ٢٤٧هـ وتوفي سنة ٣٢١هـ ببغداد له آراءانفرد بها ، وتبعته فرقة سميت « البهشمية » نسبة إلى كنيته « أبي هاشم » له مصنفات .

انظر ترجمته في : « طبقات المعتزلة » ص ٩٤ ، و« الفرق » ص ١٨٤ ، و« المختصر الفرق » ص ٢٧ و١٢١ ، و« تاريخ بغداد » ١١/ ٥٥ ، و« ميزان الاعتدال » ٢/ ٦١٨ و« البداية والنهاية » ١١/ ١٧٦ و« العبر » للذهبي ٢/ ١٨٧ و« الشذرات » ٢/ ٢٨٩ . و« وفيات الأعيان » ١/ ٢٩٢ و« الأعلام » ٤/ ٧.

و« مرآة الجنان » ٢/ ٢٨١ ـ ٢٨٢ ، و« سير أعلام النبلاء » ١٥/٦٣ .

(٢) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر، أبو بكر الباقلاني ،من كبار علماء الإسلام ، انتهت إليه الرياسة في مذهب الأشاعرة ، ولد في البصرة ٣٣٨هـ وسكن بغداد وتوفي فيها سنة ٤٠٣هـ . كان جيد الاستنباط ، سريع الجواب ، من تصانيفه « إعجاز القرآن » و« الانتصار » . و« البيان عن الفرق بين المعجزة والكرامة » وغيرها .

بها ، ونهاه عن الظلم طلباً للعدل المأمور به ، وعن الكذب طلباً للصدق المأمور به وهكذا جميع المنهيات . فعند هؤلاء أن حقيقة النهي الطلب لضد المنهي عنه ، فعاد الأمر إلى أن الطلب إنما تعلق بفعل المأمور .

والتحقيق أن المطلوب نوعان : مطلوب لنفسه وهو المأمور به ، ومطلوب إعدامه لمضادته المأمور به وهو المنهي عنه ، لما فيه من المفسدة المضادة للمأمور به . فإذا لم يخطر ببال المكلف ولا دَعَتْهُ نفسُه إليه بل استمرّ على العدم الأصلي لم يُثَبْ على تركه ، وإن خطر بباله وكفَّ نفسه عنه لله وتركه اختياراً أُثيبَ على كف نفسه وامتناعه ، فإنه فعل وجودي والثواب إنما يقع على الأمر الوجودي دون العدم المحض وإن تركه مع عزمه الجازم على فعله لكن تَرَكه عجزاً ، فهذا وإن لم يعاقب عقوبة الفاعل لكن يعاقب على عزمه وإرادته الجازمة التي إنما تخلف مرادها عجزاً .

وقد دلت على ذلك النصوص الكثيرة فلا يلتفت إلى ما خالفها ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [البقرة : ٢٨٤] .

وقوله في كاتم الشهادة : ﴿ فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ [البقرة : ٢٨٣] ، وقوله : ﴿ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٢٥] ، وقوله : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ [الطارق : ٩] .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « إِذَا تَوَاجَهَ الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفِيهِمَا فَالقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ » ، قالوا : هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال : « إِنَّهُ أَرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ »[1] .

---

(١) رواه البخاري ١/ ٨١ في الإيمان : باب ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا =

وقوله في الحديث الآخر: «وَرَجُلٌ قَالَ: لَوْ أَنَّ لِيَ مَالاً لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ وَهُمَا فِي الوِزْرِ سَوَاءٌ»[2].

وقولَ من قال: إن المطلوب بالنهي فعل الضد ليس كذلك، فإن المقصود عدم الفعل والتلبس بالضدّ، فإن ما لا يتم الواجب إلا به فهو غير مقصود بالقصد الأول، وإن كان المقصود بالقصد الأول المأمور الذي نُهي عما يمنعه ويضعفه، فالمنهي عنه مطلوب إعدامه طلب

= بينهما﴾، وفي الديات: باب قول الله تعالى: ﴿ومن أحياها﴾ وفي الفتن: باب إذا التقى المسلمان بسيفهما، ومسلم رقم (٢٨٨٨) في الفتن: باب إذا توجه المسلمان بسيفهما وأبو داود رقم (٤٢٦٨) في الفتن: باب النهي عن القتال في الفتنة، والنسائي ٧/ ١٢٥ في تحريم الدم: باب تحريم القتل، وابن ماجه رقم (٣٩٨٠) في الفتن: باب العزلة، وأحمد في «المسند» ٥/ ٤٣ و٤٧ و٥١. من حديث أبي بكرة الثقفي رضي الله عنه.

(٢) رواه الترمذي رقم (٢٣٢٦) في الزهد: باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر، وأحمد في «المسند» ٤/ ٢٣٠ و٢٣١، وابن ماجه رقم (٤٢٢٨) في الزهد: باب النية، من حديث أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه، وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح، وهو كما قال.

ولفظه: «ثلاث أقسم عليهن، وأحدثكم حديثاً فاحفظوه: ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظُلم عبدٌ مظلمةً فصبر عليها، إلا زاده الله بها عزاً، ولا فتح عبد بابَ مسألة إلا فتح الله عليه بها باب فقر ـ أو كلمة نحوها ـ». وزاد في رواية: «وما تواضع عبدٌ لله إلا رفعه الله، وأحدثكم حديثاً فاحفظوه، إنما هذه الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي في ماله ربه، ويصل به رحمه، ويعلم أن لله فيه حقاً، فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً، فهو صادق النية لله، يقول: لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان، فأجره بنيته ـ وفي رواية: فهو بنيته ـ فأجرهما سواء، وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً فهو يَخْبِط في ماله بغير علم، لا يتقي فيه ربه، ولا يصل به رحمه، ولا يعلم لله فيه حقاً، فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً، فهو يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان، فهو بنيته، ووزرهما سواء».

الوسائل والذرائع ، والمأمور به مطلوب إيجاده طلب المقاصد والغايات .

وقول أبي هاشم : إن تارك القبائح يحمد وإن لم يخطر بباله كف النفس . فإنْ أراد بحمده أن لا يذمّ فصحيح ، وإنْ أراد أن يُثْني عليه بذلك ويحمد عليه ويستحق الثواب فغير صحيح . فإنّ الناس لا يحمدون المجبوب على ترك الزنا ولا الأخرس على عدم الغيبة والسب ، وإنما يحمدون القادر الممتنع عن قدرة وداعٍ إلى الفعل .

وقول القاضي[1] الإبقاء على العدم الأصلي مقدور ، فإن أراد به كف النفس ومنعها فصحيح ، وإنْ أراد مجرد العدم فليس كذلك .

* * *

وهذا يتبين **بالوجه الثالث عشر**: وهو أن الأمر بالشيء نهي عن ضده من طريق اللزوم العقلي لا القصد الطلبي ، فإن الأمر إنما مقصوده فعل المأمور . فإذا كان من لوازمه ترك الضد صار تركه مقصوداً لغيره ، وهذا هو الصواب في مسألة الأمر بالشيء هل هو نهي عن ضده أم لا ؟ فهو نهي عنه من جهة اللزوم لا من جهة القصد والطلب . وكذلك النهي عن الشيء ، مقصود الناهي بالقصد الأول الانتهاء عن المنهي عنه وكونه مشتغلاً بضده جاء من جهة اللزوم العقلي ، لكن إنما نهى عما يضاد ما أمر به كما تقدم ، فكان المأمور به هو المقصود بالقصد الأول في الموضعين .

وحرف المسألة : أن طلبَ الشيء طلبٌ له بالذات ولما هو من ضرورته باللزوم ، والنهي عن الشيء طلبٌ لتركه بالذات ولفعل ما هو من

---

(١) هو أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني .

ضرورة الترك باللزوم ، والمطلوب في الموضعين فعلٌ وكفٌّ ، وكلاهما أمر وجودي .

* * *

الوجه الرابع عشر: إن الأمر والنهي في باب الطلب نظير النفي والاثبات في باب الخبر ، والمدح والثناء لا يحصلان بالنفي المحض إنْ لم يتضمن ثبوتاً ، فإن النفي كاسمه عدم لا كمال فيه ولا مدح ، فإذا تضمن ثبوتاً صحَّ المدح به كنفي النسيان المستلزم لكمال العلم وبيانه . ونفي اللغوب والإعياء والتعب المستلزم لكمال القوة والقدرة . ونفي السنة والنوم المستلزم لكمال الحياة والقيُّومية . ونفي الولد والصاحبة المستلزم لكمال الغنى والملك والربوبية . ونفي الشريك والولي والشفيع بدون الإذن المستلزم لكمال التوحيد والتفرُّد بالكمال والإلّهية والملك . ونفي الظلم المتضمن لكمال العدل . ونفي إدراك الأبصار له المتضمن لعظمته وأنه أجّلُ من أن يُدركَ وإنْ رأته الأبصار[1]، وإلا فليس في كونه لا يُرى مدح بوجه من الوجوه ، فإن العدم المحض كذلك .

وإذا عُرِفَ هذا، فالمنهي عنه إن لم يتضمن أمراً وجودياً ثبوتياً لم يمدح بتركه، ولم يستحق الثواب والثناء بمجرد الترك ، كما لا يستحق المدح والثناء بمجرد الوصف العدمي .

* * *

الوجه الخامس عشر: إن اللّه سبحانه جعل جزاءَ المأمورات عشرة

---

(١) قال المؤلف في « الوابل الصيب » ص ٨٨ : فالرب تبارك وتعالى يرى يوم القيامة بالأبصار عياناً ، ولكن يستحيل إدراك الأبصار له ، وإن رأته ، فالإدراك أمر وراء الرؤية ، وهذه الشمس ـ ولله المثل الأعلى ـ نراها ولا ندركها كما هي عليه ، ولا قريباً من ذلك . ا هـ .

أمثال فعلها ،وجزاء المنهيات مِثْلٌ واحد[1]. وهذا يدل على أن فعل ما أمَرَ به أحَبُّ إليه من ترك ما نهي عنه . ولو كان الأمر بالعكس لكانت السيئة بعشرة والحسنة بواحدة أو تساوَيا .

* * *

الوجه السادس عشر : إن المنهيَّ عنه المقصود إعدامه ، وأن لا يدخل في الوجود ، سواءً نوى ذلك أو لم يَنوِه ، وسواء خطرَ بباله أو لم يخطرْ . فالمقصود أن لا يكون . وأما المأمور به فالمقصود كونه وإيجاده والتقرّب به نية وفعلاً .

وسرُّ المسألة : أن وجودَ ما طَلبَ إيجاده أحَبُّ إليه من عدم ما طلب إعدامه ، وعَدَمَ ما أحبَّه أكرَه إليه من وجود ما يبغضه ، فمحبتُه لفعل ما أمر به أعظم من كراهته لفعل ما نهى عنه .

* * *

يوضحه **الوجه السابع عشر** : إن فعلَ ما يحبه والإعانةَ عليه وجزاءَه وما يترتب عليه من المدح والثناء من رحمته . وفعلَ ما يكرهه وجزاءَه وما يترتب عليه من الذمّ والألم والعقاب من غضبه . ورحمتُه سابقة على غضبه غالبة له ، وكل ما كان من صفة الرحمة فهو غالب لما كان من صفة الغضب ، فإنه سبحانه لا يكون إلا رحيماً ، ورحمته من لوازم ذاته كعلمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره وإحسانه ، فيستحيل أن يكون على خلاف ذلك . وليس كذلك غضبه ، فإنه ليس من لوازم ذاته ولا يكون غضبان دائماً غضباً لا يُتصور انفكاكه ، بل يقول رُسله وأعلم الخلق به يوم القيامة : « إنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ

---

(١) قال الله تعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أمْثَالِهَا ، وَمَنْ جاءَ بالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إلَّا مِثْلَهَا ﴾ [الأنعام : ١٦] .

بَعْدَهُ مِثْلَهُ »[1] . ورحمته وَسِعَتْ كل شيء ، وغضبه لم يَسَعْ كلَّ شيء ، وهو سبحانه كتب على نفسه الرحمة ولم يكتب على نفسه الغضب ، ووسعَ كلَّ شيء رحمة وعلماً ولم يَسَعْ كلَّ شيء غضباً وانتقاماً .

فالرحمة وما كان بها ولوازمُها وآثارُها غالبةٌ على الغضب وما كان منه وآثاره . فوجود ما كان بالرحمة أحبُّ إليه من وجود ما كان من لوازم الغضب . ولهذا كانت الرحمة أحبَّ إليه من العذاب ، والعفو أحبُّ إليه من الانتقام . فوجود محبوبه أحب إليه من فوات مكروهه ، ولاسيما إذا كان في فوات مكروهه فواتُ ما يحبه من لوازمه ، فإنه يكره فوات تلك اللوازم المحبوبة كما يكره وجود ذلك الملزوم المكروه .

* * *

الوجه الثامن عشر : إن آثار ما يكرهه وهو المنهيات أسرع زوالاً بما يحبه من زوال آثار ما يحبه بما يكرهه ، فآثار كراهته سريعة الزوال وقد يزيلها سبحانه بالعفو والتجاوز ، وتزول بالتوبة والاستغفار والأعمال الصالحة والمصائب المُكَفِّرة والشفاعة والحسنات يُذهبنَ السيئات ، ولو بلغت ذنوب العبد عنان السماء ثم استغفره غفر له ولو لقيه بقُراب الأرض خطايا ، ثم لقيه لا يشرك به شيئاً لأتاه بقُرابها مغفرة[1] . وهو سبحانه يغفر الذنوب وإن تعاظمت ولا يبالي ، فيبطلها ويبطل آثارها بأدنى سعي من

---

(١) قطعة من حديث الشفاعة الذي رواه البخاري ٦/٢٦٤ ـ ٢٦٥ في الأنبياء: باب قول الله عز وجل : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾ وباب قول الله تعالى : ﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ و٨/ ٣٠٠ في التفسير : سورة بني اسرائيل : باب ﴿ ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً ﴾ ، ومسلم رقم (١٩٤١) في الإيمان : باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ، والترمذي رقم (٢٤٣٦) في صفة القيامة : باب ما جاء في الشفاعة، وأحمد في« المسند » ٢/٤٣٥و٥٤٠ ،من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وسيرد بتمامه ص (٢٧٦ ـ ٢٧٧)

(١) تقدم تخريجه ص (١٢٣) .

العبد وتوبة نصوح وندم على ما فعل ، وما ذاك إلا لوجود ما يحبه من توبة العبد وطاعته وتوحيده ، فدلَّ على أن وجود ذلك أحب إليه وأرضى له .

***

يوضحه الوجه التاسع عشر : وهو أنه سبحانه قدّر ما يبغضه ويكرهه من المنهيات لما يترتب عليها مما يحبه ويفرح به من المأمورات . فإنه سبحانه أفرح بتوبة عبده من الفاقد الواجد ، والعقيم الوالد ، والظمآن الوارد . وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم لفَرَحِه بتوبة العبد[1] مثلاً ليس في المفروح به أبلغ منه ، وهذا الفرح إنما بفعل المأمور به وهو التوبة ، فقدر الذنب لما يترتب عليه من هذا الفرح العظيم الذي وجوده أحب إليه من فوات ما يكره . وليس المراد بذلك أن كل فرد من أفراد ما يحب أحب إليه من فوات كل فرد مما يكره حتى تكون ركعتا الضحى أحب إليه من فوات قتل المسلم ، وإنما المراد أن جنس فعل المأمورات أفضل من جنس ترك المحظورات ، كما إذا فضّل الذكر على الأنثى والإنسي على المَلَك ، فالمراد الجنس لا عموم الأعيان .

والمقصود أن هذا الفرح الذي لا فرح يشبهه بفعل مأمور التوبة يدلُّ على أن هذا المأمور أحب إليه من فوات المحظور الذي تفوت به التوبة وأثرها ومقتضاها .

فإنْ قيل : إنما فرح بالتوبة لأنها ترك للمنهي فكان الفرح بالترك ،

---

(١) الحديث رواه مسلم رقم (٢٧٤٧) في التوبة : باب في الحض على التوبة والفرح بها ، من حديث أنس رضي الله عنه ، ولفظه : « لله أشدُّ فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه ، من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه ، فأيِسَ منها ، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها ، قد أيس من راحلته ، فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ، ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح » . ورواه البخاري بلفظ آخر .

قيل : ليس كذلك ، فإن الترك المحض لا يوجب هذا الفرح بل ولا الثواب ولا المدح . وليست التوبة تركاً ، وإن كان الترك من لوازمها ، وإنما هي فعل وجودي يتضمن إقبال التائب على ربه وإنابَته إليه والتزام طاعته . ومن لوازم ذلك ترك ما نُهي عنه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ [هود : ٣] . فالتوبة رجوع عَمَّا يكره إلى ما يحب ، وليست مُجَرَّدَ الترك ، فإنَ مَنْ ترك الذنب تركاً مجرَّداً ولم يرجع عنه إلى ما يحبه الرب تعالى لم يكن تائباً ، فالتوبة رجوع وإقبال وإنابة لا ترك محض .

* * *

الوجه العشرون : إن المأمور به إذا فات فاتت الحياة المطلوبة للعبد ، وهي التي قال تعالى فيها : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال : ٢٤] ، وقال : ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ [الأنعام : ١٢٢] وقال في حق الكفار : ﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ﴾ [النحل : ٢١] ، وقال : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [النحل : ٨٠] .

وأما المنهي عنه فإذا وجد فغايته أن يوجد المرض ، وحياة مع السقم خير من موت .

* * *

فإنْ قيل : ومِنَ المنهي عنه ما يوجب الهلاكَ وهو الشركُ .

قيل : الهلاك إنما حصل بعدم التوحيد المأمور بِهِ الذي به الحياة، فلما فُقِدَ حصل الهلاك، فما هلك إلا من عدم إتيانه بالمأمور به.

وهذا **وجهٍ حادٍ وعشرون** في المسألة : وهو أن في المأمورات ما يوجب فواتُهُ الهلاكَ والشقاء الدائم ، وليس في المنهيات ما يقتضي ذلك .

* * *

الوجه الثاني والعشرون : إن فعل المأمور يقتضي ترك المنهي عنه إذا فعل على وجهه من الإخلاص والمتابعة والنصح لله فيه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] . ومجرد ترك المنهي لا يقتضي فعل المأمور ولا يستلزمه .

* * *

الوجه الثالث والعشرون : إن ما يحبه من المأمورات فهو متعلق بصفاته ، وما يكرهه من المنهيات فمتعلق بمفعولاته ، وهذا وجه دقيق يحتاج إلى بيان ، فنقول :

المنهيات شرور وتفضي إلى الشرور ، والمأمورات خير وتفضي إلى الخيرات، والخير بيديه سبحانه والشرُّ ليس إليه[1]، فإنَّ الشر لا يدخل في صفاته ولا في أفعاله ولا في أسمائه ، وإنما هو في المفعولات مع أنه شر بالإضافة والنسبة إلى العبد ، وإلا من حيث إضافته ونسبته إلى الخالق

---

(١) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة قال : « وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له ، بذلك أمرت وأنا من المسلمين .

اللهم أنت الملك لا إله إلاّ أنت ، أنت ربي وأنا عبدك ظُلمت نفسي ، واعترفت بذنبي ، فاغفر لي ذنوبي جميعاً ، إنه لا يغفر الذنوب إلاّ أنت . واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلاّ أنت ،واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلاّ أنت. لبيك وسعديك ، والخير كله في يديك والشر ليس إليك ، أنا بك وإليك ، تباركت وتعاليت ، استغفرك وأتوب إليك » رواه مسلم رقم (٧٧١) في صلاة المسافرين باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه ، وأبو داود رقم (٧٦٠) في الصلاة باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء ، والنسائي ٢/ ١٣٠ في الافتتاح باب نوع آخر من الذكر والدعاء بين التكبير والقراءة ، وأحمد في « المسند » ١/ ١٠٢ .

سبحانه فليس بشرّ من هذه الجهة . فغاية ارتكاب المنهي أن يوجب شرّاً بالإضافة إلى العبد مع أنه في نفسه ليس بشرّ . وأما فوات المأمور فيفوت به الخير الذي بفواته يحصل ضده من الشرّ ، وكلما كان المأمور أحب إلى الله سبحانه كان الشر الحاصل بفواته أعظم كالتوحيد والإيمان .

وسرُّ هذه الوجوه : أن المأمور به محبوبه ، والمنهي مكروهه ، ووقوع محبوبه أحبُّ إليه من فوات مكروهه ، وفوات محبوبه أكْرَه إليه من وقوع مكروهه ، والله أعلم .

***

٦٦ ـ فصل

مبنى الدين على قاعدتين : الذكر والشكر ، قال تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة : ١٥٢] .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ[1] : « وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ فَلَا

---

(١) هو أبو عبد الرحمن معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عائذ بن عدي بن كعب بن عمرو ، من بني جشم بن الخزرج الأنصاري الجشمي ، وقد نسبه بعضهم في بني سلمة بن سعد ، قالوا : وإنما دعته بنو سلمة لأنه كان آخى سهل بن محمد بن الجد من بني سلمة لأمه .

وهو أحد السبعين الذين شهدوا العقبة من الأنصار ، وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين عبد الله بن مسعود ، وقيل : آخى بينه وبين جعفر بن أبي طالب ، وشهد بدراً وما بعدها من المشاهد ، وبعثه إلى اليمن قاضياً ومعلماً ، وجعل إليه قبض الصدقات من العمال الذين باليمن .

روى عنه عمر ، وابن عمر ، وابن عباس ، وابن عمرو ، وأنس ، وغيرهم .

وكان إسلامه وهو ابن ثماني عشرة سنة في قول بعضهم ، استعمله عمر بن الخطاب على الشام بعد أبي عبيدة بن الجراح ، فمات من عامه ذاك في طاعون عمواس سنة ثماني عشرة ، وقيل : سبع عشرة ، وله ثمان وثلاثون سنة ، قيل : ثلاث أو أربع وثلاثون سنة ، وقيل غير ذلك .

تَنْسَ أَنْ تَقُولَ دُبُرَ كُلِّ صَلاَةٍ : اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَىٰ ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ »[1] ، وليس المراد بالذكر مجرد ذكر اللسان بل الذكر القلبي واللساني . وذكره يتضمن ذكر أسمائه وصفاته وذكر أمره ونهيه وذكره بكلامه ، وذلك يستلزم معرفته والإيمان به وبصفات كماله ونعوت جلاله والثناء عليه بأنواع المدح . وذلك لا يتم إلا بتوحيده . فذكره الحقيقي يستلزم ذلك كله ويستلزم ذكر نعمه وآلائه وإحسانه إلى خلقه .

وأما الشكر فهو القيام له بطاعته والتقرُّب إليه بأنواع محابِّه ظاهراً وباطناً ، وهذان الأمران هما جماع الدين ، فذِكْرُه مستلزم لمعرفته ، وشكره متضمن لطاعته ، وهذان هما الغاية التي خلقَ لأجلها الجن والإنس والسموات والأرض ، ووضَع لأجلها الثواب والعقاب ، وأنزل الكتب ، وأرْسَل الرُّسل ، وهي الحق الذي به خلقت السموات والأرض وما بينهما ، وضدها هو الباطل والعبث الذي يتعالى ويتقدَّس عنه ، وهو ظنُّ أعدائه به .

قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [ص : ٢٧] ، وقال : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوات وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الدخان : ٣٨] ، وقال : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ﴾ [الحجر : ٨٥] ، وقال بعد ذكر آياته في أول سورة يونس : ﴿ مَا

---

(١) رواه أبو داود رقم (١٥٢٢) في الصلاة : باب الاستغفار ، والنسائي ٣/ ٥٣ في السهو : باب نوع آخر من الدعاء ، وأحمد في « المسند » ٥/ ٢٤٥ و٢٤٧ ، وابن حبان في « صحيحه » رقم (٢٣٤٥) « موارد » في الأذكار : باب الدعاء بعد الصلاة ، واسناده صحيح .

خَلَقَ اللهُ ذٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [يونس : ٥] ، وقال : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً ﴾ [القيامة : ٣٦] ، وقال : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١٥] ، وقال : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] ، ﴿ اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ [الطلاق : ١٢] ، وقال : ﴿ جَعَلَ اللهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْيَ وَٱلْقَلَائِدَ ذٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة : ٩٧] .

فثبت بما ذكر أن غاية الخلق والأمر أن يُذكر وأن يُشكر . يُذكر فلا يُنسى ، ويُشكر فلا يُكفر. وهو سبحانه ذاكر لِمَنْ ذكره، شاكر لمن شكره، فذكره سبب لذكره ، وشكره سبب لزيادته من فضله . فالذِّكْرُ للقلب واللسان ، والشكر للقلب محبة وإنابة ، وللسّان ثناء وحمد ، وللجوارح طاعة وخدمة .

***

٦٧ ـ فصل

تكرَّر في القرآن جَعْل الأعمال القائمة بالقلب والجوارح سبب الهداية والإضلال ، فيقوم بالقلب والجوارح أعمال تقتضي الهدى اقتضاء السبب لمسببه والمؤثر لأثره . وكذلك الضلال، فأعمال البر تثمر الهدى، وكلما ازداد منها ازداد هدى . وأعمال الفجور بالضد ، وذلك أن الله سبحانه يحب أعمال البر فيجازي عليها بالهدى والفلاح ، ويبغض أعمال الفجور ويجازي عليها بالضلال والشقاء .

وأيضاً فإنه البَرُّ ويحبُّ أهلَ البِرّ فيقرب قلوبهم منه بحسب ما قاموا به من البرِّ ، ويبغض الفجور وأهله فيبعد قلوبهم منه بحسب ما اتَّصفوا به من الفجور ، فمن الأصل الأول قوله تعالى : ﴿ آلم * ذَٰلِكَ ٱلْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ١ ـ ٢] ، وهذا يتضمن أمرين :

أحدهما : أنه يهدي به مَن اتَّقى مساخطه قبل نزول الكتاب ، فإن الناس على اختلاف مِلَلِهِم ونحلهم قد استقر عندهم أن اللَّه سبحانه يكره الظلم والفواحش والفساد في الأرض ويمقت فاعلَ ذلك ، ويحب العدل والإحسان والجود والصدق والإصلاح في الأرض ، ويحب فاعلَ ذلك . فلما نزل الكتاب ، أثاب سبحانه أهلَ البر بأن وَفَّقهم للإيمان به جَزَاءً لهم على برِّهم وطاعتهم ، وخذل أهلَ الفجور والفحش والظلم بأن حالَ بينهم وبين الاهتداء به .

والأمر الثاني : أن العبد آمن بالكتاب واهتدى به مجملاً وَقِبلَ أوامره وصدَّق بأخبـاره ، كان ذلك سبباً لهداية أُخرى تحصل له على التفصيل . فإن الهداية لا نهاية لها ولو بلغ العبدُ فيها ما بلغ ، ففوق هدايته هداية أخرى وفوق تلك الهداية هداية أخرى إلى غير غاية . فكلما اتَّقى العبد ربَّه ارتقى إلى هداية أخرى ، فهو في مزيد هداية ما دام في مزيد من التقوى . وكلما فوَّتَ حظاً من التقوى فاته حظ من الهداية بحسبه ، فكلما اتَّقى زاد هداه ، وكلما اهتدى زادت تقواه . قال تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة : ١٥ ـ ١٦] ، وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ [الشورى : ١٣] ، وقال تعالى : ﴿ سَيَذَّكَّرُ

مَنْ يَخْشَىٰ ﴾ [الأعلى : ١٠] ، وقال : ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴾ [غافر : ١٣] ، وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾ [يونس : ٩] .

فهداهم أولاً للإيمان ، فلما آمنوا هداهم للإيمان هداية بعد هداية ، ونظير هذا قوله تعالى : ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ آهْتَدُوا هُدىً ﴾ [مريم : ٧٦] ، وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً ﴾ [الأنفال : ٢٩] ، ومن الفرقان ما يعطيهم من النور الذي يفرقون به بين الحق والباطل ، والنصر والعزّ الذي يتمكنون به من إقامة الحق وكسر الباطل ، فُسِّر القرآن بهذا وبهذا . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَـةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ [سبأ : ٩] ، وقال : ﴿ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ في سورة لقمان [٣١] وسورة إبراهيم [٥] وسبأ [١٩] والشورى [٣٣] .

فأخبر عن آياته المشهودة العيانية أنها إنما ينتفع بها أهلُ الصبر والشكر(١) ، كما أخبر عن آياته الإيمانية القرآنية أنها إنما ينتفع بها أهل التقوى والخشية والإنابة ومَن كان قصده اتباع رضوانه ، وأنها إنما يتذكر بها مَن يخشاه سبحانه كما قال : ﴿طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ * إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه : ١ ـ ٣] ، وقال في الساعة : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ﴾ [النازعات : ٤٥] .

وأما مَن لا يؤمن بها ولا يرجوها ولا يخشاها فلا تنفعه الآيات العيانية ولا القرآنية . ولهذا لما ذكر سبحانه في سورة هود عقوبات الأمم

(١) انظر الفائدة ٦ .

المكذبين للرسل وما حَلَّ بهم في الدنيا من الخزي ، قال بعد ذلك : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ﴾ [هود : ١٠٣] ، فأخبر أن في عقوباته للمكذبين عِبرة لمن خاف عذاب الآخرة .

وأما مَن لا يؤمن بها ولا يخاف عذابها فلا يكون ذلك عبرة وآية في حقه ، وإذا سمع ذلك قال : لم يزل في الدهر الخير والشر ، والنعيم والبؤس ، والسعادة والشقاوة . وربما أحال ذلك على أسباب فلكية وقُوىً نفسانية . وإنما كان الصبر والشكر سبباً لانتفاع صاحبهما بالآيات ، لأن الإيمان ينبني على الصبر والشكر ، فنصفه صبر ونصفه شكر ، فعلى حسب صبر العبد وشكره تكون قوة إيمانه . وآيات اللّهِ إنما ينتفع بها مَن آمن باللّه وآياته ، ولا يتمُّ له الإيمان إلا بالصبر والشكر ، فإن رأس الشكر التوحيد ، ورأس الصبر ترك إجابة داعي الهوى . فإذا كان مشركاً متبعاً هواه لم يكن صابراً ولا شكوراً ، فلا تكون الآيات نافعة له ولا مؤثرة فيه إيماناً[1] .

* * *

٦٨ ـ فصـــل

وأما الأصل الثاني : وهو اقتضاء الفجور والكبر والكذب للضلال فكثير أيضاً في القرآن كقوله تعالى : ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً ، وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً ، وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا ٱلْفَاسِقِينَ * الَّـذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ، وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلأَرْضِ ، أُولٰئِكَ هُمُ

---

(١) انظر تفصيل هذا في كتاب « عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين » للمؤلف رحمه الله تعالى .

ٱلْخَاسِرُونَ ﴾ [البقرة : ٢٦ - ٢٧] ، وقال تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِٱلْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ، وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِينَ ، وَيَفْعَلُ اللّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [ابراهيم : ٢٧] ، وقال تعالى : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ﴾ [النساء : ٨٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ، بَلْ لَعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة : ٨٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ ، كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام : ١١٠] .

فأخبر أنه عاقبهم على تخلُّفهم عن الإيمان لما جاءهم وعرفوه وأعرضوا عنه بأنْ قَلَّبَ أفئدتهم وأبصارهم وحالَ بينهم وبين الإيمان ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ [الأنفال : ٢٤] ، فأمرهم بالاستجابة له ولرسوله حين يدعوهم إلى ما فيه حياتهم ، ثم حذَّرهم من التخلف والتأخر عن الاستجابة الذي يكون سبباً لأن يحول بينهم وبين قلوبهم . قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللّهُ قُلُوبَهُمْ واللّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ ﴾ [الصف : ٥] ، وقال تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين : ١٤] ، فأخبر سبحانه أنَّ كَسْبَهُمْ غَطَّى على قلوبهم وحالَ بينها وبين الإيمان بآياته ، فقالوا ﴿ أَسَاْطِيْرُ الأَوَّلِيْنَ ﴾ [المطففين : ١٣] .

وقال تعالى في المنافقين : ﴿ نَسُوا اللّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة : ٦٧] ، فجازاهم على نسيانهم له أن نسيَهم فلم يذكرهم بالهدى والرحمة ، وأخبر أنه أنساهم أنفسهم فلم يطلبوا كمالها بالعلم النافع والعمل الصالح وهما الهدى ودين الحق ، فأنساهم طلب ذلك ومحبته

ومعرفته والحرص عليه عقوبة لنسيانهم له ، وقال تعالى في حقهم : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ * وَالَّذِينَ ٱهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد : ١٦ - ١٧] ، فجمع لهم بين اتباع الهوى والضلال الذي هو ثمرته وموجبه كما جمع للمهتدين بين التقوى والهدى .

* * *

٦٩ - فصل

وكما يقرن سبحانه بين الهدى والتقى والضلال والغيّ ، فكذلك يقرن بين الهدى والرحمة والضلال والشقاء ، فمن الأول قوله : ﴿أولئك عَلَىٰ هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة : ٥] وقال : ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٧] .

وقال عن المؤمنين : ﴿ رَبَّنا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران : ٨] .

وقال أهل الكهف : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّىءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً ﴾ [الكهف : ١٠] ، وقال : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأولِي ٱلأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف : ١١١] ، وقال : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدَىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل : ٦٤] ، وقال : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدَىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ٨٩] ، وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٥٧] .

ثم أعاد سبحانه ذكرهما فقال : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ [يونس : ٥٨] .

وقد تنوَّعت عبارات السلف في تفسير الفضل والرحمة ، والصحيح أنهما الهدى والنعمة ، ففضله هداه ، ورحمته نعمته ، ولذلك يقرن بين الهدى والنعمة كقوله في سورة الفاتحة : ﴿ إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة : ٦] .

ومن ذلك قوله لنبيّه يذكّره بنِعَمِهِ عليه : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ ﴾ [الضحى : ٦ - ٨] ، فجمع له بين هدايته له وإنعامه عليه بإيوائه وإغنائه .

ومن ذلك قول نوح : ﴿ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ ﴾ [هود : ٢٨] ، وقول شعيب : ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً ﴾ [هود : ٨٨] ، وقال عن الخضر[1] : ﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا

---

(١) الخضر هو اسم الرجل الصالح المذكور في ﴿ سورة الكهف ﴾ وقد ثبت ذلك من حديث ابن عباس رضي الله عنهما فقد رواه البخاري ٨/ ٣١٠ - ٣٢٢ في تفسير سورة الكهف باب ﴿ وإذ قال موسى لفتاة لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين ﴾ وباب ﴿ فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما ﴾ وباب ﴿ فلما جاوزا قال لفتاه : آتنا غداءنا ﴾، وفي العلم باب ما ذكر في ذهاب موسى في البحر ، وباب الخروج في طلب العلم ، وباب ما يستحب للعالم إذا سئل ، وفي الأنبياء باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام وفي أبواب أخر . ومسلم رقم (٢٣٨٠) في الفضائل باب فضائل الخضر عليه السلام ، وأبو داود رقم (٤٧٠٧) في السنة باب في القدر ، والترمذي رقم (٣١٤٨) في التفسير باب في القدر . قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في « الفتح » : وكان بعض أكابر العلماء يقول : أول عقدة تُحَلُّ من الزندقة اعتقاد كون الخضر نبياً ، لأن الزنادقة يتذرعون بكونه غير نبي إلى أن الولي أفضل من النبي كما قال قائلهم :

مقام النبوة في برزخ فريق الرسول ودون الولي . ا . هـ

عِلْماً ﴾ [الكهف : ٦٥] .

وقال لرسوله : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبيناً* لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ويُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً* وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزيزاً ﴾ [الفتح : ١ - ٣] ، وقال : ﴿ وَأَنْزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ [النساء : ١١٣] ، وقال : ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً ﴾[النور : ٢١] ، ففضله هدايته ، ورحمته إنعامه وإحسانه إليهم وبرّه بهم .

وقال : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣] ، والهدى منعه من الضلال ، والرحمة منعته من الشقاء ، وهذا هو الذي ذكره في أول السورة في قوله : ﴿ طٰه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴾ [طه : ١ - ٢] ، فجمع له بين إنزال القرآن عليه ونفي الشقاء عنه ، كما قال في آخرها في حق أتباعه : ﴿ فلا يَضِلُّ ولا يَشْقى ﴾ [طه : ١٢٣] .

فالهدى والفضل والنعمة والرحمة متلازمات لا ينفكُّ بعضها عن بعض ، كما أن الضلال والشقاء متلازمان لا ينفكُّ أحدهما عن الآخر ، قال تعالى : ﴿إِنَّ المُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرْ﴾ [القمر:٤٧] وَالسعر: جمع سعير، وهو العذاب الذي هو غاية الشقاء. وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ ،لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا،وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولٰئِكَ كَٱلأَنْعَامِ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٩] ، وقال تعالى عنهم : ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك : ١٠] .

ومن هذا أنه سبحانه يجمع بين الهدى وانشراح الصدر والحياة الطيبة وبين الضلال وضيق الصدر والمعيشة الضنك ، قال تعالى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ آللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً ﴾ [الأنعام : ١٢٥] ، وقال : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ [الزمر : ٢٢] .

وكذلك يجمع بين الهدى والإنابة وبين الضلال وقسوة القلب ، قال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ [الشورى : ١٣] ، وقال تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الزمر : ٢٢] .

* * *

٧٠ ـ فصل

* والهدى والرحمة ، وتوابعهما من الفضل والإنعام ، كله من صفة العطاء ، والإضلال والعذاب ، وتوابعهما من صفة المنع ، وهو سبحانه يصرف خلقه بين عطائه ومنعه ، وذلك كله صادر عن حكمة بالغة ، وملك تام ، وحمد تام ، فلا إلّه إلا الله .

* * *

٧١ ـ فصل

إذا رأيت النفوس المبطلة الفارغة من الإرادة والطلب لهذا الشأن قد تشبَّثَ بها هذا العالم السفلي وقد تشبَّثَتْ به فكِلْها إليه ، فإنه اللائق بها لفساد تركيبها، ولا تنقش عليها ذلك فإنه سريع الانحلال عنها، ويبقى

تشبُّثها به مع انقطاعه عنها عذاباً عليها بحسب ذلك التعلق ، فتبقى شهوتها وإرادتها فيها ، وقد حيل بينها وبين ما تشتهي على وجه يئست معه من حصول شهوتها ولذتها . فلو تصوَّر العاقل ما في ذلك من الألم والحسرة لبَادَر إلى قطع هذا التعلق كما يبادر إلى حسم مواد الفساد ، ومع هذا فإنه ينال نصيبه من ذلك وقلبُه وهمُّه متعلق بالمطلب الأعلى ، والله المستعان .

* * *

٧٢ ـ فصل

إياك والكذب فإنه يفسد عليك تصوُّر المعلومَات على ما هي عليه ، ويفسد عليك تصويرها وتعليمها للناس ، فإن الكاذب يصوِّر المعدوم موجوداً والموجود معدوماً ، والحق باطلاً ، والباطل حقاً ، والخير شراً ، والشر خيراً ، فيفسد عليه تصوُّره وعلمه عقوبة له . ثم يصوِّر ذلك في نفس المخاطب المغترّ به الراكن إليه فيفسد عليه تصوُّره وعلمه . ونفس الكاذب مُعْرِضة عن الحقيقة الموجودة نزَّاعة إلى العدم مؤثرة للباطل . وإذا فسدت عليه قوة تصوره وعلمه التي هي مبدأ كل فعل إرادي ، فسدت عليه تلك الأفعال وَسَرَى حكم الكذب إليها فصار صدورها عنه كصدور الكذب عن اللسان ، فلا ينتفع بلسانه ولا بأعماله .

ولهذا كان الكذب أساس الفجور كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَىٰ الفُجُورِ وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَىٰ النَّارِ »[1] . وأول ما يسري الكذب من النفس إلى اللسان فيفسده ، ثم

---

(١) قطعة من حديث رواه البخاري ١٠/ ٤٢٢ في الأدب : باب قوله تعالى : ﴿ يا أيها =

يسري إلى الجوارح فيفسد عليها أعمالها كما أفسد على اللسان أقواله ، فيعمّ الكذب أقواله وأعماله وأحواله ، فيستحكم عليه الفساد ويترامى داؤه إلى الهلكة إنْ لم يتداركه الله بدواء الصدق يَقلعُ تلك المادة من أصلها .

ولهذا كان أصل أعمال القلوب كلها الصدق ، وأضدادها من الرياء والعجب والكبر والفخر والخيلاء والبطر والأشر والعجز والكسل والجبن والمهانة وغيرها أصلها الكذب . فكل عمل صالح ظاهر أو باطن فمنشؤه الصدق . وكل عمل فاسد ظاهر أو باطن فمنشؤه الكذب . والله تعالى يعاقب الكذاب بأن يقعده ويثبطه عن مصالحه ومنافعه ، ويثيب الصادق بأن يوفقه للقيام بمصالح دنياه وآخرته ، فما استجلبت مصالح الدنيا والآخرة بمثل الصدق ، ولا مفاسدهما ومضارّهما بمثل الكذب . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٩] ، وقال تعالى : ﴿ هٰذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ [المائدة : ١١٩] ، وقال : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ ﴾ [محمد : ٢١] ، وقال : ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ

= الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ مختصراً ، ومسلم رقم (٢٦٠٧) في البر والصلة : باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله ، وأبو داود رقم (٤٩٨٩) في الأدب : باب التشديد في الكذب ، والترمذي رقم (١٩٧٢) في البر والصلة : باب ما جاء في الصدق والكذب ، وأحمد في « المسند » ١/ ٣٨٤ و٤٣٢ ، والدارمي رقم (٢٧١٨) في السير : باب في الكذب ، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، ولفظه بتمامه : « إن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب صديقاً ، وإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب كذاباً » . وفي رواية : « عليكم بالصدق . . . » الحديث .

وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ٩٠] .

* * *

٧٣ ـ فصل

في قوله تعالى : ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٦] .

في هذه الآية عدة حِكَم وأسرار ومصالح للعبد[1] ، فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب ، والمحبوبَ قد يأتي بالمكروه ، لم يأمن أن توافيه المضرَّة من جانب المسرَّة ، ولم ييأس أن تأتيه المسرَّة من جانب المضرَّة لعدم علمه بالعواقب ، فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد أوجب له ذلك أموراً :

منها : أنه لا أنفع له من امتثال الأمر وإن شقَّ عليه في الابتداء ، . لأن عواقبه كلها خيرات ومسرّات ولذّات وأفراح ، وإن كرهته نفسه فهو خير لها وأنفع . وكذلك لا شيء أضرّ عليه من ارتكاب النهي وإن هويَتْهُ نفسهُ ومالت إليه ، فإن عواقبه كلها آلام وأحزان وشرور ومصائب ، وخاصيَّة العقل تحمُّل الألم اليسير لِما يعقبه من اللذة العظيمة والخير الكثير ، واجتنابُ اللذة اليسيرة لِما يعقبها من الألم العظيم والشرّ الطويل . فنَظَرُ الجاهل لا يجاوز المبادىء إلى غاياتها ، والعاقل الكَيِّس دائماً ينظر إلى الغايات من وراء ستور مبادئها فيرى ما وراء تلك الستور

---

(١) انظر « فائدة » رقم ٦٩ .

من الغايات المحمودة والمذمومة . فيرى المناهي كطعام لذيذ قد خُلِطَ فيه سُمٌّ قاتل ، فكلما دعته لذَّته إلى تناوله نهاه ما فيه من السم . ويرى الأوامر كدواء كريه المذاق مُفْضٍ إلى العافية والشفاء ، وكلما نهاه كراهة مذاقه عن تناوله أمَرَهُ نفعُه بالتناول . ولكن هذا يحتاج إلى فضل علم تدرك به الغايات من مبادئها، وقوة صبرٍ يوَطِّن به نفسه على تحمُّل مشقة الطريقِ لِما يؤمِّل عند الغاية ، فإذا فقدَ اليقين والصبر تعذّر عليه ذلك ، وإذا قوِيَ يقينُه وصبرُه هان عليه كل مشقة يتحمّلها في طلب الخير الدائم واللذة الدائمة .

ومن أسرار هذه الآية أنها تقتضي من العبد التفويض إلى من يعلم عواقب الأمور ، والرضا بما يختاره له ويقضيه له ، لما يرجو فيه من حسن العاقبة .

ومنها : أنه لا يقترح على ربه ولا يختار عليه ولا يسأله ما ليس له به علم ، فلعلَّ مضرَّته وهلاكه فيه وهو لا يعلم ، فلا يختار على ربه شيئاً بل يسأله حسن الاختيار له وأن يرضيه بما يختاره فلا أنفع له من ذلك .

ومنها : أنه إذا فوّض [أمره] إلى ربه ورضي بما يختاره له أمدَّه فيما يختاره له بالقوة عليه والعزيمة والصبر ، وصرف عنه الآفات ، التي هي عرضة اختيار العبد لنفسه ، وأراه من حسن عواقب اختياره له ما لم يكن ليصل إلى بعضه ، بما يختاره هو لنفسه .

ومنها : أنه يريحه من الأفكار المتعبة في أنواع الاختيارات ، ويفرغ قلبه من التقديرات والتدبيرات التي يصعد منها في عقبة وينزل في أخرى ، ومع هذا فلا خروج له عما قدر عليه ، فلو رضي باختيار الله أصابه القدر وهو محمود مشكور ملطوف به فيه ، وإلَّا جرى عليه القدر

وهو مذموم غير ملطوف به فيه . لأنه مع اختياره لنفسه ، ومتى صحَّ تفويضه ورضاه ، اكتنفه في المقدور العطف عليه واللطف به فيصير بين عطفه ولطفه ، فعطفه يقيه ما يحذره ، ولطفه يهون عليه ما قدَّره .

إذا نَفَذَ القدر في العبد كان من أعظم أسباب نفوذه تحيُّله في ردِّه ، فلا أنفع له من الاستسلام وإلقاءِ نفسه بين يدي القدر طريحاً كالميتة ، فإن السبع لا يرضى بأكل الجِيَف .

* * *

٧٤ - فصل

لا ينتفع بنعمة اللّه بالإيمان والعلم إلاَ مَن عرف نفسه، ووقف بها عند قدرها، ولم يتجاوزه إلى ما ليس له، ولم يتعدَّ طوره ولم يقل هذا لي ، وتيقَّن أنه لله ومن الله وبالله ، فهو المانّ به ابتداءً وإدامةً بلا سبب من العبد ولا استحقاق منه ، فتُذِلُّه نِعَمُ الله عليه وتكسره كسرة مَن لا يرى لنفسه ولا فيها خيراً البتة، وأن الخير الذي وصل إليه فهو للّه وبه ومنه، فتُحْدِث له النعم ذلاً وانكساراً عجيباً لا يعبر عنه . فكلما جَدَّدَ له نعمة ازداد له ذلاً وانكساراً وخشوعاً ومحبة وخوفاً ورجاء ، وهذا نتيجة علمين شريفين :

عِلمه بربِّهِ وكماله وبرِّه وغناه وجُودِه وإحسانه ورحمته، وأن الخير كله في يديه وهو ملكه يؤتي منه مَن يشاء ويمنع منه مَن يشاء ، وله الحمد على هذا ، وهذا أكملَ حمدٍ وأتمُّه .

وعِلمه بنفسه ووقوفه على حدها وقدرها ونقصها وظلمها وجهلها ، وأنها لا خير فيها البتة ولا لها ولا بها ولا منها وأنها ليس لها من ذاتها إلَّا العدم ، فكذلك من صفاتها وكمالها ليس لها إلَّا العدم الذي لا شيء أحقر منه ولا أنقص ، فما فيها من الخير تابع لوجودها الذي ليس إليها ولا بها . فإذا صار هذان العِلمان صِبْغةً لها لا صبغة على لسانها عَلِمَتْ حينئذ أن الحمد كله للَّه ، والأمر كله له والخير كله في يديه ، وأنه هو المستحق للحمد والثناء والمدح دونها ، وأنها هي أولى بالذم والعيب واللوم . ومَن فاته التحقق بهذين العِلمين تلوّنت به أقواله وأعماله وأحواله وتخبطت عليه ولم يهتدِ إلى الصراط المستقيم الموصل له إلى اللَّه . فإيصال العبد بتحقيق هاتين المعرفتين علماً وحالاً ، وانقطاعُه بفواتهما . وهذا معنى قولهم[1] : من عرف نفسه عرف ربه ، فإنه مَن عرف نفسه بالجهل والظلم والعيب والنقائص والحاجة والفقر والذل والمسكنة والعدم ، عرف ربه بضد ذلك فوقف بنفسه عند قدرها ولم يتعدَّ بها طورها ، وأثنى على ربه ببعض ما هو أهله ، وانصرفت قوة حبه وخشيته ورجائه وإنابته وتوكله إليه وحده ، وكان أحبَّ شيء إليه وأخوَفَ شيء عنده وأرجاه له ، وهذا هو حقيقة العبودية ، واللَّه المستعان .

ويُحكى أن بعض الحكماء كتبَ على باب بيته : إنه لن ينتفع بحكمتنا إلاَ مَن عرف نفسه ووقف بها عند قدرها ، فمَن كان كذلك فليدخل وإلا فليْرجع حتى يكون بهذه الصفة .

* * *

(١) هو من قول يحيى بن معاذ الرازي (انظر ترجمته ص ٨٦) وقد وهـم من جعله حـديثاً أو ساقه على انه حديث .

٧٥ ـ فصل

الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجبه الشهوة ، فإنها إما أن توجب ألماً وعقوبة ، وإما أن تقطع لذة أكملَ منها ، وإما أن تُضِيع وقتاً إضاعته حسرة وندامة ، وإما أن تَثلِم عِرضاً توفيرهُ أنفع للعبد من ثَلمِه ، وإما أن تُذهِب مالاً بقاؤه خير له من ذهابه ، وإما أن تضع قدراً وجاهاً قيامه خير من وضعِه ، وإما أن تسلب نعمة بقاؤها ألذ وأطيب من قضاء الشهوة ، وإما أن تُطَرِّق لوضيعٍ إليك طريقاً لم يكن يجدها قبل ذلك ، وإما أن تجلب هَمّاً وغمّاً وحزناً وخوفاً لا يقارب لذة الشهوة ، وإما أن تُنسِي عِلماً ذكرُه ألذ من نيل الشهوة ، وإما أن تُشَمِت عدواً وتُحْزِن وليّاً ، وإما أن تقطع الطريق على نعمة مقبلة ، وإما أن تُحْدِث عيباً يبقى صفة لا تزول ، فإن الأعمال تورث الصفات والأخلاق .

* * *

٧٦ ـ فصل

للأخلاق حد متى جاوزته صارت عدواناً ، ومتى قصَّرت عنه كان نقصاً ومهانة .

فللغضب حَدٌّ وهو الشجاعة المحمودة ، والأنفة من الرذائل والنقائص ، وهذا كماله . فإذا جاوز حدَّه ، تعدّى صاحبُه وجار ، وإن نقصَ عنه ، جبن ولم يأنف من الرذائل .

وللحرص حد ، وهو الكفاية في أمور الدنيا ، وحصول البلاغ

منها ، فمتى نقص من ذلك كان مهانة وإضاعة ، ومتى زاد عليه ، كان شَرَهاً ورغبة فيما لا تحمد الرغبة فيه .

وللحسد حد ، وهو المنافسةُ في طلب الكمال ، والأنفةُ أن يتقدم عليه نظيرُه ، فمتى تعدّى ذلك صار بغياً وظلماً يتمنى معه زوال النعمة عن المحسود ، ويحرص على إيذائه ، ومتى نقص عن ذلك ، كان دناءة وَضعْف همَّة وصِغَر نفس . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ : رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَسَلَّطُهُ عَلَىٰ هَلْكَتِهِ فِي الحَقِّ ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ »[1] ، فهذا حسد منافسة يطالب الحاسد به نفسه أن يكون مثل المحسود، لا حسد مهانة يتمنى به زوال النعمة عن المحسود .

وللشهوة حد وهو راحة القلب والعقل من كد الطاعة واكتساب الفضائل والاستعانة بقضائها على ذلك ، فمتى زادت على ذلك صارت نهمة وشبقاً والتحق صاحبها بدرجة الحيوانات ، ومتى نَقَصَت عنه ولم يكن فراغاً في طلب الكمال والفضل كانت ضعفاً وعجزاً ومهانة .

وللراحة حد وهو إجمام النفس والقوى المدركة والفعّالة للاستعداد للطاعة واكتساب الفضائل وتوفرِها على ذلك بحيث لا يُضعفها الكد والتعب ويضعف أثرها ، فمتى زاد على ذلك صار توانياً وكسلاً وإضاعة ،

---

(١) رواه البخاري ١/ ١٥٣ في العلم : باب الاغتباط في العلم والحكمة ، وفي الزكاة : باب إنفاق المال في حقه ، وفي الأحكام : باب أجر من قضى بالحكمة ، وفي الاعتصام : باب ما جاء في اجتهاد القضاة بما أنزل الله تعالى ، ومسلم رقم (٨١٦) في صلاة المسافرين : باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه ، وأحمد في « المسند » ١/ ٣٨٥ و ٤٣٢ ، وابن ماجة رقم (٤٢٠٨) في الزهد : باب الحسد .

وفاتَ به أكثر مصالح العبد ، ومتى نقص عنه صار مُضرّاً بالقوى موهناً لها وربما انقطع به « كالْمُنْبَتِّ ـ الذي ـ لَا أَرْضاً قَطَعَ وَلَا ظَهْراً أَبْقَىٰ »[١] .

والجود له حد بين طرفين ، فمتى جاوز حده صار إسرافاً وتبذيراً ، ومتى نقص عنه كان بخلاً وتقتيراً .

وللشجاعة حد متى جاوزته صار تهوراً ، ومتى نقصت عنه صار جبناً وخوراً . وحدُّها الإقدام في مواضع الإقدام ، والإحجام في مواضع الإحجام ، كما قال معاوية[٢] لعمرو بن العاص : أعياني أن أعرفَ

---

(١) قال في « المجمع » ١ / ٦٢ : رواه البزار من حديث جابر رضي الله عنه وفيه يحيى بن المتوكل أبو عقيل وهو كذّاب . قال الألباني في « الأحاديث الضعيفة » رقم (٨) : أخرجه البيهقي في سننه (٣/ ١٩) من طريق أبي صالح ثنا الليث عن ابن عجلان عن مولى لعمر بن عبد العزيز عن عبد الله بن عمرو بن العاص . . . وهذا سند ضعيف وله علتان جهالة مولى عمر بن عبد العزيز وضعف أبي صالح وهو عبد اللّٰه بن صالح كاتب الليث ـ والخلاصة هو حديث ضعيف كما في « ضعيف الجامع رقم (٢٠٢٠) ـ ويغني عنه ما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن هذا الدين يسر ، ولن يشاد هذا الدين أحدٌ إلاّ غلبة ، فسددوا وقاربوا وأبشروا . . . » اهـ مختصراً .

(٢) هو أبو عبد الرحمن معاوية بن أبي سفيان ، واسم أبي سفيان : صخر بن حرب بن أمية ابن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي ، وأمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس .

كان هو وأبوه من مسلمة الفتح ، ثم من المؤلفة قلوبهم ، وهو أحد الذين كتبوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل : لم يكتب له من الوحي شيئاً ، إنما يكتب له كتبه .

روى عنه ابن عباس وأبو سعيد الخدري .

تولى الشام بعد أخيه يزيد في زمن عمر بن الخطاب ، ولم يزل بها متولياً حاكماً إلى أن مات ، وذلك أربعون سنة ، منها في أيام عمر أربع سنين او نحوها ، ومدة خلافة عثمان ، وخلافة علي وابنه الحسن ، وذلك تمام عشرين سنة ، ثم استوثق له

أشُجاعاً أنت أم جباناً تُقدِم حتى أقول مِن أشجع الناس ، وتجبُن حتى أقول مِن أجبن الناس ، فقال :

شُجَــاْعٌ إِذَاْ أَمْكَنَتْنِي فُــرْصَــةٌ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لِيْ فُرْصَــةٌ فَجَبَاْنُ

والغيرة لها حد إذا جاوزته صارت تهمة وظناً سيئاً بالبريء ، وإذا قصَّرت عنه كانت تغافلاً ومبادىء دياثة .

وللتواضع حد إذا جاوزه كان ذلاً ومهانة ، ومَن قصَّر عنه انحرف إلى الكبر والفخر .

وللعزِّ حد إذا جاوزه كان كِبْراً وخلقاً مذموماً ، وإنْ قصَّر عنه انحرف إلى الذلِّ والمهانة .

وضابط هذا كلِّه العدلُ ، وهو الأخذ بالوسط الموضوع بين طَرَفي الإفراط والتفريط ، وعليه بناء مصالح الدنيا والآخرة ، بل لا تقوم مصلحة البدن إلا به . فإنه متى خرج بعض أخلاطه عن العدل وجاوزه أو نقص عنه ذهب من صحته وقُوَّته بحسب ذلك . وكذلك الأفعال الطبيعية كالنوم

= الأمر بتسليم الحسن بن علي إليه في سنة إحدى وأربعين ، ودام له عشرين سنة ، أو نحوها .

ومات سنة ستين في رجب بدمشق ، وله ثمان وسبعون سنة ، وقيل : ست وثمانون سنة ، وكانت أصابته لقوة في آخر عمره ، وكان يقول في آخر عمره : لِيتني كنت رجلاً من قريش بذي طوى ، ولم آل من هذا الأمر شيئاً ، وكان عنده إزار رسول الله صلى الله عليه وسلم ورداءه وقميصه ، وشيء من شعره ، وأظفاره ، فقال : كفنوني في قميصه ، وأدرجوني في ردائه ، وآزروني بإزاره ، واحشوا منخريَّ ، وشدقي ومواضع السجود مني بشعره وأظفاره ، وخلوا بيني وبين أرحم الراحمين ، وهو أول من عهد إلى ولده بالولاية بعده .

والسهر والأكل والشرب والجماع والحركة والرياضة والخلوة والمخالطة وغير ذلك ، إذا كانت وسطاً بين الطرفين المذمومين كانت عدلاً وإن انحرفت إلى أحدهما كانت نقصاً وأثمرت نقصاً .

فمن أشرف العلوم وأنفعها عِلْم الحدود ، ولا سيما حدود المشروع المأمور والمنهي . فأعلمُ الناس أعلمُهم بتلك الحدود ، حتى لا يُدخل فيها ما ليس منها ولا يُخْرِج منها ما هو داخل فيها . قال تعالى : ﴿ الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﴾ [التوبة : ٩٧] . فأعدل الناس مَن قام بحدود الأخلاق والأعمال والمشروعات معرفة وفعلاً ، وبالله التوفيق .

* * *

٧٧ ـ فصل

قال أبو الدرداء[١] رضي الله عنه : « يَا حَبَّذَا نَوْمُ الأَكْيَاسِ وَفِطْرُهُمْ كَيْفَ يَغْبِنُوْنَ بِهِ قِيَامَ الحَمْقَىٰ وَصَوْمَهم ، والذرَّةُ مِنْ صَاحِبِ تَقْوَىٰ أَفْضَلُ مِنْ أَمْثَالِ الجِبَالِ عِبَادَةً مِنَ المُغْتَرِّيْن » .

---

(١) هو عويمر بن عامر ، ويقال : ابن قيس بن زيد بن أمية بن عدي بن كعب ، وقيل : عويمر بن زيد بن قيس ، وقيل : عامر ، وعويمر تصغيره ، وقيل : عويمر بن ثعلبة بن عامر بن زيد ، إلا أنهم مع كثرة اختلافهم في اسمه ونسبه اتفقوا على أنه من بني كعب ابن الخزرج بن الحارث بن الخزرج الأنصاري الخزرجي ، واشتهر بكنيته ، والدرداء ابنته ، تأخر إسلامه قليلاً ، فكان آخر أهل داره إسلاماً ، وحسن اسلامه ، وكان فقيهاً عالماً ، حكيماً ، آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين سلمان ، واختلف في شهوده أحداً ، وشهد ما بعدها ، سكن الشام ، ومات بدمشق سنة اثنتين وثلاثين ، وقيل : احدى وقيل : سنة أربع ودفن في القلعة .

روى عنه أبو ادريس الخولاني ، وعلقمة ، وجبير بن نفير ، وأم الدرداء .

وهذا من جواهر الكلام ، وأدلِّه على كمال فقه الصحابة ، وتقدُّمهم على مَن بعدهم في كل خير ، رضي اللّٰه عنهم .

فاعلم أن العبد إنما قطع منازل السير إلى الله بقلبه وهمّته لا ببدنه . والتقوى في الحقيقة تقوى القلوب لا تقوى الجوارح . قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ [الحج : ٣٢] ، وقال : ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ ﴾ [الحج : ٣٧] ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « التَّقْوَىٰ ها هنا ، وأشار إلى صدره »[1] .

فالكيِّسُ يقطع من المسافة بصحة العزيمة ، وعلوِّ الهمَّة ، وتجريد القصد ، وصحة النيَّة مع العمل القليل ، أضعافَ أضعاف ما يقطعه الفارغ من ذلك مع التعب الكثير والسفر الشاق . فإن العزيمة والمحبة تُذهِب المشقة ، وتطيب السير ، والتقدُّم والسبق إلى الله سبحانه إنما هو بالهمم ، وصدق الرغبة والعزيمة ، فيتقدَّم صاحبُ الهمة مع سكونه صاحبَ العمل الكثير بمراحل ، فإنْ ساواه في همَّته تقدَّم عليه بعمله ، وهذا موضع يحتاج إلى تفصيل يوافق فيه الإسلامُ الإحسانَ .

---

(١) قطعة من حديث طويل رواه مسلم رقم (٢٥٦٤) في البر والصلة والآداب : باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله ، والترمذي رقم (١٩٢٨) في البر والصلة : باب ما جاء في شفقة المسلم على المسلم ، وأحمد في « المسند » ٢/٢٧٧ و ٣٦٠ من حديث أبي هريرة رضي اللّٰه عنه، ولفظه: «لا تحاسدوا،ولا تناجشوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، ولا يبع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخواناً ، المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، التقوى ها هنا ، ـ ويشير إلى صدره ثلاث مرات ـ بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه » .

فأكمل الهَدْي هَدْيُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان موفياً كل واحد منهما حقه ، فكان مع كماله وإرادته وأحواله مع الله يقوم حتى تَرِمَ قدماه ، ويصوم حتى يقال لا يفطر ، ويجاهد في سبيل الله ، ويخالط أصحابه ولا يحتجب عنهم ، ولا يترك شيئاً من النوافل والأوراد لتلك الواردات التي تعجز عن حملها قُوَى البشر . والله تعالى أمر عباده أن يقوموا بشرائع الإسلام على ظواهرهم وحقائق الإيمان على بواطنهم ، ولاَ يَقْبَلُ واحداً منهما إلا بصاحبه وقرينه .

وفي المسند مرفوعاً : « الإِسْلاَمُ عَلاَنِيَةٌ وَالإِيمَانُ فِي القَلْبِ »[1] . فكل إسلام ظاهر لا ينفذ صاحبُه منه إلى حقيقة الإيمان الباطنة فليس بنافع حتى يكون معه شيء من الإيمان الباطن ، وكل حقيقة باطنة لا يقوم صاحبُها بشرائع الإسلام الظاهرة لا تنفع ولو كانت ما كانت . فلو تمزَّق القلبُ بالمحبة والخوف ولم يتعَبَّد بالأمر وظاهر الشرع لم يُنجه ذلك من النار . كما أنه لو قام بظواهر الإسلام وليس في باطنه حقيقة الإيمان لم يُنجه ذلك من النار .

وإذا عُرف هذا ، فالصادقون السائرون إلى الله والدار الآخرة قسمان :

قسمٌ صرفوا ما فضل من أوقاتهم بعد الفرائض إلى النوافل البدنية

---

(١) رواه أحمد في « المسند » ٣/ ١٣٥ ـ ١٣٦ من حديث أنس رضي الله عنه ، قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » ١/ ٥٢ : رواه أحمد وأبو يعلى بتمامه ، والبزار باختصار ، ورجاله رجال الصحيح ما خلا علي بن مسعدة ، وقد وثقه ابن حبان وأبو داود الطيالسي وأبو حاتم وابن معين ، وضعفه آخرون ، ولفظه : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الإسلام علانية والإيمان في القلب » قال : ثم يشير إلى صدره ثلاث مرات ، قال : ثم يقول : التقوى ها هنا ، التقوى ها هنا » .
وقال الالباني في ضعيف الجامع (٣٢٨٠) ضعيف .

وجعلوها دأبهم من غير حرص منهم على تحقيق أعمال القلوب ومنازلها وأحكامها ، وإن لم يكونوا خالين من أصلها ولكن هِمَمهم مصروفة الى الاستكثار من الأعمال .

وقسمٌ صرفوا ما فضل من الفرائض والسنن إلى الاهتمام بصلاح قلوبهم وعكوفها على الله وحده والجمعية عليه وحفظ الخواطر والإرادات معه. وجعلوا قوة تعبُّدِهم بأعمال القلوب من تصحيح المحبة والخوف والرجاء والتوكل والإنابة ورأوا أنَّ أيْسَرَ نصيب من الواردات التي ترد على قلوبهم من الله أَحَبُّ إليهم من كثير من التطوعات البدنية ، فإذا حصل لأحدهم جمعية ووارد أنس أو حبٍّ أو اشتياق أو انكسار وذل ، لم يستبدل به شيئاً سواه البتة ، إلا أن يجيء الأمر فيبادر إليه بذلك الوارد إن أمكنه ، وإلا بادر إلى الأمر ولو ذهب الوارد . فإذا جاءت النوافل فها هنا معترك التردُّد ، فإن أمكن القيام إليها به فذاك ، وإلا نَظَرَ في الأرجح والأحب إلى الله ، هل هو القيام إلى تلك النافلة ولو ذهب وارده كإغاثة الملهوف وإرشاد ضالّ وجبر مكسور واستفادة إيمان ونحو ذلك ، فها هنا ينبغي تقديم النافلة الراجحة ، ومتى قدمها للّه رغبة فيه وتقرُّباً إليه فإنه يَرُدُّ عليه ما فات من وارده أقوى مما كان في وقت آخر ، وإن كان الواردُ أرجحَ من النافلة فالحزمُ له الاستمرار في وارده حتى يتوارى عنه فإنه يفوت والنافلة لا تفوت .

وهذا موضع يحتاج إلى فضل فقه في الطريق ومراتب الأعمال وتقديم الأهم منها فالأهم ، واللّهُ الموفق لذلك لا إلّه غيره ولا رب سواه .

* * *

٧٨ ـ فَصــل

أصلُ الأخلاق المذمومة كلِّها الكِبْرُ والمهانة والدناءة ، وأصل الأخلاق المحمودة كلها الخشوعُ وعلوُّ الهمَّة .

فالفخرُ والبطر والأشر والعُجْب والحسد والبغي والخيلاء والظلم والقسوة والتجبُّر والإعراض وإباء قبول النصيحة والاستئثار وطلب العلوّ وحب الجاه والرئاسة وأن يُحْمَدَ بما لم يفعل وأمثال ذلك ، كلُّها ناشئة من الكبر .

وأما الكذبُ والخِسَّة والخيانة والرياء والمكر والخديعة والطمع والفزع والجبن والبخل والعجز والكسل والذلّ لغير اللّه واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير ونحو ذلك ، فإنها من المهانة والدناءة وصغر النفس .

وأما الأخلاق الفاضلة كالصبرِ والشجاعة والعدل والمروءة والعفة والصيانة والجود والحلم والعفوِ والصفح والاحتمال والإيثارِ وعزة النفس عن الدناءات والتواضع والقناعة والصدق والإخلاص والمكافأة على الإحسان بمثلِهِ أو أفضلَ ، والتغافلِ عن زلّات الناس وترك الاشتغال بما لا يعنيه وسلامة القلب من تلك الأخلاق المذمومة ونحو ذلك ، فكلُّها ناشئة عن الخشوع وعلوِّ الهمة . واللّه سبحانه أخبر عن الأرض بأنها تكون خاشعة ثم ينزل عليها الماء فتهتز وتربو وتأخذُ زينتها وبهجتها ، فكذلك المخلوق منها إذا أصابه حظه من التوفيق .

وأما النار فطبعها العلوّ والإفساد ثم تخمد فتصير أحقر شيء وأذلّه ،

وكذلك المخلوق منها. فهي دائماً بين العلوِّ إذا هاجت واضطربت، وبين الْحِسَّة والدناءة إذا خمدت وسكنت . والأخلاق المذمومة تابعة للنارِ والمخلوقِ منها ، والأخلاقُ الفاضلة تابعة للأرض والمخلوق منها . فَمَنْ عَلَتْ هِمَّتُهُ وَخَشَعَتْ نفسُهُ اتَّصَفَ بكل خلق جميل ، وَمَنْ دَنَتْ هِمَّتُهُ وطغت نفسُهُ اتَّصَفَ بكل خلق رذيل .

* * *

٧٩ - فصل

المطلب الأعلى موقوف حصوله على همّة عالية ونيّة صحيحة ، فَمَنْ فقدهما تعذّر عليه الوصول إليه ، فإن الهمة إذا كانت عالية تعلقت به وحده دون غيره . وإذا كانت النية صحيحة سلكَ العبدُ الطريقَ الموصلة إليه ، فالنية تفرد له الطريق والهمة تفرد له المطلوب ، فإذا توحّد مطلوبه والطريق الموصلة إليه كان الوصول غايته . وإذا كانت همته سافلة تعلقت بالسفليات ولم تتعلق بالمطلبَ الأعلى . وإذا كانت النية غير صحيحة كانت طريقه غير موصلة إليه . فمدار الشأن على همة العبد ونيته وهما مطلوبه وطريقه ولا يتم إلا بترك ثلاثة أشياء :

[الأول][1] : العوائد والرسوم والأوضاع التي أحدثها الناس .

الثاني : هجر العوائق التي تعوقه عن إفراد مطلوبه وطريقه وقطعها .

الثالث : قطع علائق القلب التي تحول بينه وبين تجريد التعليق بالمطلوب . والفرق بينهما أن العوائق هي الحوادث الخارجية ، والعلائق هي التعلقات القلبية بالمباحات ونحوها . وأصل ذلك ترك الفضول التي تشغل عن المقصود من الطعام والشراب والمنام والخلطة ، فيأخذ من

---

(١) زيادة ليست في الأصل .

ك ما يعينه على طلبه ويرفض منه ما يقطعه عنه أو يضعف طلبه ، والله مستعان .

* * *

٨٠ ـ فصـــل

من كلام عبد اللَّه بن مسعود[١] رضي الله عنه .

* قال رجل عنده : ما أحب أن أكون من أصحاب اليمين ، أحب ن أكون من المقرَّبين . فقال عبد اللَّه : لكن ها هنا رجل وَدَّ أنه إذا مات

---

١) هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن مسعود بن غافل بن شمخ بن قار بن مخزوم بن صاهلة بن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر الهذلي .

وقيل : هو عبد الله بن مسعود بن الحارث بن شمخ بن مخزوم بن صاهلة ، وقيل في نسبه غير ذلك .

وهو حليف بني زهرة ، وكان أبوه مسعود قد حالف في الجاهلية عبد الله بن الحارث بن زهرة .

وكان إسلام عبد الله قديماً أول الإسلام ، قبل دخول النبي صلى الله عليه وسلم دار الأرقم ، وقبل عمر بزمان ، وقيل : كان سادساً في الإسلام ، ثم ضمه إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان من خواصه ، وكان صاحب سرِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسواكه ، ونعليه ، وطهوره في السفر .

هاجر إلى الحبشة ، وشهد بدراً وما بعدها من المشاهد ، وصلى إلى القبيلتين ، وشهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « رضيت لأمتي ما رضي لها ابن ام عبد ، وسخطت لها ما سخط لها ابن أم عبد » .

وكان يشبه بالنبي صلى الله عليه وسلم في سمته ، ودله ، وهديه ، وكان خفيف اللحم ، قصيراً ، شديد الأدمة ، نحيفاً ، يكاد طوال الرجال يوازيه جالساً ، ولِيَّ القضاء بالكوفة وبيت مالها لعمر ، وصدراً من خلافة عثمان ، ثم صار إلى المدينة ، فمات بها سنة اثنتين وثلاثين ، ودفن بالبقيع ، وله بضع وستون سنة .

روى عنه أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، ومن بعدهم من الصحابة والتابعين .

لم يُبْعَث ، يعني نفسه .

* وخرج ذات يوم فاتَّبعه ناس فقال لهم : ألكم حاجة؟قالوا: لا ، ولكن أردنا أن نمشي معك ، قال : ارجعوا ، فإنه ذِلَّة للتابع وفتنة للمتبوع .

* وقال: لو تعلمون مني ما أعلم من نفسي لحثوتم على رأسي التراب.

* وقال : حبذا المكروهان : الموت والفقر ، وايم اللّه إنْ هو إلا الغنى والفقر وما أبالي بأيهما بُليت ، أرجو اللّه في كل واحد منهما ، إنْ كان الغنى إنَّ فيه للعطف ، وإنْ كان الفقر إن فيه للصبر .

* وقال : إنكم في ممر الليل والنهار في آجالٍ منقوصة ، وأعمالٍ محفوظة ، والموت يأتي بغتة ، فمَن زرع خيراً فيوشك أن يحصد رغبة ، وَمَن زرع شرّاً فيوشك أن يحصد ندامة ، ولكل زارعٍ مِثلُ ما زرع لا يَسبق بطيء بحظه ، ولا يُدرِك حريص ما لم يقدَّر له .

* مَن أعطى خيراً فاللّه أعطاه ، ومَن وقي شرّاً فاللّه وقاه .

المتقون سادة، والفقهاء قادة، ومجالستهم زيادة .

إنما هما اثنتان : الهدْيُ والكلام ، « فأَفْضَلُ الكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ ، وَأَفْضَلُ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ » (١) .

---

(١) روى البخاري ٧ / ٩ في الاعتصام : باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم و١٣/ ١٢٥ في الأدب : باب الهدي الصالح ، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، قال : « إن أحسن الحديث : كتاب الله ، وأحسن الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وإن ما توعدون لآتٍ ، وما أنتم بمعجزين » .

فلا يطولنَّ عليكم الأمد ولا يلهينَّكم الأمل فَإنَّ كُلُّ مَا هُوَ آتٍ قَريبٌ ، ألا وإن البعيد ما ليس آتياً ، أَلَا وَإِنَّ الشَّقِيَّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ ، وَإِنَّ السَّعِيدَ مَنْ وُعِظَ بغَيْرِهِ ، أَلَا وَإِنَّ قِتَالَ المُسْلِمِ كُفْرٌ وَسِبَابُهُ فُسُوقٌ ، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاثَـةِ أَيَّامٍ حَتَّىٰ يُسَلِّمَ عَلَيْهِ إِذَا لَقِيَهُ ، وَيُجِيبُهُ إِذَا دَعَاهُ ، وَيَعُودُهُ إِذَا مَرِضَ . أَلَا وَإِنَّ شَرَّ الرَّوَايَا رَوَايَا الكَذِبِ ، ألا وإن الكذب لا يصلح منه جِدٌّ ولا هزل ولا أن يَعِدَ الرجلُ صبيَّه شيئاً ثم لا ينجزه ، ألا وإن الكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار ، والصدق يهدي إلى البرِّ، والبرُّ يهدي إلى الجنة ، وإنه يقال للصادق صَدَقَ وَبَرَّ ، ويقال للكاذب كذبَ وفجرَ ، وإن محمداً صلى اللَّه عليه وسلم حدثنا أنَّ الرجل لَيَصْدُق حتى يُكتَب عند اللَّهِ صدِّيقاً ، ويكذب حتى يُكتَب عند اللَّه كذَّاباً .

إنَّ أَصْدَقَ الحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ ، وَأَوْثَقُ العُرَىٰ كَلِمَةُ التَّقْوَىٰ ، وَخَيْرُ المِلَلِ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ ، وَأَحْسَنُ السُّنَنِ سُنَّةُ مُحَمَّدٍ صلى اللَّه عليه وسلم ، وخير الهدي هدي الأنبياء ، وَأَشْرَفُ الحَدِيثِ ذِكْرُ اللَّهِ ، وَخَيْرُ القَصَصِ القُرْآنُ ، وَخَيْرُ الأُمُورِ عَوَازِمُهَا ، وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا ، وَمَا قَلَّ وَكَفَىٰ خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَلْهَىٰ ، ونفسٌ تنجيها خير من إمارة لا تحصيها ، وَشَرُّ المَعْذِرَةِ حِينَ يَحْضُرُ المَوْتُ ، وَشَرُّ النَّدَامَةِ نَدامَةُ يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَشَرُّ الضَّلَالَةِ الضَّلَالَةُ بَعْدَ الهُدَىٰ ، وَخَيْرُ الغِنَىٰ غِنَىٰ النَّفْسِ ، وَخَيْرُ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ، وَخَيْرُ مَا وَقَرَ فِي القَلْبِ اليَقِينُ ، والـريـب مِنَ الكُفْرِ ، وَشَرُّ العَمَىٰ عَمَىٰ القَلْبِ ، والخمر جماع الإثم ، والنساء حبائل الشيطان ، والشباب شعبة من الجنون ، وَالنَّوْحُ مِنْ عَمَلِ الجَاهِلِيَّةِ .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يَأْتِي الجُمُعَةَ إِلَّا دُبُراً وَلَا يَذْكُرُ اللَّهَ إِلَّا هُجْراً .

ومِنْ أَعْظَمِ الخَطَايَا اللِّسانُ الكَذَّابُ ، وَمَنْ يَعْفُ يَعْفُ اللَّهُ عَنْهُ ، وَمَنْ يَكْظِمُ الغَيْظَ يَأْجُرْهُ اللَّهُ ، ومَنْ يَغْفِرْ يُغْفَرْ لَهُ ، وَمَنْ يَصْبِرْ عَلَى الرَّزِيَّةِ يُعَوِّضَهُ اللَّهُ ،وشرّ المكاسب كسب الربا ، وَشَرُّ المَأْكَلِ مَالُ اليَتِيمِ ، وإنما يكفي أحدَكم ما قنعت به نفسه ، وَإِنَّمَا يَصِيرُ إِلَى أَرْبَعَةِ أَذْرُعٍ وَالأَمْرُ إِلَى آخِرَةِ ، وَمَلاَكُ العَمَلِ خَوَاتِمُهُ ، وَأَشْرَفُ المَوْتِ قَتْلُ الشُّهَدَاءِ ، ومَن يستكبر يضعه الله ، ومَن يَعْصِ اللَّهُ يُطِعِ الشيطان »[1] .

* ينبغي لحامل القرآن أن يُعرَف بليله إذا الناس نائمون ، وبنهاره إذا الناس مفطرون ، وبحزنه إذا الناس يفرحون ، وببكائه إذا الناس يضحكون ، وبصَمْتِه إذا الناس يخوضون ، وبخشوعه إذا الناس يختالون . وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكياً محزوناً حكيماً حليماً سكيناً ، ولا ينبغي لحامل القرآن أن يكون جافياً ولا غافلاً ولا سخاباً[2] ولا صياحاً ولا حديداً .

* مَن تطاوَلَ تعظماً حطَّه الله ، ومَن تواضَعَ تخشّعاً رفعه الله . وإنَّ للمَلَكِ لَمَّة[3] وللشيطان لَمَّة ، فلمَّة الملك إيعاد بالخير، وتصديق بالحق ، فإذا رأيتم ذلك فاحمدوا الله . ولَمَّة الشيطان إيعاد بالشرِّ وتكذيب بالحق ، فإذا رأيتم ذلك فتعوَّذوا بالله .

* إنَّ الناس قد أحسنوا القول ، فمَن وافق قولُه فِعْلَه فذاك الذي صاب حظه ، ومَن خالفَ قولُه فِعْلَه فذاك إنما يوخِّ نفسَه .

---

(١) رواه البيهقي في الدلائل ، والحاكم من حديث عقبة بن عامر مرفوعاً واسناده ضعيف كما ذكر ذلك المصنف رحمه الله في «زاد المعاد» ٣/ ٥٤١ ـ ٥٤٣ .

(٢) السخب والصخب ، بمعنى الصياح ، والصاد والسين يجوز ابدالهما في كل كلمة فيها خاء . السخب لغة في الصخب .

(٣) اللمة الهمة والخطرة تقع في القلب انظر ص ٣١١ .

* لا ألفِيَنَّ أحدَكم جيفةَ ليلٍ قُطْرُبَ[1] نهارٍ ، إني لأبغضُ الرجلَ أن أراه فارغاً ليس في شيء من عمل الدنيا ولا عمل الآخرة ، ومَن لم تأمره الصلاة بالمعروف وتنهَه عن المنكر لم يزدَدْ بها من الله إلا بُعداً .

* من اليقين أن لا تُرضيَ الناس بسخط الله ، ولا تحمَدَ أحداً على رزق الله ، ولا تلوم أحداً على ما لم يؤتك الله . فإن رزق الله لا يسوقه حرص حريص ولا يردّه كراهة كاره ، وإن اللّٰه بقسطه وحلمه وعدله جعل الرَّوْحَ والفرَحَ في اليقين والرضا ، وجعل الهمَّ والحزنَ في الشكِّ والسخط .

* ما دمت في صلاة فأنت تقرع بابَ الملِك ، وَمَن يقرع باب الملِك يفتح له .

* إني لأحسب الرجل ينسى العلمَ كان يعلمه بالخطيئة يعملها .

* كونوا ينابيعَ العلم ، مصابيحَ الهدى ، أحلاسَ البيوت[2] ، سُرُجَ الليل ، جُدُدَ القلوب ، خُلقَانَ الثياب ، تُعْرَفون في السماء وتَخفَوْن على أهل الأرض .

* إنَّ للقلوب شهوةً وإدباراً فاغتنموها عند شهوتها وإقبالها ، ودَعُوها عند فترتها وإدبارها .

* ليس العلم بكثرة الرواية ولكن العلم الخشية .

---

(١) قال أبو عبيد : يقال: إن القطرب لا تستريح نهارها سعياً ، فشبّه عبدُ اللّٰه الرجلَ يسعى نهارَه في حوائج دنياه ، فإذا أمسى كالاًّ تعباً فينام ليلته حتى يصبح كالجيفة لا يتحرك ، فهذا جيفة ليل قطرب نهار. اهـ من « اللسان » مادة : (قطرب) .

(٢) كونوا أحلاس البيوت : أي الزموها .

* إنكم تَرَوْن الكافر من أصَحِّ الناس جسماً وأمرضهم قلباً ، وتَلْقَوْن المؤمن من أصَحِّ الناس قلباً وأمرضهم جسماً ، وايم اللّه ، لو مرضت قلوبكم وصَحَّت أجسامكم لكنتم أهوَن على اللّه من الجُعلان .

* لا يبلغ العبدُ حقيقةَ الإيمان حتى يحلّ بذروته ، ولا يحلّ بذروته حتى يكون الفقر أحَبّ إليه من الغنى ، والتواضع أحب إليه من الشرف ، وحتى يكون حامِدُه وذامُّه عنده سواء .

* وإن الرجل يخرج من بيته ومعه دينه فيرجع وما معه منه شيء ، يأتي الرجلَ ولا يملك له ولا لنفسه ضُرّاً ولا نفعاً ، فيقسم له باللّه إنك لذيت وذيت[1] ، فيرجع وما حُبِيَ من حاجته بشيء وبسخط اللّه عليه .

* لو سَخِرْتُ من كلبٍ لخشيتُ أن أُحَوَّل كلباً .

* الإثم حوَّاز[2] القلوب .

* ما كان من نظرة فإن للشيطان فيها مطمعاً .

* مع كل فرحة ترحة ، وما مُلِيءَ بيتٌ حبرة[3] إلَّا مُلِيءَ عبرة . وما منكم إلا ضيفٌ وماله عارية ، فالضيف مُرتحِل ، والعارية مؤداة إلى أهلها .

* يكون في آخر الزمان أقوامٌ أفضل أعمالهم التلاوُمُ بينهم يُسَمَّوْنَ الأنتان[4]

---

(١) أي كيت وكيت ، كناية عن عبارات المدح تملقاً .

(٢) فيه ثلاث روايات : بتشديد الواو أو فتحها فقط أو بتشديد الزاي . والمعنى أنه يسوق القلوب ويغلب عليها .

(٣) الحبرة : النعمة وسعة العيش .

(٤) الأنتان ، جمع نتن : من كان به رائحة كريهة .

* إذا أَحَبَّ الرجلُ أن ينصف من نفسه فليؤت إلى الناس الذي يُحِبُّ أن يُؤتى إليه .

* الحق ثقيل مريء والباطل خفيف وبيء .

* رُبَّ شهوة تورث حزناً طويلاً .

* ما على وجه الأرض شيء أحوَج إلى طول سَجن من لسان .

* إذا ظهر الزِّنا والرِّبا في قرية أُذِّنَ بهلاكها .

* مَن استطاع منكم أن يجعل كنزه في السماء حيث لا يأكله السوس ولا يناله السرَّاق فليفعل ، فإن قلب الرجل مع كنزِه .

* لا يقلدنَّ أحدُكم [في] دينه رجلاً ، فإنْ آمن آمن وإنْ كفر كفر ، وإنْ كنتم لا بدَّ مقتدين فاقتدوا بالميت ، فإن الحيَّ لا تؤمَن عليه الفتنة .

* لا يكن أحدُكم إمَّعة ، قالوا وما الإمَّعة ؟ قال : يقول أنا مع الناس إن اهتَدوا اهتديت وإن ضلوا ضللت ، ألا لِيُوَطِّنَنَ أحدُكم نفسَه على أنه إنْ كفر الناسُ لا يكفر(١) .

* وقال له رجل : علمني كلماتٍ جوامعَ نوافعَ ، فقال :

اعبد اللّه لا تشركْ به شيئاً، وزُل مع القرآن حيث زال، ومَن جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيداً بغيضاً ، ومَن جاءك بالباطل فاردد عليه وإن كان حبيباً قريباً .

---

(١) صحح من كلام ابن مسعود رضي الله عنه .

ورواه الترمذي رقم (٢٠٠٨) في البر باب ما جاء في الإحسان والعفو من حديث حذيفة رضي اللّه عنه مرفوعاً ولفظه : « لا تكونوا إمعة تقولون : إن أحسن النـاس : أحسنّـا ، وإن ظَلموا ظَلمنـا ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن النـاس أن تحسنوا ، وإن أساؤوا فلا تظلموا » وقال : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلاَّ من هذا الوجه . قال الألباني في « تخريج المشكاة » رقم (٥١٢٩) : إسناده ضعيف . وقد صح موقوفاً عن ابن مسعود .

* يُؤتى بالعبد يوم القيامة فيقال له : أدِّ أمانتك ، فيقول : يا رب من أين وقد ذهَبت الدنيا فتُمَثَّلُ على هيئتها يوم أخَذَها في قعر جهنم ، فينزل فيأخذها فيضعها على عاتقه فيصعد بها ، حتى إذا ظنَّ أنه خارج بها هَوَتْ وهوى في أثرها أبد الآبدين .

* اطلب قلبك في ثلاثة مواطن : عند سماع القرآن ، وفي مجالس الذكر ، وفي أوقات الخلوة . فإن لم تجده في هذه المواطن فسَلِ اللَّه أن يَمُنَّ عليك بقلب ، فإنه لا قلب لك .

* * *

قال الجنيد : دخلت على شاب فسألني عن التوبة فأجبته ، فسألني عن حقيقتها ، فقلت : أن تنصب ذنبك بين عينيك حتى يأتيك الموت . فقال لي : مَه ، ما هذه حقيقة التوبة . فقلت له : فما حقيقة التوبة عندك يا فتى ؟ قال : أن تنسى ذنبك . وتركني ومضى . فكيف هو عندك يا أبا القاسم ؟ فقلت : القول ما قال الفتى . قال : كيف قلت إذا كنت معه في حال ثم نقلني من حال الجفاء إلى حال الوفاء ، فذكري للجفاء في حال الوفاء جفاء .

* * *

٨١ ـ فصل

لا يجتمع الإخلاصُ في القلب ومحبةُ المدح والثناء والطمعُ فيما عند الناس إلا كما يجتمع الماء والنار والضبّ والحوت . فإذا حدَّثتكَ نفسُك بطلب الإخلاص فأقبِلْ على الطمع أولاً فاذبحْه بسكين اليأس ،

وأقبلْ على المدح والثناء فازهدْ فيهما زُهْدَ عُشّاق الدنيا في الآخرة ، فإذا استقام لك ذَبْحُ الطمع والزهد في الثناء والمدح سَهُلَ عليك الإخلاص .

فإنْ قلت : وما الذي يُسَهِّل عليَّ ذبحُ الطمع والزهد في الثناء والمدح ؟ قلت : أما ذبح الطمع فيسهله عليك علمك يقيناً أنه ليس من شيء يطمع فيه إلا وبيد اللَّه وحده خزائنه لا يملكها غيره ، ولا يؤتي العبدَ منها شيئاً سواه . وأما الزهد في الثناء والمدح فيسهله عليك علمك أنه ليس أحد ينفع مدحُه ويزين ، ويضرُّ ذمُّه ويَشين إلا اللَّه وحده ، كما قال ذلك الأعرابي للنبي صلى اللَّه عليه وسلم : إن مدحي زين وذمِّي شَيْن ، فقال : « ذَاكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ »[1] .

فازهدْ في مدح من لا يزينك مدحُه ، وفي ذمِّ من لا يشينك ذمُّه ، وارغب في مدح مَنْ كلُّ الزين في مدحه ، وكل الشين في ذمِّه ، ولن يُقدر على ذلك إلا بالصبر واليقين ، فمتى فقدتَ الصبر واليقين كنت كمن أراد السفر في البحر في غير مركب . قال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم : ٦٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُون بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ٢٤] .

* * *

(١) رواه أحمد في « المسند » ٣/ ٤٨٨ و٦/ ٣٩٣ و٣٩٤ من حديث الأقرع بن حابس رضي الله عنه، وإسناده حسن. ورواه أيضاً الترمذي رقم (٣٢٦٣) في التفسير : باب تفسير سورة الحجرات ، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه ، وقال : هذا حديث حسن ، وهو كما قال .

٨٢ ـ فصل

لذة كل أحد على حسب قدره وهمّته وشرف نفسه ، فأشرف الناس نفساً وأعلاهم همة وأرفعهم قدراً مَن لذته في معرفة اللَّه ومحبته والشوق إلى لقائه والتودُّد إليه بما يحبه ويرضاه . فلذته في إقباله عليه وعكوف همته عليه ودون ذلك مراتب لا يحصيها إلَّا اللَّه ، حتى تنتهي إلى مَن لذته في أخسِّ الأشياء من القاذورات والفواحش في كل شيء من الكلام والفِعال والأشغال . فلو عرض عليه ما يلتذ به الأول لم تسمح نفسُه بقبوله ولا التفتت إليه وربما تألمت من ذلك ، كما أن الأول إذا عُرِضَ عليه ما يلتذ به هذا لم تسمح نفسه به ولم تلتفت إليه ونفرت نفسه منه .

وأكمل الناس لذة من جمع له بين لذة القلب والروح ولذة البدن ، فهو يتناول لذاته المباحة على وجه لا ينقص حظه من الدار الآخرة ولا يقطع عليه لذة المعرفة والمحبة والأنس بربه . فهذا ممن قال تعالى فيه : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ﴾ [الأعراف : ٣٢] ، وأبخسُهم حظاً من اللذة من تناوَلَها على وجه يحول بينه وبين لذات الآخرة ، فيكون ممن يقال لهم يوم استيفاء اللذات : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ [الأحقاف : ٢٠] .

فهؤلاء تمتعوا بالطيبات ، وأولئك تمتعوا بالطيبات ، وافترقوا في وجه التمتع ، فأولئك تمتعوا بها على الوجه الذي أذن لهم فيه ، فجُمِعَ لهم بين لذة الدنيا والآخرة ، وهؤلاء تمتعوا بها على الوجه الذي دعاهم إليه الهوى والشهوة ، وسواء أذن لهم فيه أم لا ، فانقطعت عنهم لذة الدنيا

وفاتتهم لذة الآخرة ، فلا لذة الدنيا دامت لهم ، ولا لذة الآخرة حصلت لهم .

فمن أحب اللذة ودوامها والعيش الطيب فليجعل لذة الدنيا موصلاً له إلى لذة الآخرة ، بأن يستعين بها على فراغ قلبه للَّه [في] إرادَته وعبادَته ، فيتناولها بحكم الاستعانة والقوة على طلبه لا بحكم مجرد الشهوة والهوى ، وإن كان ممن زُوَيت عنه لذات الدنيا وطيباتها فليجعل ما نقص منها زيادة في لذة الآخرة ، ويجمّ نفسه[1] ها هنا بالترك ليستوفيها كاملة هناك . فطيّبات الدنيا ولذاتها نِعْمَ العَوْن لمن صحَّ طلبه للَّه والدار الآخرة وكانت همّـه لما هناك ، وبئس القاطعُ لمن كانت هي مقصوده وهمته ، وحولها يدندن ، وفواتها في الدنيا نِعْمَ العون لطالب اللَّه والدار الآخرة ، وبئس القاطع النازع من اللَّه والدار الآخرة . فمن أخذ منافع الدنيا على وجه لا ينقص حظه من الآخرة ظفر بهما جميعاً وإلا خسرهما جميعاً .

* * *

سبحان اللَّه رب العالمين . لو لم يكن في ترك الذنوب والمعاصي إلا إقامة المروءة وصَوْن العِرض وحفظ الجاه وصيانة المال الذي جعله اللَّه قِواماً لمصالح الدنيا والآخرة ، ومحبةُ الخلق وجواز القول بينهم وصلاح المعاش وراحة البدن وقوة القلب وطيب النفس ونعيم القلب وانشراح الصدر ، والأمن من مخاوف الفسّاق والفجّار ، وقلة الهم والغم والحزن ، وعزُّ النفس عن احتمال الذلّ ، وصون نور القلب أن تطفئه ظلمة المعصية ، وحصول المخرج له مما ضاق على الفساق

---

(١) أي يبهج نفسه ويسرها .

والفجار ، وتيسير الرزق عليه من حيث لا يحتسب ، وتيسير ما عسر على أرباب الفسوق والمعاصي ، وتسهيل الطاعات عليه، وتيسير العلم والثناء الحسن في الناس ، وكثرة الدعاء له ، والحلاوة التي يكتسبها وجهه ، والمهابة التي تُلقى له في قلوب الناس ، وانتصارهم وحَمِيَّتهم له إذا أُوذِيَ وظُلِم ، وذَبُّهم عن عِرضه إذا اغتابه مغتاب ، وسرعة إجابة دعائه ، وزوال الوحشة التي بينه وبين اللَّه ، وقُرْب الملائكة منه ، وبُعْد شياطين الإنس والجن منه ، وتنافس الناس على خدمته وقضاء حوائجه ، وخِطبتهم لمودَّته وصحبته ، وعدم خوفه من الموت ، بل يفرح به لقدومه على ربه ولقائه له ومصيره إليه ، وصغر الدنيا في قلبه ، وكبر الآخرة عنده ، وحِرصه على المُلك الكبير ، والفوز العظيم فيها ، وذوق حلاوة الطاعة ،ووجْد حلاوة الإيمان ، ودعاء حَمَلة العرش ومَن حوله من الملائكة له ، وفرح الكاتبين به ودعاؤهم له كلَّ وقت ، والزيادة في عقله وفهمه وإيمانه ومعرفته ، وحصول محبة اللَّه له وإقباله عليه ، وفرحه بتوبته ، وهكذا يجازيه بفرح وسرور لا نسبه له إلى فرحه وسروره بالمعصية بوجه من الوجوه .

فهذه بعض آثار ترك المعاصي في الدنيا . فإذا مات تلقَّته الملائكة بالبشرى من ربه بالجنة ، وبأنه لا خوف عليه ولا حَزَن ، وينتقل من سجن الدنيا وضيقها إلى روضة من رياض الجنة ينعم فيها إلى يوم القيامة . فإذا كان يوم القيامة كان الناس في الحَرِّ والعَرَق ، وهو في ظلِّ العرش . فإذا انصرفوا من بين يدي اللَّه أَخَذَ به ذات اليمين مع أوليائه المتقين وحزبه المفلحين . و ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيَهُ مَنْ يَشَآءُ وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ ﴾ .

٨٣ ـ فصـــل

ذكرَ ابنُ سعد في الطبقات[١] عن عمر بن عبد العزيز[٢] أنه كان إذا خطبَ على المنبر فخاف على نفسه العُجْب قطعه . وإذا كتب كتاباً فخاف فيه العجب مزَّقه، ويقول: اللهمَّ إني أعوذ بك من شرِّ نفسي[٣].

اعلم أن العبد إذا شَرَعَ في قول أو عمل يبتغي به مرضاة اللّه مطالعاً فيه

---

(١) هو محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري ، أبو عبد الله مؤرخ ، من حفاظ الحديث ولد بالبصرة سنة ١٦٨هـ ، وسكن بغداد ، وتوفي بها سنة ٢٣٠هـ ، وصحب الواقدي المؤرخ . من تصانيفه : « طبقات الصحابة » ويعرف بـ « طبقات ابن سعد » ، والكتاب من أوائل ما ألف في موضوع « الطبقات » ، ولم يسبقه إلى هذا إلا الواقدي . ابتدأ بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم ترجم للصحابة والتابعين وتابعيهم حسب التسلسل الزمني .

(٢) هو الإمام الحافظ العلامة المجتهد الزاهد العابد السيد أمير المؤمنين حقاً، الخليفة الراشد، أشج بني أمية أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي ، أمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، واسمها ليلى .

روى عن أبي بكر بن عبد الرحمن .

وقال مجاهد : أتيناه نعلمه فما برحنا حتى تعلمنا منه .

روى عنه الزهري ، وأبو بكر بن حزم .

ولي الخلافة بعد سليمان بن عبد الملك سنة تسع وتسعين ومات سنة إحدى ومائة في رجب بدير سمعان من أرض حمص ، وكانت ولايته سنتين وخمسة أشهر وأياماً ، وله من العمر أربعين سنة . وقيل : لم يستكملها .

وكان على صفة من العبادة والزهد والتقى والعفة وحسن السيرة ، لا سيما أيام ولايته ومناقبه كثيرة ظاهرة. ولابن الحكم كتاب في سيرته ومناقبه، ومثله لابن الجوزي، ومن المعاصرين عماد الدين خليل في كتابه « ملامح الانقلاب الاسلامي في عهد عمر ابن عبد العزيز » .

(٣) انظر الطبقات » ٥/ ٣٣٠ .

مِنَّةَ اللّه عليه به وتوفيقه له فيه وأنه باللّه لا بنفسه ولا بمعرفته وفكره وحَوْله وقُوَّته ، بل هو بالذي أنشأ له اللسان والقلب والعين والأذن . فالذي مَنَّ عليه بذلك هو الذي مَنَّ عليه بالقول والفعل ، فإذا لم يَغِبْ ذلك عن ملاحظته وَنَظر قلبه لم يحضره العُجْب الذي أصله رؤ ية نفسه وغيبته عن شهود منَّة ربه وتوفيقه وإعانته . فإذا غاب عن تلك الملاحظة وَثَبَتْ النفسُ وقامت في مقام الدعوى ، فوقع العجب ففسد عليه القول والعمل ، فتارةُ يُحال بينه وبين تمامه ويُقطع عليه ويكون ذلك رحمةً به حتى لا يغيب عن مشاهدة المنَّة والتوفيق . وتارة يتمُّ له ولكن لا يكون له ثمرة ، وإنْ أثمرَ أثمرَ ثمرةً ضعيفة غير محصِّلة للمقصود . وتارة يكون ضرره عليه أعظم من انتفاعه، ويتولد له منه مفاسد شتى بحسب غيبته عن ملاحظة التوفيق والمنة ورؤ ية نفسه وأن القول والفعل به .

ومن هذا الموضع يُصلح اللّه سبحانه أقوالَ عبده وأعماله ويعظم له ثمرتها أو يفسدها عليه ويمنعه ثمرتها . فلا شيء أفسَد للأعمال من العُجْب ورؤ ية النفس ، فإذا أراد اللّه بعبده خيراً أشهده منَّته وتوفيقه وإعانته له في كل ما يقوله ويفعله فلا يعجب به . ثم أشهده تقصيره فيه وأنه لا يرضى لربه به فيتوب إليه منه ويستغفره ، ويستحيي أن يطلب عليه أجراً . وإذا لم يشهده ذلك وغيَّبه عنه فرأى نفسه في العمل ورآه بعين الكمال والرضا ، لم يقع ذلك العمل منه موقع القبول والرضا والمحبة . فالعارف يعمل العمل لوجهه مشاهداً فيه منَّته وفضله وتوفيقه ، معتذراً منه إليه ، مستحيياً منه إذ لم يوفه حقه . والجاهل يعمل العمل لحظِّه وهواه ناظراً فيه إلى نفسه، يمنُّ به على ربه راضياً بعمله ، فهذا لون وذاك لون آخر .

٨٤ ـ فصل

الوصول إلى المطلوب موقوف على هجر العوائد وقطع العوائق .
فالعوائد السكون إلى الدعة والراحة وما أَلِفه الناس واعتادوه من الرسوم والأوضاع التي جعلوها بمنزلة الشرع المتبع ، بل هي عندهم أعظم من الشرع . فإنهم يُنكرون على من خرج عنها وخالفها ما لا ينكرون على من خالف صريح الشرع . وربما كفروه أو بدَّعوه وضَلّلوه ، أو هجروه وعاقبوه لمخالفة تلك الرسوم ، وأماتوا لها السنن ، ونصبوها أنداداً للرسول صلى الله عليه وسلم يوالون عليها ويعادون . فالمعروف عندهم ما وافقها والمنكر ما خالفها .

وهذه الأوضاع والرسوم قد استولت على طوائف [من] بني آدم من الملوك والولاة والفقهاء والصوفية والفقراء والمطوعين والعامة . فربَىٰ فيها الصغير ونشأ عليها الكبير واتُّخِذَتْ سُنَناً بل هي أعظم عند أصحابها من السنن . الواقف معها محبوس والمتقيد بها منقطع . عمَّ بها المُصاب ، وهُجِرَ لأجلها السنة والكتاب . مَن استنصر بها فهو عند اللَّه مخذول ، ومن اقتدى بها دون كتاب اللَّه وسُنَّة رسوله صلى الله عليه وسلم فهو عند اللَّه غير مقبول . وهذا أعظم الحُجُب والموانع بين العبد وبين النفوذ إلى اللَّه ورسوله صلى الله عليه وسلم .

* * *

٨٥ ـ فصل

وأما العوائق فهي أنواع المخالفات ظاهرها وباطنها ، فإنها تَعُوق القلبَ عن سيره إلى اللَّه وتقطع عليه طريقه ، وهي ثلاثة أمور : شرك ، وبدعة ، ومعصية ، فيزول عائق الشرك بتجريد التوحيد ، وعائق البدعة

بتحقيق السنة ، وعائق المعصية بتصحيح التوبة . وهذه العوائق لا تتبين للعبد حتى يأخذ في أهبة السفر ويتحقق بالسير إلى اللّه والدار الآخرة . فحينئذٍ تظهر له هذه العوائق ويُحِسُّ بتعويقها له بحسب قوة سيره وتجرُّده للسفر ، وإلا فما دام قاعداً لا تظهر له كوامنها وقواطعها .

****

٨٦ ـ فصل

وأما العلائق فهي كل ما تعلَّق به القلب دون اللّه ورسوله من ملاذّ الدنيا وشهواتها ورئاستها وصحبة الناس والتعلق بهم ، ولا سبيل له إلى قطع هذه الأمور الثلاثة ورفضها إلا بقوة التعلق بالمطلب الأعلى ، وإلا فقطعها عليه بدون تعلقه بمطلوبة ممتنع . فإن النفس لا تترك مألوفها ومحبوبها إلا لمحبوب هو أحب إليها منه وآثر عندها منه . وكلما قوِيَ تعلقه بمطلوبه ضعُفَ تعلقه بغيره . وكذا بالعكس . والتعلق بالمطلوب هو شدة الرغبة فيه . وذلك على قدر معرفته به وشرفه وفضله على ما سواه .

****

٨٧ ـ فصل

لما كَمُل للرسول صلى اللّه عليه وسلم مقام الافتقار إلى اللّه سبحانه أحوَجَ الخلائقَ كلهم إليه في الدنيا والآخرة . أما حاجتهم إليه في الدنيا فأشدّ من حاجتهم إلى الطعام والشراب والنَّفَس الذي به حياة أبدانهم . وأما حاجتهم إليه في الآخرة فإنهم يستشفعون بالرُّسل إلى اللّه حتى يريحوهم من ضيق مقامهم . فكلهم يتأخر عن الشفاعة فيشفع

لهم ، وهو الذي يَسْتفتح لهم باب الجنة[1].

***

(١) عن أبي هريرة ، قال : « أُتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْماً بِلَحْمٍ . فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ . فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً فَقَالَ: « أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَهَلْ تَدْرُونَ بِمَ ذَاكَ ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ . فَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ . وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لاَ يُطِيقُونَ . وَمَا لاَ يَحْتَمِلُونَ . فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ : أَلاَ تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ ؟ أَلاَ تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ ؟ أَلاَ تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ : ائْتُوا آدَمَ . فَيَأْتُونَ آدَمَ . فَيَقُولُونَ : يَا آدَمُ ! أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ . خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَمَرَ الْمَلاَئِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ . اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ . أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا ؟ فَيَقُولُ آدَمُ : إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ . وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ . وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ . نَفْسِي . نَفْسِي . اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي . اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ . فَيَأْتُونَ نُوحاً فَيَقُولُونَ : يَا نُوحُ ! أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى الأَرْضِ . وَسَمَّاكَ اللَّهُ عَبْداً شَكُوراً . اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ . أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا ؟ فَيَقُولُ لَهُمْ : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ . وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَى قَوْمِي . نَفْسِي نَفْسِي . اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ صلى اللَّهُ عليه وسلم . فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ : أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ . اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ . أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا ؟ فَيَقُولُ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلاَ يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ . وَذَكَرَ كَذَبَاتِهِ . نَفْسِي . نَفْسِي . اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَىٰ . فَيَأْتُونَ مُوسَىٰ صلى اللَّه عليه وسلم فَيَقُولُونَ : يَا مُوسَىٰ : أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ . فَضَّلَكَ اللَّهُ ، بِرِسَالاَتِهِ وَبِتَكْلِيمِهِ عَلَى النَّاسِ . اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ . أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا ؟ فَيَقُولُ لَهُمْ مُوسَىٰ صلى اللَّه عليه وسلم : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ . وَإِنِّي قَتَلْتُ نَفْساً لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا . نَفْسِي . نَفْسِي . اذْهَبُوا إِلَىٰ عِيسَىٰ صلى اللَّه عليه وسلم . فَيَأْتُونَ عِيسَىٰ فَيَقُولُونَ : يا عِيسىٰ ! أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ ، وَكَلِمَةٌ مِنْهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ، وَرُوحٌ مِنْهُ . فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ . أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا ؟ فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَىٰ صلى اللَّه عليه وسلم : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ . وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ ذَنْباً . نَفْسِي . نَفْسِي . اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي . إِذْهَبُوا إِلَىٰ مُحَمَّدٍ صلى اللَّه عليه وسلم . فَيَأْتُونِّي فَيَقُولُونَ : يَا مُحَمَّدُ =

٨٨ ـ فصـــل

من علامات السعادة والفلاح أن العبد كلما زيدَ في علمه زيدَ في تواضعه ورحمته . وكلما زيد في عمله زيد في خوفه وحذره . وكلما زيد في عمره نقُصَ من حرصه . وكلما زيد في ماله زيد في سخائه وبذله . وكلما زيد في قدْره وجاهه زيد في قربه من الناس وقضاء حوائجهم والتواضع لهم .

وعلامات الشقاوة أنه كلما زيد في علمه زيد في كبره وتيهه ، وكلما زيد في عمله زيد في فخره واحتقاره للناس وحسن ظنه بنفسه ، وكلما زيد في قدْرِه وجاهه زيد في كبره وتيهه . وهذه الأمور ابتلاء من الله وامتحان يَبْتَلي بها عبادَه فيَسْعد بها أقوام ويشقى بها أقوام .

وكذلك الكرامات امتحان وابتلاء ، كالملك والسلطان والمال . قال تعالى عن نبيّه سليمان لما رأى عرش بلقيس عنده : ﴿ هٰذَا مِنْ فَضْلِ

= أَنْتَ رَسُولُ اللّهِ وَخَاتِمُ الأَنْبِيَاءِ . وَغَفَرَ اللّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ . اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ . أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا ؟ فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقَعُ سَاجِداً لِرَبِّي . ثُمَّ يَفْتَحُ اللّهُ عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئاً لَمْ يَفْتَحْهُ لأَحَدٍ قَبْلِي . ثُمَّ يُقَالُ : يَا مُحَمَّدُ ! ارْفَعْ رَأْسَكَ . سَلْ تُعْطَهْ . اشْفَعْ تُشَفَّعْ . فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَقُولُ : يَا رَبِّ ! أُمَّتِي . أُمَّتِي . فَيُقَالُ : يَا مُحَمَّدُ ! أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِكَ ، مَنْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِ ، مِنَ الْبَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَىٰ ذٰلِكَ مِنْ الأَبْوَابِ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ مَا بَيْنَ المِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ لَكَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرٍ ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَىٰ » . تقدم تخريج الحديث في ص (٢٢٨) انظر موضوع الشفاعة مفصّلاً في «شرح العقيدة الطحاوية » للعلامة ابن أبي العزص ٢٢٣ وما بعدها من طبعتنا مكتبة دار البيان بدمشق .

رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل : ٤٠] .

فالنِّعَمُ ابتلاء من الله وامتحان يظهر بها شُكر الشَّكور وكفر الكفور . كما أن المِحَن بلوى منه سبحانه ، فهو يبتلي بالنعم كما يبتلي بالمصائب ، قال تعالى : ﴿فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ٱبْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ٱبْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا . . .﴾ [الفجر : ١٥ - ١٧] أي ليس كل مَن وسَّعتُ عليه وأكرمتُه ونعَّمته يكون ذلك إكراماً مني له ، ولا كل مَن ضيَّقتُ عليه رزقه وابتليته يكون ذلك إهانة مني له .

* * *

٨٩ - فصل

مَن أراد علوَّ بنيانه فعليه بتوثيق أساسه وإحكامه وشدة الاعتناء به . فإن علوَّ البنيان على قدر توثيق الأساس وإحكامه . فالأعمال والدرجات بنيان وأساسها الإيمان ، ومتى كان الأساسُ وثيقاً حمَلَ البنيان واعتُليَ عليه . وإذا تهدّم شيء من البنيان سهل تداركه ، وإذا كان الأساس غير وثيق لم يرتفع البنيان ولم يثبت ، وإذا تهدّم شيء من الأساس سقط البنيان أو كاد .

فالعارف همّته تصحيحُ الأساس وإحكامُه ، والجاهل يرفع في البناء عن غير أساس فلا يلبث بنيانُه أن يسقط . قال تعالى : ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا

جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّم ﴾ [التوبة : ١٠٩] . فالأساس لبناء الأعمال كالقوّة لبدن الإنسان ، فإذا كانت القوة قوية حملت البدن ودفعت عنه كثيراً من الآفات ، وإذا كانت القوة ضعيفة ضعُفَ حملها للبدن وكانت الآفات إليه أسرع شيء .

فاحملْ بنيانك على قوّة أساس الإيمان ، فإذا تشعّث شيء من أعالي البناء وسطحه كان تداركه أسهل عليك من خراب الأساس .

وهذا الأساس أمران :

[الأول] : صحة المعرفة بالله وأمره وأسمائه وصفاته .

والثاني : تجريد الانقياد له ولرسوله دون ما سواه ، فهذا أوثق أساس أسَّسَ العبدُ عليه بنيانه ، وبحسبه يعتلي البناء ما شاء .

فأحْكِم الأساس ، واحفظ القوة ، ودُمْ على الحميّة ، واستفرغْ إذا زاد بك الخلطُ ، والقصدَ القصدَ وقد بلغت المراد ، وإلا فما دامت القوة ضعيفة والمادة الفاسدة موجودة والاستفراغ معدوماً :

فَاقْرَ السَّلاَمَ عَلَىٰ الْحَيَاةِ فَإِنَّهَا قَدْ آذَنَتْكَ بِسُرْعَةِ التَّوْدِيعِ

فإذا كملَ البناء فبَيِّضْهُ بحسن الخلق والإحسان إلى الناس ، ثم حُطْهُ بسورٍ من الحذر ، لا يقتحمه عدوّ ، ولا تبدو منه العورة ، ثم أرْخِ الستورَ على أبوابه ، ثم أقفِلِ البابَ الأعظم بالسكوت عما تخشى عاقبته ، ثم ركِّبْ له مفتاحاً من ذكر الله به تفتحه وتغلقه . فإنْ فتحتَ فتحتَ بالمفتاح وإنْ أغلقت الباب أغلقته به ، فتكون حينئذٍ قد بنيْتَ حصناً تحصّنتَ فيه من أعدائك إذا طاف به العدوُّ لم يجد منه مدخلاً فييأس منك . ثم تعاهَدْ بناء الحصن كلَّ وقت ، فإن العدو إذا لم يطمع

في الدخول من الباب نَقَبَ عليك النُّقوبَ من بعيد بمعاول الذنوب ، فإنْ أهملتَ أمره وصل إليك النقب ، فإذا العدو معك في داخل الحصن فيصعب عليك إخراجُه ، وتكون معه على ثلاث خلال :

- إما أن يغلبك على الحصن ، ويستولي عليه .
- وإما أن يساكنك فيه .
- وإما أن يشغلك بمقابلته عن تمام مصلحتك ، وتعود إلى سَدِّ النقب ولَم شعث الحصن .

وإذا دخل نَقْبُه إليك نالك منه ثلاث آفات :

- إفساد الحصن .
- والإغارة على حواصله وذخائره .
- ودلالة السُّرَّاق من بني جنسه على عورته .

فلا تزال تبتلىٰ منه بغارة بعد غارة حتى يضعفوا قواك ويوهنوا عزمك فتتخلى عن الحصن وتخلي بينهم وبينه .

وهذه حال أكثر النفوس مع هذا العدو ، ولهذا تراهم يُسْخِطون ربهم برضا أنفسهم ، بل برضا مخلوق مثلهم لا يملك لهم ضرّاً ولا نفعاً ، ويضيعون كسب الدين بكسب الأموال ، ويهلكون أنفسهم بما لا يبقى لهم ، ويحرصون على الدنيا وقد أدبرت عنهم ، ويزهدون في الآخرة وقد هجمت عليهم ، ويخالفون ربهم باتِّباع أهوائهم ، ويَتَّكلون على الحياة ولا يذكرون الموت ، ويذكرون شهواتهم وحظوظهم وينسون ما عَهِدَ اللهُ إليهم ، ويهتمّون بما ضمنه الله لهم ولا يهتمون بما أمرهم به ، ويفرحون بالدنيا ويحزنون على فوات حظهم منها ولا يحزنون على فوات الجنة وما فيها ولا يفرحون بالإيمان فرحهم بالدرهم والدينار ،

ويفسدون حقهم بباطلهم وهُداهم بضلالهم ومعروفهم بمنكرهم ، ويَلْبِسون إيمانهم بظنونهم ، ويخلطون حلالهم بحرامهم ، ويتردّدون في حيرة آرائهم وأفكارهم ، ويتركون هدى الله الذي أهداه إليهم . ومن العجب أن هذا العدو يستعمل صاحب الحصن في هدم حصنه بيديه .

* * *

٩٠ ـ فصل

أركان الكفر أربعة : الكِبْر والحسد والغضب والشهوة . فالكبر يمنعه الانقياد، والحسد يمنعه قبول النصيحة وبذلها ، والغضب يمنعه العدل ، والشهوة تمنعه التفرُّغ للعبادة . فإذا انهدم ركن الكبر سهل عليه الانقياد ، وإذا انهدم ركن الحسد سهل عليه قبول النصح وبذله ، وإذا انهدم ركن الغضب سهل عليه العدل والتواضع ، وإذا انهدم ركن الشهوة سهل عليه الصبر والعفاف والعبادة . وزوال الجبال عن أماكنها أيسر من زوال هذه الأربعة عمن ابتلي بها ، ولا سيما إذا صارت هيئات راسخة وملكات وصفات ثابتة ، فإنه لا يستقيم له معها عمل البتة ولا تزكو نفسه مع قيامها بها . وكلما اجتهد في العمل أفسدته عليه هذه الأربعة ، وكل الآفات متولدة منها . وإذا استحكمت في القلب أرَتْهُ الباطل في صورة الحق ، والحق في صورة الباطل ، والمعروف في صورة المنكر ، والمنكر في صورة المعروف ، وقربت منه الدنيا ، وبعدت منه الآخرة ، وإذا تأملت كفر الأمم رأيته ناشئاً منها ، وعليها يقع العذاب ، وتكون خِفّته وشدّته بحسب خفتها وشدتها . فمن فتحها على نفسه فتح عليه أبواب الشرور كلها عاجلاً وآجلاً ، ومن أغلقها على نفسه أغلق عنه

أبواب الشرور ، فإنها تمنع الانقياد والإخلاص والتوبة والإنابه وقبول الحق ونصيحة المسلمين والتواضع لله ولخلقه .

ومنشأ هذه الأربعة مِنْ جهلِهِ بربه وجهله بنفسه ، فإنه لو عرف ربه بصفات الكمال ونعوت الجلال ، وعرف نفسه بالنقائص والآفات ، لم يتكبر ولم يغضب لها ولم يحسد أحداً على ما آتاه الله . فإن الحسد في الحقيقة نوع من معاداة الله ، فإنه يكره نعمة الله على عبده وقد أحبَّها الله ، ويحب زوالها عنه والله يكره ذلك . فهو مضاد لله في قضائه وقدره ومحبته وكراهته ، ولذلك كان إبليس عدوَّه حقيقة لأن ذنبه كان عن كبر وحسد . فقَلْعُ هاتين الصفتين بمعرفة الله وتوحيده ، والرضا به وعنه ، والإنابة إليه . وقَلْعُ الغضب بمعرفة النفس وأنها لا تستحق أن يغضب لها وينتقم لها ، فإن ذلك إيثار لها بالرضا والغضب على خالقها وفاطرها . وأعظم ما تدفع به هذه الآفة أن يُعَوِّدها أن تغضب له سبحانه وترضى له ، فكلما دخلها شيء من الغضب والرضا له خرج منها مقابله من الغضب والرضا لها ، وكذا بالعكس .

أما الشهوة فداؤها صحة العلم والمعرفة بأن إعطاءها شهواتها أعظم أسباب حرمانها إياها ومنعها منها . وحِمْيَتُها أعظم أسباب اتصالها إليها ، فكلما فتَحْتَ عليها بابَ الشهوات كنتَ ساعياً في حرمانها إياها ، وكلما أغلقتَ عنها ذلك الباب كنتَ ساعياً في إيصالها على أكمل الوجوه .

فالغضب مثل السبع إذا أفلته صاحبُه بدأ بأكله ، والشهوة مثل النار إذا أضرمها صاحبُها بدأت بإحراقه ، والكِبْر بمنزلة منازعة المَلِكُ مُلْكَه فإنْ

لم يُهلكك طردك عنه ، والحسد بمنزلة معاداة مَن هو أقدر منك ، والذي يغلب شهوتَه وغضبَه يَفْرَقُ الشيطان من ظله ، ومَن تغلبه شهوتُه وغضبُه يفرق من خياله .

* * *

٩١ ـ فصل عظيم النفع

الجُهَّال بالله وأسمائه وصفاته المعطِّلون لحقائقها يُبَغِّضون الله إلى خلقه ، ويقطعون عليهم طريق محبته والتودُّد إليه بطاعته من حيث لا يعلمون . ونحن نذكر من ذلك أمثلة تحتذي عليها :

فمنها : أنهم يقررون في نفوس الضعفاء أن الله سبحانه لا تنفع معه طاعة ، وإنْ طال زمانها وبالغ العبدُ وأتى بها بظاهره وباطنه . وأن العبد ليس على ثقة ولا أمن من مكره ، بل شأنه سبحانه أن يأخذ المطيع المتَّقي من المحراب إلى المأخور[1]، ومن التوحيد والمسبحة إلى الشرك والمزمار . ويقلب قلبه من الإيمان الخالص إلى الكفر . ويَرْوون في ذلك آثاراً صحيحة لم يفهموها ، وباطلة لم يقلها المعصوم ، ويزعمون أن هذا حقيقة التوحيد ، ويتلون على ذلك قوله تعالى : ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء : ٢٣] وقوله : ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف : ٩٩]، وقوله : ﴿وَٱعْلَمُوْا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ [الأنفال : ٢٤] ، ويقيمون إبليس حجة لهم على هذه المعرفة وأنه كان طاووس الملائكة ، وأنه لم يترك في السماء رقعة ، ولا

(١) قال في « اللسان » : هو بيت الريبة ومجمع أهل الفسق والفساد وبيوت الخمّارين وهو تعريب مَيْخُورْ .

في الأرض بقعة إلاَّ وله فيها سَجدة أو ركعة ، لكن جَنَى عليه جاني القدر ، وسَطا عليه الحكم ، فقلَبَ عينه الطيبة ، وجعلها أخبث شيء ، حتى قال بعض عارفيهم : إنك ينبغي أن تخاف الله كما تخاف الأسد الذي يَثِب عليك بغير جُرْمٍ منك ولا ذنب أتيته إليه . ويحتجون بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « إنَّ أَحَدُكُم لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إلا ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلَهَا »[1] .

ويروون عن بعض السلف : أكبرُ الكبائر الأمنُ من مَكْرِ الله والقنوطُ من رحمة الله .

وذكر الإمام أحمد عن عون بن عبد الله[2] أو غيره أنه سمع رجلاً

---

(١) قطعة من حديث رواه البخاري ٦/ ٢٢٠ في بدء الخلق : باب ذكر الملائكة و٦/ ٢٦٢ في الأنبياء : باب خلق آدم وذريته و ١١/ ٤١٦ ـ ٤٢٦ في القدر : في فاتحته : و ١٣/ ٣٧٠ في التوحيد: باب قوله تعالى: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين﴾، ومسلم رقم (٢٦٤٣) في القدر : باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه، وأبو داود رقم (٤٧٠٨) في السنة : باب في القدر ، والترمذي رقم (٢١٣٨) في القدر : باب ما جاء أن الأعمال بالخواتيم ، وابن ماجه رقم (٧٦) في المقدمة : باب في القدر ، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، ولفظه : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق ، قال : « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك ، فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه وأجله وعمله ، وشقي أو سعيد ، فوالله الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينهما إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها ». انظر شرح الحديث في كتاب « جامع العلوم والحكم » للحافظ ابن رجب الحنبلي ص ٤١ ـ ٥١ .

(٢) هو عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، أبو عبد الله الهزلي ، قال يحيى بن معين وغيره : هو ثقة روى له مسلم ـ توفي سنة بضع عشرة ومئة .

يدعو : اللهم لا تؤمني مكرك ، فأنكر ذلك وقال : قل اللهم لا تجعلني ممن يأمن مكرك . وَبَنَوْا هذا على أصلهم الباطل وهو إنكار الحكمة والتعليل والأسباب ، وأن الله لا يفعل لحكمة ولا بسبب وإنما يفعل بمشيئة مجرَّدة من الحكمة والتعليل والسبب ، فلا يفعل لشيء ولا بشيء ، وأنه يجوز عليه أن يعذِّب أهل طاعته أشد العذاب ، وينعِّم أعداءَه وأهل معصيته بجزيل الثواب ، وأن الأمرين بالنسبة إليه سواء ،ولا يُعْلَم امتناع ذلك إلا بخبر من الصادق أنه لا يفعله . فحينئذٍ يعلم امتناعه لوقوع الخبر بأنه لا يكون ، لا لأنه في نفسه باطل وظلم ، فإن الظلم في نفسه مستحيل ، فإنه غير ممكن . بل هو بمنزلة جَعْل الجسم الواحد في مكانين في آن واحد . والجمع بين الليل والنهار في ساعة واحدة . وجعل الشيء موجوداً ومعدوماً معاً في آن واحد . فهذا حقيقة الظلم عندهم . فإذا رجع العالم إلى نفسه قال : مَن لا يستقر له أمر ، ولا يؤمَن له مكر ، كيف يوثق بالتقرُّب إليه ؟ وكيف يُعَوَّل على طاعته واتِّباع أوامره ، وليس لنا سوى هذه المدة اليسيرة؟ فإذا هجرنا فيها اللذات وتركنا الشهوات وتكلَّفنا أثقال العبادات ، وكنا مع ذلك على غير ثقة منه أن يقلب علينا الإيمان كفراً ، والتوحيد شِركاً ، والطاعة معصية ، والبر فجوراً ، ويديم علينا العقوبات ، كنا خاسرين في الدنيا والآخرة .

فإذا استحكم هذا الاعتقاد في قلوبهم ، وتخمَّر في نفوسهم ، صاروا إذا أمروا بالطاعات وهجر اللذات بمنزلة إنسان جعل يقول لولده : معلِّمُك إن كتبت وأحسنت وتأدبت ولم تعْصِه ربما أقام لك حجة وعاقبك ، وإن كسِلْتَ وبَطلْتَ وتعطَّلْتَ وتركت ما أمرك به ربما قرّبك وأكرمك ، فيُودِع بهذا القول قلبَ الصبي ما لا يثقُ بعْدَه إلى وعيد المعلم على الإساءة ، ولا وعدِه على الإحسان . وإن كبر الصبي وصلح

للمعاملات والمناصب قال له : هذا سلطان بلدنا يأخذ اللص من الحبس فيجعله وزيراً أميراً ، ويأخذ الكيِّس المحسن لشُغْله فيخلِّده في الحبس ويقتله ويصلبه . فإذا قال له ذلك أوحشه من سلطانه ، وجعله على غير ثقة من وعده ووعيده ، وأزال محبته من قلبه ، وجعله يخافه مخافة الظالم الذي يأخذ المحسن بالعقوبة ، والبريء بالعذاب ، فأفلس هذا المسكين من اعتقاد كون الأعمال نافعة أو ضارة ، فلا بفعل الخير يستأنس ، ولا بفعل الشر يستوحش ، وهل في التنفير عن الله وتبغيضه إلى عباده أكثر من هذا ؟ ولو اجتهد الملاحدة على تبغيض الدين والتنفير عن الله لما أتوا بأكثر من هذا .

وصاحب هذه الطريقة يظن أنه يقرر التوحيد والقدر ، ويرد على أهل البدع وينصر الدين ، ولعمر الله العدو العاقل أقل ضرراً من الصديق الجاهل . وكُتب الله المنزلة كلها ورُسله كلُّهم شاهدة بضدّ ذلك ولا سيما القرآن . فلو سلك الدعاة المسلك الذي دعا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم به الناس إليه لصَلُحَ العالم صلاحاً لا فساد معه ، فالله سبحانه أخبر وهو الصادق الوفي : أنه إنما يعامل الناس بكسبهم ويجازيهم بأعمالهم ولا يخاف المحسنُ لديه ظلماً ولا هضماً[1] ، ولا يخاف بخساً ولا رَهقاً[2] ، ولا يضيع عمل محسن أبداً ،[3] ولا يضيع على العبد مثقال ذرّة ، ولا يظلمها ﴿ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [النساء :

---

(١) قال تعالى ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً ﴾ . [طه : ١١٢] .

(٢) قال تعالى : ﴿ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلاَ يَخَافُ بَخْساً وَلاَ رَهَقاً ﴾ [الجن : ١٣] .

(٣) قال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِيْنَ ﴾ [التوبة : ١٢٠] .

٤٠] ، وإنْ كان مثقال حبة من خردل جازاه بها ولا يضيعها عليه[١] . وأنه يجزي بالسيئة مِثلَها[٢] ويحبطها بالتوبة والندم والاستغفار والحسنات والمصائب ، ويجزي بالحسنة عشرَ أمثالها ويضاعفها الى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة[٣] .

وهو الذي أصلح الفاسدين وأقبل بقلوب المعرضين وتاب على المذنبين ، وهَدى الضالّين وأنقذَ الهالكين ، وعلَّمَ الجاهلين ، وبصَّر المتحيرين ، وذكَّر الغافلين ، وآوى الشاردين . وإذا أوقع عقاباً أوقعه بعد شدة التمرُّد والعتوِّ عليه ، ودعوة العبد إلى الرجوع إليه والاقرار بربوبيته وحقه مرة بعد مرة ، حتى إذا أيس من استجابته ، والاقرار بربوبيته ووحدانيته ، أخذَه ببعض كفرِه وعتوِّه وتمرُّده ، بحيث يَعذِرُ العبدُ من نفسِه ، ويعترف بأنه سبحانه لم يظلمه ، وأنه هو الظالم لنفسه ، كما قال تعالى عن أهل النار : ﴿ فَٱعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ ، فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك : ١١] ، وقال عمن أهلكهم في الدنيا إنهم لما رأوا آياته ، وأحسوا بعذابه قالوا : ﴿ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ

---

(١) قال تعالى ﴿ وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِيْنَ ﴾ [الأنبياء : ٤٧] .

(٢) قال تعالى ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ [الشورى : ٤٠] .

(٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى : « ان الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك ، فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله عز وجل عنده عشر حسنات إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة . . . . » الحديث رواه البخاري ١١ / ٢٧٧ في الرقاق : باب من هم أو سيئة ، ومسلم رقم (١٣١) في الإيمان : باب : إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب ، وأحمد في « المسند » ١ / ٢٧٩ و ٣١٠ و ٣٦١ .

حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٤ ـ ١٥] ، وقال أصحاب الجنة التي أفسدها عليهم لما رأوها : ﴿ قَالوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ [القلم : ٢٩] ، وقال الحسن : لقد دخلوا النار وإنَّ حَمْدَهُ لفي قلوبهم ما وجدوا عليه حُجّةً ولا سبيلاً .

ولهذا قال تعالى : ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ، وَٱلْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام : ٤٥] . فهذه الجملة في موضع الحال أي قطع دابرهم حال كونه سبحانه محموداً على ذلك ، فقطع دابرهم قطعاً مصاحباً لحمده ، فهو قطع وإهلاك يحمد عليه الرب تعالى لكمال حكمته وعدله ووضعه العقوبة في موضعها الذي لا يليق به غيرها . فوضَعها في الموضع الذي يقول مَنْ عَلِمَ الحال : لا تليق العقوبة إلا بهذا المحل ، ولا يليق به إلا العقوبة .

ولهذا قال عقيب إخباره عن الحكم بين عباده ، ومصير أهل السعادة إلى الجنَّة، وأهل الشقاء إلى النار : ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ للهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ [الرمز : ٧٥] ، فحَذفَ فاعِلَ القول إشعاراً بالعموم وأن الكون كله قال : ﴿ الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ ﴾ لما شاهدوا من حكمة الحق وعدله وفضله . ولهذا قال في حق أهل النار : ﴿ قِيلَ ٱدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾ [الرمز : ٧٢] ، كأن الكون كله يقول ذلك حتى تقولُه أعضاؤ هم وأرواحُهم وأرضُهم وسماؤ هم ، وهو سبحانه يخبر أنه إذا أهلك أعداءَه أنجى أولياءَه ولا يعُمُّهم بالهلاك بمحض المشيئة .

ولما سأله نوح نجاة ابنه أُخبر أنه يغرقه بسوء عمله وكفره[1]، ولم يقل

(١) قال تعالى :﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ : رَبِّ إِنَّ آبْنِي مِنْ أَهْلِي ، وَإِنَّ وَعْدَكَ الحَقُّ ، وَأَنْتَ =

إني أغرقه بمحض مشيئتي وإرادتي بلا سبب ولا ذنب . وقد ضمن سبحانه زيادة الهداية للمجاهدين في سبيله[1] ولم يخبر أنه يضلهم ويبطل سعيهم .

وكذلك ضَمِنَ زيادة الهداية للمتقين الذين يتبعون رضوانه[2]، وأخبر أنه لا يضلّ إلا الفاسقين الذين ينقضون عهده من بعد ميثاقه[3]، وأنه إنما يضلّ مَن آثر الضلال واختاره على الهُدى ، فيطبَع حينئذٍ على سمعه وقلبه[4]، وأنه يقلب قلب مَن لم يرضَ بهُداه إذا جاءه ولم يؤمن به، ودَفعه وردَّه، فيقلب فؤاده وبصره عقوبة له على ردِّه ودفعِه لمّا تحققه وعرفه[5]، وأنه سبحانه لو علم في تلك المحَال التي حَكَمَ عليها بالضلال والشقاء خيراً لأفهمها وهداها ، ولكنها لا تصلح لنعمته ولا تليق بها كرامتُه[6] .

= أَحْكَمُ الحَاْكِمِيْنَ * قَاْلَ : يَاْ نُوْحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَاْلِحٍ . . . ﴾ [هود : ٤٥ ـ ٤٦] .

(١) قال تعالى ﴿ وَالَّذِيْنَ جَاهَدُوْا فِيْنَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاْ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِيْنَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

(٢) قال تعالى ﴿ يَهْدِيْ بِهِ اللَّهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَاْنَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوْرِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة : ١٦] .

(٣) قال تعالى ﴿ وَمَاْ يُضِلُّ بِهِ إِلَّاْ الْفَاْسِقِيْنَ * الَّذِيْنَ يَنْقُضُوْنَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيْثَاْقِهِ . . . ﴾ [البقرة : ٢٦ ٢٧] .

(٤) قال تعالى ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ ، إِلَّاْ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيْمَاْنِ ، وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَاْبٌ عَظِيمٌ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الحَيَاْةَ الدُّنْيَاْ عَلَى الآخِرَةِ ، وَأَنَّ اللَّه لَاْ يَهْدِيْ القَوْمَ الكَافِرِيْنَ * أُولئِكَ الَّذِيْنَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ، وَأُولئِكَ هُمُ الغَاْفِلُوْنَ ﴾ [النحل : ١٠٦ ـ ١٠٨] .

(٥) قال تعالى ﴿ وَأَقْسَمُوْا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَاْنِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَاْ قُلْ : إِنَّمَا الآيَاْتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَاْ يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَاْ إِذَا جَاْءَتْ لَاْ يُؤْمِنُونَ * وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَاْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِيْ طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُوْنَ ﴾ [الأنعام : ١٠٩ ـ ١١٠] .

(٦) قال تعالى ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ ، وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُوْنَ ﴾ [الأنفال : ٢٣] .

وقد أزاح سبحانه العِلَل ، وأقام الحجَج ، ومكّن من أسباب الهداية ، وأنه لا يُضِلُّ إلا الفاسقين والظالمين ، ولا يطبع إلا على قلوب المعتدين[١] ، ولا يُرْكِس[٢] في الفتنة إلا المنافقين بكسبهم[٣] ، وأن الرين الذي غطى به قلوب الكفار هو عين كسبهم وأعمالهم كما قال : ﴿ كلا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المصطفين : ١٤] ، وقال عن أعدائه من اليهود : ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ [النساء : ١٥٥] وأخبر أنه لا يضلّ مَن هداه حتى يبين له ما يتقي ، فيختار لشقوته وسوء طبيعته الضلال على الهدى والغيّ على الرشاد ، ويكون مع نفسه وشيطانه وعدوّ ربِّه عليه .

وأما المكر الذي وصف به نفسه ، فهو مجازاته للماكرين بأوليائه ورسُله ، فيقابل مكرهم السيىء بمكره الحسن ، فيكون المكر منهم أقبح شيء ، ومنه أحسن شيء لأنه عدل ومجازاة . وكذلك المخادعة منه جزاء على مخادعة رسله وأوليائه ، فلا أحسن من تلك المخادعة والمكر .

وأما كون « الرجل يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجنَّةِ حَتَّىٰ مَا يَكُوْنُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبُقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ »[٤] ، فإن هذا عمل أهل الجنة فيما يظهر للناس ، ولو كان عملاً صالحاً مقبولاً للجنة قد أحبه اللّه ورضيه لم يبطله عليه .

وقوله « لَمْ يَبْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ » يُشْكل على هذا التأويل ، فيقال : لما كان العمل بآخره وخاتمته لم يصبر هذا العامل على

---

(١) قال تعالى ﴿ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِيْنَ ﴾ [يونس : ٧٤] .

(٢) أركَسَهم : ردهم .

(٣) قال تعالى ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِيْنَ فِئَتَيْنَ واللّهُ أَرْكَسَهُمْ . . . ﴾ [النساء : ٨٨] .

(٤) تقدم تخريجه ص (٢٨٤) .

عمله حتى يتم له ، بل كان فيه آفة كامنة ، ونكتة خُذل بها في آخر عمره ، فخانته تلك الآفة والداهية الباطنة في وقت الحاجة ، فرجع إلى موجبها وعمِلَتْ عَمَلَهَا ، ولو لم يكن هناك غش وآفة لم يقلب اللّه إيمانه ، لقد أورده مع صدقه فيه وإخلاصه بغير سبب منه يقتضي إفساده عليه ، واللّه يعلم من سائر العباد ما لا يعلمه بعضهم من بعض .

وأما شأن إبليس : فإن اللّه سبحانه قال للملائكة : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٣٠] ، فالرب تعالى كان يعلم ما في قلب إبليس من الكفر والكبر والحسد ما لا يعلمه الملائكة ، فلما أُمروا بالسجود ، ظهر ما في قلوبهم من الطاعة والمحبة والخشية والانقيـاد ، فبادروا إلى الامتثال ، وظهر ما في عدوِّه من الكبر والغش والحسد ، فأبى واستكبر ، وكان من الكافرين .

وأما خوف أوليائه من مكره فحقٌّ ، فإنهم يخافون أن يخذلهم بذنوبهم وخطاياهم فيصيرون إلى الشقاء ، فخوفهم من ذنوبهم ورجاؤهم لرحمته ، وقوله : ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللّهِ ﴾ [الأعراف : ٩٩] إنما هو في حق الفجّار والكفار .

ومعنى الآية : فلا يعصي ويأمنُ مقابلةَ اللّه له على مكر السيئات بمكره به إلا القوم الخاسرون . والذي يخافه العارفون باللّه من مكره أن يؤخر عنهم عذاب الأفعال فيحْصُلَ منهم نوع اغترار ، فيأنسوا بالذنوب ، فيجيئهم العذاب على غرَّة وفترة .

وأمرٌ آخَرُ : وهو أن يغفلُوا عنه وينسَوْا ذكره فيتخلى عنهم إذا تخلَّوْا عن ذكره وطاعتـه ، فيسرع إليهم البلاء والفتنة فيكون مكره بهم تخلِّيه عنهم .

وأمرٌ آخر : أن يعلم من ذنوبهم وعيوبهم ما لا يعلمونه من نفوسهم ، فيأتيهم المكر من حيث لا يشعرون .

وأمرٌ آخر : أن يمتحنهم ويبتليهم بما لا صبر لهم عليه ، فيفتنون به ، وذلك مكر[1] .

* * *

٩٢ ـ فصل

* السَّنَةُ شجرة ، والشهور فروعها ، والأيام أغصانها ، والساعات أوراقها ، والأنفاس ثمرها . فمن كانت أنفاسه في طاعة ، فثمرة شجرته طيبة ، ومن كانت في معصية فثمرته حنظل . وإنما يكون الجذاذ يوم المعاد ، فعند الجذاذ يتبين حلو الثمار من مُرِّها .

* والإخلاص والتوحيد شجرة في القلب ، فروعها الأعمال ، وثمرها طيّب الحياة في الدنيا والنعيم المقيم في الآخرة . وكما أن ثمار الجنة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، فثمرة التوحيد والإخلاص في الدنيا كذلك .

* والشركُ والكذب والرياء شجرة في القلب ، ثمرها في الدنيا الخوف والهمّ والغمّ وضيق الصدر وظلمة القلب ، وثمرها في الآخرة الزقُّوم والعذاب المقيم وقد ذكر اللّٰه هاتين الشجرتين في سورة

---

(١) انظر تفصيل ما ذكر في هذا الفصل في كتاب « شفاء العليل في بيان مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل » للمؤلف رحمه الله تعالى .

إبراهيم[1] .

* * *

٩٣ ـ فصل

إذا بلغَ العبد أُعطِيَ عهدَه الذي عهده إليه خالقُهُ ومالكُهُ ، فإذا أخذ عهده بقوَّةٍ وقبولٍ ، وعزمٍ على تنفيذ ما فيه ، صَلُحَ للمراتب والمناصب التي يصلح لها الموفون بعهودهم ، فإذا هزَّ نفسه عند أخذ العهد ، وانتخاها وقال : قد أُهِّلْتُ لعهد ربي ، فمن أولى بقبوله وفهمه وتنفيذه مني ؟ فحرص أولاً على فهم عهده وتدبره وتعرفه وصايا سيده له ، ثم وطَّن نفسه على امتثال ما في عهده ، والعمل به ، وتنفيذه حسبما تضمنه عهده ، فأبصر بقلبه حقيقة العهد وما تضمنه ، فاستحدث همّة أخرى ، وعزيمة غير العزيمة التي كان فيها وقت الصبا ، قبل وصول العهد ، فاستقال من ظلمة غرَّة الصبا والانقياد للعادة والمنشأ ، وصبر على شرف الهمة وهَتَكَ سِتْر الظلمة إلى نور اليقين ، فأدرك بقدر صبره وصدق اجتهاده ما وهبه اللّه له من فضله .

فأوَّلُ مراتب سعادته أن تكون له أُذن واعية ، وقلب يعقل ما تعيه الأذن . فإذا سمعَ وَعَقلَ ، واستبانت له الجادة ، ورأى عليها تلك الأعلام ، ورأى أكثر الناس منحرفين عنها يميناً وشمالاً فلزمها ، ولم ينحرف مع المنحرفين الذين كان سبب انحرافهم عدَمَ قبول العهد ، أو قبلوه بكُرْهٍ ،

---

(١) قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ [إبراهيم ٢٤ ـ ٢٦] .

ولم يأخذوه بقوة ولا عزيمة ، ولا حدَّثُوا أنفسهم بفهمه وتدبره ، والعمل بما فيه ، وتنفيذ وصاياه ، بل عرض عليهم العهد ومعهم ضراوة الصبا ودين العادة ، وما ألفوا عليه الآباء والأمهات ، فتلقوا العهد تَلَقِّي مَن هو مُكْتَفٍ بما وَجَدَ عليه آباءه وسلفه ، وعادَتَهُم لا تكفي من يجمع همه وقلبه على فهم العهد والعمل به ، حتى كأن ذلك العهد أتاه وحده ، وقيل له : تأمَّلْ ما فيه ثم اعملْ بموجبه ، فإذا لم يتلقَّ عهده هذا التلقي أخلد إلى سيرة القرابة ، وما استمرَّت عليه عادة أهله وأصحابه وجيرانه وأهل بلده ، فإنْ عَـلَتْ هِمَّتُهُ أخلد إلى ما عليه سلفه ومَن تقدَّمه مِن غير التفات إلى تدبر العهد وفهمه ، فرضي لنفسه أن يكون دينُهُ دين العادة ، فإذا شَأْمَه الشيطان ورأى هذا مبلغ همته وعزيمته ، رماه بالعصبية والحمية للآباء وسلفه ، وزيَّن له أن هذا هو الحق وما خالفه باطل ، ومثَّل له الهدى في صورة الضلال ، والضلال في صورة الهدى ، بتلك العصبية والحمِيَّة التي أسست على غير علم ، فرضاه أن يكون مع عشيرته وقومه ، له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، فخُذِل عن الهدى وولّاه اللّـهُ ما تولى ، فلو جاءه كل هدى يخالف قومه وعشيرته لم يرَه إلا ضلالة .

وإذا كانت همتهُ أعلى من ذلك ونفسه أشرف وقدره أعلى ، أقبل على حفظ عهده وفهمه وتدبره ، وعلم أن لصاحب العهد شأناً ليس كشأن غيره ، فأخذ نفسه بمعرفته من العهد نفسه ، فوجده قد تعرَّف إليه وعرَّفه نفسَه وصفاتِهِ وأسماءه وأفعاله وأحكامه ، فعرف من ذلك العهد قيُّوماً بنفسه ، مقيمًا لغيره ، غنياً عن كل ما سواه ، وكلُّ ما سواه فقير إليه ، مُستَوٍ على عرشه فوق جميع خلقه ، يرى ويسمع ، ويرضى ويغضب ، ويحب ويبغض ، ويدبر أمر مملكته ، وهو فوق عرشه متكلمٌ ، آمرٌ ناهٍ ، يرسل رُسُله إلى أقطار مملكته بكلامه الذي يسمعه مَن يشاء مِن خلقه ، وأنه

قائم بالقسط ، مُجازٍ بالإحسان والإساءة ، وأنه حليم غفور ، شكور جواد محسن ، موصوف بكل كمال ، منزَّه عن كل عيب ونقص ، وأنه لا مثل له .

ويشهد حكمته في تدبير مملكته ، وكيف يقدِّر مقاديره بمشيئته ، غير مضادة لعدله وحكمته ، وتظاهر عنده العقلُ والشرع والفطرة ، فصدق كل منهما صاحبيه ، وَفَهِمَ عن اللّه سبحانه ما وصف به نفسه في كتابه من حقائق أسمائه التي بها نزل الكتاب ، وبها نطق ، ولها أثبتَ وحقق ، وبها تعرّف إلى عباده ، حتى أقرّت به العقول ، وشهدت به الفِطَر .

فإذا عرف بقلبه وتيقن صفات صاحب العهد ، أشرقت أنـوارها على قلبه ، فصارت له كالمعاينة ، فرأى حينئذ تعلقها بالخلق والأمر ، وارتباطهما بها ، وسريَان آثارها في العالم الحسي والعالم الروحي ، ورأى تصرُّفها في الخلائق ، كيف عمَّت وخصَّت ، وقرَّبت وأبعدَت ، وأعطت ومنعت ، فشاهد بقلبه مواقع عدله سبحانه وقسـطه وفضله ورحمته ، واجتمع له الإيمان بلزوم حجته ، مع نفوذ أقضيته ، وكمال قدرته ، مع كمال عدله وحكمته ، ونهاية علوِّه على جميع خلقه ، مع إحاطته ومعيَّته ، وعظمته وجلاله ، وكبريائه وبطشه وانتقامه ، مع رحمته وبرِّه ولطفه وجوده وعفوه وحلمه .

ورأى لزوم الحجة مع قهر المقادير التي لا خروج لمخلوق عنها . وكيف اصطحاب الصفات وتوافقها ، وشهادة بعضها لبعض ، وانعطاف الحكمة التي هي نهاية وغاية على المقادير التي هي أول وبداية . ورجوع فروعها إلى أصولها ، ومبادئها إلى غاياتها ، حتى كأنه يشاهد مبادىء

الحكمة ، وتأسيس القضايا على وفْقِ الحكمة والعدل والمصلحة والرحمة والإحسان ، لا تخرج قضية عن ذلك إلى انقضاء الأكوان ، وانفصال الأحكام يومَ الفصلِ بين العباد ، وظهور عدله وحكمته ، وصدق رُسُله وما أخبرت به عنه لجميع الخليقة ، إنْسِها وجِنِّها ، مؤمِنِها وكافرِها .

وحينئذ يتبيَّن من صفاتِ جلاله ونعوت كماله للخلق ما لم يكونوا يعرفونه قبل ذلك ، حتى إنَّ أعْرَفَ خلقِهِ به في الدنيا يثني عليه يومئذٍ من صفات كماله ونعوت جلاله ما لم يكن يحسنه في الدنيا ، وكما يظهر ذلك لخلقه تظهر لهم الأسباب التي بها زاغ الزائغون ، وضَلَّ الضَّالُّون ، وانقطع المنقطعون ، فيكون الفرق بين العلم يومئذٍ بحقائق الأسماء والصفات والعلم بها في الدنيا كالفرق بين العلم بالجنة والنار ومشاهدتهما وأعظم من ذلك .

وكذلك يفهم من العهدِ كيف اقتضت أسماؤه وصفاته لوجود النبوة والشرائع وأن لا يترك خلقه سدى ، وكيف اقتضت ما تضمنته من الأوامر والنواهي ، وكيف اقتضت وقوع الثواب والعقاب والمعاد ، وأن ذلك من موجبات أسمائه وصفاته ، بحيث يُنزَّه عما زعم أعداؤه من إنكار ذلك ، ويرى شمول القدرة ، وإحاطتها بجميع الكائنات ، حتى لا يشذ عنها مثقال ذرّة ، ويرى أنه لو كان معه إلّه آخر لَفَسَدَ هذا العالم ، فكانت تفسد السموات والأرض وَمَن فيهن ، وأنه سبحانه لو جاز عليه النوم أو الموت لتدكدك هذا العالم بأسره ، ولم يثبت طرفة عين . ويرى مع ذلك الإسلام والإيمان اللذين تعبد الله بهما جميع عباده ، كيف انبعاثهما من الصفات المقدسة ، وكيف اقتضيا الثواب والعقاب عاجلاً وآجلاً . ويرى مع ذلك أنه لا يستقيم قبول هذا العهد والتزامه لمن جحد صفاته ، وأنكر علوَّه

على خلقه وتكلمه بكتبه وعهوده ، كما لا يستقيم قبوله لِمَن أنكر حقيقة سمعه وبصره وحياتَه وإرادتَه وقدرتَه ، وأن هؤلاء هم الذين رَدُّوا عهده وأَبَوْا قبوله ، وأنَّ مَن قبِله منهم لم يقبله بجميع ما فيه ، وباللّٰه التوفيق .

* * *

٩٤ ـ فصل

خُلِقَ بدنُ ابنُ آدم من الأرض وروحُهُ من ملكوت السماء ، وقُرِن بينهما . فإذا أجاع بدنه وأسهره وأقامه في الخدمة ، وَجَدَتْ روحُهُ خفةً وراحة ، فتاقت إلى الموضع الذي خُلقت منه ، واشتقات إلى عالمها العلوي . وإذا أشبعه ونعَّمه ونوَّمه واشتغل بخدمته وراحته ، أخلد البدن إلى الموضع الذي خلق منه ، فانجذبت الروح معه ، فصارت في السجن ، فلولا أنها ألفت السجن لاستغاثت من ألم مفارقتها وانقطاعها عن عالمها الذي خلقت منه كما يستغيث المعذَّب .

وبالجملة ، فكلما خفّ البدن لطفت الروح ، وخفّت وطلبت عالمها العلوي . وكلما ثـقـلَ وأخلد إلى الشهوات والراحة ، ثقلت الروح وهبطت من عالمها ، وصارت أرضية سفلية ، فترى الرجل روحه في الرفيق الأعلى وبدنه عندك ، فيكون نائماً على فراشه وروحه عند سدرة المنتهى تجول حول العرش ، وآخرُ واقفٌ في الخدمة ببدنه وروحه في السفل تجول حول السفليات . فإذا فارقت الروح البدن ، التحقت برفيقها الأعلى أو الأدنى ، فعند الرفيق الأعلى كلُّ قرّةِ عين ، وكلُّ نعيم وسرور ، وبهجة ولذة ، وحياة طيبة ، وعند الرفيق الأسفل كلُّ همٍّ وغمٍّ ، وضيق وحزن ، وحياة نكدة ، ومعيشة ضنك ، قال تعالى :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً ﴾ [طه : ١٢٤] . فذكرُه كلامُه الذي أنزله على رسوله ، والإعراض عنه ترك تدبُّره والعمل به . والمعيشة الضنك ، فأكثر ما جاء في التفسير : أنها عذاب القبر، قاله ابن مسعود وأبو هريرة[١] وأبو سعيد الخدري وابن عباس ، وفيه حديث مرفوع[٢] .

---

(١) قد اختلف في اسم أبي هريرة ، ونسبه اختلافاً كثيراً ، وأشهر ما قيل فيه أنه كان في الجاهلية عبد شمس ، أو عبد عمرو ، وفي الإسلام عبد الله او عبد الرحمن ، وهو دوسي .

قال ابن عبد البر : لا يصح في اسمه ونسبه مع الخلاف الكثير الذي فيه شيء ؛ وقال الحاكم أبو أحمد : أصح شيء عندنا في اسم أبي هريرة : عبد الرحمن بن صخر ، وغلبت عليه كنيته ، فهو كمن لا اسم له .

أسلم عام خيبر ، وشهدها مع النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم لزمه ، وواظب عليه راغباً في العلم ، راضياً بشبع بطنه ، وكان يدور معه حيثما دار ، وكان من أحفظ الصحابة ، ويحضر ما لا يحضره أحد منهم لملازمته النبي صلى الله عليه وسلم .

قال البخاري : روى عنه أكثر من ثماني مائة رجل من صحابي وتابعي ، فمنهم ابن عباس ، وابن عمر ، وجابر ، وأنس ، وواثلة بن الأسقع .

مات بالمدينة سنة سبع وخمسين ، وقيل : ثماني وخمسين ، وقيل : تسع وخمسين ، وهو ابن ثمانٍ وسبعين سنة ، وإنما سمي أبا هريرة لأنه كانت له هرة صغيرة يحملها . انظر كتاب « دفاع عن أبي هريرة » للأستاذ عبد المنعم صالح العزي .

(٢) رواه البزار رقم (٢٢٣٣) « الكشف » في التفسير : سورة طه من حديث أبي هريرة : قال في « المجمع » (٧/ ٦٧) : فيه من لم أعرفه يعني أبا حجيرة كما ذكر العلاّمة الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي حفظه الله .

ورواه ابن أبي حاتم من حديث أبي حجيرة عن أبي هريرة، قال الحافظ ابن كثير: رفعه منكر جداً ثم ذكر ما رواه ابن أبي حاتم قال : حدثنا أبو زرعة حدثنا صفوان أنبأنا الوليد ، أنبأنا عبد الله بن لهيعة عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قول الله عز وجل ﴿ فإن له معيشة ضنكاً ﴾ قال : « ضمة القبر له » وهو حديث ضعيف . انظر تفسير الحافظ ابن كثير ٤/ ٥٤٥ قال الحافظ : والموقوف أصح .

وأصل الضنك في اللغة : الضيق والشدة ، وكل ما ضاق فهو ضنك ، يقال : منزل ضنك وعيش ضنك ، فهذه المعيشة الضنك ، في مقابلة التوسيع على النفس والبدن بالشهوات واللذات والراحة . فإن النفس كلما وسعت عليها ضيقت على القلب حتى تصير معيشة ضنكاً ، وكلما ضيقت عليها وسعت على القلب حتى ينشرح وينفسح . فضَنْكُ المعيشة في الدنيا بموجب التقوى سَعَتُها في البرزخ والآخرة ، وسَعَة المعيشة في الدنيا بحكم الهوى ضنكها في البرزخ والآخرة . فآثرْ أحسن المعيشتين وأطيَبَهُما وأدوَمهُما .

فأشْقِ البدنِ بنعيمِ الروح ولا تُشْقِ الروح بنعيم البدن ، فإن نعيمَ الروح وشقاءها أعظم وأدْوَم ، ونعيم البدن وشقاؤه أقصَر وأهوَن ، واللّه المستعان .

* * *

العارف لا يأمر الناس بترك الدنيا فإنهم لا يقدرون على تركها ، ولكن يأمرهم بترك الذنوب مع إقامتهم على دنياهم ، فترك الدنيا فضيلة ، وترك الذنوب فريضة . فكيف يُؤمَر بالفضيلة من لم يُقِم الفريضة ! فإنْ صَعُبَ عليهم ترك الذنوب ، فاجتهدْ أن تحبّب اللّه إليهم بذكر آلائه وإنعامه وإحسانه وصفات كماله ونعوت جلاله ، فإن القلوب مفطورة على محبته . فإذا تعلّقت بحبه هان عليها ترك الذنوب ، والإصرار عليها ، والاستقلال منها . وقد قال يحيى بن معاذ : « طلب العاقل للدنيا خير من ترك الجاهل لها » .

العارف يدعو الناس إلى اللّه من دنياهم ، فتسهل عليهم الإجابة ، والزاهد يدعوهم إلى اللّه بترك الدنيا ، فتشقُّ عليهم الإجابة . فإن الفطام

عن الثدي الذي ما عَقَلَ الإنسان نفسه إلا وهو يرتضع منه شديد ، ولكن تخيَّرْ من المرضعات أزكاهنّ وأفضلهن ، فإن للّبن تأثيراً في طبيعة المرتضع ، ورضاع المرأة الحمقى يعود بحمق الولد . وأنفعُ الرضاعة ما كان من المجاعة ، فإن قويت على مرارة الفطام وإلا فارتضع بقدرٍ ، فإن من البشم[1] ما يقتل .

* * *

٩٥ ـ فصل

* بين رعاية الحقوق مع الضُّرِّ ، ورعايتها مع العافية بونٌ بعيد .

* «إنَّ عَبْدِيْ كُلَّ عَبْدِيْ الَّذِيْ يَذْكُرُنِيْ وَهُوَ مُلَاقٍ قِرْنَه»[2] : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥] .

* ليس العَجَبُ من صحيحٍ فارغٍ واقفٍ مع الخدمة ، إنما العَجَبُ من ضعيفٍ سقيمٍ تعْتَوِرُه الأشغال ، وتختلف عليه الأحوال ، وقلبُه في الخدمة ، غير متخلف بما يقدر عليه.

* * *

---

(١) البشم : التخمة .

(٢) رواه الترمذي رقم (٣٥٧٥) في الدعوات باب : ١١٩ من حديث عَمَارة بن زعكرة وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلاّ من هذا الوجه ، ليس إسناده بالقوي ، ولا نعرف لعمارة بن زعكرة عن النبي صلى الله عليه وسلم إلاّ هذا الحديث الواحد ، ومعنى قوله ملاق قرنه إنما يعني عند القتال ، يعني أن يذكر الله في تلك الساعة. قال الألباني في « ضعيف الجامع » رقم (١٧٥٠) : ضعيف .

٩٦ ـ فصل

معرفة اللّه سبحانه نوعان :

الأول : معرفة إقرار ، وهي التي اشترك فيها الناس ، البرُّ والفاجر ، والمطيع والعاصي .

والثاني : معرفة توجب الحياءَ منه ، والمحبة له ، وتعلُّقَ القلب به ، والشوقَ إلى لقائه ، وخشيتَه ، والإنابة إليه ، والأنس به ، والفرار من الخلق إليه . وهذه هي المعرفة الخاصة الجارية على لسان القوم ، وتفاوتُهم فيها لا يحصيه إلا الذي عرَّفهم بنفسه ، وكشف لقلوبهم من معرفته ما أخفاه عن سواهم ، وكلٌّ أشار إلى هذه المعرفة بحسب مقامه وما كشف له منها . وقد قال أعرف الخلق به : « لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ »[1] ، وأخبر أنه سبحانه يفتح عليه

(١) قطعة من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في آخر وتره : « اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك » رواه أبو داود رقم (١٤٢٧) في الصلاة : باب القنوت في الوتر ، والترمذي رقم (٣٥٦١) في الدعوات : باب في دعاء الوتر ، والنسائي ٣/ ٢٤٨ في الصلاة : باب الدعاء في الوتر ، وابن ماجه رقم (١١٧٩) في إقامة الصلاة : باب ما جاء في القنوت في الوتر ، وأحمد في « المسند » ١/ ٩٦ و١١٨ و١٥٠ ، وإسناده صحيح .

وقطعة من حديث عائشة رضي الله عنها ، قالت : « فقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة من الفراش ، فالتمسته ، فوقعت يدي على بطن قدميه ـ وهو في المسجد ـ وهما منصوبتان ، وهو يقول : « اللهم أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » . رواه مسلم رقم (٤٨٦) في الصلاة : باب ما يقال في الركوع والسجود ، وأبو داود رقم (٨٧٩) والترمذي رقم (٣٤٩١) والنسائي ٢/ ٢٢٢ وابن ماجه رقم (٣٨٤٢) وأحمد في « المسند » ٦/ ٥٨ و٢٠١ .

يوم القيامة من محامده بما لا يحسنه الآن[1].

ولهذه المعرفة بابان واسعان :

الباب الأول : التفكُّر والتأمُّل في آيات القرآن كلها ، والفهم الخاص عن اللَّه ورسوله صلى الله عليه وسلم .

والباب الثاني : التفكر في آياته المشهودة ، وتأمُّل حكمته فيها ، وقدرته ولطفه ، وإحسانه وعدله ، وقيامه بالقسط على خلقه . وجماع ذلك : الفقه في معاني أسمائه الحسنى ، وجلالها وكمالها ، وتفرُّده بذلك ، وتعلُّقِها بالخلق والأمر ، فيكون فقيهاً في أوامره ونواهيه ، فقيهاً في قضائه وقدره ، فقيهاً في أسمائه وصفاته ، فقيهاً في الحكم الديني الشرعي والحكم الكوني القدري ، و ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ ﴾ [الحديد : ٢١] .

* * *

٩٧ ـ فصل

الدراهم أربعة : درهم اكتُسِب بطاعة اللَّه ، وأُخرج في حق اللَّه ، فذاك خير الدراهم ، ودرهم اكتسب بمعصية اللَّه ، وأُخرج في معصية اللَّه ، فذاك شرُّ الدراهم ، ودرهم اكتسب بأذى مسلم ، وأخرج في أذى مسلم فهو كذلك، ودرهم اكتسب بمُباح ، وأُنفق في شهوة مباحة فذاك لا له ولا عليه . هذه أصول الدراهم .

ويتفرَّع عليها دراهم أُخَر : منها درهم اكتسب بحق وأُنفق في

---

(١) قطعة من حديث الشفاعة وقد سلف بتمامه في تعليقنا ص ٢٧٦ .

باطل ، ودرهم اكتسب بباطل وأنفق في حق فإنفاقه كفارته ، ودرهم اكتسب من شبهة فكفارته أن ينفق في طاعة .

وكما يتعلق الثواب والعقاب والمدح والذمُّ بإخراج الدرهم فكذلك يتعلق باكتسابه . وكذلك يسأل عن مستخرجه ومصروفه من أين اكتسبه وفيما أنفقه(1) .

* * *

٩٨ ـ فصل

المواساة للمؤمنين أنواع : مواساة بالمال ، ومواساة بالجاه ، ومواساة بالبدن والخدمة ، ومواساة بالنصيحة والإرشاد ، ومواساة بالدعاء والاستغفار لهم ، ومواساة بالتوجُّع لهم . وعلى قدر الإيمان تكون هذه المواساة . فكلما ضَعُفَ الإيمان ضعفت المواساة ، وكلما قَوِيَ قَوِيَتْ . وكان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أعظم الناس مواساة لأصحابه بذلك كلِّه ، فلأتباعه من المواساة بحسب اتباعهم له .

ودخلوا على بشر الحافي في يوم شديد البرد وقد تجرَّد وهو ينتفض ، فقالوا : ما هذا يا أبا نصر ؟ فقال : ذكرتُ الفقراءَ وبَرْدَهم وليس لي ما أواسيهم ، فأحببت أن أواسيهم في بَرْدِهم .

* * *

---

(1) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس : عن عمره فيما أفناهُ ، وعن شبابه فيما أبلاه ، وماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وماذا عمل فيما علم » رواه الترمذي ٢/ ٦٧ وأبو يعلى في « مسنده » ٢/ ٢٥٤ والطبراني في الكبير ١/ ٤٨/ ١ والصغير رقم ٦٤٨ ، وابن عدي في الكامل من ٩٥/ ١ والخطيب ١٢/ ٤٤٠ وابن عساكر في تاريخ دمشق (١/١٨٢/٥ و ١٢/ ٢٣٩ / ٢ من حديث ابن مسعود وهو حديث صحيح بشواهده . اهـ مختصراً من « الأحاديث الصحيحة » رقم (٩٤٦) للألباني .

٩٩ - فصــل

الجهل بالطريق وآفاتها والمقصودِ يوجب التعب الكثير مع الفائدة القليلة ، فإن صاحبه إما أن يجتهد في نافلةٍ مع إضاعة الفرض ، أو في عملٍ بالجوارح لم يواطئه عمل القلب ، أو عملٍ بالباطن والظاهرُ لم يتقيد بالاقتداء ، أو همَّةٍ إلى عمل لم ترْقَ بصاحبها إلى ملاحظة المقصود ، أو عملٍ لم يحترز من آفاته المفسدة له حال العمل وبعدَه ، أو عملٍ غَفَلَ فيه عن مشاهدة المنّة ، فلم يتجرّد عن مشاركة النفس فيه ، أو عمل لم يشهد تقصيره فيه ، فيقوم بعده في مقام الاعتذار منه ، أو عمل لم يوفِه حقه من النصح والإحسان ، وهو يظن أنه وفّاه ، فهذا كلُّه مما ينقص الثمرة مع كثرة التعب ، واللَّه الموفق .

* * *

١٠٠ - فصــل

إذا عزم العبدُ على السفر إلى اللَّه تعالى وإرادتِه ، عَرَضَتْ له الخوادع والقواطع ، فينخدع أولاً بالشهوات والرئاسات ، والملاذ والمناكح والملابس ، فإنْ وقف معها انقطع ، وإنْ رفضها ولم يقف معها وصدق في طلبه ابتُلِيَ بوطء عقبه[١] ، وتقبيل يده ، والتوسعةِ له في المجلس ، والإشارةِ إليه بالدعاء ، ورجاء بركته ، ونحوِ ذلك . فإن وقف معه انقطع به عن اللَّه وكان حظَّه منه ، وإن قطعه ولم يقف معه ابتلي بالكرامات والكشوفات ، فإن وقف معها انقطع بها عن اللَّه وكانت حظَّه ،

---

(١) أي بكثرة الأتباع .

وإن لم يقف معها ابتليَ بالتجريد والتخلي ولذة الجمعية وعزّة الوحدة والفراغ من الدنيا . فإن وقف مع ذلك انقطع به عن المقصود ، وإن لم يقف معه ، وسار ناظراً إلى مراد اللَّه منه ، وما يحبه منه ، بحيث يكون عبده الموقوف على محابِّه ومَراضيه أين كانت وكيف كانت ، تعب بها أو استراح تنعَّم أو تألَّم ، أخرجَتْهُ إلى الناس أو عزلته عنهم ، لا يختار لنفسه غير ما يختاره له وليّه وسيّده ، واقف مع أمره ينفذه بحسب الإمكان ، ونفسُه عنده أهون عليه أن يقدم راحتها ولذتها على مرضاة سيده وأمره . فهذا هو العبد الذي قد وصل ، ونفذ ولم يقطعه عن سيده شيء البتة ، وباللَّه التوفيق .

* * *

١٠١ - فصل

النِّعَم ثلاثة : نعمةٌ حاصلة يعلم بها العبد ، ونعمة منتظَرَة يرجوها ، ونعمة هو فيها لا يشعر بها ، فإذا أراد اللَّه إتمام نعمته على عبده عرَّفه نعمته الحاضرة وأعطاه من شكره قيداً يقيّدها به حتى لا تشرد ، فإنها تشرد بالمعصية ، وتقيَّد بالشكر . ووفقه لعمل يستجلب به النعمة المنتظرة ، وبصَّره بالطرق التي تسدّها وتقطع طريقها ، ووفقه لاجتنابها . وإذا بها قد وافت إليه على أتمِّ الوجوه ، وعَرَّفه النعَم التي هو فيها ولا يشعر بها .

ويُحكى أن أعرابياً دخل على الرشيد[1] ، فقال : أمير المؤمنين

---

(١) هو هارون بن محمد بن المنصور العباسي ، خامس خلفاء الدولة العباسية وأشهرهم ، مولده سنة ١٤٩ بالري ، بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه الهادي سنة ١٧٠ هـ ، وازدهرت الدولة الإسلامية في أيامه . كان عالماً بالأدب وأخبار العرب والحديث والفقه ، =

ثَبّتَ اللَّهُ عليك النعم التي أنت فيها بإدامة شكرها ، وحَقَّق لك النعم التي ترجوها بحسن الظنِّ به ودوام طاعته ، وعَرَّفك النعم التي أنت فيها ولا تعرفها لتشكرها . فأعجبه ذلك منه وقال : ما أحسن تقسيمه .

* * *

١٠٢ ـ قاعدة جليلة

مبدأ كل علم نظري وعمل اختياري هو الخواطر والأفكار ، فإنها توجب التصوُّرات ، والتصوُّرات تدعو إلى الإرادات ، والإرادات تقتضي وقوع الفعل ، وكثرةُ تكراره تعطي العادة . فصلاحُ هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار ، وفسادُها بفسادها . فصلاح الخواطر بأن تكون مراقبة لوليِّها وإلهها صاعدة إليه ، دائرةً على مرضاته ومَحابِّه ، فإنه سبحانه به كلُّ صلاح ، ومن عندِه كل هدى ، ومن توفيقه كل رشد ، ومن تولِّيه العبده كل حفظ ، ومن تولِّيه وإعراضه عنه كل ضلال وشقاء . فيظفر العبد بكل خير وهدى ورشد ، بقدر إثبات عين فكرته في آلائه ونِعَمه وتوحيده ، وطرق معرفته ، وطرق عبوديته ، وإنزاله إياه حاضراً معه ، مشاهداً له ، ناظراً إليه ، رقيباً عليه ، مُطَّلعاً على خواطره وإرادته وهمِّه . فحينئذٍ يستحيي منه ، ويجلُّه أن يُطْلِعَه منه على عورة يكره أن يَطّلِعَ عليها مخلوق مثله ، أو يرى في نفسه خاطراً يمقته عليه .

فمتى أنزل ربَّه هذه المنزلة منه رفعه وقرَّبه منه ، وأكرمه واجتباه

فصيحاً ، شجاعاً كثير الغزوات ، حازماً كريماً متواضعاً ، يحج سنة ويغزو سنة ، وكان يطوف أكثر الليالي متنكراً . وهو صاحب وقعة البرامكة . ولايته ٢٣ سنة وشهران وأيام . توفي سنة ١٩٣ هـ في « سناباذ » من قرى طوس ! وبها قبره .

ووالاه ، وبقدر ذلك يَبْعُدُ عن الأوساخ والدناءات والخواطر الرديئة والأفكار الدنيئة . كما أنه كلما بَعُدَ منه وأعرض عنه قَرُبَ من الأوساخ والدناءات والأقذار ، ويُقطع عن جميع الكمالات ويتصل بجميع النقائص .

فالإنسان خيرُ المخلوقات ، إذا تقرَّب من بارئه ، والتزم أوامره ونواهيه ، وعمل بمرضاته ، وآثرَه على هواه . وشرُّ المخلوقات إذا تباعد عنه ولم يتحرك قلبه لقربه وطاعته وابتغاء مرضاته . فمتى اختار التقرُّب إليه ، وآثره على نفسه وهواه ، فقد حَكَّمَ قلبَه وعقله وإيمانه على نفسه وشيطانه ، وحَكَّمَ رشدَه على غيِّه، وهُداه على هَواه . ومتى اختار التباعد منه فقد حَكَّمَ نفسه وهواه وشيطانه على عقله وقلبه ورشده .

واعلم أن الخطرات والوساوس تؤدِّي متعلقاتها إلى الفكر ، فيأخذها الفكر فيؤدِّيها إلى التذكر . فيأخذها الذكر فيؤدِّيها إلى الإرادة ، فتأخذها الإرادة فتؤدِّيها إلى الجوارح والعمل ، فتستحكم فتصير عادة ، فرَدُّها من مبادئها أسهل من قطعها بعد قوَّتها وتمامها .

ومعلوم أنه لم يُعْطَ الإنسانُ إماتةَ الخواطر ، ولا القوة على قطعها ، فإنها تهجم عليه هجوم النَّفَس ، إلَّا أن قوة الإيمان والعقل تعينه على قبول أحسنها ، ورضاه به ، ومساكنته له ، وعلى دفع أقبحها، وكراهته له ، ونَفْرَتِهِ منه كما قال الصحابة : « يا رسول اللّه ، إن أحدنا يجد في نفسه ما لأنْ يحترقَ حتى يصير حُمَمَة[1] أَحَبُّ إليه من أن يتكلم به ،

---

(١) الحممة : الفحمة ، وجمعها حمم .

فـقـال : أَوَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ ؟ قالوا : نعم ، قال : ذَاكَ صَرِيحُ الإِيْمَانِ »[1] .

وفي لفظ : « الحَمْدُ للَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَىٰ الوَسْوَسَةِ» .

وفيه قولان :

أحدهما : أن رَدَّه وكراهته صريح الإيمان .

والثاني : أن وجوده وإلقاء الشيطان له في النفس صريح الإيمان ، فإنه إنما ألقاه في النفس طلباً لمعرضة الإيمان وإزالته به .

وقد خلق اللَّه سبحانه النفس شبيهة بالرحى الدائرة التي لا تسكن ولا بُدَّ لها من شيء تطحنه ، فإنْ وُضع فيها حَب طحنته ، وإنْ وُضع فيها تراب أو حصى طحنته . فالأفكار والخواطر التي تجول في النفس هي بمنزلة الحَبّ الذي يوضع في الرحى ، ولا تبقى تلك الرحى معطلة قطّ ، بل لا بد لها من شيء يوضع فيها ، فمن الناس مَن تطحن رحاه حَبّاً يخرج دقيقاً ينفع به نفسه وغيره ، وأكثرهم يطحن رملاً وحصىً وتبناً ونحو ذلك ، فإذا جاء وقت العجن والخَبز تبينً له حقيقة طحينه .

* * *

---

(١) رواه مسلم رقم (١٣٢) في الإيمان : باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها ، وأبو داود رقم (٥١١١) في الأدب : باب الوسوسة ، وأحمد في « المسند » ٢/ ٤٤١ ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

والرواية الثانية رواها أبو داود رقم (٥١١٢) في الأدب : باب الوسوسة ، و حمد في « المسند » ١/ ٢٣٥ من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

١٠٣ - فصل

فإذا دفعت الخاطر الوارد عليك اندفع عنك ما بعده ، وإنْ قبلته صار فكراً جوالاً ، فاستخدم الإرادة فتساعد هي والفكر على استخدام الجوارح ، فإنْ تعذّر استخدامها رَجَعا إلى القلب بالتمني والشهوة ، وتوجهه إلى جهة المراد . ومن المعلوم أن إصلاح الخواطر أسهل من إصلاح الأفكار ، وإصلاح الأفكار أسهل من إصلاح الإرادات ، وإصلاح الإرادات أسهل من تدارك فساد العمل ، وتداركه أسهل من قطع العوائد . فأنفع الدواء أن تشغل نفسك بالفكر فيما يعنيك دون ما لا يعنيك ، فالفكر فيما لا يعني باب كل شر ، ومَن فكَّرَ فيما لا يعنيه ، فاته ما يعنيه ، واشتغل عن أنفع الأشياء له بما لا منفعة له فيه ، فالفكر والخواطر ، والإرادة والهمَّة أحق شيء بإصلاحه من نفسك ، فإن هذه خاصتك وحقيقتك التي تبتعد بها أو تقرب من إلهك ومعبودك الذي لا سعادة لك إلا في قربه ورضاه عنك ، وكلُّ الشقاء في بُعدك عنه وسخطه عليك ، ومَن كان في خواطره ومجالات فكره دنيئاً خسيساً لم يكن في سائر أمره إلا كذلك .

وإياك أن تمكِّن الشيطان من بيت أفكارك وإرادتك ، فإنه يفسدها عليك فساداً يصعب تداركه ، ويلقي إليك أنواع الوساوس والأفكار المضرّة ، ويحول بينك وبين الفكر فيما ينفعك ، وأنت الذي أعَنْتَه على نفسك ، بتمكينه من قلبك وخواطرك فملَّكَهَا عليك . فمثالك معه مثال صاحب رحى يطحن فيها جيّد الحبوب ، فأتاه شخص معه حِمْل تراب وبعر وفحم وغثاء ليطحنه في طاحونه ، فإنْ طرده ولم يمكنه من إلقاء

ما معه في الطاحون استمرّ على طحن ما ينفعه، وإنْ مَكَّنه من إلقاء ذلك في الطاحون أفسد ما فيها من الحَبّ وخرج الطحين كله فاسداً . والذي يلقيه الشيطان في النفس لا يخرج عن الفكر فيما كان ودخل في الوجود لو كان على خلاف ذلك ، وفيما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، أو فيما يَملِكُ الفِكْرَ فيه من أنواع الفواحش والحرام ، أو في خيالات وهمية لا حقيقة لها أو في باطل ، أو فيما لا سبيل إلى إدراكه من أنواع ما طُوِيَ عنه علمه ، فيلقيه في تلك الخواطر التي لا يبلغ منها غاية ، ولا يقف منها على نهاية ، فيجعل ذلك مجالَ فكره ومسرح وهمه .

وجماع إصلاح ذلك : أن تشغَلَ فكرَك في باب العلوم والتصوُّرات بمعرفة ما يلزمك من التوحيد وحقوقه ، وفي الموت وما بعده إلى دخول الجنة والنار . وفي آفات الأعمال وطرق التحرُّز منها . وفي باب الإرادات والعُزوم أن تشغل نفسك بإرادة ما ينفعك إرادته ، وطرح إرادة ما يضرُّك إرادته . وعند العارفين أنّ تمنّي الخيانة وإشغالَ الفكر والقلب بها أضر على القلب من نفس الخيانة ، ولا سيما إذا فرغ قلبه منها بعد مباشرتها ، فإنّ تمنّيها يشغل القلب بها ويملؤه منها ويجعلها همّه ومُراده .

وأنت تجد في الشاهد أن المَلِك من البشر إذا كان في بعض حاشيته وخدَمه مَن هومتمنٍّ لخيانته مشغولُ القلب والفكر بها ممتلىء منها ، وهو مع ذلك في خدمته وقضاء أشغاله ، فإذا اطّلَع على سرِّه وقَصْدِه ، مَقَتَه غاية المقت ، وأبغضه ، وقابله بما يستحقه ، وكان أبغض إليه من رجل بعيد عنه جَنَى بعض الجنايات وقلبُه وسرُّه مع المَلِك غير منطوٍ على تمني الخيانة ومحبتها والحرص عليها ، فالأول يتركها عجزاً واشتغالاً بما هو فيه وقلبه ممتلىء بها ، والثاني يفعلها وقلبه كاره لها ليس فيه إضمار الخيانة ولا الإصرار عليها ، فهذا أحسن حالاً وأسلم عاقبة من الأول .

وبالجملة ، فالقلب لا يخلو قط من الفكر إما في واجب آخرته ومصالحها ، وإما في مصالح دنياه ومعاشه ، وإما في الوساوس والأماني الباطلة والمقدرات المفروضة . وقد تقدَّم أن النفس مثلها كمثل رحى تدور بما يُلْقى فيها ، فإنْ ألقيتَ فيها حَبّاً دارت به وإن ألقيتَ فيها زجاجاً وحصىً وبعراً دارت به ، واللَّه سبحانه هو قيِّم تلك الرحى ومالِكُها ومصرفها وقد أقام لها ملَكاً يلقي فيها ما ينفعها فتدور به، وشيطاناً يلقي فيها ما يضرّها فتدور به، فالمَلَك يُلمُّ بها مرة والشيطان يُلمُّ بها مرة[1]، فالحَبُّ الذي يلقيه الملك إيعادٌ بالخير وتصديق بالوعد ، والحَبُّ الذي يلقيه الشيطان إيعادٌ بالشر وتكذيب بالوعد . والطحين على قدر الحَبِّ ، وصاحبُ الحَبِّ المضرِّ لا يتمكن من إلقائه إلا إذا وجدَ الرحى فارغة من الحب وقَيِّمُها قد أهملها وأعرض عنها، فحينئذٍ يبادر إلى إلقاء ما معه فيها .

وبالجملة ، فقيِّمُ الرحى إذا تخلى عنها وعن إصلاحها وعن إلقاءِ الحب النافع فيها وجد العدوُّ السبيلَ إلى إفسادها وإدارتها بما معه . وأصل صلاح هذه الرحى بالاشتغال بما يعنيك ، وفاسدها كله في الاشتغال بما لا يعنيك ، وما أحسن ما قال بعض العقلاء : لما وجدتُ أنواع الذخائر منصوبة غرضاً للمتالف ، ورأيت الزوال حاكماً عليها مدركاً لها ، انصرفت عن جميعها إلى ما لا يُنازِع فيه ذو الحجا أنه أنفع الذخائر وأفضل المكاسب وأربح المتاجر ، واللَّه المستعان .

* * *

---

(١) روى الطبري ٣/ ٨٨ من قول ابن مسعود رضي الله عنه باسناد صحيح : « إن للملك الموكل بقلب ابن آدم لمة ، وللشيطان لمة ، فلمة الملك : إيعاد بالخير ، وتصديق بالحق ، ورجاء صالح ثوابه ، ولمة الشيطان : إيعاد بالشر ، وتكذيب بالحق ، وقنوط من الخير ، فإذا وجدتم لمة الملك فاحمدوا الله وسلوه من فضله ، وإذا وجدتم لمة الشيطان فاستعيذوا بالله واستغفروه .

قال شقيق بن إبراهيم[1] : أُغلِقَ بابُ التوفيق عن الخلق من ستة أشياء :

استغالهم بالنعمة عن شكرها .

ورغبتهم في العلم ، وتركهم العمل .

والمسارعة إلى الذنب وتأخير التوبة .

والاغترار بصحبة الصالحين وترك الاقتداء بفعالهم .

وإدبار الدنيا عنهم وهم يتبعونها .

وإقبال الآخرة عليهم وهم معرضون عنها .

قلت : وأصل ذلك عدم الرغبة والرهبة ، وأصله ضعف اليقين ، وأصله ضعف البصيرة ، وأصله مهانة النفس ودناءتها واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير . وإلا فلو كانت النفس شريفة كبيرة لم ترضَ

---

(١) هو الإمام الزاهد ، شيخ خراسان ، أبو علي شقيق بن ابراهيم الأزدي البلخي .

صحب ابراهيم بن أدهم ، وروي عن كثير بن عبد الله الأبلي ، واسرائيل بن يونس ، وعباد بن كثير .

حدث عنه عبد الصمد بن يزيد مردويه ، ومحمد بن أبان المستملي ، وحاتم الأصم ، والحسين بن داود البلخي ، وغيرهم .

من أقواله : « لو أن رجلاً عاش مئتي سنة لا يعرف هذه الأربعة ، لم ينج : معرفة الله ، ومعرفة النفس ، ومعرفة أمر الله ونهيه ، ومعرفة عدو الله وعدو النفس » .

« مثل المؤمن مثل من غرس نخلة يخاف أن تحمل شوكاً ، ومثل المنافق مثل من زرع شوكاً يطمع أن يحمل تمراً هيهات » .

« علامة التوبة البكاء على ما سلف ، والخوف من الوقوع في الذنب ، وهجران اخوان السوء ، وملازمة الأخيار » .

« من شكى مصيبة إلى غير الله ، لم يجد حلاوة الطاعة » .

استشهد رحمه الله تعالى في غزاةِ كُولان (قرية في حدود بلاد الترك من ناحية بما وراء النهر) سنة أربع وتسعين ومئة .

بالدون . فأصل الخير كله ـ بتوفيق اللَّه ومشيئته ـ شرف النفس ونبلها وكِبَرها . وأصل الشر خِسَّتها ودناءتها وصِغَرها ، قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [الشمس : ٩ ـ ١٠] ، أي أفلح مَن كَبَّرَها وكَثَّرها ونـمَّاها بطاعة اللَّه ، وخاب مَن صغَّرَها وحَقَّرها بمعاصي اللَّه .

فالنفوسُ الشريفة لا ترضى من الأشياء إلا بأعلاهـا وأفضلها وأحمدها عاقبة ، والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات وتقع عليها كما يقع الذباب على الأقذار . فالنفس الشريفة العليّة لا ترضى بالظلم ولا بالفواحش ولا بالسرقة والخيانة ، لأنها أكبر من ذلك وأَجَلّ . والنفس المهينة الحقيرة الخسيسة بالضدّ من ذلك . فكل نفس تميل إلى ما يناسبها ويشاكلها ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ ﴾ [الإسراء : ٨٤] ، أي على ما يشاكله ويناسبه ، فهو يعمل على طريقته التي تناسب أخلاقه وطبيعته ، وكل إنسان يجري على طريقته ومذهبه وعاداته التي أَلِفَها وجُبِلَ عليها . فالفاجر يعمل بما يشبه طريقته من مقابلة النعَم بالمعاصي ، والإعراض عن المُنْعِم . والمؤمن يعمل بما يشاكله من شكر المنعِم ، ومحبَّتِه والثناءِ عليه ، والتودُّد إليه والحياء منه ، والمراقبة له ، وتعظيمه وإجلاله .

* * *

١٠٤ ـ فصل

مَن لم يعرف نفسه ، كيف يعرف خالقه ؟ فاعلمْ أن اللَّه تعالى خلق في صدرك بيتاً وهو القلب ، ووضع في صدره عرشاً لمعرفته ، يستوي عليه المثلُ الأعلى ، فهو مستوٍ على عرشه بذاته بائن من خلقه ،

والمثل الأعلى من معرفته ومحبته وتوحيده مستوٍ على سرير القلب ، وعلى السرير بساط من الرضا . ووضَع عن يمينه وشماله مرافق شرائعه وأوامره ، وفتحَ إليه باباً من جنة رحمته ، والأنس به ، والشوق إلى لقائه ، وأمطره من وابل كلامه . ما أنبتَ فيه أصناف الرياحين ، والأشجار المثمرة من أنواع الطاعات ، والتهليل، والتسبيح ، والتحميد ، والتقديس ، وجعل في وسط البستان شجرة معرفة ، فهي ﴿ تُؤْتِيْ أُكُلْهَا كُلَّ حِيْنٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ [إبراهيم : ٢٥] من المحبة والإنابة والخشية والفرح به والابتهاج بقربه . وأجرى إلى تلك الشجرة ما يسقيها من تدبُّر كلامه وفهمه والعمل بوصاياه . وعلَّق في ذلك البيت قنديلاً ، أسرجه بضياء معرفته ، والإيمان به وتوحيده . فهو يستمدُّ من ﴿ شَجَرَةٍ مُبَاْرَكَةٍ ، زَيْتُوْنَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ، يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيْءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْه نَاْرٌ ﴾ [النور : ٣٥] . ثم أحاط عليه حائطاً يمنعه من دخول الآفات والمفسدين وَمَن يؤذي البستان ، فلا يلحقه أذاهم، وأقام عليه حَرَساً من الملائكة يحفظونه في يقظته ومنامه ، ثم أعلم صاحب البيت والبستان بالساكن فيه ، فهو دائماً هَمُّه إصلاحُ السكن ، ولَمُّ شَعْثِه ، ليرضاه الساكن منزلاً . وإذا أحسَّ بأدنى شعث في السكن ، بادر إلى إصلاحه ، ولَمِّه خشية انتقال الساكن منه ، فنِعْمَ الساكن ونعمَ المسكن .

فسبحان اللّه رب العالمين ، كم بَيْنَ هذا البيت وبيتٍ قد استولى عليه الخراب ، وصار مأوىً للحشرات والهوامِّ ، ومحلاً لإلقاء الأنتان والقاذورات فيه . فمن أراد التخلي وقضاءَ الحاجة وجدَ خَرِبَةً لا ساكنَ فيها ، ولا حافظَ لها ، وهي معدَّة لقضاء الحاجة ، مظلمة الأرجاء ، منتنة الرائحة ، قد عَمَّها الخراب ، وملأتها القاذورات ، فلا يأنَسُ بها ، ولا ينزل فيها إلا مَن يناسبه سكناها من الحشرات والديدان والهوامّ . الشيطان

جالس على سريرها ، وعلى السرير بساط من الجهل، وتخفق فيه الأهواء ، وعن يمينه وشماله مرافق الشهوات ، وقد فُتحَ إليه بابٌ من حقل الخذلان والوحشة ، والركون إلى الدنيا ، والطمأنينة بها ، والزهد في الآخرة ، وأُمطِرَ من وابل الجهل والهوى والشرك والبدع ما أنبَتَ فيه أصناف الشوك والحنظل ، والأشجار المثمرة بأنواع المعاصي والمخالفات ، من الزوائد والتنديبات ، والنوادر والهزليات والمضحكات ، والأشعار الغزليات ، والخمريات التي تهيج على ارتكاب المحرمات ، وتُزَهِّد في الطاعات . وجُعِلَ في وسط الحقل شجرةُ الجهل به والإعراض عنه ، فهي تؤتي أُكُلَها كلَّ حين من الفسوق والمعاصي ، واللهو واللعب ، والمجون والذهاب مع كل ريح ، واتباع كل شهوة . ومن ثمرها الهموم والغموم والأحزان والآلام . ولكنها متوارية باشتغال النفس بلهوها ولعبها ، فإذا أفاقت من سكرها أُحضِرَت كلَّ همٍّ وغمٍّ ، وحزن وقلق ، ومعيشة ضنك ، وأجري إلى تلك الشجرة ما يسقيها من اتباع الهوى وطول الأمل والغرور .

ثم ترك ذلك البيت وظلماته ، وخراب حيطانه ، بحيث لا يمنع منه مفسد ، ولا حيوان ولا مؤذٍ ولا قذر ، فسبحان خالق هذا البيت وذلك البيت ، فمن عرف بيته وقدَّر ما فيه من الكنوز والذخائر والآلات انتفع بحياته ونفسه، ومَن جهل ذلك جهل نفسَه وأضاع سعادته، وباللّه التوفيق .

* * *

سُئِلَ سهل التُّستري : الرجل يأكل في اليوم أكلةً ؟ قال : أكل الصديقين ، قيل له : فأكلتين ؟ قال : أكل المؤمنين ، قيل له : فثلاث أكلات ؟ فقال : قل لأهله يبنوا له مِعْلفاً .

قال الأسود بن سالم[1] : ركعتين أصليهما للّه أحب إليَّ من الجنة بما فيها . فقيل له : هذا خطأ ، فقال : دعونا من كلامكم ، الجنة رضى نفسي ، والركعتان رضى ربي ، ورضى ربي أحب إليَّ من رضى نفسي .

* العارف في الأرض ريحانة من رياحين الجنة ، إذا شمَّها المريد اشتاقت نفسه إلى الجنة .

* قلب المحِبّ موضوع بين جلال محبوبه وجماله ، فإذا لاحظ جلاله هابه وعظَّمه ، وإذا لاحظ جماله أحبَّه واشتاق إليه .

* * *

١٠٥ ـ فائدة

مِنَ الناسِ مَنْ يعرف اللّه بالجود والإفضال والإحسان ، ومنهم من يعرفه بالعفو والحلم والتجاوز ، ومنهم من يعرفه بالبطش والانتقام ، ومنهم من يعرفه بالعلم والحكمة ، ومنهم من يعرفه بالعزَّة والكبرياء ، ومنهم من يعرفه بالرحمة والبرّ واللطف ، ومنهم من يعرفه بالقهر والملك ، ومنهم من يعرفه بإجابة دعوته وإغاثة لهفته وقضاء حاجته .

وأعَمّ هؤلاء معرفةَ من عرفه من كلامه ، فإنه يعرف ربّاً قد اجتمعت له صفات الكمال ونعوت الجلال ، مُنزَّه عن المثال ، بريء من النقائص والعيوب ، له كل اسم حسن وكل وصف كمال ، فَعَّال لما يريد ، فوق كل شيء ومع كل شيء ، وقادر على كل شيء ، ومقيمٌ لكل شيء ، آمرٌ

---

(١) لم أجد ترجمته .

ناهٍ متكلمٌ بكلماته الدينية والكونية ، أكبر من كل شيء ، وأجمل من كل شيء ، أرحم الراحمين ، وأقدر القادرين ، وأحكم الحاكمين . فالقرآن أُنْزِل لتعريف عباده به ، وبصراطه الموصل إليه ، وبحال السالكين بعد الوصول إليه[1] .

* * *

١٠٦ ـ فائدة

من الآفات الخفيّة العامة أن يكون العبد في نعمة أنعم اللّه بها عليه واختارها له ، فيملّها العبد ويطلب الانتقال منها إلى ما يزعم لجهله أنه خير له منها ، وربُّه برحمته لا يخرجه من تلك النعمة ، ويعذره بجهله وسوء اختياره لنفسه ، حتى إذا ضاق ذرعاً بتلك النعمة وَسخِطها وتبرَّمَ بها واستَحْكم مَلَلُه لها سلَبَه اللَّه إياها . فإذا انتقل إلى ما طلبه ورأى التفاوت بين ما كان فيه وما صار إليه ، اشتدَّ قلقه وندمه وطلب العودة إلى ما كان فيه ، فإذا أراد اللّه بعبده خيراً ورشداً أشهده أن ما هو فيه نعمة من نعَمِه عليه ورضاه به ، وأوزعه شكره عليه ، فإذا حدّثته نفسهُ بالانتقال عنه ، استخار ربه استخارة جاهلٍ بمصلحته عاجز عنها ، مُفَوِّض إلى اللّه طالب منه حسن اختياره له .

وليس على العبد أضرّ من مَلَلِه لِنِعَم اللّه ، فإنه لا يراها نعمة ، ولا يشكره عليها ، ولا يفرح بها ، بل يسخطها ، ويشكوها ويعدّها مصيبة .

---

(١) للمؤلف كتاب عظيم في هذا الموضوع اسمه « مدارج السالكين شرح منازل السائرين إلى الحق المبين » .

هذا وهي من أعظم نِعَم اللّه عليه ، فأكثرُ الناس أعداءُ نعم اللّه عليهم ، ولا يشعرون بفتح اللّه عليهم نعمه ، وهم مجتهدون في دفعِها وردِّها جهلاً وظلماً . فكم سَعَتْ إلى أحدهم من نعمة ، وهو ساعٍ في ردِّها بجهده ، وكم وصلت إليه وهو ساعٍ في دفعِها وزوالِها بظلمه وجهله ، قال تعالى : ﴿ ذلِكَ بِأَنَّ اللَّه لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال : ٥٣] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّه لاَ يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١] .

فليس للنعم أعدى من نفس العبد ، فهو مع عدوِّه ظهيرٌ على نفسه ، فعدوُّه يطرح النار في نعمه وهو ينفخ فيها ، فهو الذي مَكَّنه من طرح النار ثم أعانه بالنفخ ، فإذا اشتدَّ ضرامُها استغاث من الحريق وكان غايته معاتبة الأقدار :

وَعَاجِزُ الـرَّأْيِ مِضْيَاعٌ لِفُـرْصَتِهِ حَتَّى إِذَا فَاتَ أَمْرٌ عَاتَبَ القَدَرا

* * *

١٠٧ - فصل

من أعزِّ أنواع المعرفة معرفةُ الرب سبحانه بالجمال ، وهي معرفة خواصّ الخلق ، وكلهم عرفه بصفة من صفاته ، وأتمُّهم معرفةً مَنْ عرفه بكماله وجلاله ، وجماله سبحانه ليس كمثله شيء في سائر صفاته ، ولو فرضت الخلق كلهم على أجملهم صورة وكلهم على تلك الصورة ، ونسبتَ جمالهم الظاهر والباطن إلى جمال الرب سبحانه لكان أقل من نسبة سراج ضعيف إلى قرص الشمس ، ويكفي في جماله « أَنَّهُ لَوْ كَشَفَ

الحِجَابَ عَنْ وَجْهِهِ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُهُ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ »[1] .

ويكفي في جماله أن كل جمال ظاهر وباطن في الدنيا والآخرة فمن آثار صنعته ، فما الظنُّ بمن صدَرَ عنه هذا الجمال .

ويكفي في جماله أنه له العزّة جميعاً ، والقوّة جميعاً ، والجود كله ، والاحسان كله ، والعلم كله ، والفضل كله ، ولنور وجهه أشرقت الظلمات كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في دعاء الطائف : « أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَـاتُ ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْـرُ الدُّنْيَـا وَالآخِرَةُ »[2] .

---

(١) معنى حديث رواه مسلم رقم (١٧٩) في الإيمان : باب قوله عليه السلام : إن الله لا ينام ، وأحمد في « المسند » ٤/ ٣٩٥ و٤٠٥ ، وابن ماجه رقم (١٩٥) و (١٩٦) في المقدمة : باب فيما أنكرت الجهمية ، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، ولفظه : « قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات ، فقال : إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » .

(٢) رواه ابن هشام في « السيرة » ١/ ٤٢٠ ، وابن جرير في « تفسير » ١/ ٨٠ بغير سند ، قال الزرقاني في « شرح المواهب اللدنية » ١/ ٣٠٥ : أورده ابن إسحاق في « السيرة » ورواه الطبراني في الكبير وفي كتاب الدعاء ، من حديث عبد الله بن جعفر ، وقال : وهذا مرسل صحابي ، لأنه ولد بالحبشة ، فلم يدرك ما حدث به .

قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » ٦/ ٣٥ : وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ، وبقية رجاله ثقات .

ولفظه بتمامه : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت أرحم الراحمين ، وأنت رب المستضعفين ، إلى من تكلني إلى عدوٍ بعيد يتجهمني ، أم إلى صديق قريب ملكته أمري ، إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ، غير أن عافيتك أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أضاءت له السموات ، وأشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن ينزل بي غضبك ، أو يحلَّ بي سخطك ، ولك العُتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك »والحديث ضعيف كما قال الألباني في تخريج « فقه السيرة » للغزالي ص ١٣٢ .

وقال عبد اللّه بن مسعود : ليس عند ربكم ليل ولا نهار ، نور السموات والأرض من نور وجهه ، فهو سبحانه نور السموات والأرض ، ويوم القيامة إذا جاء لفصل القضاء تشرق الأرض بنوره .

ومن أسمائه الحسنى « الجميل » . وفي الصحيح عنه صلى اللّه عليه وسلم : « إنَّ اللّه جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمال »[١] .

وجماله سبحانه على أربع مراتب : جمال الذات ، وجمال الصفات ، وجمال الأفعال ، وجمال الأسماء . فأسماؤه كلها حسنى ، وصفاته كلها صفات كمال ، وأفعاله كلها حكمة ومصلحة وعدل ورحمة . وأما جمال الذات وما هو عليه ، فأمر لا يدركه سواه ، ولا يعلمه غيره ، وليس عند المخلوقين منه إلا تعريفات تَعرَّف بها إلى مَن أكرمه مِن عباده ، فإن ذلك الجمال مَصُونٌ عن الأغيار ، محجوب بستر الرداء والإزار ، كما قال رسوله صلى اللّه عليه وسلم فيما يحكي عنه : « الكِبْرِياءُ رِدَائِي وَالعَظَمَةُ إزَارِي »[٢] . ولما كانت الكبرياء أعظم وأوسع

---

(١) رواه مسلم رقم (٩١) في الإيمان : باب تحريم الكبر وبيانه ، وأبو داود رقم (٤٠٩١) في الأدب : باب ما جاء في الكبر ، والترمذي رقم (١٩٩٩) في البر والصلة : باب ما جاء في الكبر ، وأحمد في « المسند » ١/ ٣٨٥ و٤٢٧ ، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، ولفظه بتمامه : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر » قال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ، ونعله حسناً ، قال : « إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس » .

(٢) رواه أبو داود رقم (٤٠٩٠) في اللباس : باب ما جاء في الكبر ، وهو حديث قدسي ، ولفظه عند أبي داود : « قال الله عز وجل : « الكبرياء ردائي والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، ورواه أيضاً مسلم رقم (٢٦٢٠) في البر والصلة : باب تحريم الكبر ، من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما ، قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العز إزاره ، والكبرياء رداؤه ، فمن ينازعني عذبته » والضمير في « إزاره ، ورداؤه » =

كانت أحَقّ باسم الرداء ، فإنه سبحانه الكبير المتعال فهو سبحانه العليُّ العظيم .

قال ابن عباس : حَجَبَ الذات بالصفات ، وحجب الصفات بالأفعال ، فما ظنك بجمال حُجِبَ بأوصاف الكمال ، وسُتِرَ بنعوت العظمة والجلال .

ومن هذا المعنى يُفهَم بعض معاني جمال ذاته ، فإن العبد يترقى من معرفة الأفعال إلى معرفة الصفات ، ومن معرفة الصفات إلى معرفة الذات . فإذا شاهد شيئاً من جمال الأفعال استدلّ به على جمال الصفات ثم استدلّ بجمال الصفات على جمال الذات .

ومن ها هنا يتبين أنه سبحانه له الحمد كله ، وأن أحداً من خلقه لا يُحصي ثناءً عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه ، وأنه يستحق أن يعبد لذاته ، ويحب لذاته ، ويشكر لذاته ، وأنه سبحانه يحبُّ نفسَه ، ويُثني على نفسِه ، ويَحْمَدُ نفسه ، وأن محبته لنفسه ، وحمده لنفسه ، وثناءه على نفسه ، وتوحيده لنفسه ، هو في الحقيقة الحمدُ والثناء والحبُّ والتوحيد ، فهو سبحانه كما أثنى على نفسه ، وفوق ما يثني به عليه خلقه ، وهو سبحانه كما يحبُّ ذاتَه يحب صفاتِه وأفعالَه ، فكلُّ أفعاله حسن محبوب وإنْ كان في مفعولاته ما يبغضه ويكرهه ، فليس في أفعاله ما هو مكروه مسخوط ، وليس في الوجود ما يحب لذاته ، ويحمد لذاته إلا هو سبحانه ، وكل ما يُحَبُّ سواه فإن كانت محبته تابعة لمحبته سبحانه بحيث يحب لأجله، فمحبته صحيحة، وإلا فهي محبة باطلة، وهذا هو

= يعود إلى الله تعالى للعلم به ، وفيه محذوف تقديره : قال الله تعالى : ومن ينازعني ذلك عذبته .

حقيقة الإلٓهية ، فإن الإله الحق هو الذي يحَب لذاته ويحمَد لذاته . فكيف إذا انضاف إلى ذلك إحسانه وإنعامه ، وحلمه وتجاوزه وعفوه وبرّه ورحمته ؟

فعلى العبد أن يعلم أنه لا إله إلا اللّه فيحبه ويحمده لذاته وكماله ، وأن يعلم أنه لا محسن على الحقيقة بأصناف النعَم الظاهرة والباطنة إلا هو ، فيحبه لإحسانه وإنعامه ، ويحمده على ذلك ، فيحبه من الوجهين جميعاً . وكما أنه ليس كمثله شيء فليس كمحبته محبة . والمحبة مع الخضوع هي العبودية التي خلق الخلق لأجلها ، فإنها غاية الحب بغاية الذُّلّ ، ولا يصلح ذلك إلا له سبحانه . والإشراك به في هذا هو الشرك الذي لا يغفره اللّه ولا يقبل لصاحبه عملاً .

وحمدُه يتضمن أصلين : الإخبار بمحامده وصفات كماله ، والمحبة له عليها ، فمَنْ أخبر بمحاسن غيره من غير محبة له لم يكن حامداً . ومَنْ أحبَّه من غير إخبار بمحاسنه لم يكن حامداً حتى يجمع الأمرين ، وهو سبحانه يحمد نفسه بنفسه ، ويحمد نفسه بما يجريه على ألسنة الحامدين له من ملائكته وأنبيائه ورُسله وعباده المؤمنين ، فهو الحامد لنفسه بهذا وهذا ، فإن حمدهم له بمشيئته وإذنه وتكوينه ، فإنه هو الذي جعل الحامد حامداً ، والمسلم مسلماً ، والمصلِّي مصلِّياً ، والتائب تائباً ، فمنه ابتدأت النِّعَم ، وإليه انتهت ، فابتدأت بحمدِه ، وانتهت إلى حمدِه ، وهو الذي أَلْهَمَ عبدَه التوبة ، وفَرِحَ بها أعظم فرح ، وهي من فضله وَجُودِه . وأَلْهَمَ عبده الطاعة ، وأعانه عليها ، ثم أثابَه عليها ، وهي من فضله وجوده . وهو سبحانه غنيٌ عن كل ما سواه بكل وجه ، وما سواه فقيرٌ إليه بكل وجه ، والعبد مفتقر إليه لذاته في الأسباب والغايات ، فإن ما لا يكون به لا يكون ، وما لا يكون له لا ينفع .

* * *

١٠٨ ـ فصل

وقوله في الحديث : «إنَّ الله جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ »[١] يتناول جمال الثياب المسؤول عنه في نفس الحديث . ويدخل فيه بطريق العموم الجمالُ من كل شيء كما في الحديث الآخر : « إنَّ الله نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ »[٢] .

وفي الصحيح : « إنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إلَّا طَيِّباً »[٣] .

---

(١) تقدم تخريجه قبل قليل ص ٣٢٠ .

(٢) قطعة من حديث « الترمذي رقم (٢٨٠٠) في الأدب : باب ما جاء في النظافة ، من حديث سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى ، سُمِعَ يقول : « إن الله طيب يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة ، كريم يحب الكرم ، جواد يحب الجُوْدَ فنظفوا ـ أراه قال : أفنيتكم ـ ولا تشبهوا باليهود ـ قال ـ أي السامع ـ : فذكرت ذلك لمهاجر بن مسمار ، فقال حدثنيه عامر بن سعد عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله ، إلا أنه قال : « نظفوا أفنيتكم » .

وفي سنده خالد بن الياس أو إياس ، وهو متروك الحديث كما قال الحافظ في « التقريب » ، وله شاهد عند الطبراني في « الأوسط » من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، ذكره السيوطي في « الجامع الصغير » بلفظ « طهروا أفنيتكم ، فإن اليهود لا تطهر أفنيتها » قال المناوي في « الفيض » ٤/ ٢٧١ : قال الهيثمي : ورجاله رجال الصحيح خلا شيخ الطبراني . فالحديث حسن .

(٣) رواه مسلم (١٠١٥) في الزكاة : باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها ، والترمذي رقم (٢٩٩٢) في التفسير : باب ومن سورة البقرة ، وأحمد في « المسند » ٢/ ٣٢٨ والدارمي رقم (٢٧٢٠) في الرقاق : باب في أكل الطيب ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، ولفظه بتمامه : « أيها الناس ! إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً * إني بما تعملون عليم ﴾ [المؤمنون : ٥١] ، وقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ [البقرة : ١٧٢] ، ثم ذكر الرجل يطيل السفر ، أشعث ، أغبر ، يمد يديه إلى السماء ، يا ربِّ ! يا ربِّ ! ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذي بالحرام ، فأنَّى يستجاب لذلك » .

وفي السنن : « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَىٰ أَثَرَ نِعْمَتَهُ عَلَىٰ عَبْدِهِ »(١) .

وفيها عن أبي الأحوص الجشمي ، قال : « رآني النبيُّ صلى الله عليه وسلم وعلي أطمار ، فقال : هَلْ لَكَ مِنْ مَالٍ ؟ قلت : نعم ، قال : مِنْ أَيِّ المَالِ ؟ قلت : من كل ما آتى الله من الإبل والشاء ، قال : فَلْتَرَ نِعْمَتُهُ وَكَرَامَتُهُ عَلَيْكَ »(٢) .

فهو سبحانه يحب ظهورَ أثر نعمته على عبده ، فإنه من الجمال الذي يحبه ، وذلك من شُكرِه على نِعَمه ، وهو جمال باطن فيحب أن يرى على عبده الجمال الظاهر بالنعمة والجمال الباطن بالشكر عليها .

ولمحبته سبحانه للجمال أنزل على عباده لِباساً وزينة تُجَمِّل ظواهرهم ، وتَقْوى تجمَّل بواطنهم فقال : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف : ٢٦] ، وقال في أهل الجنة : ﴿ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوْراً * وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً ﴾ [الإنسان : ١١ - ١٢] ، فجمَّل وجوههم بالنضرة ، وبواطنهم بالسرور ، وأبدانهم بالحرير .

وهو سبحانه كما يحب الجمال في الأقوال والأفعال واللباس والهيئة ، يبغض القبيح من الأقوال والأفعال والثياب والهيئة ، فيبغض القبيح وأهله ويحب الجمال وأهله . ولكن ضلَّ في هذا الموضوع

---

(١) رواه الترمذي رقم (٢٨٢٠) في الأدب : باب ما جاء أن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده ، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، وإسناده حسن . وقال الترمذي : وفي الباب عن أبي الأحوص عن أبيه ، وعن عمران بن حصين ، وابن مسعود .

(٢) رواه النسائي ٨/ ١٩٦ في الزينة : باب ذكر ما يستحب من لبس الثياب وما يكره منها وأحمد في « المسند » ٣/ ٤٧٣ من حديث أبي الأحوص عن أبيه ، وإسناده صحيح واللفظ لأحمد .

فريقان: فريق قالوا كل ما خلقه جميل، فهو يحب كل ما خلقه، ونحن نحب جميع ما خلقه فلا نبغض منه شيئاً ، قالوا : ومَنْ رأى الكائنات منه رآها كلَّها جميلة . وأنشد مُنشِدُهم :

وَإِذَا رَأَيْتَ الكَـائِنَـاتِ بِعَيْنِـهِمْ فَجَمِيْعُ مَاْ يَحْوِيْ الوُجُودُ مَلِيْحُ

واحتجّوا بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة : ٧] ، وقوله : ﴿ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءً﴾ [النمل : ٨٨] ، وقوله : ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ [الملك : ٣] .

والعارف عندهم هو الذي يصرح بإطلاق الجمال ، ولا يرى في الوجود قبيحاً . وهؤلاء قد عُدِمَت الغيرةُ لله من قلوبهم والبغضُ في الله ، والمعاداة فيه ، وإنكارُ المنكر ، والجهادُ في سبيله ، وإقامة حدوده ! ويرى جمال الصُّورَ من الذكور الإناث من الجمال الذي يحبه الله ، فيتعبدون بفسقهم ، وربما غلا بعضهم حتى يزعم أن معبوده يظهر في تلك الصورة ويحلُّ فيها . وإن كان اتحادياً[1] قال: هي مظهر من مظاهر الحق ، ويسميها المظاهر الجمالية .

* * *

---

(١) الاتحادي: هو القائل بوحدة الوجود وهي تعني أن الخالق هو عين المخلوق وأن الله والعالم هما اسمان. المسمى واحد تعالى الله عن قولهم علوّاً كبيراً. وترى مثل هذه الكفريات وأفظع منها في كتب « الفتوحات المكية » و « فصوص الحكم » لذا حذر العلماء من قراءتها أو اقتنائها كابن عابدين في حاشيته المشهورة، والبقاعي في « تحذير الغبي » وقد زعم الشعراني أن في قونية نسخة من « الفتوحات المكية » ليس فيها ما هو مذكور في النسخ المتداولة بأيدي الناس ، وليس لهذا الزعم أساس من الصحة فقد طبعت نسخة قونية التي بخط المصنف طبعة جديدة محققة مفهرسة وهي تطابق الطبعة القديمة التي فيها تلك الضلالات والكفريات . ونحن نحذر من هذه الكتب ومن قراءتها ومن الدفاع عنها ، ونقول إنها كتب ليست من الاسلام ، أما عن مؤلفها فنترك أمره الى الله فقد أفضى إليه .

١٠٩ ـ فصل

وقابلهم الفريق الثاني فقالوا : قد ذَمَّ الله سبحانه جمالَ الصور ، وتمامَ القامة والخلقة ، فقال عن المنافقين : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ [المنافقون : ٤] وقال : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً ﴾ [مريم : ٧٤] أي أموالاً ومناظر . قال الحسن : هو الصور . وفي صحيح مسلم عنه صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَىٰ صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ »(١) .

قالوا : ومعلوم أنه لم يَنْفِ نظرَ الإِدْراك ، وإنما نفى نظرَ المحبة . قالوا : وقد حرَّم علينا لباس الحرير والذهب وآنية الذهب والفضة ، وذلك من أعظم جمال الدنيا ، وقال : ﴿ وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ [طه : ١٣١] ، وفي الحديث : « البَذَاذَةُ مِنَ الإِيْمَانِ »(٢) ، وقد ذم الله المسرفين . والسرف كما يكون في الطعام والشراب يكون في اللباس .

وفصل النزاع أن يقال : الجمالُ في الصورة واللباس والهيئة ثلاثة أنواع : منه ما يحمد ، ومنه ما يذمّ ، ومنه ما لا يتعلق به مدح ولا ذمّ . فالمحمود منه ما كان لله ، وأعان على طاعةِ الله ، وتنفيذ أوامره ،

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٥٦٤) (٣٤) في البر والصلة : باب تحريم ظلم المسلم وخذله . . . الخ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه أبو داود رقم (٤١٦١) في الترجل : باب رقم ١ ، من حديث أبي أمامة رضي الله عنه ، بلفظ : « ألا تسمعون ، ألا تسمعون ، إن البذاذة من الإيمان ، ورواه ابن ماجه رقم (٤١١٨) في الزهد : باب من لا يؤبه له . قال الحافظ في « الفتح » ١٠/ ٣١٠ : هذا حديث صحيح .

والاستجابة له ، كما كان النبي صلى الله عليه وسم يتجمل للوفود . وهو نظيرُ لباسِ آلة الحرب للقتال ولباسِ الحرير في الحرب والخيلاء فيه . فإن ذلك محمودٌ إذا تضمَّن إعلاءَ كلمة الله ، وَنَصْرَ دينه ، وغيظَ عدوّه . والمذموم منه ما كان للدنيا والرئاسة والفخر والخيلاء والتوسُّل إلى الشهوات ، وأن يكون هو غايةَ العبد وأقصى مطلبه . فإن كثيراً من النفوس ليس لها هِمّة في سوى ذلك. وأما ما لا يحمد ولا يذمّ فهو ما خلا عن هذين القصدين ، وتجرَّد عن الوصفين .

والمقصود أن هذا الحديث الشريف مشتمل على أصلين عظيمين : فأوله معرفة ، وآخره سلوك . فيُعْرَفُ اللهُ سبحانه بالجمال الذي لا يماثله فيه شيء ، ويُعْبَدُ بالجمال الذي يحبه من الأقوال والأعمال والأخلاق . فيحبُّ من عبدِه أن يجَمِّلَ لسانَه بالصدق ، وقلبَه بالإخلاص والمحبة والإنابة والتوكل ، وجوارحَه بالطاعة ، وبدَنه بإظهار نِعَمِه عليه في لباسه ، وتطهيره له من الأنجاس والأحداث والأوساخ والشعور المكروهة والختان وتقليم الأظفار ، فيعرفُه بصفات الجمال ويتعرّف إليه بالأفعال والأقوال والأخلاق الجميلة ، فيعْرِفُه بالجمال الذي هو وصفه ، ويَعْبُدُه بالجمال الذي هو شَرْعُه ودينه ، فَجَمَعَ الحديثُ قاعدتين : المعرفة والسلوك .

***

١١٠ ـ فصل

ليس للعبدِ شيءٍ أنفع من صدقِه ربَّه في جميع أُموره مع صدق العزيمة ، فيَصْدُقهُ في عزمه وفي فعله ، قال تعالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ

صَدَقُوا اللهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ ﴾ [محمد : ٢١] ، فسعادته في صدقِ العزيمة وصدق الفعل ، فصدقُ العزيمة جمعها وجزمُها وعدمُ التردُّد فيها بل تكون عزيمة لا يشوبها تردُّد ولا تلوُّم . فإذا صَدَقَتْ عزيمتُه بقي عليه صِدْقُ الفعل ، وهو استفراغ الوسع وبذل الجهد فيه ، وأن لا يتخلف عنه بشيء من ظاهره وباطنه ، فعزيمةُ القصد تمنعه من ضعف الإرادة والهمّة ، وصدق الفعل يمنعه من الكسل والفتور . ومَنْ صَدَقَ اللهَ في جميع أموره صَنَعَ اللهُ له فوق ما يصنع لغيره . وهذا الصدق معنى يلتئم من صحة الإخلاص وصدق التوكل ، فأصْدَقُ الناس مَنْ صَحَّ إخلاصه وتوكُّله .

* * *

١١١ - فائدة جليلة في القدر

رَبٌّ ذو إرادة أمرَ عبداً ذا إرادة ، فإن وَفَّقه وأراد من نفسه أن يعينه ويلهمه فَعَلَ ما أُمِرَ به ، وإن خذَله وخَلاّه وإرادته ونفسه ، وهو من هذه الحيثية لا يختار إلا ما تهواه نفسه وطبعه ، فهو من حيث هو إنسان لا يريد إلا ذلك . ولذلك ذمَّه الله في كتابه من هذه الحيثية ولم يمدحه إلا بأمرٍ زائد على تلك الحيثية ، وهو كونه مسلماً ومؤمناً وصابراً ومحسناً وشكوراً وتقياً وبرّاً ، ونحو ذلك . وهذا أمر زائد على مجرد كونه إنساناً وإرادته صالحة ، ولكن لا يكفي مجرد صلاحيتها إن لم تؤيد بقدر زائد على ذلك وهو التوفيق ، كما أنه لا يكفي في الرؤية مجرد صلاحية العين للإدراك إن لم يحصل سبب آخر من النور المنفصل عنها .

* * *

١١٢ ـ فصل

من أعظم الظلم والجهل أن تطلب التعظيم والتوقير لك من الناس وقلبُك خالٍ من تعظيم الله وتوقيره ، فإنك توقر المخلوق وتجلّه أن يراك في حال لا توقر الله أن يراك عليها ، قال تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلهِ وَقَاراً ﴾ [نوح : ١٣] أي لا تعاملونه معاملة مَن توقرونه ، والتوقير : العظمة . ومنه قوله تعالى : ﴿وتُوَقِّرُوه ﴾ [الفتح : ٩]، قال الحسن: ما لكم لا تعرفون لله حقاً ولا تشكرونه ؟ وقال مجاهد : لا تبالون عظمة ربكم . وقال ابن زيد[١] : لا ترون لله طاعة . وقال ابن عباس : لا تعرفون حق عظمته .

وهذه الأقوال ترجع إلى معنى واحد ، وهو أنهم لو عظموا الله وعرفوا حق عظمته وحدوه وأطاعوه وشكروه ، فطاعته سبحانه ، واجتناب معاصيه ، والحياء منه ، بحسب وقاره في القلب . ولهذا قال بعض السلف : ليعظم وقار الله في قلب أحدكم أن يذكره عندما يُسْتَحي من ذكره ، فيقرن اسمه به كما تقول : قَبَّحَ اللهُ الكلبَ والخنزيرَ والنتن ونحو ذلك ، فهذا من وقار الله .

ومن وَقارِهِ أن لا تَعْدِلَ به شيئاً من خلقه ، لا في اللفظ ، بحيث تقول : واللّه وَحَياتِك ، ما لي إلا اللّه وأنت، وما شاء اللّهُ وشئتَ، ولا في

---

(١) هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العمري المدني ، كان صاحب قرآن وتفسير وجمع تفسيراً في مجلد وكتاباً في الناسخ والمنسوخ،روى عن أبيه وأبي حازم وصفوان بن سليم وابن المنكدر .

وروى عنه ابن وهب ، ومرحوم بن عبد العزيز العطار ، وأصبغ بن الفرج ، وقتيبة ، وهشام وآخرون . توفي سنة اثنتين وثمانين ومئة .

الحُبِّ والتعظيم والإجلال ، ولا في الطاعة ، فتطيع المخلوق في أمره ونهيه كما تطيع الله ، بل أعظم ، كما عليه أكثر الظَّلَمَة والفَجَرة ، ولا في الخوف والرجاء . ويجعله أهْوَن الناظرين إليه ، ولا يستهين بحقه ويقول : هو مبني على المسامحة ، ولا يجعله على الفضلة ، ويُقدِّم حق المخلوق عليه ، ولا يكونَ الله ورسوله في حدٍّ وناحية ، والناس في ناحية وحَدّ ، فيكونَ في الحدِّ والشق الذي فيه الناس دون الحد والشق الذي فيه الله ورسوله ، ولا يعطيَ المخلوقَ في مخاطبته قلبَه ولبُه ويعطي اللهَ في خدمته بدَنه ولسانَه دون قلبه وروحه ، ولا يجعل مراد نفسه مقدَّماً على مراد ربه(١) .

فهذا كله من عدم وقار الله في القلب ، ومَن كان كذلك فإن الله لا يلقي له في قلوب الناس وقاراً ولا هيبة ، بل يسقط وقاره وهيبته من قلوبهم ، وإنْ وقَّروه مخافة شرِّه فذاك وقارُ بُغْضٍ لا وقارُ حُبٍّ وتعظيم . ومن وقار الله أن يستحيَ من اطلاعه على سرِّه وضميره فيرى فيه ما يكره . ومن وقاره أن يستحيَ منه في الخلوة أعظم مما يستحي من أكابر الناس .

والمقصود أنَّ مَن لا يوقر الله وكلامه ، وما آتاه من العلم والحكمة كيف يطلب من الناس توقيره وتعظيمه ؟!

القرآنُ والعلمُ وكلامُ الرسول صلى اللّه عليه وسلم صِلاتٌ من الحق ، وتنبيهات وروادع وزواجر واردةٌ إليك ، والشيب زاجر ورادع وموقظ قائم بك ، فلا ما وَرَدَ إليك وَعَظك ! ولا ما قام بك نَصَحَك ! ومع هذا تطلب التوقير والتعظيم من غيرك ! فأنت كمُصاب لم تؤثر فيه مصيبته

---

(١) انظر ما جاء في التحذير من المشاقة والمحادة ص (٢١١) .

وعظاً وانزجاراً ، وهو يطلب من غيره أن يتَّعظ وينزجر بالنظر إلى مصابه . فالضَّربُ لم يؤثر فيه زجراً ، وهو يريد الانزجار ممن نظر إلى ضربه .

مَن سمع بالمَثُلَاتِ والعقوبات والآيات في حق غيره ليس كمن رآها عياناً في غيره ، فكيف بمن وجدها في نفسه ؟ ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي ٱلآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ [فصلت : ٥٣] ، فآياته في الآفاق مسموعة معلومة ، وآياته في النفس مشهودة مرئية ، فعياذاً بالله من الخذلان . قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا ٱلْعَذَابَ الأَلِيْمَ﴾ [يونس : ٩٦ - ٩٧] ، وقال : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ ﴾ [الأنعام : ١١١] .

والعاقل المؤيَّد بالتوفيق يعتبر بدون هذا ، ويتمم نقائص خلقته بفضائل أخلاقه وأعماله ، فكلما امْتُحِيَ من جثمانه أثر ، زاد إيمانُه أثر ، وكلما نقص من قُوَى بدنه ، زاد في قوة إيمانه ويقينه ورغبته في الله والدار الآخرة ، وإنْ لم يكن هكذا فالموت خيرٌ له ، لأنه يقف به على حدّ معيَّن من الألم والفساد ، بخلاف العيوب والنقائص مع طول العمر ، فإنها زيادة في ألمه وهَمِّه وغَمِّه وحسرته ، وإنما حسُنَ طول العمر ونفعَ ليحصل التذكر والاستدراك واغتنام الغرض والتوبة النصوح كما قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ﴾ [فاطر : ٣٧] ، فمن لم يورثه التعمير وطول البقاء إصلاح معائبه ، وتدارُك فارطه ، واغتنامَ بقيةِ أنفاسه ، فيعمل على حياة قلبه ، وحصولِ النعيم المقيم ، وإلا فلا خير له في حياته ، فإن العبد على جناح سفر إما إلى الجنة وإما إلى النار . فإذا طال عمره ، وحسنَ عمله ، كان طولُ سفره زيادة له في حصول

النعيم واللذة ، فإنه كلما طال السفر إليها كانت الصبابة أَجَلَّ وأفضل ، وإذا طال عمره ، وساءَ عمله كان طول سفره زيادة في ألمه وعذابه ، ونزولاً له إلى أسفل : فالمسافر إما صاعد وإما نازل ، وفي الحديث المرفوع : « خَيْرُكم مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ ، وَشَرُّكُم مَنْ طَالَ عُمُرُهُ ، وَقَبُحَ عَمَلُهُ »[1] .

فالطالب الصادق في طلبه كلما خَرِبَ شيء من ذاته ، جعله عمارة لقلبه وروحه ، وكلما نقص شيء من دنياه ، جعله زيادة في آخرته ، وكلما مُنِعَ شيئاً من لذات دنياه ، جعله زيادة في لذات آخرته ، وكلما ناله هَمّ أو حزن أو غَمّ جعله في أفراح آخرته . فنقصانُ بدنِه ودنياه ولذته وجاهه ورئاسته إن زاد في حصول ذلك وتوفيره عليه في مَعاده ، كان رحمةً به وخيراً له ، وإلا كان حرماناً وعقوبة على ذنوبٍ ظاهرةٍ أو باطنة ، أو ترك واجب ظاهر أو باطن ، فإنَّ حرمان خير الدنيا والآخِرة مرتّبٌ على هذه الأربعة ، وبالله التوفيق .

* * *

١١٣ ـ فائدة

الناس منذُ خُلِقوا لم يزالوا مسافرين ، وليس لهم حط رحالهم إلا في الجنة أو النار . والعاقل يعلم أن السفر مبنيٌّ على المشقة وركوب

---

(١) روى الترمذي رقم (٢٣٣١) في الزهد : باب رقم ٢٢ ، والدارمي رقم (٢٧٤٥) في الرقاق : باب أي المؤمنين خير ، وأحمد في « المسند » ٥/ ٤٠ و٤٣ و٤٧ ، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه ، أن رجلاً قال : يا رسول الله ! أي الناس خير ؟ قال : «من طال عمره وحسن عمله ، قال : فأي الناس شر ؟ قال : من طال عمره وساء عمله » . وهو حديث حسن .

الأخطار . ومن المحال عادةً أن يُطلَبَ فيه نعيمٌ ولذة وراحة ، إنما ذلك بعد انتهاء السفر . ومن المعلوم أن كل وطأةِ قدَمٍ ، أو كلَّ آن من آنات السفر غيرُ واقفة ، ولا المكلَّفُ واقف ، وقد ثَبَتَ أنه مسافر على الحال التي يجب أن يكون المسافر عليها من تهيئة الزاد الموصل ، وإذا نزل أو نام أو استراح فعلى قدم الاستعداد للسير[1] .

* * *

١١٤ ـ فائدة

عند العارفين أن الاشتغال بالمشاهدة عن البذ[2] في السير في السرِّ وقوف ، لأنه في زمن المشاهدة لو كان صاحب عمل ظاهر أو باطن أو ازدياد من معرفة وإيمان مفصل كان أولى به ، فإن اللطيفة الإنسانية تُحشر على صورة عملها ومعرفتها وهمّتها وإرادتها ، والبدن يُحشر على صورة عمله الحسن أو القبيح . وإذا انتقلتَ من هذه الدار شاهدتَ حقيقة ذلك . وعلى قدر قُرْبِ قلبك من الله تبعد من الأنس بالناس ومساكنتهم ، وعلى قدر صيانتك لسرِّك وإرادتك يكون حفظه . ومِلاكُ ذلك صحة التوحيد ، ثم صحة العلم بالطريق ، ثم صحة الإرادة ، ثم صحة العمل . والحذرَ كل الحذر من قصدِ الناس لك وإقبالهم عليك وأن يعثروا على موضع غرضك ، فإنها الآفة العظمى .

* * *

---

(١) انظر ما ذكره الجاحظ من أنه خطبة للنبي صلى الله عليه وسلم في حاشية ص ٢١٣ .

(٢) في الأصل البر ولعلها مصفحة عن البذ وهو : الاسراع والسبق والغلبة . وقد رجح الشيخ منير الدمشقي رحمه الله أن يكون صوابه الجد، والله أعلم .

١١٥ ـ فائدة

كل ذي لُبٍ يعلم أنه لا طريق للشيطان عليه إلا من ثلاث جهات :

أحدها : التزيُّد والإسراف ، فيزيد على قدر الحاجة فتصير فضلة وهي حظ الشيطان ومدخلُه إلى القلب، وطريق الاحتراز منه [عدم][1] إعطاء النفس تمام مطلوبها من غذاء أو نوم أو لذة أو راحة . فمتى أغلقتَ هذا الباب حصل الأمان من دخول العدوّ منه .

الثانية : الغفلة ، فإن الذاكر في حصن الذكر ، فمتى غفلَ فتح باب الحصن فولجه العدوّ فيعسر عليه أو يصعب إخراجه .

الثالثة : تكلُّف ما لا يعنيه من جميع الأشياء .

***

١١٦ ـ فائدة

طالبُ النفوذ إلى الله والدار الآخرة بل وإلى كل علم وصناعة ورئاسة بحيث يكون رأساً في ذلك مقتدىً به فيه ، يحتاج أن يكون شجاعاً مقداماً حاكماً على وهمه ، غيرَ مقهور تحت سلطان تخيُّله ، زاهداً في كل ما سوى مطلوبه ، عاشقاً لما توجّه إليه ، عارفاً بطريق الوصول إليه والطرق والقواطع عنه ، مقدامَ الهمّة ، ثابت الجأش ، لا يثنيه عن مطلوبه لومُ لائم ، ولا عَذْلُ عاذل ، كثيرَ السكون ، دائم الفكر ، غير مائل مع لذّة المدح ، ولا ألم الذم ، قائماً بما يحتاج إليه من

---

(١) في الأصل من .

أسباب معونته ، لا تستفزّه المعارضات ، شعارُه الصبر ، وراحتُه التعب ، مُحِبّاً لمكارم الأخلاق ، حافظاً لوقته ، لا يخالط الناس إلا على حَذَر ، كالطائر الذي يلتقط الحَبّ بينهم ، قائماً على نفسه بالرغبة والرهبة ، طامعاً في نتائج الاختصاص على بني جنسه ، غير مُرْسِلٍ شيئاً من حواسه عبثاً ، ولا مُسرحاً خواطِرَه في مراتب الكون . وملاك ذلك هجر العوائد ، وقطع العلائق الحائلة بينك وبين المطلوب[1] ، وعند العوام أنَّ لزوم الأدب مع الحجاب ، خيرٌ من اطراح الأدب مع الكشف .

* * *

١١٧ ـ فـائـــدة

مِنَ الذاكرين مَنْ يبتدىء بذكر اللسان وإن كان على غفلة ، ثم لا يزال فيه حتى يحضر قلبه فيتواطآ على الذكر . ومنهم مَن لا يرى ذلك ولا يبتدىء على غفلة بل يسكن حتى يحضر قلبه فيشرع في الذكر بقلبه ، فإذا قَوِيَ استتبع لسانه فتواطآ جميعاً . فالأول ينتقل الذكر من لسانه إلى قلبه . والثاني ينتقل من قلبه إلى لسانه ، من غير أن يخلو قلبه منه ، بل يسكن أولاً حتى يحسَّ بظهور الناطق فيه . فإذا أحسَّ بذلك نطق قلبه ثم انتقل النطق القلبي إلى الذكر اللساني ثم يستغرق في ذلك حتى يجد كل شيء منه ذاكراً .

وأفضل الذكر وأنفعُه ما واطأ فيه القلب اللسان وكان من الأذكار النبوية وشهدَ الذاكرُ معانيه ومقاصده .

* * *

---

(١) انظر ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥ ، في هجر العوائد وقطع العوائق والعلائق .

١١٨ ـ فصل

أنفعُ الناس لك رجلٌ مكَّنك من نفسه حتى تزرع فيه خيراً ، أو تصنع إليه معروفاً ، فإنه نِعْمَ العون لك على منفعتك وكمالك . فانتفاعك به في الحقيقة مثل انتفاعه بك أو أكثر . وأضرُّ الناس عليك مَن مكَّن نفسه منك حتى تعْصِيَ الله فيه فإنه عونٌ لك على مضرَّتك ونقصك .

* * *

١١٩ ـ فصل

اللذة المحرَّمة ممزوجة بالقبح حال تناولها ، مثمرة للألم بعد انقضائها ، فإذا اشتدَّت الداعية منك إليها ، ففكِّرْ في انقطاعها ، وبقاء قُبْحِها وألمها ، ثم وازِنْ بين الأمرين ، وانظرْ ما بينهما من التفاوت .

والتَعَبُ بالطاعة ممزوجٌ بالحسن ، مثمرٌ للذة والراحة ، فإذا ثَقُلَتْ على النفس ، ففكِّرْ في انقطاع تعبها ، وبقاء حسنها ولذَّتها وسرورها ، ووازِنْ بين الأمرين ، وآثِرِ الراجحَ على المرجوح ، فإن تألَّمْتَ بالسبب ، فانظرْ إلى ما في المسبَّب من الفرحة والسرور واللذة ، يَهُنْ عليك مقاساته ، وإنْ تألمتَ بترك اللذة المحرَّمة ، فانظرْ إلى الألم الذي يعقبه ، ووازِنْ بين الألَمين .

وخاصيَّة العقلِ تحصيلُ أعظم المنفعتين بتفويت أدناهما واحتمالُ أصغر الألمين لدفع أعلاهما .

وهذا يحتاج إلى علم بالأسباب ومقتضياتها ، وإلى عقل يختار به الأوْلى والأنفع له منها ، فَمن وفُرَ قسمُه من العقل والعلم اختار الأفضل

وآثره ، ومَن نَقَصَ حظُّه منهما أو مِن أحدهما اختار خِلافه ، ومَن فكَّرَ في الدنيا والآخرة علمَ أنه لا ينال واحداً منهما إلا بمشَقَّة ، فليَتَحَمَّل المشقَّة لخيرهما وأبقاهما .

❊ ❊ ❊

١٢٠ ـ فصل

للّه على العبد في كل عضو من أعضائه أمرٌ ، وله عليه فيه نهيٌ ، وله فيه نعمة ، وله به منفعة ولذة . فإنْ قام للَّهِ في ذلك العضو بأمره ، واجتنب فيه نهيَه ، فقد أدّى شكر نعمته عليه فيه ، وَسَعى في تكميل انتفاعه ولذته به ، وإنْ عطَّل أمْرَ اللّه ونَهَيْهُ فيه ، عطَّله اللّه من انتفاعه بذلك العضو ، وجعله من أكبر أسباب أَلَمِهِ وَمَضَرَّتِهِ .

وله عليه في كل وقتٍ من أوقاته عبوديةٌ تقدِّمه إليه ، وتقرِّبه منه ، فإنْ شغلَ وقته بعبودية الوقت ، تقدَّم إلى ربه ، وإنْ شغَله بهوى أو راحة وبطالة تأخَّر ، فالعبدُ لا يزال في تقدُّم أو تأخُّر ، ولا وقوف في الطريق البتة . قال تعالى : ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ [المدثر : ٣٧] .

❊ ❊ ❊

١٢١ ـ فصل

أقام اللّه سبحانه هذا الخلق بين الأمر والنهي ، والعطاء والمنع . فافترقوا فرقتين : فرقة قابلت أمْرَه بالترك ، وَنَهْيَه بالارتكاب ، وعطاءَه بالغفلة عن الشكر ، وَمَنْعَه بالسخط ، وهؤلاء أعداؤه ، وفيهم من العداوة بحسب ما فيهم من ذلك .

وقسم قالوا : إنما نحن عبيدك ، فإنْ أمَرْتَنَا سارعنا إلى الإجابة ، وإنْ نَهَيْتَنَا أمسكنا نفوسَنَا ، وكففناها عما نهيتنا عنه ، وإنْ أعطيتنا حَمِدناك وشكرناك ، وإنْ منعْتَنَا تضرَّعْنا إليك وَذَكَرْناك . فليس بين هؤلاء وبين الجنة إلا سِتْر الحياة الدنيا ، فإذا مَزَّقه عليهم الموت ، صاروا إلى النعيم المقيم وقُرَّة الأعين . كما أن أولئك ليس بينهم وبين النار إلا سِتْرُ الحياة ، فإذا مَزَّقه الموت ، صاروا إلى الحسرة والألم .

فإذا تصادمتْ جيوشُ الدنيا والآخرة في قلبك ، وأردتَ أن تعلم من أيِّ الفرقين أنت ، فانظر مع مَن تميل منهما ، ومع مَن تقاتل ، إذْ لا يمكنك الوقوف بين الجيشين ، فأنت مع أحدهما لا محالة . فالفريق الأول استَغَشُّوا الهوى فخالفوه ، واستنصحوا العقل فشاوروه ، وفرَّغوا قلوبَهم للفكر فيما خلقوا له ، وجوارحهم للعمل بما أُمِروا به ، وأوقاتَهم لعمارتها بما يعمر منازلهم في الآخرة ، واستظهروا على سرعة الأجَل بالمبادرة إلى الأعمال ، وسكنوا الدنيا وقلوبَهُم مسافرة عنها ، واستوطنوا الآخرة قبل انتقالهم إليها ، واهتمُّوا باللّه على قدر حاجتهم إليه ، وتزوَّدُوا للآخرة على قدر مُقامهم فيها ، فعجَّل لهم سبحانه من نعيم الجنة ورَوْحِها أن آنسهم بنفسه ، وأقبل بقلوبهم إليه ، وَجَمَعَها على محبته ، وشوّقهم إلى لقائه ، ونعَّمهم بقربه ، وفَرَّغ قلوبهم مما ملأ قلوب غيرهم من محبة الدنيا والهمّ والحزن على فَوْقها ، والغمْ من خوف ذهابها ، فاستلانوا ما استوعره المترفون ، وأنِسوا بما استوحش منه الجاهلون ، صَحِبوا الدنيا بأبدانهم ، والملأ الأعلى بأرواحهم .

* * *

١٢٢ ـ فصل

التوحيدُ ألطف شيء وأنزهه وأنظفه وأصفاه ، فأدنى شيء يخدشه ويدنِّسه ويؤثر فيه ، فهو كأَبْيَضِ ثوبٍ يكون ، يؤثر فيه أدنى أثر ، وكالمرآة الصافية جداً ، أدنى شيء يؤثر فيها . ولهذا تشوِّشه اللحظة واللفظة والشهوة الخفيّة ، فإنْ بادَرَ صاحبُهُ وقلعَ ذلك الأثر بضدِّه ، وإلا استحكم وصار طبعاً يتعسَّر عليه قلعُه .

وهذه الآثار والطبوع التي تحصل فيه :منها ما يكون سريع الحصول سريع الزوال ، ومنها ما يكون سريع الحصول بطيء الزوال ، ومنها ما يكون بطيء الحصول سريع الزوال ، ومنها ما يكون بطيء الحصول بطيء الزوال .

ولكن مِنَ الناسِ مَنْ يكون توحيده كبيراً عظيماً ، ينغمر فيه كثير من تلك الآثار ، ويستحيل فيه بمنزلة الماء الكثير الذي يخالطه أدنى نجاسة أو وسخ ، فيغترُّ به صاحبُ التوحيد الذي هو دونه ، فيخلط توحيده الضعيف بما خلط به صاحب التوحيد العظيم الكثير توحيده ، فيظهر من تأثيره فيه ما لم يظهر في التوحيد الكثير .

وأيضاً فإن المحل الصافي جداً يظهر لصاحبه مما يدنِّسه ما لا يظهر في المحل الذي لم يبلغ في الصفاء مبلغه ، فيتداركه بالإزالة دون هذا فإنه لا يشعر به .

وأيضاً فإن قوة الإيمان والتوحيد إذا كانت قوية جداً أحالت المواد الرديئة وقهرتها ، بخلاف القوة الضعيفة .

وأيضاً فإن صاحب المحاسن الكثيرة والغامرة للسيئات ليسامح بما لا يسامح به مَن أتى مثلَ تلك السيئات وليست له مثل تلك المحاسن ، كما قيل :

وَإِذَا الحَبِيْبُ أَتَىٰ بِـذَنْبٍ وَاحِدٍ جَـاءَتْ مَحَاسِنُـهُ بِـأَلْفِ شَفِيْـعِ

وأيضاً فإن صدق الطلب ، وقوة الإرادة ، وكمال الانقياد يُحِيلُ تلك العوارض والغواشيَ الغريبة إلى مقتضاه وموجبه ، كما أن الكذب ، وفساد القصد ، وضعف الانقياد يُحِيلُ الأقوال والأفعال الممدوحة إلى مقتضاه وموجبه ، كما يشاهد ذلك في الأخلاط الغالبة ، وإحالَتِهَا لصالح الأغذية إلى طبعها .

* * *

١٢٣ ـ فـائـــدة

تركُ الشهوات للّه وإنْ أنجى من عذاب اللّه وأوجبَ الفوزَ برحمته ، فذخائرِ اللّه ، وكنوز البرّ ، ولذة الأنس ، والشوقِ إليه ، والفرحِ والابتهاجِ به ، لا تحصل في قلب فيه غيره ، وإن كان من أهل العبادة والزهد والعلم ، فإن اللّه سبحانه أبى أن يجعل ذخائره في قلب فيه سواه ، وهمّته متعلقة بغيره ، وإنما يودع ذخائره في قلب يرى الفقرَ غِنَىً مع اللّه ، والغنى فقراً دون اللّه والعزَّ ذلّاً دونه ، والذلَّ عزّاً معه ، والنعيمِ عذاباً دونه ، والعذابَ نعيماً معه .

وبالجملة ، فلا يرى الحياةَ إلا به ومعه ، والموتَ والألم والهمَّ والغَمَّ والحزن ، إذا لم يكن معه ، فهذا له جَنَّتان : جَنَّةٌ في الدنيا معجَّلة ، وجنة يوم القيامة[مؤجلة] .

* * *

١٢٤ - فَائِدة

الإنابةُ هي عكوف القلب على اللّه عز وجل كاعتكاف البدن في المسجد لا يفارقه . وحقيقة ذلك عكوفُ القلب على محبته ، وذكره بالإجلال والتعظيم ، وعكوف الجوارح على طاعته ، بالإخلاص له ، والمتابعة لرسوله صلى الله عليه وسلم، ومَن لم يعكف قلبه على اللّه وحده، عكف على التماثيل المتنوِّعة ، كما قال إمام الحنفاء لقومه : ﴿ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾[الأنبياء : ٥٢] ، فاقتسم هو وقومه حقيقة العكوف ، فكان حظُّ قومه العكوفَ على التماثيل ، وكان حظُّه العكوف على الرب الجليل . والتماثيل جمع تمثال ، وهي الصور الممثلة . فتعلُّق القلب بغير الله ، واشتغالهُ به ، والركونُ إليه ، عكوفٌ منه على التماثيل التي قامت بقلبه ، وهو نظير العكوف على تماثيل الأصنام ، ولهذا كان شرك عُبَّاد الأصنام بالعكوف بقلوبهم وهِمَمهم وإراداتهم على تماثيلهم ، فإذا كان في القلب تماثيل قد ملكته واستعبدته بحيث يكون عاكفاً عليها ، فهو نظير عكوف الأصنام عليها ، ولهذا سمّاه النبي صلى الله عليه وسلم عبداً لها ودعا عليه بالتَّعس والنُّكسِ فقال : « تَعِسَ عَبْدُ الدِّيْنَارِ ، تِعَسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ ، تِعَسَ وَانْتَكَسَ وَإذا شِيكَ فَلاَ انْتَقَشَ »[1] .

* * *

---

(١) رواه البخاري ٦/١٦٠ - ١٦١ في الجهاد : باب الحراسة في الغزو في سبيل الله ، و ١١/ ٢١٦ في الرقاق : باب ما تبقى من فتنة المال ، وابن ماجه رقم (٤١٣٥) و (٤١٣٦) في الزهد : باب في المكثرين . من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، ولفظه : « تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة ، إن أعطي رضي ، وإن لم يعط سخط ، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش ، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله ، أشعث رأسه ، مغبرة قدماه ، إن كان في الحراسة كان في الحراسة ، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع . . . »الحديث.

الناس في هذه الدار على جناح سفر كلُّهم ، وكل مسافر فهو ظاعن إلى مقصده ونازل على مَنْ يُسَرُّ بالنزول عليه ، وطالبُ اللّهِ والدارِ والآخرة إنما هو ظاعن إلى اللّه في حال سفره ونازل عليه عند القدوم عليه ، فهذه هِمّته في سفره وفي انقضائه: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ* ٱرْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَٱدْخُلِي فِي عِبَادِي * وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ﴾ [الفجر : ٢٧ ـ ٣٠] .

وقالت امرأة فرعون : ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي ٱلْجَنَّةِ ﴾ [التحريم : ١١] ! فطلبت كون البيت غنده قبل طلبها أن يكون في الجنة ، فإن الجار قبل الدار .

* * *

من كلام الشيخ علي(١) قيل لي في نوم كاليقظة أو يقظة كالنوم .

* لا تُبْدِ فاقةً إلى غيري فأضاعفها عليك مكافأة لخروجك عن حدِّك في عبوديتك .

* ابتليتك بالفقر لتصير ذهباً خالصاً فلا تزيفَنَّ بعد السَّبْك .

* حَكَمْتُ لك بالفقر ولنفسي بالغنى ، فإنْ وَصَلْتَها بي وَصَلْتُك بالغنى ، وإنْ وَصَلْتَها بغيري حَسَمْتُ عنك موادَّ معونتي طرداً لك عن بابي .

* لا تركنْ إلى شيء دوننا فإنه وَبَالٌ عليك ، وقاتِلٌ لك . إنْ ركنتَ إلى العمل رددناه عليك ، وإنْ ركنتَ إلى المعرفة نكرناها عليك ، وإنْ ركنتَ إلى الوجْدِ استدرجناك فيه ، وإنْ ركنتَ إلى العمل أوقفناك معه ، وإنْ ركنتَ إلى المخلوقين وَكَلْنَاك إليهم ، إرْضَنا لك ربّاً نرضاك لنا عبداً .

* * *

---

(١) لم أعرفه .

١٢٥ ـ فـائـــدة

الشهقة التي تَعْرُضُ عند سماعِ القرآنِ أو غيرِه لها أسباب :

أحدها : أن يَلُوحَ له عند السماع درجةٌ ليست له ، فيرتاحُ إلَيْـهَا ، فتحْدُثَ له الشهقة ، فهذه شهقة شوق .

وثانيها : أن يلوح له ذنب ارتكبه ، فيشهق خوفاً وحزناً على نفسه ، وهذه شهقة خشية .

وثالثها : أن يلوح له نقصٌ فيه لا يقدر على دفعه عنه ، فَيُحْدِثَ له ذلك حزناً ، فيشهق شهقة حزن .

ورابعها : أن يلوح له كمال محبوبه ، ويرى الطريق إليه مسدودة عنه ، فيحدث ذلك شهقة أسفٍ وحزن .

وخامسها : أن يكون قد توارى عنه محبوبه ، واشتغل بغيره ، فذكَّرَه السماع محبوبَهُ ، فلاحَ له جمالُهُ ، ورأى البابَ مفتوحاً والطريق ظاهرة ، فشهق فرحاً وسروراً بما لاح له .

وبكلِّ حال : فسببُ الشهقة قوّةُ الوارد ، وضعفُ المحل عن الاحتمال . والقوّةُ أن يعملَ ذلك الواردُ عمَلَهُ داخلاً ولا يَظهَرَ عليه ، وذلك أقوى له وأدْوَم ، فإنه إذا أظهره ضعف أثره وأوشك انقطاعُه .

هذا حكم الشهقة من الصادق ، فإن الشاهق إما صادق وإما سارق وإما منافق .

* * *

١٢٦ ـ فائدة نافعة

أصل الخير والشرِّ من قِبَل التفكر ، فإن الفِكْرَ مبدأ الإرادة والطلب في الزهد والترك والحب والبغض . وأنفعُ الفِكْرِ الفكرُ في مصالح المعاد وفي طرق اجتلابها وفي دفع مفاسد المعاد وفي طرق اجتنابها ، فهذه أربعة أفكار هي أجَلّ الأفكار . ويليها أربعة : فكر في مصالح الدنيا وطرق تحصيلها ، وفكر في مفاسد الدنيا وطرق الاحتراز منها ، فعلى هذه الأقسام الثمانية دارت أفكار العقلاء . ورأس القسم الأول الفكر في آلاء اللّه ونِعَمِهِ ، وأمرِهِ ونهيه ، وطرُق العلم به وبأسمائه وصفاته من كتابه وسُنة نبيه صلى الله عليه وسلم وما والاهما ، وهذا الفكر يثمر لصاحبه المحبة والمعرفة . فإذا فكَّر في الآخرة وشرفها ودوامها ، وفي الدنيا وخِسَّتِهَا وفَنَائِها ، أثمر له ذلك الرغبة في الآخرة ، والزهد في الدنيا ، وكلما فكَّر في قصر الأمل ، وضيق الوقت ، أورثه ذلك الجدَّ والاجتهاد ، وبذل الوسع في اغتنام الوقت .

وهذه الأفكار تُعْلي هِمّتَه ، وتُحْييها بعد موتها ، وسُفولها ، وتجعله في وادٍ والناس في واد . وبإزاء هذه الأفكار الأفكارُ الرديئة التي تجول في قلوب أكثر هذا الخلق، كالفكر فيما لم يكلف الفكر فيه ، ولا أعطي الإحاطة به من فضول العلم الذي لا ينفع ، كالفكر في كيفيَة ذات الرب وصفاته ، مما لا سبيل للعقـول إلى إدراكه .

ومنها الفكر في الصناعات الدقيقة التي لا تنفع بل تضرّ ، كالفكر في الشطرنج والموسيقى وأنواع الأشكال والتصاوير .

ومنها الفكر في العلوم التي لو كانت صحيحة لم يُعْطِ الفكرُ فيها

النفسَ كمالاً ولا شرفاً ، كالفكر في دقائق المنطق والعلم الرياضي والطبيعي ، وأكثر علوم الفلاسفة التي لو بلغ الانسان غاياتها لم يكمل بذلك ولم يُزَكِّ نفسَه .

ومنها الفكر في الشهوات واللذات وطرق تحصيلها ، وهذا وإن كان للنفس فيه لذة لكن لا عاقبة له ، ومضرَّته في عاقبة الدنيا قبل الآخرة أضعافُ مسرَّته .

ومنها الفكر فيما لم يكن لو كان كيف كان يكون، كالفكر فيما إذا صار مَلِكاً ، أو وجَدَ كنزاً ، أو مَلَكَ ضيعة ، ماذا يصنع ؟ وكيف يتصرف ، ويأخذ ، ويعطي ، وينتقم ؟ ونحو ذلك من أفكار السفل .

ومنها الفكر في جزئيات أحوال الناس وماجَرَاياتهم ومداخلهم ومخارجهم وتوابع ذلك من فكر النفوس المبطلة الفارغة من اللّه ورسوله والدار الآخرة .

ومنها الفِكر في دقائق الحِيَل والمَكْر التي يتوصّلُ بها إلى أغراضه وهواه مُباحة كانت أو محرَّمة .

ومنها الفكر في أنواع الشعر وصروفه وأفانينه في المدح والهجاء والغزل والمراثي ونحوها ، فإنه يَشْغَل الإنسان عن الفكر فيما فيه سعادته وحياته الدائمة .

ومنها الفكر في المقدَّرات الذهنية التي لا وجود لها في الخارج ولا بالناس حاجة إليها البتَّة ، وذلك موجود في كل علم حتى في علم الفقه والأصول والطب ، فكل هذه الأفكار مضرَّتها أرجح من منفعتها ، ويكفي في مضرَّتها شُغْلها عن الفكر فيما هو أوْلى به وأعْوَدُ عليه بالنفع عاجلاً وآجلاً .

* * *

١٢٧ ـ قاعـدة

* الطلبُ لِقاحُ الإيمان ، فإذا اجتمع الإيمان والطلب أثمرا العملَ الصالح .

* وحُسْنُ الظنِّ باللّه لِقَاحُ الافتقار والاضطرار إليه ، فإذا اجتمعا أثمرا إجابةَ الدعاء .

* والخشيةُ لقاحُ المحبة ، فإذا اجتمعا أثمرا امتثال الأوامر واجتناب المناهي .

* والصبرُ لقاح اليقين ، فإذا اجتمعا أورثا الإمامة في الدين ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ٢٤] .

وصحة الاقتداء بالرسول لقاحُ الإخلاص ، فإذا اجتمعا أثمرا قبولَ العمل والاعتداد به .

* والعملُ لقاح العلم ، فإذا اجتمعا كان الفلاحُ والسعادة ، وإن انفرد أحدهما عن الآخر لم يفد شيئاً .

* والحلمُ لقاح العلم ، فإذا اجتمعا حصلت سيادة الدنيا والآخرة وحصل الانتفاع بعلم العالم ، وإن انفرد أحدهما عن صاحبه فات النفع والانتفاع .

* والعزيمةُ لقاح البصيرة ، فإذا اجتمعا نال صاحبُهما خيرَ الدنيا والآخرة وبلغت به همّته من العلياء كل مكان . فتخلُّف الكمالات إما من عدم البصيرة وإما من عدم العزيمة .

* وحسن القصد لقاحُ لصحة الذهن ، فإذا فُقِدا فقد الخيرُ كلُّه ، وإذا اجتمعا أثمرا أنواع الخيرات .

* وصحة الرأي لقاح الشجاعة ، فإذا اجتمعا كان النصر والظفر ، وإن فقدا فالخذلان والخيبة ، وإن وجد الرأيُ بلا شجاعة فالجبن والعجز ، وإن حصلت الشجاعة بلا رأي فالتهوُّر والعطب .

* والصبرُ لقاح البصيرة ، فإذا اجتمعا فالخير في اجتماعهما . قال الحسن : إذا شئتَ أن ترى بصيراً لا صبر له رأيته ، وإذا شئت أن ترى صابراً لا بصيرة له رأيته ، فإذا رأيت صابراً بصيراً فذاك .

* والنصيحةُ لقاح العقل ، فكلما قويت النصيحة قويَ العقلُ واستنار .

* والتذكُّر والتفكُّر كلٌّ منهما لقاح الآخر ، إذا اجتمعا أنتجا الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة .

* والتقوى لقاح التوكـل ، فإذا اجتمعا استقام القلب .

* ولقاحُ أخْذِ أُهْبَةِ الاستعداد للقاءِ قِصَر الأمل ، فإذا اجتمعا فالخير كله في اجتماعهما والشرُّ في فُرقتهما .

* ولقاحُ الهمّة العالية النيّة الصحيحة ، فإذا اجتمعا بلغ العبدُ غاية المراد .

* * *

١٢٨ ـ قاعـدة

للعبد بين يدي الله موقفان : موقف بين يديه في الصلاة ، وموقف بين يديه يوم لقائه . فمَن قام بحقِّ الموقف الأول هَوَّنَ عليه الموقف الآخر ، ومَن استهان بهذا الموقف ولم يوفِه حقَّه ، شُدِّدَ عليه ذلك الموقف . قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً * إِنَّ هٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً ﴾ [الانسان : ٢٦ ـ ٢٧] .

* * *

١٢٩ ـ قاعـدة

اللذة من حيث هي مطلوبةٌ للإنسان ولكل حيٍّ ، فلا تُذَمُّ من جهة كونها لذة ، وإنما تذمُّ ويكون تركها خيراً من نيلها وأنفع إذا تضمّنت فواتَ لذة أعظم منها وأكمل ، أو أعقبت ألماً حصولُه أعظمُ من ألم فواتها . فها هنا يظهر الفرق بين العاقل الفَطِن والأحمق الجاهل . فمتى عَرَفَ العقلُ التفاوتَ بين اللذتين والألَمين ، وأنه لا نسبة لأحدهما إلى الآخر هان عليه ترك أدنى اللذتين لتحصيل أعلاهما ، واحتمالُ أيسرِ الألمين لدفع أعلاهما .

وإذا تقررت هذه القاعدة فلذة الآخرة أعظم وأدْوَم ، ولذةُ الدنيا أصغرُ وأقصر ، وكذلك ألمُ الآخرة وألم الدنيا . والمعَوَّل في ذلك على الإيمان واليقين ، فإذا قَوِيَ اليقينُ وباشرَ القلبَ ، آثرَ الأعلى على الأدنى في جانب اللذة ، واحتَمل الألم الأسهل على الأصعب ، والله المستعان .

* * *

١٣٠ ـ فائدة

قوله تعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٣] ، جمع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد ، وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه ، ووجودِ طَعْم المحبة في التملُّقِ له ، والإقرار له بصفة الرحمة ، وأنه أرحم الراحمين ، والتوسل إليه بصفاته سبحانه ، وشدة حاجته هو وفقره ، ومتى وَجَدَ المُبْتَلَى هذا كُشِفَتْ عنه بلواه . وقد جُرِّب أنه مَن قالها سبعَ مرات ولاسيما مع هذه المعرفة كشفَ اللهُ ضرَّه .

* * *

١٣١ ـ فائدة

قوله تعالى عن يوسف نبيه أنه قال : ﴿ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف : ١٠١] ، جمعت هذه الدعوة : الإقرار بالتوحيد، والاستسلام للرب، وإظهار الافتقار إليه، والبراءَةَ من مُوالاةِ غيره سبحانه ، وكونَ الوفاة على الإسلام أجَلَّ غايات العبد، وأن ذلك بيد الله لا بيد العبد، والاعترافَ بالمعاد، وطلب مرافقة السعداء .

* * *

١٣٢ ـ فائدة

قوله الله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ ﴾ [الحجر : ٢١] متضمنٌ لكنز من الكنوز وهو أن كل شيء لا يطلب إلا ممن عنده

خزائنه ، ومفاتيحُ تلك الخزائن بيديه . وأنَّ طلبه من غيره طلب ممن ليس عنده ولا يقدر عليه .

وقوله : ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم : ٤٢] متضمنٌ لكنز عظيم ، وهو أن كل مراد إن لم يُرد لأجله ويتصل به وإلاَّ فهو مضمحلّ منقطع فإنه ليس إليه المنتهي وليس المنتهى إلا إلى الذي انتهت إليه الأمور كلها فانتهت إلى خلقِهِ ومشيئتِهِ وحكمته وعلمه ، فهو غاية كل مطلوب ، وكل محبوب لا يحب لأجله فمحبته عناء وعذاب . وكلُّ عمل لا يراد لأجله فهو ضائع وباطل . وكلُّ قلب لا يصل إليه فهو شقي محجوب عن سعادته وفلاحه ، فاجتمع ما يراد منه كله في قوله : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ ،واجتمع ما يراد له كله في قوله : ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ ، فليس وراءه سبحانه غاية تُطلب ، وليس دونه غاية إليها المنتهى .

وتحت هذا سر عظيم من أسرار التوحيد ، وهو أن القلب لا يستقر ولا يطمئن ويسكن إلا بالوصول إليه ، وكل ما سواه مما يُحَبُّ ويُراد فمراد لغيره . وليس المرادُ المحبوبُ لذاته إلا واحدٌ إليه المنتهى . ويستحيل أن يكون المنتهى إلى اثنين كما يستحيل أن يكون ابتداء المخلوقات من اثنين ، فمن كان انتهاء محبته ورغبته وإرادته وطاعته إلى غيره بَطَلَ عليه ذلك وزال عنه وفارقهُ أحوجَ ما كان إليه . ومن كان انتهاء محبته ورغبته ورهبته وطلبه هو سبحانه ظفر بنعيمه ولذته وبهجته وسعادته أبد الآباد .

* * *

العبد دائماً متقلب بين أحكام الأوامر وأحكام النوازل ، فهو محتاج بل مضطر إلى العون عند الأوامر ، وإلى اللطف عند النوازل ، وعلى قدر قيامه بالأوامر يحصُلُ له من اللطف عند النوازل ، فإن كمَّل القيام بالأوامر

ظاهراً وباطناً ناله اللطف ظاهراً وباطناً ، وإن قام بصورها دون حقائقها ناله اللطف في الظاهر وقلَّ نصيبه من اللطف في الباطن .

فإنْ قلتَ : وما اللطفُ الباطن ؟ فهو ما يحصل للقلب عند النوازل من السكينة والطمأنينة ، وزوال القلق والاضطراب والجزع ، فيستخذي بين يدي سيده ذليلاً له مستكيناً ، ناظراً إليه بقلبه ، ساكناً إليه بروحه وسرِّه ، وقد شغله مشاهدة لطفه به عن شدّة ما هو فيه من الألم ، وقد غيَّبه عن شهود ذلك معرفته بحسن اختياره له وأنه عبد محض يُجري عليه سيدُه أحكامَه رضيَ أو سَخِطَ ، فإن رضيَ نال الرضا وإنْ سَخِطَ فحظه السخط ، فهذا اللطف الباطن ثمرة تلك المعاملة الباطنة يزيد بزيادتها وينقص بنقصانها .

* * *

١٣٣ ـ فائدة جليلة

لا يزال العبد منقطعاً عن الله حتى تتصل إرادته ومحبته بوجهه الأعلى . والمراد بهذا الاتصال أن تُفضي المحبةُ إليه وتتعلقَ به وحده فلا يحجبها شيء دونه ، وأن تتصل المعرفة بأسمائه وصفاته وأفعاله فلا تَطْمِسُ نورَها ظلمةُ التعطيل ، كما لا تطمس نورَ المحبة ظلمةُ الشرك ، وأن يتصل ذكره به سبحانه ، فيزول بين الذاكر والمذكور حجاب الغفلة ، والتفاته في حال الذكر إلى غير مذكوره . فحينئذٍ يتصل الذكر به ويتصل العمل بأوامره ونواهيه ، فيفعل الطاعة لأنه أُمِرَ بها وأحبَّها ، ويترك المناهي لكونه نُهِيَ عنها وأبغضها .

فهذا معنى اتصال العمل بأمره ونهيه ، وحقيقتُه زوال الغلل الباعثة

على الفعل والترك من الأغراض والحظوظ العاجلة .

ويتصل التوكل والحب به بحيث يصير واثقاً به سبحانه مطمئناً إليه ، راضياً بحسن تدبيره له ، غيرَ مُتَّهِمٍ له في حال من الأحوال ، ويتصل فقره وفاقته به سبحانه دونَ من سواه .

ويتصل خوفه ورجاؤه وفرحه وسروره وابتهاجه به وحده ، فلا يخاف غيره ، ولا يرجوه ، ولا يفرح به كل الفرح ، ولا يسرُّ به غاية السرور . وإن ناله بالمخلوق بعض الفرح والسرور . فليس الفرح التام ، والسرور الكامل ، والابتهاج والنعيم ، وقرَّة العين ، وسكون القلب إلا به سبحانه ، وما سواه إن أعان على هذا المطلوب فرح به وسُرَّ به ، وإن حجب عنه فهو بالحزن به ، والوحشة منه ، واضطراب القلب بحصوله ، أحق منه بأن يفرح به ، فلا فرحة ولا سرور إلا به ، أو بما أوصل إليه ، وأعان على مرضاته . وقد أخبر سبحانه أنه لا يحب الفرحين بالدنيا وزينتِها ، وأمَرَ بالفرح بفضله ورحمته[1] وهو الإسلام والإيمان والقرآن ، كما فسّره الصحابة والتابعون .

والمقصود أن مَن اتصلت له هذه الأمور بالله سبحانه فقد وصل ، وإلا فهو مقطوع عن ربه ، متصل بحظه ونفسه ، مُلبَس عليه في معرفته وإرادته وسلوكه .

❊ ❊ ❊

---

(١) قال تعالى ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِمّا تَجْمَعُوْنَ﴾ [يونس: ٥٨] .

١٣٤ ـ قاعدة جليلة

قد فكرت في هذا الأمر فإذا أصله أن تعلم أن النعَم كلَّها من الله وحده ، نِعَم الطاعات ونِعَم اللذات ، فترغب إليه أن يُلهِمَك ذكرَها ويُوزِعَك شكرَها ، قال تعالى : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ، ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ [النحل : ٥٣] ، وقال : ﴿ فَٱذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ٦٩) ، وقال : ﴿ وَٱشْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [النحل : ١١٤] ، وكما أن تلك النعم منه ومن مجرد فضله فذكْرُها وشكْرُها لا يُنال إلا بتوفيقه .

والذنوب من خِذلانه ، وتخليه عن عبده ، وتخليته بينه وبين نفسه ، وإن لم يكشف ذلك عن عبده ، فلا سبيل له إلى كشفه عن نفسه ، فإذاً هو مضطر إلى التضرُّع والابتهال إليه ، أن يدفع عنه أسبابها ، حتى لا تصدر منه ، وإذا وقعت بحكم المقادير ومقتضى البشرية ، فهو مضطر إلى التضرُّع والدعاء أن يدفع عنه موجباتها وعقوباتها ، فلا ينفكُّ العبد عن ضرورته إلى هذه الأصول الثلاثة ، ولا فلاح له إلا بها : الشكرُ ، وطلبُ العافية ، والتوبةُ النصوح .

ثم فكَّرت فإذا مدار ذلك على الرغبة والرهبة ، وليسا بيد العبد بل بيد مُقَلِّبِ القلوب ومُصَرِّفِها كيف يشاء ، فإن وفَّق عبدَه أقبل بقلبه إليه وملأه رغبة ورهبة ، وإن خَذَلَه تركه ونفسه ، ولم يأخذ بقلبه إليه ولم يسأله ذلك ، وما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

ثم فكرت هل للتوفيق والخذلان سبب أم هما بمجرد المشيئة لا سبب لهما ؟ فإذا سَبَبُهُما أهلية المحل وعدمها ، فهو سبحانه خالقُ

المحالُّ متفاوتة في الاستعداد والقبول أعظمَ تفاوت ، فالجمادات لا تقبل ما يقبله الحيوان ، وكذلك النوعان كل منهما متفاوت في القبول . فالحيوان الناطق لا يقبل ما يقبله البهيم ، وهو متفاوت في القبول أعظم تفاوت . وكذلك الحيوان البهيم متفاوت في القبول ، لكن ليس بين النوع الواحد من التفاوت كما بين النوع الإنساني .

فإذا كان المحل قابلاً للنعمة بحيث يعرفها ، ويعرف قدرها وخطرها ، ويشكر المنعم بها ، ويُثني عليه بها ، ويعظمه عليها ، ويعلم أنها من محض الجود وعين المنّة ، من غير أن يكون هو مستحقاً لها ، ولا هي له ولا به ، وإنما هي لله وحده ، وبه وحده . فوَحَّده بنعمته إخلاصاً ، وصرَفها في محبته شكراً ، وشهِدَها من محض جوده منَّة ، وعرَف قصوره وتقصيره في شكرها عجزاً وضعفاً وتفريطاً ، وعلم أنه إن أدامها عليه فذلك محض صدقته وفضله وإحسانه ، وإن سلبه إياها فهو أهلٌ لذلك مستحق له .

وكلما زاده من نعمه ازداد ذلاً له وانكساراً ، وخضوعاً بين يديه ، وقياماً بشكره ، وخشيته له سبحانه أن يسلبه إياها ، لعدم توفيته شكرها ، كما سَلَبَ نعمته عمن لم يعرفها ، ولم يرعَها حق رعايتها ، فإن لم يشكر نعمته وقابلها بضدّ ما يليق أن يُقابَل به ، سلَبه إياها ولا بد ، قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ [الأنعام : ٥٣] ، وهم الذين عرفوا قدر النعمة وقبلوها وأحبُّوها ، وأثنوا على المنعم بها وأحبُّوه وقاموا بشكره ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ ، اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] .

* * *

١٣٥ ـ فصل [في بيان] أسباب الخذلان

وسبب الخذلان عدم صَلاحِيَّةِ المحلِّ وأهليتِه ، وقبوله للنعمة بحيث لو وافته النعَم لقال : هذا لي ، وإنما أُوتيته لأني أهله ومستحقه كما قال تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ [القصص : ٧٨] ، أي على علمٍ علمهُ اللهُ عندي استحق به ذلك وأستوجبُه وأستأهلهُ . قال الفراء : أي على فضل عندي أني كنت أهله ومستحقاً له إذ أُعطِيته . وقال مقاتل : يقول على خير عَلِمَه الله عندي .

وذكرَ عبدُ الله بن الحارث بن نوفل(١) : سليمانَ بن داود فيما أُوتي من المُلْكِ ، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ هٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ [النمل : ٤٠] ولم يقل هذا من كرامتي ، ثم ذكر : قارون وقوله : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ [القصص : ٧٨] ، يعني أن سليمان رأى ما أُوتيه من فضل الله عليه ومِنّتِه وأنه ابتلى به شكرَه ، وقارونَ رأى ذلك من نفسه واستحقاقه . وكذلك قوله سبحانه : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هٰذَا لِي ﴾ [فصلت : ٥٠] ، أي أنا أهله وحقيق به فاختصاصي به كاختصاص المالك بمُلْكِهِ .

والمؤمنُ يرى ذلك مُلكاً لربه ، وفضلاً منه مَنَّ به على عبده من غير استحقاق منه ، بل صدقة تصدَّق بها على عبدِه ، وله أن لا يتصدَّق بها .

---

(١) هو عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي ، لأبيه وجده صحبة ، وأمه هي هند بنت أبي سفيان بن حرب . كان ورعاً ظاهر الصلاح ، ولي البصرة لابن الزبير ، ولما قامت فتنة ابن الأشعث خرج إلى عُمان هارباً من الحجاج وتوفي بها سنة ٨٤هـ ، وكانت مولده سنة ٩هـ . انظر « سير اعلام النبلاء » ١/ ٢٠٠ .

فلو منعه إياها لم يكن قد منعه شيئاً هو له يستحقه عليه ، فإذا لم يشهد ذلك ، رأى فيه أهلًا ومستحقاً ، فأعجبته نفسه ، وطغت بالنعمة ، وعَلَتْ بها ، واستطالت على غيرها ، فكان حظها منها الفرح والفخر ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ ۞ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [هود : ٩ ـ ١٠] ، فذمَّه باليأس والكفر عند الامتحان بالبلاء ، وبالفرح والفخر عند الابتلاء بالنعماء . واستبدل بحمد الله وشكره والثناء عليه إذ كشف عنه البلاء قوله : ﴿ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ﴾ ولو أنه قال : أذهبَ الله السيئات عني برحمته ومَنِّه لمَا ذُمَّ على ذلك ، بل كان محموداً عليه ، ولكنه غفَل عن المنعم بكشفها ونسب الذهاب إليها وفرح وافتخر .

فإذا عَلِمَ اللهُ سبحانه هذا من قلب عبدٍ فذلك من أعظم أسباب خذلانه وتخلِّيه عنه ، فإن محله لا تناسبه النعمة المطلقة التامة كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ ٱلْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۞ وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٢ ـ ٢٣] ، فأخبر سبحانه أن محلهم غير قابل لنعمته ، ومع عدم القبول ففيهم مانع آخر يمنع وصولها إليهم وهو تولِّيهم وإعراضهم إذا عرفوها وتحققوها .

ومما ينبغي أن يُعْلَم أن أسبابَ الخِذلان مع بقاء النفس، على ما خُلِقَت عليه في الأصل وإهمالها وتخليتها ، فأسبابُ الخذلان منها وفيها ، وأسبابُ التوفيق من جعلِ الله سبحانه لها قابلة للنعمة . فأسباب التوفيق منه ومن فضله وهو الخالق لهذه وهذه كما خَلَقَ أجزاء الأرض ،

هذه قابلة للنبات وهذه غير قابلة له ، وخلق الشجر ، هذه تقبل الثمرة وهذه لا تقبلها ، وخلق النحلة قابلة لأن يخرج من بطونها شرابٌ مختلفٌ ألوانه ، والزنبور غير قابل لذلك . وخلق الأرواح الطيبة قابلة لذكره وشكره وحجّته وإجلاله وتعظيمه وتوحيده ونصيحة عباده ، وخلق الأرواح الخبيثة غير قابلة لذلك بل لضدِّه ، وهو الحكيم العليم .

* * *

١٣٦ - فائدة

* عَجِبَ رَبُّنَاْ مِنْ رَجُلٍ ثَاْرَ عَنْ وِطَاْئِهِ وَلِحَاْفِهِ إِلَىٰ صَلاَتِهِ .

تأمل معنى ثار ولم يقل قام، لأنّ القيام قد يقع بفتور، فأما الثوران فلا يكون إلَّا بإسراعٍ حذراً من فائت ما .

* انتفع آدم في بلية ، وعصى بكمال وعلم ، ولا رد عنه عز ﴿ اسْجُدُوْا . . . ﴾ [البقرة : ٣٤] وإنما خلَّصه ذل ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَاْ ﴾ [الأعراف : ٢٣] .

* لما عشقت للبلاء به الشجر تعلقت طلباً للعناق فقيل لها : مع الكثافة لا يمكن ، فرضيت بالنحول والتفت .

تَلَقَ قَلْبِيْ فَقَدْ أَرْسَلْتُهُ عَجِلاً ... إِلَىٰ لِقَاْئِكَ وَالأَشْوَاْقُ تَقْدُمُهُ
وَلاَ تَكِلْنِيِ عَلَىٰ بُعْدِ الدِيَاْرِ إِلَىٰ ... صَبْرِيْ الضَّعِيْفِ، فَصَبْرِيْ أَنْتَ تَعْلَمُهُ

قال الشاعر :

إِذَاْ لَمْ يَكُنْ بَيْنِيْ وَبَيْنَكَ مُرْسَلُ ... فَرِيْحُ الصِّبَاْ مِنِّي إِلَيْكَ رَسُوْلُ

* ملئوا مراكب القلوب متاعاً لا ينفق إلَّا على الملك ، فلما هبَّت رياح السحر أقلعت تلك المراكب ، قطعوا بادية الهوى بأقدام الجد ، فما كان إلا القليل حتى قدموا من السفر ، فاعتنقتهم الراحة في طريق التلقي ، فدخلوا بلد الوصل وقد حازوا رِبْح الأبد .

* فرَّغ القوم قلوبهم من الشواغل فضربت فيها سرادقات المحبة ، فأقاموا العيون تحرِس تارة وترمق الأرض أخرى .

* سرادق المحبة لا تضرب إلا في قاع فارغٍ نَزِهٍ. فرغ لي بيتاً أسكنه.

* اعرف مِقدارَ ما ضاع منك، وابك بكاء من يدري مقدار الفائت .

* لو تخيلت قرب الأحباب لأَقَمْتَ المأتم على بُعْدِك .

* لو استنشقت ريح الأسحار لأفاق قلبك المخمور .

* من استطال الطريق ضعف مشيه .

وَمَا أَنْتَ بِالمُشْتَاقِ إِنْ قُلْتَ بَيْنَنَا   طِوَالُ اللَيَالِيْ أَوْ بَعِيْدُ المَفَاوِزِ

* من قَبَّلَ فم اللذة لا ينكر عَضَّ أسنان الندامة .

* هان سهر الحراس لما علموا أن أصواتهم بمسمع الملك .

رَفِيْقُكَ قَيْسِيٌّ وَأَنْتَ يَمَانِي

* إذا كنت كلما لاحت لك شهوة طفيل العرائس فانتظر قِبَلَةَ وضاح اليمن(١)

* من لاح له كمال الآخرة هان عليه فراق الدنيا .

* إذا لاح للباشق الصيد نسى مألوف الكف .

* يا أقدامَ الصبر احملي بقي القليل .

---

(١) طفيل العرائس : هو من ينتسب إليه الطفيلون أما وضاح اليمن فهو عبد الرحمن بن اسماعيل دفنه الوليد بن عبد الملك وهو حي في صندوق انظر الأغاني ٦ : ٣٠ - ٤٤ .

* تذكر حلاوة الوصال يهن عليك مر المجاهدة .

* قد علمت أين المنزل فأحد لها تسر .

* قال أبو يزيد[1] : ما زلت أسوق نفسي إلى اللَّه وهي تبكي، حتى سقتها إليه وهي تضحك .

* الهمة العلية من استعد صاحبها للقاء الحبيب وقدم التقادم بين يدي الملتقى فاستبشر عند القدوم ﴿ وَقَدِّمُوْا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوْا اللَّهَ واعْلَمُوْا أَنَّكُمْ مُلَاقُوْهُ ﴾ [البقرة : ٢٢٣] .

* الجنة ترضى منك بأداء الفرائض ، والنار تندفع عنك بترك المعاصي ، والمحبة لا تقنع منك إلا ببذل الروح ﴿ إِنَّ اللَّه اشْتَرَىٰ مِنَ المُؤْمِنِيْنَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ [التوبة : ١١١] .

فَمَنِ الَّـذِيْ يَبْتَـاعُ بِـالثَّمَنِ ... بِـدَمِ المُحِبّ يُبَـاعُ وَصْلَهُمُ

* لله ما أحلى زيارة تسعى بها أقدام الرضى على أرض الاشتياق .

فَرْشَ الفَلَا بَيْنَنَـاْ جَمْراً لَـزُرْنَاْكِ ... زُرْنَاكِ شَوْقاً وَلَوْ أَنَّ النَوَىٰ بَسَطَتْ

* ما سافر الخليل سفراً ولا سلك طريقاً أطيب من الفلاة التي دخلها حين خرج من كفة المنجنيق ، رآه جبريل قد ودع بـلد العادة فظن ضعف قدم التوكل فعرض عليه زادَ « ألك حاجة » فرده بأنفة « أمْا إليك فلا »[2] لما تكامل وفاء ما أمر به جاءته خلعته ﴿ وَإِبْرَاهِيْمُ الَّذِيْ وَفَّىٰ ﴾ [النجم : ٣٧] .

---

(١) هو طيفور بن عيسى بن شروسان البسطامي ، قال الذهبي في « سير أعلام النبلاء » ١٣ / ٨٩ : قال السلمي : ويحكى عنه في الشطح أشياء منها ما لا يصح ، أو يكون مقولاً عليه ، توفي سنة إحدى وستين ومئتين عن ثلاث وسبعين سنة .

(٢) هو من كلام كعب الاحبار كما ذكره البغوي في تفسير (سورة الأنبياء) بلفظ : وروي =

*قَاْلَتْ : لِطَيْفِ خَيَاْلٍ زَاْرَهَاْ وَمَضَىٰ   بِاللَّهِ صِفْهُ وَلَاَ تُنْقِصْ وَلَاَ تَزِدِ
فَقَاْلَ : خَلَفْتُهُ لَوْ مَاْتَ مِنْ ظَمَأٍ   وَقُلتِ : قِفْ عَنْ وُرُوْدِ الْمَاْءِ لَمْ يَرِدِ
قَاْلَتْ : صَدَقْتَ الوَفَاْ فِيْ الحُبِّ شِيْمَتُهُ   يَاْ بَرْدَ ذَاْكَ الَّذِيْ قَاْلَتْ عَلَىٰ كَبِدِيْ

* وقال غيره :

إنَ قَوْمِيْ [حِيْنَ] بَانُوْا   فَرَّقُوْا بَيْنَهُ وَبَيْنِيْ
فَإِذَا كُنْتُ أَنَا الرَّهْـ   ن فَمَنْ يَقْبِضُ دَيْنِيْ

* وقال غيره :

وَكَمْ مُغْرَمٍ بَيْنَ تِلْكَ الخِيَاْ   مِ تَحْسِبُهُ بَعْضَ أَطْنَاْبِهَاْ

* للنفس حظ وعليها حق ﴿ فَلَا تَمِيْلُوْا كُلَّ المَيْلِ ﴾ [النساء : ١٢٩] ﴿ وَزِنُوْا بِالقِسْطَاْسِ المُسْتَقِيْمِ ﴾ [الإسراء : ٣٥] وإن رأيتم منها فتوراً فاضربوها بسوط الهجر في المضاجع ﴿ فإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوْا عَلَيْهِنَّ سَبِيْلاً ﴾ [النساء : ٣٤] .

* ارفقوا بمطايا الأبدان فقد ألفت الترف ، ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن .

*«إِنَّ هَـذَاْ الدِّيْنَ مَتِيْنٌ فَأَوْغِلُوْا فِيْهِ بِرِفْقٍ »[1] ولا تحملوا على النفوس فوق الطاقة إلى أن تتمكن المحبة فلها حينئذ حكمها .

= عن كعب الاحبار أن إبراهيم قال حين أوثقوه ليلقوه في النار ﴿ لا إله إلَّا أنت سبحانك رب العالمين لك الحمد ، ولك الملك ، لا شريك لك ﴾ ، ثم رموا به في المنجنيق إلى النار ، فاستقبله جبريل ، فقال : يا إبراهيم ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا قال جبريل : فسل ربك ، فقال إبراهيم : حسبي من سؤالي علمه بحالي .

(١) رواه أحمد في « المسند » ٣/ ٩ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، وهو حديث حسن كما قال الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٢٢٤٢) .

* شراب الهوى حلو ولكنه يورث الشرق .
* من تذكر خنق الفخ هان عليه هجران الحبة .
* يا معرقَلاً في شَرَكِ الهوى حموة عزم وقد خرقت الشبكة .
* لا بد من نفوذ القدر فاجنح للسلم .
* أي تصرف بقي لك في قلبك وهو بين أصبعين[1] .
* يا منقطعين عن القوم سيروا في بادية الدجى ، وانتحبوا بوادي الذل ، فإذا فتح باب للواصلين فدونكم فاهجموا هجوم الـوانين ، وابسطوا أكف ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ﴾ [يوسف : ٨٨] لعل هاتف الرحمة يقول ﴿ لَا تَثْرِيْبَ ﴾ [يوسف : ٩٢] .
* ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَمَاوَاْتِ وَالأَرْضِ ﴾ [الزمر : ٤٩] واستقرض منك حبة فبخلت بها ، وخلق سبعة أبحر واستقرض دمعة فقحطت عينك بها .
* إطلاق البصر ينقش في القلب صورة المنظور ، والقلب كعبة وما يرضى المعبود بمزاحمة الأصنام .
* لذات الدنيا كسوداء وقد غلبت عليك ، والحور العين يعجبن من سوء اختيارك عليهن ، غير أن زوبعة الهوى إذا ثارت سفَّت في عين البصيرة ، فخفيت الجادة .
* تدور عينك على المحرمات كأنَّك قد ضاع منك شيء ، ورواحل همتك في الهوى ما تحمل لها قتب .
* إنْ قهر نفسك حبُّ الفاني فذكرها العيش الباقي ، فإنْ أبتْ إلَّا

(١) وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ » ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ ! مُصَرِّفَ القُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَىٰ طَاعَتِكَ » رواه مسلم رقم (٢٦٥٤) في القدر : باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء .

بيع الغبن فاحجر عليها حجر السفيه ، وغط بصرَ بَأْشِقِكَ إلى أن ينسى ما رأى ، واغسل باطن عينيك بطهور المدامع ، وكلما تذكرت ما أبصرت ، فأطرق بدمعة ، لعل فرط البكاء يدفع فساد البصر فيصلح لرؤية الحبيب .

وَكَيْفَ تَرَىٰ لَيْلَىٰ بِعَيْنٍ تَرَىٰ بِهَاْ   سِوَاْهَاْ وَمَاْ طَهَّرْتَهَـاْ بِالْمَـدَاْمِعِ
وَتَسْمَعُ مِنْهَاْ لَفْظَةً بَعْدَمَـاْ جَرَىٰ   حَدِيْثُ سِوَاْهَاْ فِيْ خُرُوْقِ الْمَسَاْمِعِ

* قال غيره :

إِذَاْ لَمْ أَنَلْ مِنْكُمْ حَدِيْثـاً وَنَظْرَةً   إِلَيْكُمْ فَمَاْ نَفْعِيْ بِسَمْعِي وَنَاْظِرَيْ

* تزينت الجنة للخطاب فجدوا في تحصيل المهور .

* تعرّف رب العزة للمحبين فعملوا على اللقاء ، وأنت مشغول بالجيف .

* ما يساوي ربع الدينار خجل الفضيحة فكيف بألم القطع .

* المعرفة بساط لا يطأ عليه إلَّا مقرَّب ، والمحبة نشيد لا يطرب عليه إلا محب مغرم ، والحب غدير في صحراء ليس عليه جادة ، فلهذا قل وراده . المحب يهرب إلى العزلة والخلوة بمحبوبه والتعلق بذكره ، كَهَرَبِ الحوت إلى الماء ، والطفل إلى أمه .

وَأَخْـرُجُ مِنْ بَيْنِ الْبُيُوْتِ لَعَلِّنِي   أُحَدِّثُ عَنْكِ النَّفْسَ بِالسِّرِ خَاْلِيَا

* لو رأيت المحبين في الدجى تمر عليهم زمر النجوم مر الوصائف إلى أن تقبل هوادج « هَلْ مِنْ سَاْئل »[1] فينثرون عليه الأرواح نثر الفراش

---

(١) عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه : أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قال : « ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير ، فيقول : من يدعوني فأستجيب له ، ومن يسألني فأعطيه ، ومن يستغفرني فأغفر له » متفق عليه وقد سبق تخريجه مفصلاً ص (١٢٠) =

على النار .

* ليس للعابدين مستراح إلَّا تحت شجرة ﴿ طُـوْبَىٰ . . . ﴾ [الرعد : ٢٩] ولا للمحبين قرار إلا يوم المزيد[١] ، فمثِّلْ لقلبك الاستراحة تحت شجرة طوبى ، يهن عليك النصب ، واستحضر يوم المزيد يهن عليك ما تتحمل من أجله .

* كنوز الجواهر مودعة في مصر الليل ، فتتبع آثار المحبين لعلك تظفر بكنز .

* أنت طفل في حجر العاده ، مشدود بقماط الهوى ، فما لك ولمزاحمة الرجال ، أين أنت والمحبة ، وأنت أسير الحبة . تمسكت بالدنيا تمسك الرضيع بالظئر ، والقومُ ما أعاروها الطرف .

* أف لبدوي لا يطربه ذكر حاجر[٢] .

* انقسم الصالحون عند السباق . فمنهم من أخذه القلق فكان يقول ويل لي إن لم يغفرها ، أنا أمضي إلى النار ، أويغفر . ومنهم من غلب عليه الرجاء كبلال كانت زوجته تقول واحزناه ، وهو يقول « واطرباه . غداً ألقى الأحبة محمداً وحزبه » واهاً لبلال علم أن الامام لا ينسى المؤذن .

* اشتغل[٣] به في الحياة يكفك ما بعد الموت .

* دُقَّ ناقوس الرحيل فسار الركب ، وتأهبوا للمسير ، وعُكِمَتْ

وانظر « شرح حديث النزول » لشيخ الاسلام ابن تيمية الحراني رحمه الله .

(١) قال تعالى ﴿ لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد ﴾ [ق : ٣٥] .

(٢) حاجر : منزل من منازل الحاج في البادية .

(٣) أي بالله . والاشتغال بالله فعل الأوامر وترك النواهي .

أحمال الزاد ، وسار رفقة المجدين ، وأنت في الرقدة الأولى بعد ، كيف تطيق السهر مع الشبع ، أم كيف تزاحم أهل العزائم بمناكب الكسل ، هيهات ما وصل القوم إلى المنزل إلا بعد مواصلة السُرىٰ ، ولا عبروا إلى مقر الراحة إلا على جسر التعب .

وَأَطْيَبُ الأَرْضِ مَاْ لِلقَلْبِ فِيْهِ هَوىً سَمُّ الخِيَاْطِ مَعَ المَحْبُوْبِ مَيْدَاْنُ

* لو رأيت أهل القبور في وثاق الأسر ، فلا يستطيعون الحركة إلى نجاة ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون .

* يا منفقاً بضاعة العمر في مخالفة حبيبه والبعد عنه ، ليس في أعدائك أشد شراً عليك منك .

مَاْ يَبْلُغُ الأَعْدَاْءُ مِنْ جَاْهِلٍ مَاْ يَبْلُغُ الجَاْهِلُ مِنْ نَفْسِهِ

* غيره :

هٰذَاْ المُحِبُّ لَدَيْكَ فَانظُرْ هَلْ تَرَى قَلْباً، فَإِنْ صَاْدَفْتَ قَلْباً فَاعْذِلِ

غاية العاذل إيصال اللوم إلى الاذن ، فأما القلب فلا سبيل له إليه .

* سفر الليل لا يطيقه إلا مضمر المجاعة .

* تمر النجائب في الأول وحاملات الزاد في الآخر .

* ولو وردت ماء مدين لوجدت عليه أمة من الناس يسقون .

* اقبال الليل عند المحبين كقميص يوسف في أجفان يعقوب .

* لو أحببت المخدوم حضر قلبك في خدمته .

فَيَاْ دَاْرَهَاْ بِالحَزْنِ إِنَّ مَزَاْرَهَاْ قَرِيْبٌ وَلٰكِنْ دُوْنَ ذٰلِكَ أَهْوَاْلُ

* العروس تلبس عند العرض تحت الثياب شعار الخوف من

الرد ، وفوق الثياب حلة الانكسار ، وحمرةُ الخجل تغنيها عن تحمير مستعار لأنها لا تدري على ماذا تَقْدِمُ ، فكيف يسكن من لا يعرف العواقب .

* مداراة قيس[1] ممكن ، ولكن لا مع ذكر ليلىٰ .

* انقسم العباد ثلاثة أقسام :

فمنهم من لاحظ الحصاد فزاد في البذر ، ومنهم من رأى حق المخدوم فقام بأدائه ، ومنهم من خدم حباً وشوقاً فتلذذ بالخدمة ، وهذه الخدمة لا ثقل لها ، لأنّ محركها الحب ، وغيرها ثقيل على البدن .

* نوق أبدان المحبين لا تحس بالنصب ، وأسمَاعُها مشغولة بصوت الحادي ، وقلوبها معلقة بالمنزل .

* من عبده خوفاً أمنه ، ومن عبده رجاءً أعطاه أمله ، ومن عبده حُباً ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ . . . ﴾ [السجدة : ١٧] .

يَرَاهَاْ بِعَيْنِ الشَّوْقِ قَلْبِيْ عَلَىٰ النَوَىٰ ... فَتَحْظَىٰ وَلٰكِنْ مَنْ لِعَيْنِيْ بُرُؤْيَاْهَاْ
وَهَبْكُمْ مَنَعْتُمْ أَنْ يَـرَاْهَـاْ بِعَيْنِـهِ ... فَهَلْ تَمْنَعُونَ القَلْبَ أَنْ يَتَمَنَّاْهَاْ

* كم دخل المجلس عاص في باطنه باطية خمر ، فما زالت تعمل فيها حدة شمس التذكير حتى انقلبت خلاًّ فحلت.

يَكُوْنُ أُجَاْجَاً دُوْنَكُمْ فَإِذَاْ انْتَهَىٰ ... إِلَيْكُمْ تَلَقَّىٰ نَشْـرَكُمْ فَيَـطِيْـبُ

---

(١) هو قيس بن الملوح المجنون وقصة حبه ليلى بنت سعد مشهورة .

١٣٧ ـ فصل

اللَّه سبحانه مهد الأرض لآدم وذريته قبل خلقه فقال: ﴿إِنِّيْ جَاْعِلٌ فِيْ الأَرْضِ خَلِيْفَةً﴾ [البقرة : ٣٠] وقضى أَنْ يعرِّفه قدر المخالفة ، وأقام عذره بقوله ﴿ فَأَزَلَّهُمَاْ الشَّيْطَاْنُ ﴾ [البقرة : ٣٦] وتداركه برحمة بقوله ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَاْهُ رَبُّهُ ﴾ [طه : ١٢٢] يا آدم لا تجزع من كأس خطأ كان سبب كيسك ، فقد استخرج منك داءَ العُجْبِ ، وألبسَكَ رداء العبودية « لَوْ لَمْ تُذْنِبُوْا »[١] لا تحزن بقولي لَكَ ﴿ اهْبِطُوْا مِنْهَاْ ﴾ [البقرة : ٣٨] فلك خلقتها ، ولكن اخرج إلى مزرعة المجاهدة واجتهد في البَذْرِ ، واسق شجرة الندم بساقية الدمع ، فإذا عاد العود أخضر فعد لما كان .

* * *

* منصب الخلة منصب لا يقبل المزاحمة بغير المحبوب ، وأخذ الولد شعبة من شعاب القلب. غار الحبيب على خليله[٢] أن يسكن غيره في شعبة من شعاب قلبه فأمره بذبحه ، فلما أسلم للامتثال خرجت تلك المزاحمة ، وخلصت المحبة لأهلها ، فجاءته البشرى وفديناه بذبح عظيم[٣] .

---

(١) سبق تخريج الحديث ص (٧٢) .

(٢) إبراهيم عليه السلام .

(٣) قال تعالى ﴿ قال : يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال : يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء اللَّه من الصابرين * فلما أسلما وتلّه للجبين * وناديناه أنْ يا إبراهيم * قد صدَّقت الرؤيا إنّا كذلك نجزي المحسنين * إن هذا لهو

ليس المراد أنْ يعذِّبَ ، ولكن يبتلي ليهذِّبَ .

ليس العجب من أمر الخليل بذبح الولد ، إنما العجب من مباشرة الذبح بيده . ولولا الاستغراق في حب الآمر لما هان مثل هذا المأمور ، فلذلك جعلت آثارها مثابةً للقلوب تحن إليها أعظم من حنين الطيور إلى أوكارها(1) .

* * *

* قول لوط لقومه ﴿ يَا قَوْمِ هٰؤُلَاءِ بَنَاتِيْ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ، فَاتَّقُوْا اللَّهَ وَلَا تُخْزُوْنِيْ فِيْ ضَيْفِيْ ، أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيْدٌ ﴾ [هود : ٧٨] يجمع أنواعاً من الاستعطاف .

أحدها : خطابهم بخطاب الناصح المشفق بقوله : ﴿ يَاْ قَوْمِ ﴾ ولم يقل : يا هؤلاء .

الثاني : عرضه بناته عليهم بقول: ﴿ هَؤُلَاءِ بَنَاْتِيْ ﴾ .

الثالث : تنجيز ذلك بالإشارة بلفظ الحضور .

الرابع : ترغيبه فيهن لطهارتهن وطيبهن .

الخامس : تذكيرهم بالله بقوله : ﴿ فَاتَّقُوْا اللَّهَ ﴾ .

السادس : المطالبة بحفظ الذمام ، وترك الأذى بقوله : ﴿ وَلَا تُخْزُوْنِ ﴾ .

السابع : التوبيخ الشديد بقوله : ﴿ أَلَيس مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيْدٌ ﴾

= البلاء المبين * وفديناه بذِبح عظيم * وتركنا عليه في الآخِرين * سلام على إبراهيم * كذلك نجزي المحسنين * ﴾ [الصافات : ١٠٢ ـ ١١٠] .

انظر تفسير الآيات في « تفسير ابن كثير » .

(1) قال تعالى ﴿ إذ جعلنا البيت مثابة للناس . . . ﴾ [البقرة : ١٢٥] .

* لما تمكن الحسد من قلوب أخوة يوسف أري المظلوم مآلَ الظالم في مرآة ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً ﴾ [يوسف : ٤] .

* شكرك لا يساوي قدر قوتك .

* لا كانت دابة لا تعمل بعلفها .

* متى رأيت العقل يؤثر الفاني على الباقي فاعلم أنّه قد مسخ .

* ومتى رأيت القلب قد ترحَّل عنه حب الله والاستعداد للقائه، وحل فيه حب المخلوق ، والرضى بالحياة الدنيا ، والطمأنينة بها ، فاعلم أنَّهُ قد خسف به .

* ومتى أقحطت العين من البكاء من خشية الله تعالى فاعلم أنّ قحطها من قسوة القلب ، وأبعد القلوب من الله القلب القاسي .

* ومتى رأيت نفسك تهرب من الأنس به إلى الأنس بالخلق ، ومن الخلوة مع الله إلى الخلوة مع الأغيار فاعلم أنَّك لا تصلح له .

* ومتى رأيته يستزيد غيرك وأنت لا تطلب ، ويستدني سواك وأنت لا تقرَّب ، فإن تحركت لك قدم في الزيادة تخلف قلبك في المنزل فاعلم أنه الحجاب والعذاب .

* مزاج الإيمان منحرف عن الصحة ، ونبض الهوى شديد الخفقان .

* تحكمت أخلاط الشهوات في أعضاء الكسل فَثَبُطَتْ عن الحركة ، فتولدت الأمراض المختلفة ، هذا، وما يسهل عليك شرب مسهل ، فإنْ تداركت المرض وإلا قَتَلَ .

* لو احتميت ساعة لم تحتج الى معالجة الدواء مدة .

* من ركب ظهر التفريط والتواني نزل به دار العسرة والندامة .

* ربك يحب حياة نفسك ، وأنت تريد قتلها . يريد بك اليسر ، وأنت تريد العسر ، يريد بها الكرامة ، وأنت جاهد في إهانتها

مَاْ يَبْلُغُ الأَعْدَاءُ مِنْ جَـاْهِـلٍ   مَـاْ يَبْلُغُ الْجَاهِـلُ مِنْ نَفْسِـهِ

من أدلج في غياهب الليل على نجائب الصبر صبَّح منزل السرور . ومن نام على فراش الكسل أصبح ملقى بوادي الأسف .

الجد كله حركة ، والكسل كله سكون .

* فُتُورُكَ عن السعي في طلب الفضائل دليل على تأنيث العزم .

* إذا أردت أن تعرف الديك من الدجاجة وقت خروجه من البيضة فعلقه بمنقاره فإن تحرك فديك وإلا فدجاجة .

* الدنيا كامرأة بغي لا تثبت مع زوج فلذلك عيب عشاقها .

مَيَّـزْتُ بَيْنَ جَمَـاْلِهَـاْ وَفِعَاْلِهَـاْ   فَإِذَا المَلاَحَـةُ بِالقَبَـاْحَةِ لاْ تَفِيْ

حَلَفَتْ لَنَاْ أَنْ لاْ تَخُوْنَ عُهُوْدَهَا   فَكَـأَنَّمَاْ حَلَفَتَ لَنَـاْ أَنْ لاْ تَفِيْ

* ما حظى الدينار بنقش اسم الملك فيه حتى صبرت سبيكته على الترداد إلى النار ، فنفت عنها كلّ خبث ، ثم صبرت على تقطيعها دنانير ، ثم صبرت على ضربها على السكة ، فحينئذ يظهر عليها رقم النقش ، فكيف يـطمـع في نقش ﴿كَتَبَ في قُلُوْبِهِمْ الإِيْمَـانَ﴾ [المجادلة : ٢٢] مَنْ كله خبث .

* مكابدة البادية تهون عند ذكر البيت، الضحى بوادي الجوع ، والـعشي بوادي السهر ، إلى أن تلوح أعلام المنزل .

* إذا ونت الركاب في السير فبثوا حداة العزم في نواحيها يطيب لها السُرىٰ .

* إذا حال غيم الهوى بين القلوب وبين شمس الهدى تحير السالك .

* الحيوان البهيم يتأمل العواقب ، وأنت لا ترى إلا الحاضر .

* ما تكاد تهتم بمؤونة الشتاء حتى يقوى البرد ، ولا بمؤونة الصيف حتى يقوى الحر ، والذَّرْ[1] يدخر الزاد من الصيف لأيّام الشتاء ، وهذا الطائر إذا علم أن الأنثى قد حملت أخذ ينقل العيدان لبناء العش قبل الوضع ، أفتراك ما علمت قرب رحيلك إلى القبر فهلا بعثت فراشاً من عمل صالحٍ ﴿ فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُوْنَ ﴾ [الروم : ٤٤] وهذا اليربوع لا يتخذ بيتاً إلا في موضع صلب ليسلم من الحافر ، ويكون مرتفعاً ليسلم من السيل ، ويكونُ عند أكمة أو صخرة لئلا يضل عنه ، ثم يجعل له أبواباً ، ويرقق بعضها فلا ينفذه ، فإذا أُتي من باب مفتوح دفع برأسه ما رقّ من التراب ؛ وخرج منه ، وأنت قد ضيقت على نفسك الخناق فما أبقيت للنجاة موضعاً .

* النفس كالعدو إنْ عرفَتْ صولة الجد منك استأسرت لك ، وإن أنست منك المهانة أسرتك ، أتمنعها ملذوذ مباحاتها ليقع الصلح على ترك الحرام ، فإذا احتجت لطلب المباح ﴿ فإِمَّاْ مَناً بَعْدُ وَإِمّا فَدَاْءً ﴾ [محمد : ٤] .

* الدُنيا والشيطان عدوان خارجان عنك والنفس عدو بين جنبيك . ومن سنة الجهاد ﴿ قَاتِلُوْا الَّذِيْنَ يَلُوْنَكُمْ . . . ﴾ [التوبة : ١٢٣] .

* ليس المبارز بالمحاربة كالكمين الذي يطلع عليك من حيث لا تشعر .

أقل ما تفعل النفس معك أنها تمزق العمر بكف التبذير والبطالة ، أخلُ معها في بيت الفكر سويعة ، ثم أنظر هل هي معك أو عليك ، ثم عاملها بما تعامل بـه واحداً منهما .

---

(١) الذر : صغار النمل .

* من لم تبك الدنيا عليه لم تضحك الآخرة إليه .

* سينقشع غيم التعب عن فجر الآخرة .

* كم صبر بشر[1] عن شهوة حتى سمع كل يا من لم يأكل .

* يا من حسد ! [لم يحظ بـ] سجاف[2] ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ ﴾ [ص : ٤٤] على قُبَّةِ ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ ﴾ [ص : ٤٣] حتى وصل على قدر ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً ﴾ [ص : ٤٤] .

* كيف يفلح من يشكو الليلُ إلى ربه من طول نومه ، والنهارُ من قبيح فعله . كيف يفلح من هو جيفة بالليل قطرب[3] بالنهار ، ينصب بميزان البخس ومكيال التطفيف ، والغدر ثالثة الأثافي[4] .

* لو فكر الطائر في الذبح ما حام حول القمح .

* لولا صبر المضمرات على قلة العلف ما قيل لها سوابق .

لاْ تَلْقَ دَهْرَكَ إِلاَّ غَيْرَ مُكْتَرِثٍ ... مَاْ دَاْمَ يَصْحَبُ فِيْهِ رُوُحَكَ الْبَدَنُ[5]

فَمَاْ يُدِيْمُ سُرُورٌ مَا سُرِرْتَ بِهِ ... وَلاْ يَـرُدُّ عَلَيْكَ الفَـائِتَ الحَزَنُ

مِمَّـا أَضَـرَّ بِــأَهْـلِ العِشْقِ أَنَّهُمُ ... هَوُوْا ، وَمَاْ عَرَفُوْا الدُّنْيَاْ وَمَاْ فَطِنُوْا

تَفْنَى عُيُـونُهُمُ دَمْـعـاً وَأَنْفُسِهِـمْ ... فِيْ إِثْرِ كُلِّ قَبِيْحٍ وَجْهُهُ حَسَنُ

تَحَمَّلُوا حَمَـلَتْكُمْ كُـلُّ نَـاجِيَـةٍ ... فَكُـلُّ بَيْنٍ عَلِيَّ اليَـوْمَ مُؤْتَمَنُ

مَا فِيْ هَوَادِجِكُمْ مِنْ مُهْجَتِيْ عِوَضٌ ... إِنْ مِتُّ شَوْقاً ، وَلاْ فِيْهَاْ لَهَاْ ثَمَنُ

سَهِرْتُ بَعْدَ رَحِيْلِي وِحْشَةً لَكُمُ ... ثُمَّ اسْتَمَرَّ مَرِيْرِيْ وَارْعَوَى الوَسَنُ

---

(١) هو بشر بن الحارث الحافي : انظر ترجمته ص (٢١٠) .

(٢) السجف : الستر .

(٣) قطرب : هو من لا يستريح نهاره سعياً في حوائج دنياه فإذا أمس أمسى كالا تعباً ، فينام ليلته حتى يصبح كالجيفة لا يتحرك .

(٤) الأثافي ج أثفية : الحجر الذي توضع عليه القدر .

(٥) الأبيات للمتنبي ديوان ٢ / ٣٤٣ .

* إذا لم تكن من أنصار الرسول فتنازل الحرب ، فكن من حراس الخيام ، فإنْ لم تفعل فكن من نظارة الحرب الذين يتمنون الظفر للمسلمين ، ولا تكن الرابعة فتهلك .

* إذا رأيت الباب مسدوداً في وجهك فاقنع بالوقوف خارج الدار مستقبل الباب سائلاً مستعصياً ﴿ فَعَسَىٰ . . . ﴾ ، ولكن لا تول ظهرك وتقول ما حيلتي وقد سد الباب دوني .

* لما نادى منادي الإفضال ﴿مَنْ جَاْءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالَهَاْ﴾ [الأنعام : ١٦٠] سارت نجائب الأعمال .

* قام الجزاء يصيح بالدليل ﴿وَلَوْلَاْ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ. . .﴾ [الاسراء : ٧٤] فقال : « مَاْ مِنْكُمْ مَنْ يُنْجِيْهِ عَمَلَهُ. . . »[١] إن لم تقدر على مشارع[٢] أرباب العزائم فَرِدْ باقي الحياض ، فمن لم يكن عنده ابن لبون[٣] قبلت منه ابنة مخاض[٤] .

* لا تحتقر معصيةً، فكم أحرقت شررة، أَمَاْ عرفت سر ﴿وَلَاْ تَقْرَبَاْ هٰذِهِ الشَجَرَةَ. .﴾ [البقرة : ٣٥] لو قنع آدم لاكتفى ، ولكن المحنة كانت في الشره .

* الخلوة شرك لصيد المؤانسة. أخفى الصيادين شخصاً، وأقلهم ، حركةً ، أكثرهُم التقاطاً للصيد . ما صاد هِرٌّ نوّى أيَّ صوت :

---

(١) عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « لن ينجي أحداً منكم عمله » قالوا : ولا أنت ، قال : « ولا أنا إلَّا أن يتغمدني اللّه برحمة منه وفضل » رواه مسلم وتقدم تخريجه ص (١٢٤) .

(٢) المشارع : جمع مشرعة : وهي المواضع التي يُنحدر إلَى الماء منها .

(٣) ابن اللبون : ابن الناقة الذي استكمل سنتان ودخل في الثالثة .

(٤) ابنة المخاض : ابنة الناقة التي استكملت سنة ودخلت في الثانية .

* أبــداً نُفُـوْسُ العَــاشِقِـ ـقِيْنَ إلَى رُبُــوْعِكُمُ تَحِـنْ
وَكَـذاْ القُلُوْبُ بِـذِكْـرِكُمْ بَعْــدَ المَخَـاْفَـةِ تَـطْمَئِنْ

* غيره :

طُلُوْلِيَ إِذْ يَشْكُــوْ إِلَيْهَــاْ مُتَيَّمٌ شَكَىٰ غَيْرُ ذِيْ نُطْقٍ إِلَىٰ غَيْرِ ذِيْ فَهْمِ

* غيره :

وَإِنَّمَــا عُمْـرُ الفَتَىٰ سُــوْقٌ لَـهُ يَصْـدُرُ عَنْهُ غَـاْنِمـاً أَوْ خَـاْسِـرا

* غيره :

تُــرَوعُنَــا الجَنَــائِـزُ مُقْبِــلَاتٍ فَنَلْهُـوْ حِيْنَ تَذْهَبُ مـدبرات[1]
كَـرَوْعَـةِ هَجْمَـةٍ لِمَغَـارِ سَبْــعٍ فَلَمَّــا غَـابَ عــادت رَاتِعَــاتِ

* خذ نفسك بالعزائم لا تَرَخَّص ، حائط الباطن خراب فعلام ذا تُجَصِّصْ.

* العلم والعمل توأمان أُمُّهُمَا علو الهمة ، والجهل والبطالة توأمان أُمُّهُمَاْ إيثار الكسل .

* أيهــا المعلم تثبت على المبتـدىء وقــدر في الســرد ، فللعالم رسوخ ، وللمتعلم قلق .

ويا أيها الطالب تواضع في الطلب فإنَّ التراب بيننا هو تحت الأخمص صار طهوراً للوجه . تجلى عليك عروس المعرفة ولكن على غير كفؤ ، وإنما يحل النظر إذا كان العقد جائزاً .

فَغُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ[2] .

---

(١) التبيان لجرير وهما في ديوانه ص ٨٧ والهجمة القطيع من الإبل .
(٢) صدر بيت لجرير عجزه : فلا كعباً بلغت ولا كلاباً .

* ليس العالم شخصاً واحداً ، العالم عالمَ ، تصانيف العالم أولاده المخلَّدون دون أولاده .

من خُلِقَ للعلم شف جوهره من الصغر .

طول الشهر مفض إلى طيب المرقد ، والهوان في ظل الهوينا كامن . وجلالة الأخطار في ركوب الأخطار .

* مياه المعاني مخزونة في قلب العالم ، يفتح منها للسقي سيحاً بعد سيح ، ويدخر أصفاها لأهل الصفا ، فإذا تكاثرت عليه نـادى للسبيل ، فيبقى علمه سيح ، ولهذا تتضاعف عليه زكاة الشكر .

* كل وقت تسافر بضائعُ فكرِهِ من مدينة قلبِهِ إلى قلوب الطالبين ، فينادى عليها دلال لسانه ، وهو يعرضها في مواسم النصح على تجار الطلب والارادة: من يشتري حكمةً وعلماً بتخبير[1] الثمن، فيا من يرى علو تلك المرتبة لا تنس الدرج . كم خاض بحراً ملحاً حتى وقع بالعذب ، وكم تاه في مهمه قفر حتى سمي بالدليل ، وكم أنضَّ مراكب الجسم ، وفض شهوات الحس ، وواصل السرى ليلاً ونهاراً ، وأوقد نار الصبر في دياجي الهوى فإنْ وثقتم بأمانته فهذا خـبير السُرَىٰ .

* الدنيا تفوِّقُ[2] سهامها نحو بنيها ، وتقول : خذوا حذركم ، فلهذا دمُ قتلاها هدر .

* غاب الهدهد عن سليمان عليه الصلاة والسلام ساعة فتوعده ، فيا من أطال الغيبة عن ربه هل أمنت غضبه .

* تخلف الثلاثة عن الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة واحدة

---

(١) التخبير من المخابرة : المزارعة على نصيب معين ، من الخبار وهي الأرض اللينة . انظر « جامع الأصول » ١/ ٤٨٠ .

(٢) تسدد وتصوب .

فجرى لهم ما سمعت(١) فكيف بمن عمره في التخلف عنه .

---

(١) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْن كَعْبِ بْن مَالِكٍ ـ وَكَانَ قَائِدَ كَعْبٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ بَنِيْهِ حِينَ عَمِيَ ـ قَالَ : سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُحَدِّثُ حَدِيثَهُ حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى اللَّه عليه وسلم فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ ، قَالَ كَعْبٌ : لَمْ أَتَخَلَّفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى اللَّه عليه وسلم فِي غَزْوَةٍ غزاهَا قَطُّ إلاَّ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ ، غَيْرَ أَنِّي قَدْ تَخَلَّفْتُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ ، وَلَمْ يُعَاتِبْ أَحَداً تَخَلَّفَ عَنْهُ ، إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وسلَّم وَالْمُسْلِمُونَ يُرِيدُونَ عِيرَ قرَيْشٍ ، حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ ، وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَليه وسلّم لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حِينَ تواثَقْنَا عَلَى الإِسْلاَمِ ، وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا .

وَكَانَ مِنْ خَبَرِي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلّم فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلاَ أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ ؛ واللَّهِ مَا جَمَعْتُ قَبْلَهَا رَاحِلَتَيْنِ قَطُّ حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلّم يُرِيدُ غَزْوَةً إلاَّ وَرَّى بِغَيْرِهَا حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ الْغَزْوَةُ ، فَغزَاهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلّم فِي حَرٍّ شَدِيدٍ ، وَاسْتَقْبَلَ سَفراً بَعيداً وَمَفَازاً ، وَاسْتَقْبَلَ عَدَداً كَثِيراً ، فَجَلاَ لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِم ، فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْههِمُ الَّذِي يُرِيدُ ، وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلّى اللَّهُ عَلَيه وسلم كثيرٌ، ولاَ يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ ـ يُرِيدُ بِذلِكَ الدِّيوَانَ ـ قَالَ كَعْبٌ : فَقَلَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إلاَّ ظَنَّ ذٰلِكَ سَيَخْفَى مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ تعالى ، وَغَزَا رَسُولُ اللَّهِ صَلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلّم تِلْكَ الْغَزْوَةِ حِينَ طَابَتِ الثِّمَارُ والظِّلاَلُ ، فَأَنَا إِلَيْهَا أَصْعَرُ ، فَتجَهَّزَ رَسُولُ اللَّهِ صَلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلّم وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ ، وَطَفِقْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُ ، فَأَرْجِعَ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئاً ، وَأَقُولُ فِي نَفْسِي : أَنَا قَادِرٌ عَلَىٰ ذٰلِكَ إِذَا أَرَدْتُ ، فَلَمْ يَزَلْ ذٰلِكَ يَتَمَادَى بِي حَتَّى اسْتَمَرَّ بالنَّاسِ الْجِدُّ ، فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَادِياً وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ ، وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شَيْئاً ، ثُمَّ غَدَوْتُ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئاً ، فَلَمْ يَزَلْ ذٰلِكَ يَتَمَادَى بي حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الْغَزْوُ ، فَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ فَيَا لَيْتَنِي فَعَلْتُ ! ثُمَّ لَمْ يُقَدَّرْ ذٰلِكَ لِي ، فَطَفِقْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ صَلّى اللَّهِ عَلَيهِ وَسَلّم يَحْزُنُنِي أَنِّي لاَ أَرَى لِي أُسْوَةً إلاَّ رَجُلاً مَغْمُوصاً عَلَيْهِ فِي النِّفَاقِ ، أَوْ رَجُلاً مِمَّنْ عَذَرَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الضُّعَفَاءِ، وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلّم حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ ؛ فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بِتَبُوكَ : « مَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ؟ » فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! حَبَسَهُ بُرْدَاهُ وَالنَّظَرُ فِي عِطْفَيْهِ ! فَقَالَ لَهُ مَعَاذُ بن جَبَلٍ : بِئْسَ مَا قُلْتَ ! وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلاَّ خَيْراً . فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلّم ، =

. . . .

= فَبَيْنَا هُوَ عَلَى ذٰلِكَ رَأى رَجُلاً مُبيضاً يَزُولُ بِهِ السَّرَابُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم : « كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ » فَإِذَا هُوَ أَبُو خَيْثَمَةَ الأَنْصَارِيُّ ، وَهُوَ الذِي تَصَدَّقَ بِصَاعِ التَّمْرِ حِينَ لَمِزَهُ الْمُنَافِقُونَ .

قَالَ كَعْبٌ : فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم قَدْ تَوَجَّهَ قَافِلاً مِنْ تَبُوكَ حَضَرَنِي بَثِّي ، فَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ وَأَقُولُ بِمَا أَخْرُجُ مِنْ سَخْطِه غَداً ؟ وَأَسْتَعِينُ عَلَى ذٰلِكَ بِكلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي ، فَلَمَّا قِيل : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عَلَيه وسلَّم قَدْ أَظَلَّ قَادِماً زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ ، حَتَّى عَرَفْتُ أَنِّي لَمْ أَنْجُ مِنْه بِشَيْءٍ أَبَداً فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ ، وَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عَلَيه وسلّم قَادِماً ، وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاس ، فَلَمَّا فَعَلَ ذٰلِكَ جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَيَحْلِفُونَ لَهُ ، وَكَانُوا بِضْعاً وَثَمَانِينَ رَجُلاً ، فَقَبِلَ مِنْهُمْ عَلاَنِيَتَهُم وَبَايَعَهُم وَآسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ تعالَى حَتَّى جِئْتُ ، فَلَمَّا سَلَّمْتُ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ ثُمَّ قَالَ : « تَعَالَ » ، فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْه ، فَقَالَ لِي : « مَا خَلَّفَكَ ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَدِ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ ؟ » قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنِّي سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ ؛ لَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلاً ، وَلَكِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ يُسْخِطُكَ عليَّ ، وَإِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ إِنِّي لأَرْجُو فِيهِ عُقْبَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؛ وَاللَّهِ مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ ، واللَّهِ مَا كنتُ قَطُّ وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ .

قَالَ : فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلّم : « أَمَّا هٰذَا فَقَدْ صَدَقَ ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ » وَثَارَ رِجالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ فَاتَّبَعُونِي ، فَقَالُوا لِي : وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَاكَ أَذْنَبْتَ ذَنْباً قَبْلَ هٰذَا ! لَقَدْ عَجَزْتَ فِي أَنْ لَا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عَلَيه وسلّم بِمَا اعْتَذَرَ بِهِ إِلَيْهِ الْمُخَلَّفُونَ . فَقَدْ كَانَ كَافِيَكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللَّهِ صلّى اللَّهُ عليه وسلّم لَكَ قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونَنِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلّى اللَّهُ عَلَيه وسلّم فَأُكَذِّبَ نَفْسِي . ثُمَّ قلْتَ لَهُمْ : هَلْ لَقِيَ هٰذَا مَعِيْ مِنْ أَحدٍ ؟ قَالُوْا : نَعَمْ ، لَقِيَهُ مَعَكَ رَجُلاَنِ قَالاَ مِثْلَ مَا قُلْتَ ، وَقِيلَ لَهُمَا مِثْلَ مَا قِيلَ لَكَ . قَالَ : قُلْتُ مَنْ هُما ؟ قَالُوا : مُرَارَةُ بْنُ رَبيعةَ الْعَمْرِيُّ وَهِلاَلُ بنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ . قَالَ : فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْراً فِيهِمَا أُسْوَةٌ ، قَالَ : فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُما لي . وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم عَنْ كَلاَمِنَا أَيُّهَا الثَّلاَثَةُ مِنَ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ ، قَالَ : فَاَجْتَنَبَنَا النَّاسُ ، أَوْ قَالَ : تَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرَتْ لِي فِي نَفْسِي الأَرْضُ ، فَمَا هِيَ بِالأَرْض التي أَعْرِفُ ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذٰلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً . فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاَسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ ، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ =

. . . .

الصَّلاةَ وَأَطُوفُ في الأَسْوَاقِ ، وَلاَ يُكَلِّمُني أَحَدٌ ، وَآتِي رَسُولَ اللَّهِ صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم . فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ في مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلاَةِ ، فَأَقُولُ في نَفْسِي : هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلاَمِ أَمْ لاَ ؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيباً مِنْهُ ، وأُسَارِقُهُ النَّظَر ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلاَتِي نَظَرَ إِلَيَّ ، وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي ، حَتَّى إِذَا طَالَ ذٰلِكَ عَلَيَّ مِنْ جَفْوَةِ الْمُسْلِمِينَ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ ، وَهُوَ ٱبْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلاَمَ ، فَقُلْتُ لَهُ : يَا أَبَا قَتَادَةَ أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ ؟ فَسَكَتَ ، فعدتُ فَنَاشَدْتُهُ فَسَكَتَ ، فَعُدْتُ فَنَاشَدْتُهُ فَقَالَ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، فَفَاضَتْ عَيْنَايَ وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ .

فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي فِي سُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ نَبَطِ أَهْلِ الشَّامِ مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِعُهُ بِالْمَدِينَةِ يَقُولُ : مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ؟ فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ إِلَيَّ حَتَّى جَاءَنِي ، فَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَاباً مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ ، وَكُنْتُ كَاتِباً ، فَقَرَأْتُهُ فَإِذَا فِيهِ : أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلاَ مَضْيَعَةٍ ، فَٱلْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ . فَقُلْتُ حِينَ قَرَأْتُها : وَهٰذِهِ أَيْضاً مِنَ الْبَلاَءِ ! فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهَا ، حَتَى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ مِنَ الْخَمْسِينَ وَاسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ إِذَا رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلّم يَأْتِينِي ، فَقَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عَليه وسلّم يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ ، فَقُلْتُ : أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ ؟ فَقَالَ : لاَ ، بَلْ اعْتَزِلْهَا فَلاَ تَقْرَبَنَّهَا ، وَأَرْسَلَ إلى صَاحِبَيَّ بِمِثْلِ ذٰلِكَ ، فَقُلْتُ لامْرَأَتِي : الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَكُونِي عِنْدَهُمْ حتى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هٰذَا الأَمْرِ ، فَجَاءَتِ امْرَأَةُ هِلاَلِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلّم فَقَالَتْ لَهُ : يا رسُولَ اللَّه ! إِنَّ هِلاَلَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ ؛ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ . فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ ؟ قَالَ : « لاَ وَلٰكِنْ لاَ يَقْرَبَنَّكِ » فَقَالَتْ : إِنَّهُ وَاللَّه مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ ، وَوَاللَّهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَان إِلَي يَوْمِهِ هٰذَا . فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي : لَو اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عَلَيه وسلّم في امْرَأَتِكَ فَقَدْ أَذِنَ لامْرَأَةِ هِلاَلِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ ؟ فَقُلْتُ : لاَ أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صلّى اللَّهُ عَليه وسلّم ، وما يُدْرِينِي ماذَا يَقُولُ رسُولُ اللَّهِ صلّى اللَّه عليه وسلّم إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ ؟ فَلَبِثْتُ بِذٰلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ ، فَكَمُلَ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نُهِيَ عَنْ كَلاَمِنَا .

ثُمَّ صَلَّيْتُ صَلاَةَ الْفَجْرِ صَبَاحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَّا قَدْ ضَاقَتْ عليَّ نَفْسِي وَضَاقَتْ عليَّ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى سَلْعٍ يَقُولُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ : يَا كَعْبُ بْنَ مَالِكٍ ! أَبْشِرْ ، فَخَرَرْتُ سَاجِداً وَعَرَفْتُ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ ، فَآذَنَ رَسُولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عَلَيه وسلّم النَّاسَ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْنَا حِينَ صلَّى صَلاَةَ الْفَجْرِ . فَذَهَبَ النَّاسُ =

= يُبَشِّرُونَنا ، فَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ ، وَرَكَضَ رَجُلٌ إِلَيَّ فَرَساً ، وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ قِبَلي ، وَأَوْفَى عَلَى الْجَبَلِ ، فَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُمَا إِيَّاهُ بِبِشَارَتِهِ ، وَٱللَّهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ ، وَٱسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا وَٱنْطَلَقْتُ أَتَأَمَّمُ رَسُولَ اللَّهِ صلّى اللَّهُ عَلَيه وسلّم يَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجاً فَوْجاً يُهَنِّئُونِي بِالتَّوْبَةِ ، وَيَقُولُونَ لي : لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ ، حتى دَخلتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ صلّى اللَّهُ عليه وسلّم جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ ، فَقَامَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّه رَضِيَ اللَّهُ عَنه يُهَرْوِلُ حَتى صَافَحَنِي وَهَنَّأَنِي ، وَاللَّهِ مَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ ، فَكَانَ كَعْبٌ لا يَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ . قَالَ كَعْبٌ : فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلّى اللَّهُ عليه وسلّم قَالَ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ : « أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ ! » فَقُلْتُ : أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ؟ قَالَ : « لَا بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ » وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلّى اللَّهُ عَلَيه وسلّم إِذَا سُرَّ ٱسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتى كَأَنَّ وَجْهَهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ ، وَكُنَّا نَعْرِفُ ذٰلِكَ مِنْهُ . فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ : يا رَسُولَ اللَّهِ ! إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وإِلَى رَسُولِهِ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلّى اللَّهُ عليه وسلّم : « أَمْسِكْ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ : إِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرَ ، وَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالى إِنَّما أَنْجَانِي بِالصِّدْقِ ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقاً مَا بَقِيتُ ، فَوَٱللَّهِ مَا عَلِمْتُ أَحَداً مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ اللَّهُ تَعَالى فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذٰلِكَ لِرَسُولِ اللَّه صلّى اللَّهُ عَلَيه وسلّم أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي اللَّهُ تعالى ، واللَّهِ مَا تَعَمَّدْت كَذِبَةً مُنْذُ قُلْتُ ذٰلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صلّى اللَّهُ عليه وسلّم إِلَى يَوْمِي هٰذَا ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّه تعالى فيما بَقِيَ ، قَالَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ حتى بَلَغَ ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوف رَحِيم * وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ حتى بَلَغَ : ﴿ ٱتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٧ ـ ١١٩] . قَالَ كَعْبٌ : وَاللَّهِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ إِذْ هَدَانِي اللَّهُ لِلإِسْلَامِ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي رَسُولَ اللَّهِ صلّى اللَّهُ عَلَيه وسلّم أَنْ لَا أَكُونَ كَذَبْتُهُ فَأَهْلِكَ كما هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا ؛ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لِأَحدٍ ، فَقَال اللَّه تعالى : ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ؛ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كانُوا يَكْسِبُونَ * يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ، فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٩٥ ـ ٩٦] .

قالَ كَعْبٌ : كُنَّا خُلِّفْنَا أَيُّها الثَّلَاثَةُ عَنْ أَمْرِ أُولئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صلى =

* إذا سكر الغراب بشراب الحرص تنقَّل بالجيف ، فإذا صحى من خماره ندم على الطلل .

* خالف موسى الخضرَ في طريق الصحبة ثلاث مرات فحل عقدة الوصال بيد ﴿ هٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ﴾ [الكهف : ٧٨] أفما تخاف يا من لم يف لربه قط أن يقول في بعض زلاتك هذا فراق بيني وبينك .

* أعظم عذاب أهل جهنم جَهلُهم بالمعذِّبْ . لو صحت معرفتهم بما لمالك هنالك لما استغاثوا بمالك ﴿ يَا مَٰالِكُ . . . ﴾ [الزخرف : ٧٧] .

وقع بينهم شخص ليس من الجنس ، كان في باطنه ذرة من المعرفة فكلما حملت عليه النار أتقاها بدرع يا حنان يا منان . كان موته في المعاصي سَكَّنَهُ فقبر في جهنم ، فلما تحرك الروح في الباطن أخرج من القبر .

* حِرْصُ العصفورِ يخنقه ، وقَنْعُ العنكبوتِ في زاوية الضعف يسوق إليها الذباب قوتاً لها ، رُبَّ ساعٍ لقاعد .

* أرسلت قلبك مع كل مطلوب من الهوى ، ثم تبعث وراءه وقت

= اللَّهُ عَلَيه وسلّم حِينَ حَلَفُوا لَهُ فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ ، وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلّم أَمْرَنَا حَتّى قَضَى اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ بذٰلِكَ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ﴾ وَلَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ مِمَّا خُلِّفْنَا تَخَلُّفَنَا عَنِ الْغَزْوِ ، وَإِنَّما هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا ، وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَذَرَ إِلَيه فَقَبِلَ مِنْهُ . متفقٌ عَلَيْهِ .

وفي روايةٍ : أَنَّ النَّبِيَّ صلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسلَّم خَرَج في غَزْوَةِ تَبُوكَ يَوْمَ الْخَمِيسِ ، وَكَانَ يُحِبُّ أَنْ يَخْرُجَ يَوْمَ الْخَمِيس .

وفي روايةٍ : كانَ لاَ يَقْدَمُ مِنْ سَفَرٍ إِلاَّ نَهَاراً في الضُّحَى ، فَإِذَا قَدِمَ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَصَلَّى فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ثمَّ جَلَسَ فِيه .

رواه البخاري في المغازي باب غزوة تبوك ، وفي تفسير سورة براءة : باب وعلى الثلاثة الذين خلفوا ومسلم رقم (٢٧٦٩) التوبة : باب حديث توبة مالك بن كعب .

الصلاة ، فربما لا يلقاه الرسول فتصلي بلا قلب .

خَلَّفْتَ قَلْبَكَ فِيْ الأَظْعَاْنِ إِذْ نَزَلَتْ بِـالْمَأْزِمَيْنِ غَـدَاْةَ النَفْـرِ بِـالنَّفَـرِ
وَرُحتَ تَطْلُبُ فِي أَرْضِ العِرَاقِ ضُحىً مَاْ ضَاْعَ عِنْدَ مِنىً فاعْجَبْ لِذَا الخَبَرِ
لَمَّا طَرَقْنَاْ مِنىً كَاْنَ الفُؤَاْدُ مَعِيْ فَضَلَّ عَنِّيَ بَيْنَ الضَّاْلِ والسَّمُـرِ
يَاْ زَاجي العِيْسِ تُنْبِيْكَ الرِّمَاْلُ فَمَاْ أَمْشِيْ بِوَجْدِيْ غَداً إلَّا عَلَى الأَثَرِ

* يا من فقد قلبه لا تيأس من عوده

فَقَدْ يَجْمَعُ اللّهُ الشَتِيْتَيْنِ بَعْدَمَاْ يَظُنَّاْنِ كُـلَّ الظَّنِّ أَنْ لَا تَـلَاقِيَا

* الهوى قاطن ، والصواب خاطر ، وطرد القاطن صعب ، وإمساك الخاطر أصعب .

* إنك لم تزل في حبس فأَوَّل الحبوس : صلب الأب ، والثاني : بطن الأمّ ، والثالث : القماط والمهد ، والرابع : المكتب ، والخامس : الكد على العيال ، والسادس : مرض الموت ، والسابع : القبر ، فإن وقعت في الثامن نسيت مرارة كل حبس تقدم .

ادخل حبس التقوى باختيارك أياماً ليحصل لك الاطلاق على الدوام ، ولا تؤثر إطلاق نفسك فيما تحب ، فإنّه يؤثر حبس الأبد .

* العذل على حمل العشق علاوة . ومريخ قطب الشم يوجده ، فروى له خبر التعذيب ، فعرضا[1] .

* متى تركت المعصية وما حللت عقد الاصرار لم يفده شيئاً ، كما لو سَكَنَ المرضُ من غير استفراغ ، فإنّه على حاله .

* إن لم يتحقق قصد القلب لم يؤثر النطق شيئاً .

---

(١) كذا الأصل ولم يظهر في المعنى فليتأمّل اهـ مصححه .

* يمين المكره لا تنعقد .

* ويحك نفسك سلعتك وقد استامها المشتري بأفخر الثمن فاجهد في إصلاح عيوبها لعله يرضى بها .

* منام المُنَى أضغاث ، ورائد الآمال كذوب ، ومرتع الشهوات وخيم ، العجز شريك الحرمان ، التفريط مصائب الكسل .

* قفل قلبك رومي ما يقع عليه غش :

* متى خامر من جنود عزمك عليك واحد لم يأمن قلبك الهزيمة عليه .

وَإِذَاْ كَـاْنَ فِيْ الأَنَـابِيْبِ خُلْفٌ وَقَعَ الطَّيْشُ فِيْ رُؤُوْسِ الصِّعَاْدِ

* كن قيماً على جوارحك ورعيتك ، إذا وفيتها الحظوظ فاستوف منها الحقوق .

* تأمل قوله تعالى ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴾ [طه : ١١٧] كيف شرك بينهما في الخروج وخص الذكر بالشقاء لاشتغاله بالكسب والمعاش ، والمرأة في خدرها :

تَزَوَّدْ مِنْ الْمَاءِ الْـقَرَحِ فَلَنْ تَرَىٰ بِوَادِيْ الغَضَاْ مَاْءً نُقَاْحاً وَلَاْ بَرْدا
فَهَلْ مِنْ نَسِيْمِ البَاْنِ والرَّنْدِ نَفْحَةٌ فَهَيْهَاْتَ وَادٍ يُنْبِتُ الْبَاْنَ والرَّنْدَا
وَكُـرَّ إِلى نَجْـدٍ بِـطَرْفِـكَ إِنَّــهُ مَتَى تَسْرِ لاَ تَنْظُرْ عَقِيْقاً وَلَاْ نَجْدا

* انظر يمنة فهل ترى إلّا محنة، ثم أعطف يسرة فهل ترى إلا حسرة. أما الربع العامر فدرس، وأما آسُ الممات فغرس. وأما الراكب فكبت به الفرس . ساروا في ظلم ظلامتهم فما عندهم قبس ، وقفت بهم سفن نجاتهم لأنّ البحر يبس . وانقلبت تلك الدور كلها في تعس . وجاء

منكر بآخر سبأ[1] ونكير بأول عبس[2] . أفلا يقوم لنجاته من طالما قد جلس .

يَاْ نَفْسُ مَاْ هِيَ إلاَّ صَبْرُ أَيَّامِ كَـأَنَ مُـدَّتَهَـا أَضْغَـاْثُ أَحْـلاَمِ
يَاْ نَفْسُ جُوْدِي عَنِ الدُّنْيَا وَلَذَّتِهَاْ وَخَـلِّ عَنَّهَاْ فَـإِنَّ الْعَيْشَ قُدَّامِيْ

* ألا يصبر طائر الهوى عن حبة مجهولة العاقبة ، وإنما هي ساعة ويصل إلى برج أَمْنِهِ وكم فيه من حبة .

وَإِنْ حَـنَنْـتَ لِلْحِـمَىٰ وَرَوْضِــهِ فَبِـالغَضَـاْ مَـاْءٌ وَرَوْضَـاْتٌ أُخَـرْ

* حامل الكتب من الطير أقوى عزيمة فلعل وضعك على غير الاعتدال . لا تكون الروح الصافية إلاّ في بدن معتدل ، ولا الهمة العالية إلاّ في نفس نفيسة .

إذا حمل الطائر الرسالة صابرَ العزيمة ، ولازمَ بطون الأودية ، فإنْ خفيت عليه الطريق تنسَّمَ الرياح ، وتلمَّحَ قرص الشمس وتستر ، وهو مع شدة جوعه يحذر الحب الملقى خوفاً من دفينة فخ توجب تعرقل الجناح ، وتضييع ما حمِّل فإذًا بلَّغ الرسالة أطلق نفسه في أغراضها داخل البرج .

فيا حاملي كتب الأمانة ! أكثركم على غير الجادة ، فما يصل[3] منكم من قد رأى الحب ، فنزل بما حمل ، فارتهن ورزح[4] ، واستسلم[5] وتعرقل[6] جناحه ، [فهو] ينتظر الذَّبْحَ ، فلا الحبة حصلت ، ولا الرسالة وصلت .

---

(١) قال تعالى : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيْبٍ ﴾ [سبأ : ٥٤] .

(٢) قال تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَآءَهُ الأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيْكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ أَوْ يَذَّكَر فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴾ [عبس ١ ـ ٤] .

(٣) في الأصل : وما يعتدل .

(٤) في الأصل : ورج .

(٥) في الأصل : فيسلم .

(٦) في الأصل : وتعرقل .

قَــطَاْةٌ غَــرَّهَــاْ شَــرَكٌ فَبَــاْتَتْ   تُجَــاذِبُــهُ وَقَــدْ عَلِقَ الجَنَــاْحُ
فَلاَ فِيْ اللَّيْـلِ نَــاْلَتْ مَـاْ تَمَنَّتْ   وَلاَ فِي الصُبْحِ كَاْنَ لَهَا سَرَاْحُ

* لو صابرتم مشقة الطريق لانتهى السفر ، فتوطنتم مستريحين في جنات عدن .

* يا مهملين النظر في العواقب أسلفوا في وقت الرخص فما يؤمن تغير الأسعار .

* لا ترم بسهام النظر فإنَّها واللَّه فيك تقع ، رب راعٍ مقلةٍ أهملها فَأُغِيْرَ على السَرْح .

كُلُّ الحَوَاْدِث مَـبْدَاهَا مِنَ النَّظَرِ   وَمُعْظَمُ النَّاْرِ مِنْ مُسْتَصْغَرِ الشَّرَرِ
كَمْ نَظْرَةٍ فَعَلْت فِيْ قَلْبِ نَاْظِرِهَاْ   فِعْلَ السِّهَاْمِ بِلاَ قَوْسٍ وَلاَ وَتَرِ

غيره

وَأَرَى السِّهَــاْمَ تَــأُمُّ مَنْ يُــرْمَىٰ بِهَــاْ   فَعَلاَمَ سَهْمُ اللَّحْظِ يُصْمِيْ مَنْ رَمَىٰ

* أعرف قدر لطفه بك وحفظه لك ، إنما نهاك عن المعاصي حماية لك، وصيانة لك لا بخلاً منه عليك ، وإنما أمرك بالطاعة رحمةً واحساناً ، لا حاجة منه إليك .

* لما عرفته بالعقل حرَّم ما يزيله وهو الخمر صيانة لبيت المعرفة . يا متناولاً للمسكر لا تفعل !! يكفيك سكر جهلك ، فلا تجمع بين سكرين .

* سِلْعَةُ ﴿وَإِنّي لَغَفَّاْرٌ. . .﴾ لا تبذل إلاَّ بثمن ﴿لمن تـاب﴾ .

* يا خارجاً عن سبيله وأمن[1] عن سكة ﴿ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ من دار ضرب (ثُمّ اهْتَدَىٰ ﴾ [طه : ٨٢] إنْ لم تقدر على الجد في العمل فقف على باب الطلب .

---

(١) كذا الأصل ولم يظهر لي معناه فليتأمّل اهـ صححه .

* تعرض لنفحة من نفحات الرب ففي لحظة أفلح السَحَرَّة[1] .

* لَا تَجْزَعَنَّ مِنْ كُلِّ خَطْبٍ عَرَا وَلَا تُرِيْ الأَعْدَاءَ مَا يُشْمِتُ
وَاصْبِرْ فَبِالصَّبْرِ تَنَاْلُ المُنَىٰ إِذَاْ لَقِيْتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوْا

* ثمن المعالي الجد ، والفتور داءٌ أمرُّ من السلوة .

[أَمَا] فِيْ عَيْنَيْكَ آيَاتٌ وآثَار
إِذَا مَا بَرُدَ القَلْبُ فَمَا تُسْخِنُهُ النَارُ

الوجود بحر ، والعلماء جواهره ، والزهاد عنبره ، والتجار حيتانه ، والأشرار تماسيحه ، والجهال علي ظهره كالزبد .

* لو كشفت لك الدنيا ما تحت نقابها لرأيت المعشوقة عجوزاً ، وما ترضى إلّا بقتل عشاقها ، وكم تدللت عليهم بالنشوز ، فأذاقتهم برد كانون الأماني هم في وسط تموز .

* تطلب مشاركة الغانمين وما شهدت الحرب ، تحل الغنيمة لمن شهد الوقعة .

* البلايا تظهر جواهر الرجال وما أسرع ما يفتضح المدعي :

تَنَاْمُ عَيْنَاْكَ وَتَشْكُوْ الهَوَىٰ لَوْ كُنْتَ صَباً لَمْ تَكُنْ هَكَذَاْ

* يا مؤثراً ما يفنى على ما يبقى ، هذا رأي هواك ! فهلّا استشرت العقل لتعلم أنصحهما لك . لا تحقرنَّ يسير المعصية فهو كالعشب الضعيف يفتل منه حبال تجر السفن ، أو ما نفذت في سد سبأ حيلة جرذ .

* العمر ثوب غير مكفوف وكل نَفَس خيط يسل منه .

* أنت أجير وعليك عمل ، فأخِّر ثياب الراحة إلى انقضاء العمل .

---

(١) أي سحرة فرعون .

* كم غرقت سفينة في بحر شوق سَارُوا وما يسألون ما فعل الفجر ، ولا كيف مالتِ الشهب، عودهم هَجْرُهم، مطالب الراحات أن يظفروا بما طلبوا .

* الشجاع يلبس القلب على الدرع ، والجبان يلبس الدرع على القلب .

* أعظم البلايا تردد الركب إلى بلد الحبيب يودعون الدمن .

* وَمَعَاْلٍ لَوُ ادَّعَاهَاْ سُوَاْهُمْ لَزِمَتْهُ جِنَاْيَةُ السُّرَّاْقِ
* نَاْلُوْا السَّمَاْءَ وَحَطُّوا مِنْ نُفُوْسِهِمُ إنَّ الكِرَاْمَ إِذَا انْحَطُّوْا فَقَدْ صَعِدُوا

* لو صدق عزمك قذفتك ديار الكسل إلى بيداء الطلب .

* الناقد يخاف دخول المبهرج عليه واختلاطه بماله ، والمبهرِج آمن .

* هذا الصديق يمسك بلسانه ويقول : هذا أوردني الموارد[١] . وعمر يناشد حذيفة[٢] : هل أنا منهم[٣] . والمخلط على بساط الأمن .

* إذا جنَّ الليل وقع الحرب بين النوم والسهر ، فكان الشوق

---

(١) رواه أبويعلى في « مسنده » ١ / ١٧ ، وابن السني في « عمل اليوم والليلة » رقم (٧) قال في « مجمع الزوائد » ورجاله رجال الصحيح غير موسى بن محمد وقد وثقه ابن حبان .

(٢) هو أبو عبد اللّه حذيفة بن اليمان العبسي حليف بني عبد الأشهل شهد حذيفة وأبوه أحداً وهو صاحب سر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم هاجر إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم مع أبيه أيام بدر ولم يشهدها .روى عنه عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وأبو الدرداء وغيرهم من الصحابة والتابعين .
مات بالمدائن وبها قبره سنة خمس وثلاثين .

(٣) وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عرف حذيفة بأسماء المنافقين في عهده فأراد عمر أن يعرفهم فأبىٰ حذيفة أن يفشي سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له عمر : هل أنامنهم ، فقال حذيفة : لا ، ولم أجد تخريج هذا الأثر .

والخوف في مقدمة عسكر اليقظة ، وصار الكسل والتواني في كتيبة الغفلة ، فإذا حمل الغريم حملة صادقة هزم جنود الفتور والنوم ، فحصل الظفر والغنيمة فما يطلع الفجر إلا وقد قسمت السهمان، وما عند النائمين خبر.

قام المتهجدون على أقدام الجد تحت ستر الدجى يبكون على زمن ضاع في غير الوصال ، ما زالت مطايا السهر تذرّعُ بيداءَ الدجى ، وعيون آمالها لا ترى إلّا المنزلَ ، وحادي العزم يقول :

يَاْ رِفْقَةَ اللَّيْلِ طَاْبَ السَيْرُ فَاغْتَنِمُوْا الـ
ـمسرىٰ ، فَمَنْ نَـاْمَ طُـوْلَ اللَّيْـلِ لَمْ يَصِل

إلى أن هب نسيم السحر ، فقام الصادح يبغي ظلام الليل ، فلما هم بالرحيل تشبث القوم بأذياله يبكون على فراق المحبوب ، فلما طلع الفجر حدى حاديهم « عِنْدَ الصَبَاْحِ يَحْمَدِ القَوْمُ السُرَى »[١] .

* يا من يستعظم أحوال القوم! تنقل في المراقي تصل .

* من جمع بين العـلم بالسنة ومتابعتها أنتجا له المعاني البديعة فهي تنادي على رؤوس الاشهاد : « ولدت من نكاح لا من سفاح »[٢] .

ومن قرن بين البدعة والهوى انتجا له ضروب الهذيان فهي تنادي على رؤوس الأشهاد : أيها الفطن لا تغتر .

* إذا فَتَّحَتْ الوردة عينها فرأت الشوك حولها فلتصبر على مجاورته قليلًا فوحدها تقصدُ وتقبَّلُ وتُشَمُّ .

* إذا تكلم من يريد الدنيا بكلامه فإنه كلما حفر في قليب قلبه ، وأمعن في الاستنباط انهار عليه تراب الطمع فطمه .

---

(١) هو من كلام خالد بن الوليد رضي الله عنه انظر « مجمع الأمثال » رقم (٢٣٨٢) .

(٢) حديث حسن ، كما قال الألباني في « الإرواء » رقم (١٩١٤) ، روي من حديث علي ابن أبي طالب وعبد الله بن عباس وعائشة وأبي هريرة رضي الله عنهم .

* إذا رأيت سربال الدنيا قد تقلص عنك فاعلم أنه لطف بك ، لأنّ المنعم لم يقبضه بخلاً أن يتمزق ، ولكن رفقاً بالساعي أن يتعثر .

* فتش على القلب الضائع قبل الشروع ، فحضور القلب أول منزل من منازل الصلاة ، فإذا نزلته انتقلت إلى بادية المعنى ، فإذا رحلت عنها أنخت بباب المناجاة ، فكان أول قِرَى ضيف اليقظة كشفُ الحجاب لعين القلب ، فكيف يطمع في دخول مكة من لم يخرج[1] الى البادية بعد .

* إذا كانت مشاهدة مخلوق يوم ﴿ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾ [يوسف : ٣١] استغرقت إحساسَ الناظرات ﴿ فَقَطَّعْنَ أَيْدِيهُنَّ ﴾ [يوسف : ٣١] وما شعرن ، فكيف بالحال يوم المزيد[2] .

* لو أحببت المعبود لحضر قلبك في عبادته .

قيل لعامر بن عبد القيس[3] : أما تسهو في صلاتك؟ قال: أو حديثٌ أحبُّ إلي من القرآن حتى اشتغل به !!

وكان مسلم بن يسار[4] لا يلتفت في صلاته حتى انهدمت ناحية من

---

(١) في الأصل : لاخرج .

(٢) قال تعالى : ﴿ لَهُمْ مَا يَشَاؤُوْنَ فِيْهَا وَلَدَيْنَا مَزِيْد ﴾ [ق : ٣٥] .

(٣) هو القدوة الولي الزاهد أبو عبد اللّه ، ويقال : أبو عمرو التميمي العنبري البصري . روى عن عمر وسلمان .

وعنه الحسن ومحمد بن سيرين وأبو عبد الرحمن الحبلي وغيرهم وقلّما روى، وعن أبي الحسين المجاشعي قال : قيل لعامر بن عبد قيس : أتحدث نفسك في الصلاة ؟ قال : أحدثها بالوقوف بين يدي اللّه ، ومنصرفي .

عن يزيد بن الشخير أن عامراً كان يأخذ عطاءه فيجعله في طرف ثوبه فلا يلقى مسكيناً إلّا أعطاه ، فإذا دخل بيته رمى به إليهم فيعدونها فيجدونها كما أعطيها .

توفي زمن معاوية ودفن ببيت المقدس .

(٤) هو مسلم بن يسار أبو عبد اللّه البصري مولى بني أمية وقيل مولى بني تميم من موالي طلحة رضي اللّه عنه .

=

نواحي المسجد فزع لها أهل السوق فما التفت ، وكان إذا دخل منزله سكت أهل بيته فإذا قام يصلّي تكلموا وضحكوا علماً منهم بالغيبة .

وقيل لبعضهم : إنّا لنوسْوَسُ في صلاتنا .

قال : بأي شيء ؟ بالجنة أو الحور العين والقيامة .

قالوا : لا بل بالدنيا .

فقال : لأنْ تختلفَ فيَّ الأسنةُ أحبُّ إليَّ من ذلك .

تقف في صلاتك بجسدك ، وقد وجهت وجهك إلى القبلة ، ووجهت قلبك إلى قطر آخر ، ويحك ! ما تصلح هذه الصلاة مهرٌ للجنة ، فكيف تصلح ثمناً للمحبة .

رأت فارة جملاً فأعجبها ، فجرت خطامه فتبعها ، فلما وصلت إلى باب بيتها وقف فنادى بلسان الحال إمّا أن تتخذي داراً تليق بمحبوبك أو محبوباً يليق بدارك ، وهكذا أنت إمّا أن تصلي صلاة تليق بمعبودك ، وإمّا أن تتخذ معبوداً يليق بصلاتك .

= كان فقيهاً زاهداً قدوة .

قال ابن عون : كان لا يفضل عليه أحدٌ في زمانه .

وقال ابن سعد : كان ثقة ، فاضلاً ، عابداً ، ورعاً .

قال ابن شوذب : كان مسلم بن يسار يقول لأهله إذا دخل في الصلاة : تحدثوا فلست أسمع حديثكم .

وروي أنه وقع حريق في داره وأطفىء فلما ذكر ذلك له قال : ما شعرت . قال سفيان بن عيينة : إن الحسن البصري لما مات مسلم بن يسار قال : وامعلماه .

روى عن عبادة بن الصامت ولم يلقه ، وعن ابن عباس وابن عمر وأبيه يسار .

حدث عنه محمد بن سيرين وهو من طبقته وقتادة وثابت البناني وأيوب السختياني ومحمد بن واسع وآخرون .

مات سنة مئة .

* تعاهد قلبك فإنْ رأيت الهوى قد أمال أحد الحملين فاجعل في الجانب الآخر ذكر الجنة والنار ليعتدل الحمل ، فإنْ غلبك الهوى فاستعنت بصاحب القلب يعينك على الحمل ، فإنْ تأخرتْ الإجابة فابعث رائد الإنكسار خلفها تجده عند المنكسرة قلوبهم .

* اللطف مع الضعف أكثر فتضاعف ما أمكنك .

* لما كانت الدجاجة لا تحنو على الولد أخرج كاسباً ، ولما كانت النملة ضعيفة البصر أعينت بقوة الشم ، فهي تجد ريح المطعوم من البعد . ولما كانت الخُلْدُ عمياء أُلْهِمت وقت الحاجة إلى القوت أن تفتح فاها فيبعث إليها الذباب فيسقط فيه فتتناول منه حاجتها .

* الأطيار تترنم طول النهار فقيل للضفدع : ما لك لا تنطقين! فقالت : مع صوت المزمار يستبشع صوتي ولكن الليل أجمل بي .

* لا تنس العناية بالسحرة ! جاءوا يحاربونه ويحاربون رسله ، وخِلَعُ الصلح قد فصلت ، وتيجان الرضىٰ قد وضعت ، وشراب الوِصال مروَّق ، فمدوا أيديهم إلى ما اعتصروا من خمر الهوى فإذا بها قد انقلبت خلًّا ، فأفطروا عليه فسكروا بشراب المحبة ، فلما عربدت عليهم المحبة ، صلبوا في جذوع النخل ، واعجباً لعزمات ما ثناها ﴿ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ﴾ [الأعراف : ١٢٤ وطه : ٧١] سجدوا له سجدة واحدة فما رفعوا رؤوسهم حتى رأوا منازلهم من الجنة ، فغلبهم الوجد ، وتمكن منهم الشوق ، فقالوا : ﴿ اقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ [طه : ٧٢] .

تَمُرُّ الصِبَا صُبْحَاً بِسَاْكِنْ ذِيْ الغَضَاْ وَيَصْدَعُ قَلْبِي أَنْ يَهُبَّ هُبُوْبُهَا
قَرِيبَةُ عَهْدٍ بِالحَبِيْبِ ، وَإِنَّمَا هَوَى كُلِّ نَفْسٍ أَيْنَ حَلَّ حَبِيْبُهَا

* قطعت نياق جدهم بادية الليل ولم تجد مس التعب ، فالطريق إلى المحبوب لا تطول .

بَعِيدٌ عَلَىٰ كَسْلَانَ أَوْ ذِي مَلَالَةٍ وَأَمَّـا عَلَى الْمُشْتَاقِ فَهُـوَ قَرِيْبُ

* يا حاضرين معنا بنية النزهة ، لستم معنا ! عودوا إلى أوكار الكسل ، فالحرب طعن وضرب .

ويا مودعين ؛ أرجعوا فقد عبرنا العذيب[1]، وعن قريب تأتيكم أخبارنا ، ويا أيها الحادي عَرِّس بالخيف من منىً ، تعلمك الدموع كيف ترمى حصا الجمار . ضيف المحبة ما له قِرىً إلا المهج .

* إذا رأيت محباً ولم تدر لمن ضع يدك على نبضه، وسمِّ له من تطبه به ، فإنّ النبض ينزعج عند ذكره ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُوْنَ الَّذِيْنَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال : ٢] .

* حر الخوف صيفُ الذوبان ، وبرودة الرجاء شتاء العطلة ، ومن لُطِفَ به فزمانه كله فصل الربيع .

عَيْنٌ تُسَـرُّ إذا رَأَتْـكَ ، وَأُخْتُهَـاْ تَبْكِي لِـطُوْلِ تَبَـاعُـدٍ وَفِـرَاْقِ
فَـاحْفَظْ لِوَاْحِـدَةٍ دَوَاْمَ سُرُوْرِهَـاْ وَعِـدِ الَّتِي أَبْـكَيْـتَهَـاْ بِـتَـلَاقِ

* إذا رزقت يقظة فصنها في بيت عزلة ، فإنّ أيدي المعاشرة نهابة ، واحذر معاشرة البطّالين فإنّ البطل[2] لص .

* لا تصادقن فاسقاً ، ولا تثق إليه ، فإنّ من خان أول منعم عليه لا يفي لك .

* يا فَرِحَ التوبة ! لازم ذكر الخلوة ، فإنّ هرَّ الهوى صيود .

---

(١) قال في « معجم البلدان » ٤ / ٩٢ : هو واد لبني تميم ، وهو من منازل حاج الكوفة .
(٢) في الأصل : الطبع .

إياك والتقرب من طرف الوكر ، والخروج من بيت العزلة حتى يتكامل نبات الخوافي ، وإلاّ كنت رزق الصائد .

الأنس بالخلوة دبق ، أول ما يعلق جناح الطير ، والمخالطة توجب التخليط ، وأيسرها تشتيت الهمة وضعف العزيمة .

أَقَلُّ مَاْ فِيْ سُقُوْطِ الذِّئْبِ فِي غَنَمٍ إنْ لَمْ يُصِبْ بَعْضَهَاْ أَنْ تَنْفِرَ الغَنَمُ

إنْ لم تكن من جملة المستحقين للميراث فكن من رفقة ﴿ وإذَا حَضَرَ القِسْمَةَ أَوْلُوْا القُرْبَىٰ . . . ﴾ [النساء : ٨] .

* ويحك لا تحقر نفسك ، فالتائب حبيب ، والمنكسر صحيح ، إقرارك بالافلاس عينُ الغنى ، تنكيس رأسك بالندم هو الرفعة ، اعترافك بالخطأ نفس الإصابة .

* عرضت سلعة العبودية في سوق البيع فبذلت الملائكة نقد ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾ [البقرة : ٣٠] فقال آدم ما عندي إلا فلوس الإفلاس ، نقشها ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَاْ أَنْفُسَنَاْ ﴾ [الأعراف : ٢٣] فقيل هذا الذي ينفق في خزائن الإخلاص(١) .

أنين المذنبين أحبُّ إلينا من زجل المسبحين .

* إن كان يأجوج الطبع ومأجوج الهوى قد عاثوا في أرض القلوب ، فأفسدوا فيها ، فأعينوا الملِك بقوة يجعل بينكم وبينهم ردماً .

أجمعوا له من العزائم ما يشابه زبر الحديد ، ثم تفكروا فيما أسلفتم ليثور صعد الأسف ، فلا يحتاج إلى أنْ يقول لكم انفخوا .

شدوا بنيان العزم بهجر المألوفات والعوائد ، وقد استحكم البناء ، فحينئذ أَفْرغوا عليه قِطْرَ الصبر ، وهكذا بنى الأولياء قبلكم ، فجاء العدو

---

(١) في الأصل : خاص ، ولعلها الخواص والله أعلم .

﴿ فَمَاْ اسْطَاعُوْا أَنْ يَظْهَرُوْهُ وَمَاْ اسْتَطَاْعُوْا لَهُ نَقْباً ﴾ الكهف : ٩٧] .

* ضاقت أيام الموسم فأسْرِعوا بالإبل .

* لا تفتكم الوقفة ،إذا لم تخلص فلا تتعب ، لا تحد وما لك بعير ، لا تمد القوس وما لها وتر .

* كم بذل نفسه مراءٍ ليمدحه الخلق ، فذهبت نفسه ، فانقلب المدح ذماً ، ولو بذلها للّه بقيت ما بقي الدهر .

عمل المرائي بصلة كلها قشور .

المرائي يحشو جراب الزوادة رملاً يثقله في الطريق وما ينفعه .

ريح الرياء جيفة تتجافاها مشامُّ القلوب .

* لما أخذ دود القز ينسج أقبلت العنكبوت تشبهه ، وقالت: لك نسج ولي نسج ، فقالت دودة القز: ولكن نسجي أردية الملوك، ونسجك شبكة الذباب ، وعند مس الحاجة يتبين الفرق .

إِذَاْ اشْتَبَكَتْ دُمُـوْعُ فِيْ خُـدُوْدٍ   تَبَيَّـنَ مَنْ بَـكَـاْ مِمَّـنْ تَبَـاْكَـى

* شجرة الصنوبر تثمر في ثلاثين سنة . وشجرة الدباء تصعد في اسبوعين فتقول للصنوبرة : إنّ الطريق التي قَطَعْتِها في ثلاثين سنة قطعْتُها في أُسبوعين ويقال لي : شجرة ، ولك : شجرة .

فقالت لها الصنوبرة : مهلاً حتى تهبَّ رياح الخريف فإنْ ثَبَتِّ لها تَمّ فخرُك .

* كان التصوف والفقر في مواطن القلوب ، فصار في ظواهر الثياب . كان حُرْقَةً فصار حِرْفَةً .

* غَيّرْ زَيَّكَ أيها المرائي فإنّه يصيح بك خذوني . السيف والدرع لِتَزْيِيْنِ هيئتك فضيحةٌ ، البهرجُ يبين عند المحك .

* لو أبصرت طلائع الصديقين في أوائل الركب ، أو سمعت استغاثة المحبين في وسط الركب ، أو شاهدت ساقة المستغفرين في آخر الركب ، لعلمتَ أنَّك قد انقطعت تحت شجر أُمِّ غيلان[1] .

واحسرتا لمنقطع دون الركب يَعُدُّ المنازل .

أَعُــدُّ اللَّيَــالِي لَيْلَةً بَعْــدَ لَيْلَةٍ   وَقَدْ عِشْتُ دَهْراً لَا أَعُدُّ اللَّيَالِيَا
وَقَدْ يَجْمَعُ اللَّهُ الشَتِيْتَيْنِ بَعْدَمَا   يَظُنَّانِ كُـلَّ الظَنِّ أَنْ لَا تَـلَاقِيَا

* إلى مَ الرواح في الهوى والتفليس ، وحتى مَ السعي في صحبة ابليس ، وكم بهرجة في العمل وتدليس ، أين أقرانك هل تسمع لهم من حسيس ، أعلمت أنهم اشتد ندمهم وحسرتهم على إيثار الخسيس . تالله لقد ودوا أن لو كانوا طلقوا الدنيا قبل المسيس .

عَيْنُ المَنِيَّـةِ تُغْضِيْ غَيْرَ مُـطْرِقَةٍ   وَطَرْفُ مَطْلُوْبِهَا مُذْ كَانَ وَسْنَانُ
جَهْـلاً تَمَكَّنَ مِنْهُ حِيْنَ مَـوْلِـدِهِ   فَالنُطْقُ صَاحٍ ، وَلُبُّ المَرْءِ سَكْرَانُ

* لا تنفع الرياضة إلا في نجيب .

* [الحنظل] لو سقي بماء السكر لم يخرج إلا مراً .

* شجـر الأثل والصفصاف والحور ونحوها ولو دام الماء في عروقها لا تثمر أبداً .

* سحاب الهوى قد طبق بيداء الأكوان، وأمطر مشارق الأرض ومغاربها ، ولكن قيعان أرض قلبك قيعان لا تمسكُ ماءً ولا تنبت كلأً ، ومع هذا فلا تيأس فقد يستحيل الخمر خلًّا ، ولكن إنّما ذلك لطيب العنصر .

---

(١) أم غيلان شجرة السَّمُر .

* خلا الفكر في القلب في بيت التلاوة ، فجرى ذكر الحبيب وأوصافه ، فنهض الشوق على قدم السعي .

* يا من لم يشاهد جمال يوسف لم يعرف ما الذي آلم قلب يعقوب .

مَنْ لَمْ يَبِتْ وَالْحُبُّ حَشْوُ فُؤَادِهِ   لَمْ يَـدْرِ كَيْفَ تَفَتَّتُ الأَكْبَـادُ

* يا من هبت على قلبه جنوب المجانبة ، فتكاثفت عليه غيوم الغفلة ، فأظلم أفق المعرفة ، لا تيأس فالشمس تحت الغيم ، لو تصاعد منك نَفَسُ أَسْفٍ استحالت شمالاً ، فتقطع السحاب فبانت الشمس تحته .

* لما كان رزق الطائر اختلاساً لم يجعل له أسنان ، لأن زمن الانتهاب لا يَحْتمل المضغَ ، وجعل له حوصلة كالمخلاة ، ينقل إليها ما يستلب ، ثم تنقله إلى القانصة في زمن الإمكان ، فإنْ كانت له أفراخٌ أسهمهم قبل النقل .

* كلما طالت ساق الحيوان طال عنقه ليمكنه تناول الأطعمة من الأرض .

* رُمِيْتَ صخرةُ الهوى على ينبوع الفطنة ، فاحتبس الماء ، فإنْ لم تطق رفعها فانقب حولها ، لعل ينابيع الماء تتفجر .

* لو بعت لحظةً من إقبالك على الله بمقدار عمر نوح في ملك قارون لكنت مغبوناً في العقد .

* عشاق الدنيا بين مقتول ومأسور فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر .

* يا طالبي العلم قد كتبتم ودرستم ، فلو طلبكم العلم في بيت العمل فَلَسْتُم . . . ، وإن ناقشكم على الإخلاص أَفْلَسْتُم .

* شجرة الإخلاص أصلها ثابت لا يضرها زعازع ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِيْنَ كُنْتُمْ تَزْعُمُوْنَ ﴾ [القصص : ٦٢ و٧٤] وأما شجرة الرياء فإنّها تجتث عند نسمةِ « مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئاً فَلْيَتْبَعْه »[١] .

* رياء المرائين صيّر مسجد الضرار مزبلة، وخَرّبُه ﴿لاَ تَقُمْ فِيْهِ أَبَداً ﴾ [التوبة : ١٠٨] وإخلاص المخلصين رفع قدر التفث[٢] « رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَر . . »[٣] قلب من ترائيه بِيَدِ من أعرضت عنه ، يصرفه عنك إلى غيرك ، فلا على ثواب المخلصين حصلت ، ولا إلى ما قصدته بالرياء وصلت ، وفات الأجر والمدح ، فلا هذا ولا هذا .

* لا تنقش على الدرهم الزائف اسم الملك ، فإنّه لا يدخل الخزانة إلا بعد النقد .

* المخلص يتبهرج على الخلق بستر حاله وببهرجته يصح له النقد ، والمرائي يتبرطل[٤] على باب الملك يوهم أنه من الخواص وهو غريب ، فسله عن أسرار الملك يفتضح ، فإنْ خفى عليك فانظر حاله مع خاصة الملك .

---

(١) قطعة من حديث أبي هريرة رضي اللّٰه عنه في الشفاعة المتقدم ص (٢٧٦) .

(٢) التفث التشعث ورجل تَفِث : متغير شعث لم يدهن ، ولم يستحد .

(٣) رواه مسلم رقم (٢٦٢٢) في البر والصلة باب فضل الضعفاء والخاملين ، وفي صفة الجنة ونعيمها وأهلها من حديث أبي هريرة رضي اللّٰه عنه ولفظه : « رب أشعث أغبر لو أقسم على اللّٰه لأبرّه » .

(٤) البراطيل : حجر مستطيل عظيم يشبه رأس الناقة شبهت به الرشوة لأنها تسكت المرتشي عن قول الحق أو فعله .

* يا من لم يصبر عن الهوى صبر يوسف ، يتعين عليه بكاء يعقوب ، فإنْ لم يطق ، فذل أخوته يوم ﴿ تَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ [يوسف : ٨٨] .

* إذا طاب لبث الطين على حافات الأنهار تكامل ريه ، فإذا نضب عنه الماء استلبت الشمس ما فيه من الرطوبة ، فيشتد شوقه إلى الماء ، فلو وضعت منه قطعة على لسانك لأمسكه ، وعلق به شوقاً إلى الورد .

فيا من نضب ماء معاملته هل أحسست بالعطش .

* وَقَالُوْا يَعُوْدُ الْمَاءُ فِيْ الْبِئْرِ بَعْدَمَا *

وَكَانَتْ بِالحِجَازِ لَنَا لَيَالٍ   نَهَبْنَاهُنَّ مِنْ أَيْدِيْ الزَّمَانِ

* وَلاَ تَنْصِبْ خِيَامَكَ فِيْ مَحِلٍّ   فَإِنَّ النَّازِلِيْنَ عَلَىٰ ارْتِحَالِ

* مداراةُ الضعفاء باللطفُ ، فإذا قووا شُدِّدَ عليهم « مُرُوْهُمْ بِالصَّلاَةُ لِسَبْعٍ ، وَاضْرِبُوْهُمْ عَلَىٰ تَرْكِهَا لِعَشْرٍ . . . »[١] .

* كان الإسلام في بدايته كالنطفة ، فاقتنع بكلمة التوحيد ، فلما نفخ فيه الروح احتاج إلى الغذاء ففرضت الصلاة ، فلما تحرك وجبت الهجرة ، فلما اشتد وجبت الزكاة ، فلما قربت الولادة لزم الحج ، فلما ظهر طفلاً حُبيَ بلطف ﴿ يُرِيْدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ ﴾ [البقرة : ١٨٥][٢] فلما

---

(١) رواه أبو داود رقم (٤٩٥) و (٤٩٦) في الصلاة باب : متى يؤمر الغلام بالصلاة وأحمد في « المسند » ٢/ ١٨٠/ ١٨٧ من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وهو حديث حسن .

(٢) أي الصوم .

خاف من الزلل والعقاب جاءت بشارة ﴿ لَا تَقْنَطُوا . . ﴾ [الزمر : ٥٣] فلما ترعرع قال المؤدب ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوْءاً يُجْزَ بِهِ ﴾ [النساء ١٢٣] فلما بلغ أشده واستوى جاء ﴿ وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران : ٢٨ و٣٠] .

* المتعبدون بالليل يقربون إلى نوق الأبدان خبط الرقاد[1]، فإذا تناولت سد الفاقة رفعت رؤوسها ، فإذا الدليل على الجادة ، فتأخذ في السير .

* من النجوم الجواري مؤذن ومنها مقيم ، فأرباب العزائم يؤذن في محلتهم بليل ، ويقام لهم أول الوقت ، ومن دونهم يصلون في أول الوقت ، وأهل الفتور في آخره .

* إذا هجمت جنود الرقاد على العيون صاح حارس اليقظة بالمتعبدين « الصَّلَاةُ خَيْرٌ مِنَ النَّوْمِ » وهتف رقيب المعاتبة « كَذَبَ مَنْ ادَّعَى مَحَبَّتِيْ حَتَّى إِذَا جَنَّهُ اللَّيْلُ نَامَ عَنِّي » فيصيح المشتاق :

سَلُوْا اللَّيْلَ عَنِّي مُذْ تَنَاءَتْ دِيَارُكُمْ هَلْ اكْتَحَلَتْ بِالغُمْضِ لِي فِيْهِ أَجْفَانُ

ثم تمر بالمتهجدين سيارةُ النجوم فيبعثون مع كل فوج رسالة ، فتسلم أخباره إلى ركب السحر ، فتهب لمجيئها رياح الأسحار فيقول المنتظر : ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيْحَ يُوْسُفَ ﴾ [يوسف : ٩٤][2] .

* سبحان من أنعم على الموجودات بايجادها من غير طلب ، فلما وجدت بسطت أكف السؤال لطلب تكميلها ، فالأجنة في بطون الأمهات

---

(١) الخَبَط : الورق الساقط تعلف به الإبل .

(٢) كناية عن المغفرة والاجابة من اللّه . انظر حديث النزول ص ١٢٠ .

تطلب تكميل الخلق ، والبِذْرُ تحت التراب يطلب قوته من الري ، ومخ الثمار ينتظر من فضله كمال نضجه ، ومراكب البحار ترجو تحريكها بالرياح ، وأصحاب البضائع ينتظرون وفود الأرباح عليهم ، وطلاب العلم يسألون فتح منغلق الفهم ، وأهل المجاهدة يرومون المعاونة على الطبع ، والمظلوم يترقب طلوع فجر النصر ، والمريض يتململ بين يديه طلباً للطفه ، والمكروب ينتظر كشف ما به ، والخائف يترقب بريد الأمن ، والأبدان المتمزقة في اللحود تنتظر جمع الشمل بعد الشتات ، وعرائس الجنان يسئلن سلامة بعولتهن وتعجيل اللقاء ، فإذا قام الخلق من أطباق التراب بانعاش البعث، نكّس صاحب الزلل رأس الندم طلباً للعفو ، ومد العابد يد التقاضي بالمسلّم فيه عند حلول الأجل ، وحدق الزاهد إلى جزاء الصبر ، وأشرفَ المحبُّ على أطلال الشوق إلى الحبيب ، وصاح العارف بلسان الوجد إذْ لم يبق وقت للصمت :

لِيْ عِنْـدَكُمْ دَيْنٌ فَـوَاْ عَجَبـاً ... الـدَّيْـنُ لِيْ وَفُـؤَادِيَ الـرَهْـنُ
* مَنْ شَاْءَ بَاْهَلَنِيْ بَـاْهَلْتُهُ بِهِمُ ... وَبَعْدُ عِنْدَ وُرُوْدِ الحَوْضِ نَسْتَبِقُ

* غيره[1].

عَـدِمْتُ دَوَاْئِيْ بِـالْعِـرَاقِ وَرُبَّمَـاْ ... وَجَدْتُ بِنَجْدٍ لِيْ طَبِيْباً مُدَاوِيَـا
وَيَاْ جَبَلَ الـرَّيَاْنِ إِنْ تَعْـرَ مِنْهُمُ ... فَإِنِّيْ سَأَكْسُوْكَ الدُّمُوْعَ الجَوَاْرِيَاْ
وَمِنْ حَذَرِيْ لَا أَسْأَلُ الرَّكْبَ عَنْهُمُ ... وَأَعْلَاقُ وَجْدِيْ بَاْقِيَاْتٌ كَمَاْ هِيَاْ
وَمَنْ يَسْأَلِ الرُكْبَاْنَ عَنْ كُلِّ غَاْئِبٍ ... فَلَا بُدَّ أَنْ يَلْقَى بَشِيْـراً وَنَاْعِيَـاْ

* * *

(١) هو الشريف الرضي محمد بن الحسين بن موسى (٣٥٩ - ٤٠٦هـ) أشعر الطالبيين مولده ووفاته ببغداد له ديوان شعر ، وشعره من الطبقة الأولى رصفاً وبياناً وابداعاً . والأبيات في ديوانه ص ٩٦٨ - ٩٦٩ .

١٣٨ - فائدة

من له غرض في دقائق المعاني يتجاوز نظره قالب اللفظ إلى لب المعنى ، والواقف مع الألفاظ مقصور على الزينة اللفظية ، فتأمل قوله تعالى ﴿إِنَّ لَكَ أَنْ لَا تَجُوْعَ فِيْهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيْهَا وَلَا تَضْحَى﴾ [طه : ١١٨ - ١١٩] كيف قابل الجوع بالعري ، والظمأ بالضحى .

والواقفُ مع القالبِ ربما يخيَّلُ إليه أن الجوع يقابَلُ بالظمأ ، والعري بالضحى .

والداخل إلى بلد المعنى يرى هذا الكلام في أعلى الفصاحة والجلالة ، لأنَّ الجوع ألم الباطن والعري ألم الظاهر ، فهما متناسبان في المعنى ، وكذلك الظمأ مع الضحى لأنّ الظمأ موجب لحرارة الباطن ، والضحى موجب لحرارة الظاهر فاقتضت الآية نفي جميع الآفات ظاهراً وباطناً .

وفي هذا الباب حكاية مشهورة وهي أن ابن حمدان[1] قال يوماً

---

(١) هو علي بن عبد اللّه بن حمدان التغلبي الربعي ، أبو الحسن ، سيف الدولة الأمير ، صاحب المتنبي وممدوحه ، يقال : لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع بباب سيف الدولة من شيوخ العلم ونجوم الدهر ولد في ميافارقين (بديار بكر) سنة ٣٠٣هـ ونشأ شجاعاً مهذباً عالي الهمة ، وملك واسطاً وما جاورها، ثم مال إلى الشام فامتلك دمشق وعاد إلى حلب فملكها سنة ٣٣٣هـ وتوفي فيها سنة ٣٥٦ ودفن في ميافارقين . أخباره ووقائعه مع الروم كثيرة ، وكان كثير العطايا مقرباً لأهل الأدب يقول الشعر الجديد الرقيق وهو أول من ملك حلب من بني حمدان انظر زبدة الحلب لابن العديم ١ : ١١١ - ١٥٢ .

للمتنبي[1] قد انتقد عليك قولك :

وَقفْتَ وَمَا فِيْ المَوْتِ شَكٌّ لِوَاْقِفٍ كَأَنَّكَ فِيْ جَفْنِ الرَّدَىٰ وَهْوَ نَاْئِمُ
تَمُرُّ بِكَ الأَبْطَاْلُ كَلْمَىٰ هَزِيْمَـةً وَوَجْهُـكَ وَضَّاْحٌ وَثَغْـرُكَ بَـاْسِمُ

قالوا : ركَّبت صدر كل بيت على عجز الآخر ، وكان الأولى أن تقول :

وَقَفْتَ وَمَاْ فِيْ المَوْتِ شَكٌّ لِوَاْقِفٍ وَوَجْهُـكَ وَضَّاْحٌ وَثَغْـرُكَ بَـاْسِمُ
تَمُرُّ بِكَ الأَبْطَاْلُ كَلْمَىٰ هَزِيمَـةً كَأَنَّكَ فِيْ جَفْنِ الرَّدَىٰ وَهُوَ نَاْئِمُ

فيتم المعنى حينئذ لأنّ انبساط الوجه ووضوحَه مع الوقوف في موقف الموت أشبه بأوصاف الكماة ، والسلامة من الردى مع مـرور الأبطال كلمى هزيمة أعجب في حصول النجاة .

---

(١) هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكوفي الكندي أبو الطيب المتنبي : الشاعر الحكيم ، وأحد مفاخر الأدب العربي ، له الأمثال السائرة والحكم البالغة والمعاني المبتكرة ولد بالكوفة في محلة تسمى كندة وإليها نسبته ونشأ بالشام ثم انتقل إلى البادية يطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس وقال الشعر صبياً ثم ذهب إلى الشام ووفد على سيف الدولة سنة ٣٣٧هـ فمدحه وحظي عنده ثم انصرف إلى مصر ومدح كافور الاخشيدي وطلب أن يوليه فأبى فهجاه وفر هارباً إلى العراق فقرىء عليه ديوانه وقصد فارس حيث مدح عضد الدولة البويهي وعند عودته تعرض له فاتك بن أبي جهل الأسدي فاقتتلا فقتل أبو الطيب وابنه محسد وغلامه مفلح بالنعمانية في الجانب الغربي من سواد بغداد ا هـ ـ «الأعلام» وقد طبع ديوانه طبعات ، ولكن أجودها تلك التي حققها الدكتور عبد الوهاب عزام رحمه الله ونشر من شروح ديوانه شرح المعري وشرح ابن جني وشرح الواحدي وشرح العكبري وشرح اليازجي وشرح البرقوقي وشرح مشكل شعر المتنبي للإمام ابن سيده الأندلسي . كما كتب إمام العربية الاستاذ محمود محمد شاكر كتابه العظيم « المتنبي » استنبط فيه ترجمة المتنبي من شعره فكان كتاباً فرداً .

وهذا كما انتقد على امرىء القيس[1] قوله :

كَـأَنّيَ لَمْ أَرْكَـبْ جَـوَاْداً لِلَذَّةٍ وَلَمْ أَتَبَطَّن كَاْعِبـاً ذَاْتَ خِلْخَاْلِ
وَلَمْ أَسْبأِ الزِّقَ الرَوِيَّ وَلَمْ أَقُلْ لِخَيْلِيَ كُـرِّي كَرَّةً بَعْـدَ إِجْفَـاْلِ

فلو قال :

كَأَنِيْ لَمْ أَرْكَبْ جَوَاْداً وَلَمْ أَقُلْ لِخَيْلِيْ كُـرِّيْ كَرَّةً بَعْـدَ إِجْفَـاْلِ
وَلَمْ أَسْبَـأ الـزِّقَ الـرَوِيّ لِلذَّةٍ وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاْعِبـاً ذَاْتَ خِلْخَالِ

كان أشبه بالمعنى ، لأن ركوب الخيل أشبه بالكر على الأبطال ، وسبأُ الزق أليق بتبطن الكواعب . فقال المتنبّه«يعني قائل الشعر المدعو

---

(١) هو امرؤ القيس بن حُجر بن الحارث الكندي من بني آكل المُرار ذو القروح الملك الضليل : أشهر شعراء العرب على الإطلاق ، يماني الأصل ، مولده بنجد اشتهر بلقبه كان أبوه ملك أسد وغطفان وأمه أخت المهلهل الشاعر فلقنه المهلهل الشعر فقاله وهو غلام ، فجعل يشبب ويلهو ويعاشر صعاليك العرب فبلغ أباه فنهاه عن سيرته فلم ينته فأبعده إلى دمّون بحضرموت موطن آبائه وعشيرته وهو في نحو العشرين من عمره فأقام زهاء خمس سنين ثم جعل يتنقل مع أصحابه في أحياء العرب يشرب ويطرب ويغزو ويلهو إلى أن ثار بنو أسد على أبيه وقتلوه فبلغ ذلك امرأ القيس وهو جالس للشراب فقال : رحم الله أبي ضيعني صغيراً وحملني دمه كبيراً لا صحو اليوم ولا سكر غداً ! اليوم خمر وغداً أمر ! ونهض من غده فلم يزل حتى ثأر لأبيه من بني أسد وقال في ذلك شعراً كثيراً ، وكانت حكومة فارس ساخطة على بني آكل المرار (أبا امرىء القيس) فأوعزت إلى المنذر ملك العراق بطلب امرىء القيس فطلبه ، فابتعد ، وتفرق عنه أنصاره فطاف قبائل العرب حتى انتهى الى السموأل فأجاره فمكث عنده مدة ، ثم رأى أن يستعين بالروم على الفرس ، فقصد الحارث ابن أبي شمر الغساني والي بادية الشام فسيره هذا إلى قيصر الروم يوستينياس في القسطنطينية فوعده ومطله ثم ولاّه إمرة فلسطين ولقبه فيلارق فرحل يريدها فلما كان في انقرة ظهرت في جسمه قروح فأقام إلى أن مات في أنقرة له ديوان شعر وقف على طبعه أبو الفضل إبراهيم ونشر بدار المعارف بمصر . كما نشره من قبل حسن السندوبي .

بالمتنبي الكذاب : اعلم أن القزاز[1] أعلم بالثوب من البزاز لأن القزاز يعلم أوله وآخره والبزاز لا يرى منه إلاّ ظاهره » .

وهذا الانتقاد غيرُ صحيح فإنّي قلت : (وَقَفْتَ وَمَا فِي المَوْتِ شَكٌّ لِوَاقِفٍ) فذكرت الموت ، وتَحَقُّقَ وقوعه في صدر البيت ثم تممت المعنى بقولي : (كَأَنَّكَ فِيْ جَفْنِ الرَّدىٰ وَهُوَ نَائِمُ) والردى الموت بعينه ، فكأني قلت : وقفتَ في مواضع الموت ولم تمت ، كأن الموت نائم عنك فحصل المعنى مناسِباً للقصد .

ثم قلت : (تَمُرُّ بِكَ الأَبْطَالُ كَلْمَى هَزِيْمَةً) ومن شأن المكلوم والمنهزم أن يكونا كاشحي الوجوه عابسيها ، خائبي الأمل فقلت : (وَوَجْهُكَ وَضَاحٌ وَثَغْرُكَ بَاْسِمُ) لتحصل المطابقة بين عبوس الوجه وقطوبه ، ونضارته وشحوبه ، وإن لم تكن ظاهرة في اللفظ فهي في المعنى يفهمها من له في إدراك دقائق المعاني قدم راسخ .

وأما قول امرىء القيس (كَأَنِّي لَمْ أَرْكَبْ جَوَادَاً لِلَذَّةٍ) فإنّه لما ذكر الركوب في البيت الأول تممه بما يشبهه ويناسبه من ركوب الكواعب ليُحَصِّل لذة ركوب مُهْرِ الحربِ وركوبِ مُهْرِ اللذَّة . وأما البيت الثاني فمن شأن الشارب إذا انتشا أن تتحرك كوامن صدره ، ويثور ما في نفسه من كوامن الأخلاق إلى الخارج ، فلما ذَكَرَ الشرب وحالَه ، وتخيَّلَ نفسه كذلك فتحرك كامن خلقه من الحماسة والشجاعة فأردفه بما يليق به .

ثم ذكر الآية وتكلم عليها بنحو ما تقدم :

***

* إِذَاْ ظَفِرْتُ مِنَ الدّنْيَاْ بِقُرْبِكُمُ فَكُـلُّ ذَنْبٍ جَنَاْهُ الحُبُّ مَغْفُـوْرُ

***

---

(١) القزاز تاجر القز ، وهو الحرير .

١٣٩ ـ فصل

* من نبت جسمه على الحرام فمكاسبه كبريتٌ ، بِهِ يوقد عليه .

* الحجر المغصوب في البناء أساس الخراب .

* أتراهم نسوا طيَّ الليالي لمن تقدمهم ، وما بلغوا معشار ما آتيناهم ، فما هذا الاغترار ﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ المَثُلَاتُ ﴾ [الرعد ٦] ﴿ فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إلاّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِيْنَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ [يونس : ١٠٢] من لهم إذا طلبوا العودة ﴿ فَحِيْلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَاْ يَشْتَهُوْنَ ﴾ [سبأ : ٥٤] .

* سبحان الله كم بكت في تنعم الظالم عين أرملة، واحترقت كبد يتيم، وجرت دمعة مسكين ﴿ كُلُوْا وَتَمَتَّعُوْا قَلِيْلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ ﴾ [المرسلات : ٤٦] ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِيْنٍ ﴾ [ص : ٨٨] .

* ما ابيض لون رغيفهم حتى اسود لون ضعيفهم ، وما سمنت أجسامهم حتى انتحلت أجسام ما استأثروا عليه .

* لا تحتقر دعاء المظلوم فشرر قلبه محمول بعجيج صوته إلى سقف بيتك ، ويحك نبال أدعيته مُصِيْبَةٌ وإن تأخر الوقت ، قوسه قلبه المقروحِ ، ووتره سوادُ الليل ، وأستاذه صاحب « لأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِيْنٍ »[1] ،

وَقَدْ رَأَيتَ وَلَكِنْ لَسْتَ تَعْتَبِر .

احذر عداوة من ينام وطرفه باك يقلِّب وجهه في السماء . يرمي

---

(١) أي أي اللّه تبارك وتعالى لأنه هو القائل : « وعزتي لأنصرنَّك ولو بعد حين » رواه الترمذي رقم ٢٥٢٨ في صفة الجنة باب ما جاء في صفة الجنة ونعيمها ، ورواه أيضاً أحمد في « المسند » ٢/ ٣٠٥ و ٤٤٥ ، وابن ماجة رقم ١٧٥٢ في الصيام باب في الصائم لا ترد دعوته وابن حبان رقم (٨٩٤) موارد وإسناده ضعيف .

سهاماً مالها غرض سوى الأحشاء منك .

* فربما ولعل إذا كانت راحة اللذة تثمر ثمر العقوبة لم يحسن تناولها . ما تساوي لذة سنة غم ساعة فكيف والأمر بالعكس .

* كم في يم الغرور من تمساح فاحذر يا غائص !! .

* ستعلم أيها الغريم قصتك عند تعلق الغرماء بك :

إِذَا الْتقى كُـلُّ ذِيْ دَيْنٍ وَمَـاْطِلِهُ
سَتَعْـلَمُ لَيْـلَى أَيَّ دَيْنٍ تَـدَايَـنَتْ

من لم يَتَتَبَّعْ بمنكاش العدل شوكَ الظلم من أيدي التصرف أَثَّرَ ما لا يؤمَنُ تعديه إلى القلب .

* يا أرباب الدول لا تعربدوا في سُكْرِ القدرة ، فصاحب الشرطة بالمرصاد .

* سليمان الحكيم قد حبس عاصف العقوبة في حصن ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَاْ نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً ﴾ [مريم : ٨٤] وأجرى رحا الرخاءِ ﴿لِئَلَّا يَكُوْنَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ اللّهِ حُجَةٌ ﴾ [النساء : ١٦٥] فلو هبت سموم الجزاء من مهب ﴿ وَلَئِنْ مَسَتْهُمْ نَفْحَةٌ ﴾ [الأنبياء : ٤٦] قلعت سُكْرَ ﴿ إِنَّمَا نُمْلِيْ لَهُمْ ﴾ [آل عمران : ١٧٨] فإذا طوفان التلف ينادي فيهم ﴿ لَا

= وقال الترمذي : هذا حديث ليس إسناده بذاك القوي ، وليس هو عندي بمتصل وقد روى هذا الحديث بإسناد آخر عن أبي هريرة .

أقول ـ القائل هو الشيخ الفاضل عبد القادر الارنؤوط ـ ولفقراته شواهد فهو حسن بشواهده انظر « جامع الأصول » رقم (٨٠٢٨) و (٨٤٧٤) . وقال الألباني : ضعيف انظر « ضعيف الجامع » رقم (٢٥٩١) .

عَاْصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [هود : ٤٣] فالحذر أن تقول نفس ﴿ يَاْ حَسْرَتَاْ عَلَىٰ مَاْ فَرَّطْتُ فِيْ جَنْبِ اللَّهِ ﴾ [الزمر : ٥٦] وأنت أيها المظلوم فتذكر من أين أُتيت فإنَّكَ لا تلقى كدراً إلا من طريق جناية ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَاْ بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوْا مَاْ بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد : ١١] ﴿ وَمَاْ أَصَاْبَكُمْ مِنْ مُصِيْبَةٍ فَبِمَاْ كَسَبَتْ أَيْدِيْكُمْ ﴾ [الشورى : ٣٠] .

* كان لبَّانٌ يشوب الماء باللبن ، فجاء سيل فذهب بالغنم فجعل يبكي فهتف به هاتف : اجتمعت تلك القطرات فصارت سيلاً ولسان الجزاء يناديه : « يَدَاْكَ أَوْكَتَاْ وَفُوْكَ نَفَخَ »[١] .

* اذكر غفلتك عن الأمر والآمر وقت الكسب ، ولا تنس اطراح التقوى عند معاملة الخلق[٢] فإذا انقض عضبه[٣] ، فسمعت صوت سوطه يضرب عقدَ المكسب ، جزاء لخيانة العقود ، فلا تستعظم ذاك ، فأنت الجاني والبادىء أظلم .

* * *

١٤٠ ـ فَصل

قال شيخ الإسلام بحر العلوم مفتي الفرَق أبو العباس أحمد بن تيمية رحمه الله :

قال اللّه تعالى : ﴿ آلم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا أَمَّنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللّٰهُ الَّذِينَ صَدَقُوا ،

---

(١) انظر « مجمع الأمثال » رقم ٤٦٥٥ ، والمثل يضرب لمن يجني على نفسه .
(٢) أي تذكر حالك فيما سلف عندما كنت تطرح التقوى جانباً وتظلم العباد .
(٣) في الأصل : غاصب ولم يظهر لي معناه .

وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَاذِبِينَ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ، مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللّهِ لآتٍ ، وَهُوَ السَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ، إِنَّ اللّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ * وَالَّـذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً ، وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطْعِمْهُمَا ، إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَـأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ * وَمِـنَ النَّاسِ مَـنْ يَقُولُ آمَنَّا بِٱللّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللّهِ ، وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ، أَوَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَالَمِينَ . وَلَيَعْلَمَنَّ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ [العنكبوت : ١ - ١١] .

وقال اللّه تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، مَسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ ، أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ٢١٤] .

وقال اللّه تعالى لما ذكر المرتدّ والمكره بقوله : ﴿ مَنْ كَفَرَ بِٱللّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ ﴾ [النحل : ١٠٦] ، قال بعد ذلك : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ، ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا ، إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النحل : ١١٠] .

فالناس إذا أرسل إليهم الرسل بين أمرين : إما أن يقول أحدهم آمنّا وإما أن لا يقول آمنّا ، بل يستمر على عمل السيئات . فمن قال آمنا امتحنه الرب عز وجل ، وابتلاه ، وألبسه الابتلاء والاختبار ليبين الصادق

من الكاذب ، ومَن لم يقل آمنا فلا يحسب أنه يسبق الرب لتجربته ، فإن أحداً لن يعجز اللّه تعالى ، هذه سنته تعالى يُرسلُ الرسل إلى الخلق ، فيكذبهم الناس ويؤذونهم ، قال تعالى : ﴿ وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾ [الأنعام : ١١٢] ، وقال تعالى : ﴿ كَذٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ [الذاريات : ٥٢] ، وقال تعالى : ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ [فصلت : ٤٣] . ومَن آمن بالرسل وأطاعهم عادَوْه وَآذَوْهُ فابتُلِيَ بما يؤلمه ، وإن لم يؤمن بهم عوقب فحصل له ما يؤلمه أعظم وأدوم ، فلا بدَّ من حصول الألم لكل نفس سواء آمنت أم كفرت ، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداءً ، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة ، والكافر تحصل له النعمة ابتداءً ثم يصير في الألم .

سأل رجلٌ الشافعي[١] فقال : يا أبا عبد الله ، أيما أفضل للرجل

---

(١) هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع القرشي المطلبي ، أبو عبد الله ، أحد الأئمة الأربعة ، ولد في غزة سنة ١٥٠هـ ، وحمل منها إلى مكة ابن سنتين ، وزار بغداد مرتين . قال فيه الإمام أحمد : ما أحد ممن بيده محبرة أو ورق إلا وللشافعي في رقبته منة .

وكان من أحذق قريش بالرمي ، برع في ذلك كما برع في اللغة والشعر وأيام العرب ، ثم أقبل على الفقه والحديث ، وأفتى وهو ابن عشرين سنة .

قال الجاحظ : « نظرت في كلام هؤلاء النبغة فلم أر أحسن كلاماً من المطلبي كأن لسانه ينثر الدر »

روى عن مالك وابراهيم بن سعد وابن عيينة ومحمد بن علي بن شافع وخلق . وعنه أبو بكر الحميدي وأحمد بن حنبل والبويطي وأبو ثور وحرملة وطائفة .

له تصانيف كثيرة أشهرها « كتاب الأم » و« الرسالة » و« جماع العلم » و« اختلاف الحديث » و« المسند » في الحديث و« السبق والرمي » و« فضائل قريش » ـ توفي رحمه الله تعالى سنة ٢٠٥ في آخر يوم من رجب في مصر .

أن يمكَّن أو يُبتلى ؟ فقال الشافعي : لا يُمكَّن حتى يُبتلى ، فإن اللّه ابتلى نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فلما صبروا مكَّنهم ، فلا يظن أحد أن يخلص من الألم البتة .

وهذا أصل عظيم فينبغي للعاقل أن يعرفه ، وهذا يحصل لكل أحد فإن الإنسان مدني بالطبع لا بدَّ له من أن يعيش مع الناس ، والناس لهم إرادات وتصوُّرات يطلبون منه أن يوافقهم عليها ، وإن لم يوافقهم آذوه وعذَّبوه ، وإنْ وافقهم حصل له الأذى والعذابُ تارة منهم ، وتارة من غيرهم ، وَمَن اختبر أحواله وأحوال الناس وجد من هذا شيئاً كثيراً ، كقوم يريدون الفواحش والظلم ، ولهم أقوالٌ باطلة في الدين أو شركٌ ، فهم مرتكبون بعض ما ذكره اللّه من المحرَّمات في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ، وَأَنْ تُشْرِكُوا بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً ، وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٣] ، وهم في مكان مشترك كدار جامعة ، أو خان ، أو قيسرية ، أو مدرسة ، أو رباط ، أو قرية أو درب ، أو مدينة فيها غيرهم ، وهم لا يتمكنون مما يريدون إلا بموافقة أولئك ، أو بسكوتهم عن الإنكار عليهم ، فيطلبون من أولئك الموافقة أو السكوت، فإن وافقوهم أو سكتوا سلموا من شرِّهم في الابتلاء ، ثم قد يتسلطون هم أنفسهم على أولئك يهينونهم ويعاقبونهم أضعاف ما كان أولئك يخافونه ابتداء ، كمن يطلب منه شهادة الزور ، أو الكلام في الدين بالباطل ، إما في الخبر وإما في الأمر أو المعاونة على الفاحشة والظلم ، فإن لم يجبهم آذوه وعادوه ، وإن أجابهم فهم أنفسهم يتسلطون عليه ، فيهينونه أضعاف ما كان يخافه ، وإلا عذّب بغيرهم .

فالواجب ما في حديث عائشة[1] الذي بَعَثَتْ به إلى معاوية ، ويروى موقوفاً ومرفوعاً : « مَنْ أَرْضَىٰ اللَّهَ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ »[2] ، وفي لفظ « رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَىٰ عَنْهُ النَّاسَ ، وَمَنْ أَرْضَىٰ النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ لَمْ يُغْنُوا عَنْهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً » ، وفي لفظ « عَادَ حَامِدُهُ مِنَ النَّاسِ ذَامّاً » .

وهذا يجري فيمن يُعِينُ الملوكَ والرؤساء على أغراضهم الفاسدة ، وفيمن يعينُ أهلَ البِدَعِ المنتسبين إلى العلم والدين على بِدَعِهِم . فمَن هَدَاهُ اللَّهُ وأرشده امتنع من فعل المحرَّم وَصَبَرَ على أذاهم وعداوتهم ، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة كما جرى للرُّسُلِ وأتباعهم مع مَن آذاهم وعاداهم ، مثل المهاجرين في هذه الأمة وَمَن ابتلي من علمائها وعبّادها وتجّارها ووُلاتها .

وقد يجوز في بعض الأمور إظهار الموافقة وإبطان المخالفة كالمُكْرَه على الكفر ، كما هو مبسوط في غير هذا الموضع ، إذ المقصود هنا : أنه لا بد من الابتلاء بما يؤذي الناس ، فلا خلاص لأحد مما يؤذيه البتة ، ولهذا ذكرَ اللَّهُ تعالى في غير موضع أنه لا بد أن يُبتلى الناس ،

---

(١) هي أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق ، تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم بمكة في شوال سنة عشر من النبوة ، ولها ست سنين ، وقيل غير ذلك ، وأعرس بها بالمدينة سنة اثنتين من الهجرة ، ولها تسع سنين ، ومات صلى الله عليه وسلم عنها ولها ثماني عشرة سنة ، كانت فقيهة عالمة كثيرة الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عارفة بأيام العرب وأشعارها . ماتت بالمدينة سنة سبع وخمسين ودفنت بالبقيع .

(٢) رواه الترمذي رقم (٢٤١٦) في الزهد : باب رقم ٦٥ بلفظ : « من التمس رضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس ، ومن التمس رضى الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس » ، وهو حديث صحيح .

والابتلاء يكون بالسَّرَّاء والضرَّاء ، ولا بد أن يبتلى الإنسان بما يسرُّه وما يسوؤه ، فهو محتاج إلى أن يكون صابراً شكوراً ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الكهف : ٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ بِٱلْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف : ١٦٨] ، وقال تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه : ١٢٤] ، وقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ هذا في آل عمران [١٤٢] وقد قال قبل ذلك في البقرة [٢١٤] فإن البقرة نزل أكثرها قبل آل عمران : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ وذلك أن النفس لا تزكو وتصلُحُ حتى تُمَحَّصَ بالبلاء ، كالذهب الذي لا يخلُصُ جيِّده من رديئه حتى يفتن في كير الامتحان إذ كانت النفس جاهلة ظالمة وهي منشأ كل شرّ يحصل للعبد ، فلا يحصل له شرّ إلا منها ، قال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ [النساء : ٧٩] ، وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هذَا ، قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٦٥] ، وقال : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : ٣٠] ، وقال تعالى : ﴿ ذٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال : ٥٣] ، ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴾ [الرعد : ١١] .

وقد ذكر عقوبات الأمم من آدم إلى آخر وقت ، وفي كل ذلك يقول إنهم ظلموا أنفسهم فهم الظالمون لا المظلومون ، وأول مَن اعترف بذلك أبَواهم ، قالا : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٣] ، وقال لإبليس : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : ٨٥] ، وإبليس إنما اتَّبعه الغواةُ منهم كما قال : ﴿ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ۞ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر : ٣٩ ـ ٤٠] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [الحجر : ٤٢] ، والغيُّ اتِّباعُ هوى النفس ، وما زال السلف معترفين بذلك كقول أبي بكر[١] وعمر وابن مسعود : أقول فيها برأيي فإنْ يكن صواباً فمن الله ، وإنْ يكن خطأً فمني ومن الشيطان ، والله ورسولُهُ بريئان منه .

---

(١) هو خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أبو بكر عبد الله بن عثمان بن أبي قحافة ابن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر ابن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن نضر بن نزار بن معد بن عدنان . وقيل : كان اسم أبي بكر عبد رب الكعبة ، فسماه النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله ، وإنما سمي عتيقاً لأنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من أراد أن ينظر إلى عتيق من الناس فلينظر إلى أبي بكر » وقيل : اسم سمته به أمه ، وقيل : بل سمي به لجمال وجهه .

وأمه أم الخير سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد ، وماتت هي وأبوه مسلمين ، شهد مع النبي صلى الله عليه وسلم المشاهد كلها ، ولم يفارقه في الجاهلية ، وهو أول الرجال إسلاماً ، وأسلم على يده عثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف ، وكان أبيض نحيفاً ، خفيف العارضين ، معروق الوجه ، غائر الجبين ، ناتىء الجبهة ، عاري الأشاجع ، يخضب بالحناء والكتم ، له ولأبويه وولده وولد ولده صحبة ، ولم يجتمع هذا لأحد من الصحابة .

تولى الخلافة يوم الثلاثاء لثلاث عشرة خلت من ربيع الأول سنة إحدى عشرة ، =

وفي الحديث الإلهي حديث أبي ذَرّ[1] الذي يرويه الرسولُ عن ربه عز وجل : «يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمَن وجد خيراً فليحمد اللّه وَمَن وجد غير ذلك فلا يلومَنَّ إلا نفسه »[2] .

= وهو ثاني يوم مات فيه النبي صلى الله عليه وسلم كان مولده بمكة بعد الفيل بسنتين وأربعة أشهر إلا أياماً . ومات بالمدينة ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة بين المغرب والعشاء ، وله من العمر ثلاث وستون سنة ، وقيل : خمس وستون ، والأول أصح .

وأوصى أن تغسله زوجته أسماء بنت عميس ، فغسلته . وصلى عليه عمر بن الخطاب ، ودفن في الحجرة إلى جانب النبي صلى الله عليه وسلم .

وقيل : إنه اغتسل في يوم بارد ، فحُـمَّ خمسة عشرة يوماً ومات ، وقيل في سبب موته غير ذلك . وكانت خلافته سنتين وأربعة أشهر يلقى آباء النبي صلى الله عليه وسلم في مرة بن كعب .

روى عنه عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن عباس ، وابن عمر ، وابن عمرو ، وأنس بن مالك ، وأبو هريرة ، والبراء بن عازب ، وزيد بن ثابت ، وعائشة ، وقيس بن أبي حازم ، وغير هؤلاء من الصحابة والتابعين .

ولم يرو عنه من الحديث إلا القـليل ، لقلة مدته بعد النبي صلى الله عليه وسلم .

(١) هو أبو ذر جندب بن جنادة ، ويقال : جندب بن السكن بن كعب بن سفيان بن عبيد بن حرام ، ويقال : عبيد بن الوقيعة بن حرام بن غفار ، الغفاري ، وفي نسبه واسمه اختلاف كثير ، والأشهر ما ذكرناه .

وهو من أعلام الصحابة ، وزهادهم ، والمهاجرين . وهو أول من حييَّ النبي صلى الله عليه وسلم بتحية الاسلام ، وأسلم قديماً بمكة ، ويقال : كان خامساً في الإسلام ، انصرف إلى قومه ، فأقام عندهم إلى أن قدم المدينة على النبي صلى الله عليه وسلم ، بعد الخندق ثم سكن الربذة إلى ان مات سنة اثنين وثلاثين في خلافة عثمان ، وصلى عليه ابن مسعود ، ويقال : إن ابن مسعود ، مات بعده بعشرة أيام ، وكان أبو ذر يتعبد قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم .

روى عنه ابن عباس ، وأنس بن مالك ، وعبادة بن الصامت ، وزيد بن وهب ، وأبو إدريس الخولاني ، وقيس بن أبي حازم ، وخلق سواهم كثير .

(٢) رواه مسلم رقم (٢٥٧٧) في البر والصلة : باب تحريم الظلم ، وأحمد في =

وفي الحديث الصحيح ، حديث « سيد الاستغفار ، أن يقول العبد : اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتَ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتَ ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ بِذَنْبِي ، فَاغْفِرْ لِي إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ . مَنْ قَالَهَا إِذَا أَصْبَحَ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ قَالَهَا إِذَا أَمْسَى مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ لَيْلَتِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ »[1] .

= « المسند » ٥/ ١٥٤ و١٦٠ و١٧٧ ، والترمذي رقم (٢٤٩٧) في صفة الجنة : باب رقم ٤٩ ، وابن ماجه رقم (٤٢٥٧) في الزهد : باب ذكر التوبة . ولفظه : عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال : « يا عبادي ، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظلموا ، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم ، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم ، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله عز وجل ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه » .

وهذا الحديث أصل عظيم من أصول الإسلام ، وقد اشتمل على قواعد عظيمة في أصول الدين ، وقد شرحه العلماء ، وأفردوه بالتأليف ، منهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى . وهو من منشورات مكتبة دار البيان بدمشق .

(١) رواه البخاري ١١/ ٨٣ و١١١ في الدعوات : باب أفضل الاستغفار ، وباب ما يقول إذا أصبح ، والترمذي رقم (٣٣٩٠) في الدعوات : باب رقم ١٥ ، والنسائي ٨/ ٢٧٩ في الاستعاذة : باب الاستعاذة من شر ما صنع ، من حديث شداد بن أوس الأنصاري رضي الله عنه ، وليس له في « صحيح البخاري » سوى هذا الحديث . =

وفي حديث أبي بكر الصدِّيق من طريق أبي هريرة وعبد اللّه بن عمرو[1] : « أن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم عَلّمه ما يقوله إذا أصبح ، وإذا أمسى ، وإذا أخذ مضجعه : اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْض ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ ، وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَىٰ نَفْسِي سُوءاً أَوْ أَجُرَّهُ إِلَىٰ مُسْلِمٍ ، قُلْهُ إِذَا أَصْبَحْتَ وَإِذَا أَمْسَيْتَ وإِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ »[2] .

= وفي الباب عن أبي هريرة وابن عمر وابن مسعود وابن أبزي وبريدة رضي الله عنهم .

(١) هو عبد الله بن عمرو بن العاص ، أبو عبد الرحمن ، وقيل : أبو محمد عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سعد ، بن سهم بن عمرو بن هيصص ابن كعب بن لؤي ، السهمي القرشي .

أسلم قبل أبيه ، وكان أبوه أكبر منه بثلاث عشرة سنة ، وقيل : باثنتي عشرة سنة .

وكان عابداً عالماً حافظاً ، قرأ الكتب ، واستأذن النبي صلى الله عليه وسلم في أن يكتب حديثه ، فأذن له .

وقد اختلف في وفاته ، فقيل : مات ليالي الحرة ، في ذي الحجة سنة ثلاث وستين ، وقيل : سنة ثلاث وسبعين ، وقيل : مات بفلسطين سنة خمس وستين ، وقيل : مات بمكة سنة سبع وستين ، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة ، وقيل : مات بالطائف سنة خمس وخمسين ، وقيل : مات بمصر سنة خمس وستين .

روى عنه مسروق ، وسعيد بن المسيب ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن ، وعروة بن الزبير ، وحميد بن عبد الرحمن ، وخلق كثير سواهم .

(٢) رواه الترمذي رقم (٣٣٨٩) في الدعوات : باب رقم ١٤ وأبو داود رقم (٥٠٦٧) في الأدب : باب ما يقول : إذا أصبح ، والحاكم ١/ ٥١٣ وصححه ووافقه الذهبي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، ورواه أيضاً أحمد في « المسند » ٢/ ١٩٦ والترمذي رقم (٣٥٢٦) في الدعوات : باب رقم ١٠١ من حديث عبد الله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنهما ، وهو حديث صحيح .

ورواه أيضاً أحمد ١/ ١٤ من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وأبو داود رقم (٥٠٨٣) من حديث أبي مالك الأشعري .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في خطبته : « الْحَمْدُ للّه نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورَ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا »[1] . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنِّي آخُذُ بِحُجْزِكُمْ ، عَنِ النَّارِ وَأَنْتُمْ تَتَهَافَتُونَ تَهَافُتَ الفَرَاشِ »[2] ، شبّههم بالفراش لجهله وخفة حركته ، وهي صغيرة النفس ، فإنها جاهلة سريعة الحركة .

وفي الحديث : « مَثَلُ القَلْبِ مَثَلُ رِيشَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضِ فَلَاةٍ »[3] .

---

(١) رواه أبو داود رقم (٢١١٨) في النكاح : باب في خطبة النكاح ، والترمذي رقم (١١٠٥) في النكاح : باب ما جاء في خطبة النكاح ، والنسائي ٣/ ١٠٥ في الجمعة : باب كيف الخطبة ، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وهو حديث صحيح بطرقه .

وأوله : « علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة الحاجة : إن الحمد لله ، نستعينه ونستغفره ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة . . . ﴾ . . . » الحديث .

(٢) رواه البخاري ٧/ ٢٧٤ في الأنبياء : باب قوله تعالى : ﴿ ووهبنا لداود سليمان ﴾ ، وفي الرقاق : باب الانتهاء عن المعاصي ،ومسلم رقم (٢٢٨٤)في الفضائل : باب شفقته صلى الله عليه وسلم على أمته ، والترمذي رقم (٢٨٧٧) في الأمثال : باب رقم ٧ ، وأحمد في « المسند » ٢/ ٢٤٤ و٣١٢ و٥٤٠ ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

ولفظه بتمامه : « إنما مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد ناراً ، فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه ، فأنا آخذ بحجزكم ، وأنتم تقحمون فيه» . وفي لفظ « مثلي كمثل رجل استوقد ناراً . . . » الحديث .

(٣) رواه أحمد في « المسند » ٤/ ٤٠٨ و٤١٩ باسنادين صحيحين ، رواه ابن ماجه رقم (٨٨) في المقدمة : باب في القدر ، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه . ورواه أيضاً من حديث أنس رضي الله عنه البيهقي وابن النجار . قال المناوي قال الحافظ العراقي : وسنده حسن وقال الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٧٠٩) : صحيح .

وفي حديث آخر : « لَلْقَلْبُ أَشَدُّ تَقَلُّباً مِنَ القِدْرِ إذَا اسْتَجْمَعَتْ غَلَيَاناً »(١) .

ومعلومٌ سرعة حركة الريشة والقِدْر مع الجهل ، ولهذا يقال لمن أطاع مَنْ يُغْوِيه : إنه استخفّه . قال عن فرعون : إنه ﴿ اسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴾ [الزخرف: ٥٤] . وقال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ ﴾ [الروم: ٦٠]. فإن الخفيف لا يثبت بل يطيش ، وصاحب اليقين ثابت ، يقال : أيقن إذا كان مستقراً ، واليقين : استقرار الإيمان في القلب عِلماً وعملاً ، فقد يكون عِلمُ العبد جيداً لكن نفسه لا تصبر عند المصائب بل تطيش .

قال الحسن البصري(٢) : إذا شئتَ أن ترى بصيراً لا صبر له رأيتَه ، وإذا شئت أن ترى صابراً لا بصيرة له رأيته ، فإذا رأيت بصيراً صابراً فذاك . قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا

---

(١) رواه أحمد في « المسند » ٦/ ٢٤ وأبو نعيم في « الحلية » ، والحاكم وغيرهم ، من حديث المقداد بن الأسود ، واسناده ضعيف .

(٢) هو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن ، واسم أبي الحسن : يسار ، البصري من سبي ميسان ، مولى زيد بن ثابت ولد لسنتين من خلافة عمر بن الخطاب ، وقدم البصرة بعد مقتل عثمان ، ورأى عثمان ، وقيل : إنه لقي علياً بالمدينة ، وأما بالبصرة فإن رؤيته إياه لم تصح ، لأنه كان في وادي القرى متوجهاً نحو البصرة حين قدم علي بن أبي طالب البصرة ، ويقال : لقي طلحة وعائشة ، ولم يصح له منهما سماع ، وروى عن غيرهما من الصحابة ، مثل أبي بكرة الثقفي ، وأنس بن مالك وسمرة بن جندب .
روى عنه خلق كثير من التابعين وتابعيهم ، وهو إمام وقته في كل فن وعلم وزهد وورع وعبادة .
مات في رجب سنة عشر ومائة .
ولان الجوزي من المتقدمين مصنف في ترجمته ومثله للدكتور : إحسان عباس من المعاصرين .

صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ٢٤] ، ولهذا تشبّه النفس بالنار في سرعة حركتها وإفسادها وغضبها ، وشهوتُها من النار والشيطانُ من النار .

وفي « السنن » عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الغَضَبُ مِنَ الشَّيْطَانِ والشَّيْطَانُ مِنَ النَّارِ ، وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالْمَاءِ ، فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ »(١) .

وفي الحديث الآخر : « الغَضَبُ جَمْرَةٌ تُوقَد فِي جَوْفِ ابْنِ آدَمَ ، أَلَا تَرَى إِلَىٰ حُمَرَةِ عَيْنَيْهِ وَانْتِفَاخِ أَوْدَاجِهِ »(٢) وهو غليان دم القلب لطلب

---

(١) رواه أبو داود رقم (٤٧٨٤) في الأدب : باب ما يقال عند الغضب ، وأحمد في « المسند » ٤/ ٢٢٦ ، من حديث عروة بن محمد بن عطية السعدي ، عن أبيه عن جده عطية السعدي ، وهو حديث حسن . أوله « إِنَّ الغَضَبَ . . . » .

(٢) روى الإمام أحمد في « المسند » ٣/ ١٩ و٦١ والترمذي رقم (٢١٩٢) في الفتن : باب ما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم به بما هو كائن إلى يوم القيامة من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ما لفظه : « صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً صلاة العصر بنهار ، ثم قام خطيباً ، فلم يدع شيئاً يكون إلى قيام الساعة إلا أخبرنا به ، حفظه من حفظه ، ونسيه من نسيه ، وكان فيما قال : « إن الدنيا خضرة حلوة ، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ؟ الا فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ، وكان فيما قال : ألا لا تمنعن رجلاً هيبةُ الناس أن يقول بحق إذا علمه ، قال : فبكى أبو سعيد ـ وقال : قد والله رأينا أشياء فهبنا ـ وكان فيما قال : ألا إنه ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته ، ولا غدرة أعظم من غدرة إمام عامة ، يركز لواؤه عند أسته . وكان فيما حفظنا يومئذ : ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات شتى ، فمنهم من يولد مؤمناً ، ويحيى مؤمناً ، ويموت مؤمناً ، ومنهم من يولد مؤمناً ويحيى مؤمناً ويموت كافراً ، ومنهم من يولد كافراً ويحيى كافراً ويموت مؤمناً ، ومنهم من يولد كافراً ويحيى كافراً ويموت كافراً . ألا وإن منهم البطىء الغضب سريع الفيء ، والسريع الغضب سريع الفيء ، البطيء الغضب سريع الفيء ، فتلك بتلك ، ألا وإن منهم بطيء الفيء سريع الغضب ، ألا وخيرهم بطيء الغضب سريع الفيء ، وشرهم سريع الغضب بطيء الفيء ، ألا وإن منهم حسن القضاء حسن الطلب ، ومنهم سيء القضاء =

الانتقام . وفي الحديث المتفق على صحّتِهِ : « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ »[1] .

وفي « الصحيحين »[2] : أنَّ رَجُلَيْنِ استبّا عند النبي صلى الله عليه وسلم وقد اشتدّ غضب أحدهما ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

حسن الطلب ، ومنهم سيء الطلب حسن القضاء ، فتلك بتلك ، ألا وإن منهم سيء القضاء سيء الطلب ، ألا وخيرهم الحسن القضاء الحسن الطلب ، وشرهم سيء القضاء سيء الطلب ، ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم ، أما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه ؟ فمن أحس بشيء من ذلك فليلصق بالأرض . قال : وجعلنا نلتفت إلى الشمس ، هل بقي من النهار شيء ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه » .

وفي سنده علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف ، ومع ذلك فقد قال الترمذي : هذا حديث حسن . أقول ، ولبعض فقراته شواهد .

(١) رواه البخاري ٤/ ٢٤٠ في الاعتكاف : باب هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد ، وفي أبواب وكتب عدة ، ومسلم رقم (٢١٧٥) في السلام : باب بيان أن يستحب لمن رئي خالياً بامرأة أن يقول : هذه فلانة ، وأبو داود رقم (٢٤٧٠) في الصيام : باب المعتكف يدخل البيت لحاجته ، وأحمد في « المسند » ٦/ ٣٣٧ ، من حديث علي بن الحسين رضي الله عنهما ، ولفظه أن صفية زوج النبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنها قالت : كان النبي صلى الله عليه وسلم معتكفاً فأتيته أزوره ليلاً فحدثته ، ثم قمت لأنقلب ، فقام معي ليقلبني ، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد ، فمر رجلان من الأنصار ، فلما رأيا النبي صلى الله عليه وسلم أسرعا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « على رسلكما ، إنها صفية بنت حيي ، فقالا : سبحان الله ، فقال : إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شراً » أو قال : شيئاً .

(٢) رواه البخاري ١٠/ ٤٣١ في الأدب : باب الحذر من الغضب ، وباب ما ينهى من السباب واللعن ، وفي بدء الخلق : باب صفة إبليس وجنوده ، ومسلم رقم (٢٦١٠) في البر والصلة : باب فضل من يملك نفسه عند الغضب ، وأبو داود رقم (٤٧٨١) في الأدب ، باب ما يقال عند الغضب ، والترمذي رقم (٣٤٤٨) في الدعوات : باب ما يقول عند الغضب ، من حديث سليمان بن صرد رضي الله عنه .

« إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ ، لَوْ قَالَ : أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » ، وقد قال تعالى : ﴿ إِدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۞ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ، وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۞ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيْعُ ٱلْعَلِيْمُ ﴾ [فصلت : ٣٤ - ٣٦] ، وقال تعالى : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَاهِلِيْنَ ۞ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : ١٩٩ - ٢٠٠] ، وقال تعالى : ﴿ إِدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ، نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ۞ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ۞ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩٦ - ٩٨] .

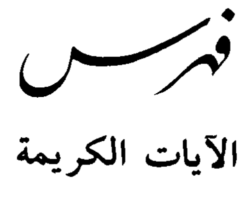
* * *

تم الكتاب والحمد للَّه أولاً وآخراً ، وصلى اللَّه
على رسولنا محمد النبي الأميّ وعلى آله
وصحبه وتابعيه والمقتدين بآثارهم
إلى يوم الدين. وآخر دعوانا
أن الحمد للَّه رب
العالمين .



الفهارس





الآيات الكريمة

الآية	الرقم	السورة	الصفحة
﴿الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم﴾	١ ـ ٦	الفاتحة	٤٠
﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾	٦	الفاتحة	٢٤١
﴿آلم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾	١ ـ ٢	البقرة	٢٣٦
﴿أولئك على هدى من ربهم﴾	٥	البقرة	٢٤٠
﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت﴾	١٧	البقرة	٥٥
﴿أو كصيب من السماء﴾	١٩	البقرة	٥٥
﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا﴾	٢٣	البقرة	٤٥
﴿يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً﴾	٢٦ ـ ٢٧	البقرة	٢٣٨
﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾	٣٠	البقرة	٧١ و١١٩ و٣٦٦
﴿ونحن نسبح بحمدك﴾	٣٠	البقرة	٣٩١
﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾	٣٠	البقرة	٢٩١
﴿وعلم آدم﴾	٣١	البقرة	٧٢
﴿اسجدوا﴾	٣٤	البقرة	٧١ و٣٥٧
﴿اسكن﴾	٣٥	البقرة	٧١
﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾	٣٥	البقرة	٣٧٢
﴿فأزلهما الشيطان﴾	٣٦	البقرة	٣٦٦
﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه﴾	٣٧	البقرة	١٢٣
﴿اهبطوا منها﴾	٣٨	البقرة	٣٦٦

الآية	الرقم	السورة	الصفحة
﴿وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم﴾	٨٨	البقرة	٢٣٩
﴿ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم﴾	١٢٠	البقرة	١٩٢
﴿فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾	١٥٢	البقرة	٢٣٣
﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة﴾	١٥٧	البقرة	٢٤٠
﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل . . .﴾	١٦٤	البقرة	٤١
﴿فأحيا به الأرض بعد موتها﴾	١٦٤	البقرة	١٨
﴿يريد الله بكم اليسر﴾	١٨٥	البقرة	٢٩٦
﴿ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾	١٩٠	البقرة	٢١٨
﴿والحرمات قصاص﴾	١٩٤	البقرة	١١٣
﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل﴾	٢١٤	البقرة	٤٠٦و٤١٠
﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم﴾	٢١٦	البقرة	١٧٢
﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾	٢١٦	البقرة	٧٢و٢٤٦
﴿وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه﴾	٢٢٣	البقرة	١٥٠و٣٥٩
﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾	٢٢٥	البقرة	٢٢٤
﴿فإنه آثم قلبه﴾	٢٨٣	البقرة	٢٢٤
﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾	٢٨٤	البقرة	٢٢٤
﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا﴾	٨	آل عمران	٢٤٠
﴿زين للناس حُبُّ الشهوات من النساء والبنين﴾	١٤ ـ ١٥	آل عمران	١٧٩
﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة﴾	١٨	آل عمران	١٥٥
﴿ويحذركم الله نفسه﴾	٢٨ و٣٠	آل عمران	٣٩٧
﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم﴾	٦١	آل عمران	١٩٢
﴿والله يحب المحسنين﴾	١٣٤	آل عمران	٢١٨
﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله . . .﴾	١٤٢	آل عمران	٤١٠
﴿أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها﴾	١٦٥	آل عمران	١٦٨
﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً﴾	١٦٩	آل عمران	١٦٨
﴿إنما نملي لهم﴾	١٧٨	آل عمران	٤٠٤
﴿إنَّ في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار﴾	١٩٠	آل عمران	٤٢
﴿وإذا حضر القسمة أولو القربى﴾	٨	النساء	٣٩١
﴿وإنْ كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله﴾	١٩	النساء	١٧٢
﴿إنَّ الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً﴾	٣٦	النساء	٢١٨



الأحاديث النبوية

الحديث **الصفحة**

الحديث	الصفحة
ما أصاب عبداً هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك	٤٤
ما فعل كعب بن مالك	٣٧٥
ما الدنيا في الآخرة إلا كما يدخل أحدكم أصبعه في اليم	١٧٨
ما لا عين رأت	٧٨
ما لي وللدنيا إنما أنا كراكب قال في ظل شجرة ثم راح وتركها	١٧٨
ما نفعني مال ما نفعني مال أبي بكر	١٣٨
مثل القلب مثل ريشة ملقاة بأرض فلاة	٤١٥
من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس	٤٠٩
من التمس رضي الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس	٤٠٩
من كان يعبد شيئاً فلينصفه	٣٩٥
من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة	١٠١
المنبت الذي لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى	٢٥٢
هذا أوردني الموارد	٣٨٥
هل لك من مالٍ؟ من أي المال	٣٢٤
هل من سائل	٣٦٢
واعلموا أنه خير أعمالكم الصلاة	٢١٧
والله أني لأحبك فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة	٢٣٤
والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن من قضاء إلا كان خيراً له	١٧٦
وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً	٢٣٢
ورجل قال : لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنية	٢٢٥
ولخلوف فم الصائم	١٢١
ولدت من نكاح لا من سفاح	٣٨٦
وما يدريك أنَّ الله اطلع على أهل بدر فقال:	٣٣
ولا أحد أصبر على أذى يسمعه منه	٣١
لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك	٣٠١
لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم	٩٥
لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا	٢٥٥
لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل	٣٠٣
لا تكونوا إمعة تقولون : إن أحسن الناس أحسنا	٢٢٦
لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته	٢٥١

* * *

فهرس الأعلام

ملاحظة : النجمة(*) مع الرقم تدل على الصفحة التي عرف بها العلم .

* * *

فهرس الأمم والقبائل والأرهاط والعشائر

* * *

فهرس الملل والنحل

* * *

فهرس الكتب

* * *

فهرس الأماكن

* * *

الأيام والغزوات

* * *

فهرس الموضوعات